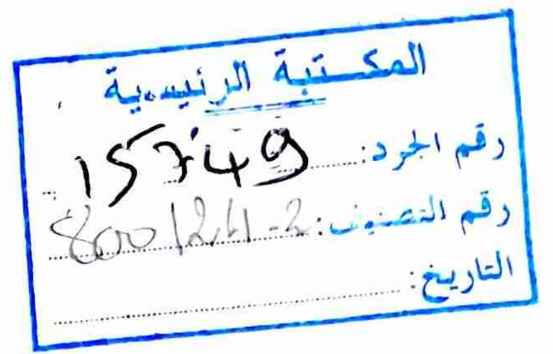
5 مكتبة د. أبو العيد دودو

ترجمة تاريخية

هاينريش فون مالتسان

ثلاث سنوات في غربي شمال أفريقيا

ج1 و ج2



ثلاث سنوات
في شمال غربي إفريقيا

- الجزء الأول
- الجزء الثاني



شركة دار الأمة

للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب 109 برج الكيفان 16120 الجزائر

E-Mail: Oummabooks@yahoo.fr

الطبعة الأولى

2008

إيداع قانوني: 2008 / 3417

ردمك: 978-9961-67-246-4

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة 2008 م

في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها

هاينريش فون مالتسان

ثلاث سنوات
في شمال غربي إفريقيا

DREI JAHRE IM NORDWESTEN
VON AFRIKA

الجزء الأول

ترجمة وتقديم: د. أبو العيد دودو

الطبعة الأولى - 1976
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر

مقدمة

- 1 -

يقدم لنا هاينريش فون مالتسان في كتابه هذا نضرة شاملة عن الجزائر في حوالي منتصف القرن التاسع عشر.ولعل هذا بالذات ما يميز كتاباته عن الكتابات الأخري التي وضعها بعض مواطنيه من الرحالة الألمان.فقد إكتفى فيلهام شيمبر في رحلته، التي قام بها في الجزائر سنة 1831 ومكث فيها بضعة أشهر، إذ أرجعه المرض إلى بلاده في صيف سنة 1832، إكتفى بوصف مدينة الجزائر ونواحيها، والتعريف بسكانها وأوضاعهم الاجتماعية، والحديث عن الحركة الصناعية والتجارية والثقافية. واكتفى الأمير بوكلر -موسكاو كذلك بوصف بعض مناطق الساحل الجزائري، والتعليق على بعض الأحداث التي وقعت خلال زياراته للجزائر وكان موريتس فاغنر قد إقتصر بدوره على مناطق معينة، فزار عددا من المدن في الولايات الثلاث، إلا أنه من ناحية أخرى لم يقف عند حدود المناطق المحتلة، فقد أتيح له ما لم يتح لغيره، وهو زيارة مدينة معسكر وما يليها من المناطق التي كانت تابعة لدولة الأمير عبد القادر. وهو بطبيعة الحال غير مسؤول عن النقص الذي جاء في كتابه، ذلك أن الظروف التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك، لم تسمح له برؤية مناطق أخرى والحديث عنها.

ومع هذا فإن فاغنر يعتبر أقرب إلى مالتسان من أي رحالة آخر،فقد وصف بدوره المناطق، التي شاهدها، بدقة وصدق وحاول أن يصف حياة الشعب ويبرز ملامحها في تلك الفترة، ويصور مختلف التقاليد والأعراس والأعياد والحفلات، ويتحدث عن بعض الفظائع، التي ارتكبها المحتل الأجنبي في بداية الاحتلال، وينتقده فيها.وعيبه أنه لم يدري بخلده أن يتصل بالشعب الجزائري، ولم يعمد إلى إقامة علاقة ودية مع بعض أفراده

من مختلف الطبقات، ليتفهم طبيعته ونفسيته على حقيقتها غرار ما فعله مواطنه الرحالة مالتسان. والحقيقة أن طبيعة كل منهما تختلف عن طبيعة الآخر كما أنهما لم تكن لها اهتمامات واحدة، وإن جمع بينهما الاهتمام بالجزائر والحديث عن مزاياها الطبيعية، وقضاياها السياسية. فقد كان فاغنر عالما طبيعيا، ومن هنا إحتوى كتابه على قسم خاص بالمجموعة الحيوانية، في حين أن مالتسان كان شاعرا وكاتبا روائيا، فكتب أشعارا، صور فيها مشاعره تجاه المناظر الطبيعية في الجزائر، كما كتب روايات،استمد أحداثها من الوقائع التاريخية » «جواهر الباشا »، المنشورة ضمن كتابه » صور من التقاليد التونسية والجزائرية « الذي نشر سنة 1869، أو استمدها من الأساطير الشعبية الجزائرية، وقد حدث هذا في روايته « قبر الرومية » المنشورة سنة 1865.

واهتم من جاء بعد فاغنر بهذه المدينة أو تلك، كما فعل كليمانس لامبيع، الذي قصر حديثه على أهم القليعة وعلى بعض المعارك، التي شارك فيها في سهل الشلف وفي المناطق القريبة من مدينة جيجل. وقدم لنا آدلوف شيترال في كتابه « صور شمسية جزائرية »، الذي صدر سنة 1842، وصفا لعدة مدن جزائرية،وأورد لنا أيضا قصصا وحكايات،لا أذكر أن ألمانيا آخر قد فعل ذلك قبله. وهذا إلى جانب اهتمامه بأوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية. وهناك مؤلف ألماني اهتم بنفس الجوانب تقريبا، وهذا المؤلف هو لودفينغ فون بوفرى، إلا أنه لم يقدم لنا قصصا وحكايات، وإنما قدم لنا إشعارا، منها القصيدة الطويلة، التي كتبها أحد الشعراء عن الأمير، يصف فيها بطولاته وعلاقاته بمختلف القبائل وحروبه ضد الفرنسيين.

وهذه الكتب كلها ناقصة في جانب من الجوانب، إما لأنها مختصرة وإما لتركيزها على ناحية معينة دون أخرى، أما مالتسان فقد حاول أن

يكون شاملا في كتابته سواء ما يخص منها وصف المدن أو ما يخص بعض العادات والتقاليد وأساليب الحياة المختلفة والتحزبات القبلية. وهذا لا يعني أنه طاف بجميع أنحاء الجزائر، ما قرب منها وما بعد، ولكنه على أية حال طاف بأغلب مناطقها، حيث امتدت رحلته من غرب البلاد إلى شرقها، فزار مدن الشمال كلها كما زار بعض المدن الصحراوية.

وهناك ميزة أخرى يتميز بها هانريش فون مالتسان عن غيره، وهي انه كان يعرف اللغة العربية واللهجة الجزائرية، وذلك ما لميتوفر لبقية الرحالة الألمان. فقد تعلم اللغات الشرقية في بلاده، وعندما حل بالجزائر اتخذ معلما جزائريا ليتعلم اللهجة المحلية، فسهلت له فيما بعد الاتصال بمختلف الشخصيات الجزائرية، التي كان يراها مناسبة لغرضه، الذي تمثل في معرفة الشعب الجزائري وفهم طبيعته على حقيقته. ومن هنا نجد لديه معلومات كثيرة عن الجزائر، استمدها من المواطنين أنفسهم وقد كانت له علاقة وثيقة وصداقة حميمة ببعضهم، فاستطاع أن ينقل إلينا حتى بعض الأساطير، التي ربما تكون نسيت اليوم ولم يعد يذكرها إلا القليل من العجائز والشيوخ وهذا بالإضافة ما تضمنته كتاباته من معلومات تاريخية وأثرية وجغرافية والطبيعية وغيرها، مما يجده القارئ متناثرا في كتبه.

- 2 -

ولد هاينريش كارل ايكارد هيلموت فون مالتسان في مدينة دريسدن في يوم 6 سبتمبر سنة 1826، وهو أكبر أبناء البارون هاينريش كارل فرنتس آدولف فول مالتسان، وكانت أمه بارونة من أسرة واورالي– أباي الإنجليزية. وتعلم مالتسان في مدارس فيسبادن، وهايدلبيرغ، وماومانهيم، ثم درس الحقوق في جامعات مونشن، وهايدلبيرغ، وهارلانغن، وتعلم إلى جانب الحقوق اللغات الشرقية، وعندما تخرج سنة 1950، شغل وظيفة حكومية

في إمارة ساكسن، ولكنه لم يلبث فيها طويلا . فقد مات أبوه سنة 1851 وترك له ثروة كبيرة فبدأ رحلا ته في سنة 1852، فزار القسم الأكبر من أروبا، ثم قام برحلة إلى فلسطين وسورية والمغرب والجزائر. وأقام في الجزائر مدة، تعلم خلالها اللغة الدارجة على معلم جزائري في بداية الأمر، وبعد أن هاجر هذا اتخذ معلما ثانيا، وقد قدم لنا صورة شيقة لهذين المعلمين في أحد فصول هذا الكتاب.

وترك مالتسان الجزائر، وقام بالرحلة في سنة 58/1857 إلى الحبشة، ثم رجع إلى الجزائر عدة مرات، فلم يكن يتركها إلا ليعود إليها، ليزداد معرفة بأهلها وبتاريخها وآثارها وبطبيعة أراضيها. وفي آخر زيارة لها سنة 1860، قرر مالتسان، الذي لم يكن في الجزائر يعاشر غير الجزائريين، أن يزور مكة والمدين، أسوة بمواطنه يوهان لودفيغ بور كاهارت أو الشيخإبراهيم، الذي حج إلى مكة والمدينة، والتوفي بالقاهرة سنة 1817 . فاتصل مالتسان، بعد أن اشترى ما كان في حاجة إليه من ألبسة جزائرية، بشخص جزائري يدعىعبد الرحمان بن محمد، وهو ممن يتعاطون الحشيش، واتفق معه على الرحمن بن محمد، وهو ممن يتعاطون الحشيش، واتفق معه على أن يحضر له جواز سفر من دار الولاية، يحمل اسم عبد الرحمان بن محمد، ليستعمله في رحلته إلى مكة والمدينة.

وبعد أن أحضرعبد الرحمن بن محمد جواز السفر، أرسله مالتسان إلى تونس ليقيم بها ستة أشهر. أما مالتسان، فقد سافر إلى مرسيليا، ومنها توجه إلى مالطة، وهناك، كما يقول، تقمص شخصية عبد الرحمن بن محمد، وانتسب إلى مدينة سكيكدة. وفي 12 أبريل 1860، استقبل مالتسان أو سيدي عبد الرحمن بن محمد السكيكدي باخرة انجليزية، كانت في طريقها إلى الإسكندرية، وأقام بها يومين، ثم واصل رحلته إلى القاهرة ومنها إلى جدة، وكان يسافر في الدرجة الثالثة من جهة، وبحرص

على الابتعاد عن المغاربة وتجنبهم عموما من جهة اخرى. وفي جدة سلبت منه أمتعته، ولم يستطع مواصلة رحلته إلا بعد ان دفع ثمنا باهضا، لأن جواز سفره الفرنسي قد أوقعه في مشاكل كثيرة. وسرعان ما عرف في مكة باسمأمير الجزائر، مما جعله يتجنب الجزائريين أكثر مما سبق. فانتقل بعد الطواف إلى حي الأفغانيين.

وعندما عاد من عرفات ذهب إلى الحمام، وهناك قدر له أن يلتقي بالجزائريين، الذين حاول حتى تلك اللحظة أن يظل بعيدا عنهم. فحين خرج من غرفة البخار، وجد مطوفه يحدث خمسة من الجزائريين عن مواطنهم الأمير، فعرف هؤلاء في الحين انه أما أن يكون مسيحيا متنكرا في لباس عربي أو جاسوسا فرنسيا، فقرروا الاهتمام بأمره بعد الخروج في حوض الحمام. فخشي السكيكدي أن يقتل كما قتل مواطنه سيتسن، الذي عرف رغم تنكره، ولذلك قرر، وخاصة بعد أن عرف نيتهم، أن يترك مكة في الحين، ويتنازل عن زيارة المدينة، فأسرع إلى جدة. وأسعفه الحظ مرة أخرى فوجد بها سفينة انجليزية صغيرة، نقلته إلى عدن،ثم سافر منها إلى بومباي .وهنا ارتدى الزي الأوروبي ثانية، وأعاد عن طريق البريد جواز السفر إلى صاحبه الحقيقي. وقد ذكر مالتسان انه لم ينشر قصة رحلته إلى مكة إلا بعد مضي أربع سنوات، اي عندما سمع بموت سميه عبد الرحمن بن محمد، وذلك خوفا عليه من الملاحقة والعقاب!

وبعد ذلك عاد مالتسان إلى بلاده، حيث أشرف على إصدار بعض كتبه، وفي سنة 1867 قام برحلة في كل من تونس وليبيا، وانتقل منهما إلى سردينيا، ثم عاد إلى تونس وليبيا مرة أخرى، وجمع معلومات وافرة عنهما، كما جمع عددا كبيرا من النقوش، خاصة ما يعود منها إلى العصر الفينيقي، وأخذها معه إلى بلاده. وسافر في سنة 1870 من جديد إلى الشرق، حيث زار جنوب الجزيرة العربية، وجمع مواد كثيرة، كانت

منطلقا لدراساته عن هذه المنطقة من البلاد العربية. وأخيرا عاد مالتسان إلى أوروبا، وأقام في مدينة بيزا، وبدأ يعاني من مرض الأعصاب. ولما اشتدت عليه وطأة المرض، أنهى حياته بطلقة مسدس في 22 فبراير سنة 1874 قبل أن تنتهي مشاريعه، وقبل أن يتمكن من نشر كل ما كتبه عن البلدان التي زارها ودرسها دراسات ضافية.

- 3 -

ووضع مالتسان دراسات كثيرة، نشرها في مجلات ألمانية مختلفة منها المجلة الشرقية الألمانية، والمجلة الجغرافية وغيرها، تحدث فيها عن خصائص تلك البلدان، التي زارها، وعن لهجات أهلها، وعن بعض الأدوار التاريخية التي مرت بها. وألف عدة كتب، هي ما يلي :

1) ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، وهو هذا الكتاب، الذي أقدم ترجمة الجزء الأول منه ويتكون من أربعة أجزاء، ثلاثة منها خاصةبالجزائر، والرابع خاص بالغرب. ويتحدث المؤلف في الجزء الأول عن الجزائر وضواحيها، ثم ينتقل إلى وصف المناطق الغربية، وينتهي في مازغران والمقطع. أما الجزء الثاني فيحتوي على وصف ما تبقى من الغرب الجزائري ومناطقه، وعلى وصف الساحل الشرقي من البلاد وما يليه حتى مدينة تبسة. ويتناول في الجزء الثالث قسنطينة وشمال الصحراء، وتتوقف رحلته في عين ماضي. وفي الجزء الرابع والأخير يصف مالتسان الساحل المغربي وأهم المدن المغربية، كما يتحدث عن الحياة في المغرب عامة بما في ذلك حياة الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب بعد دخول الفرنسيين. وقد نشر الكتاب بأجزائه الأربعة سنة 1863.

2) حجي إلى مكة، وفي هذا الكتاب، الذي نشر سنة 1865، يصف مالتسان، كما يتضح من العنوان، الكيفية التي وصل بها على مكة. ويقع

في جزئين، وفيه كثر من المعلومات الهامة عن القبائل العربية التي اتصل بها المؤلف خلال رحلته، كما أن فيه ملاحظات ثمينة، تتعلق بموقف الشرقيين من الجزائريين خاصة، والمغاربة عامة، وذلك بعد احتلال فرنسا الجزائر. وفيه على جانب ذلك كله وصف لأحداث تاريخية قديمةوحديثة. وفي هذا الكتاب تحدث مالتسان عن سيدي عبد الرحمن بن محمد، وأورد الرسالة التي تسلمها منه بعد أن أعاد إليه جواز سفره، كما تحدث أيضا عن ذلك الانجليزي، الذي سافر بعده من الجزائر متنكرا، ليزور مكة، ثم يعود إلى الجزائر، ليقيم فيها باسم الحاج عبد الواحد، مع أن اسمه الحقيقي هو »بينيت« ، فوفق إلى ما لم يوفق إليه مالتسان، ولست أدريإن كان هذا الإنجليزي قد كتب شيئا عن الجزائر!

3) رحلة إلى جزيرة سردينيا، وقد صدر سنة 1869 .

4) صور من التقاليد التونسية والجزائرية، وقد نشر في السنة نفسها، عقد المؤلف في الفصل الأول مقارنة بين ثقافة المدينين وتقاليدهما، وتحدث في الفصل الثاني عن الحياة في بلاط ثلاثة من بايات تونس، وهم احمد باي، ومحمد باي، ومحمد الصادق، بينما تحدث في الفصل الثالث عما بين، القصر والكوخ، بين الأغنياء والفقراء من فروق وتناقضات. ووصف في الفصل الرابع الحياة اليومية في شوارع تونس. وفي الفصل الخامس يقدم لنا مالتسان قصة مدخن الخشيش في الجزائر، التي ترجمتها، ونشرتها قبل حوالي سنتين الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. أما في الفصل السادس فيروي لنا المؤلف قصة الجواهر المزيفة، التي حدثت في أيام الداي على خوجة، ويترجم وثائق، من الصعب معرفة أصولها. ولعل أغرب ما ذكره في هذه القصة هو الأبيات التالية، التي يصف فيها الجزائريون الهجومات الثلاثة، التي وقعت على الجزائر، وقد صيغت باللغة الفرنجية، وكانت هذه

اللغة وسيلة التفاهم مع الأجانب. تقول هذه الأبيات : سبنيول جاؤوا، عملوا بوم بوم، مكاش اخذ، راحوا.

إنكليز جاؤا، عملوا باف باف، بزاف بوم بوم، مكاش اخذ، راحوا.

فرنسيس جاؤا، عملوا باف باف، عملوا شوية شوية، بالخف اخذ، مكاش راحو.

ومن الواضح أن «بوم بوم» تصور طلقات المدافع، التي استعملها الاسبان والانجليز في ضرب الجزائر، بينما تصور «باف باف» طلقات البنادق التي حارب بها الفرنسيون بعد نزولهم إلى البر الجزائري.

أما في الفصل السابع والأخيرفيحدث مالتسان عن «الصف القبائلي» ويشرح العداوة بين الفوقانيين والتحتانيين، وبين أسبابها التاريخية،ويقدمها على شكل قصة لها أبطالها من الجنسين، تنتهي نهاية سعيدة، يجتمع فيها شمل الحبيبين، اللذين فرقت بينهما الروح القبلية وحب الثار.

5) رحلة في ولايتي تونس وطرابلس، وقد نشر هذا الكتاب سنة 1870، ويصف فيه بعض المدن التونسية والليبية، ويتحدث عن الحياة فيهما، كما يصور نظام الحكم وعلاقة الحاكم بالشعب ويبرز بعض الفروق الاجتماعية بين الأفراد ن ويتحدث كذلك عن مقابلته لباي تونس، ويقدم صورة صديقة عن القصر وما فيه من قاعات وعن الاستقبالات التي تتم في فنائه .ويذكر كذلك ما وقع لبعض الجزائريين بعد هجرتهم إلى تونس.

6) رحلات في الجزيرة العربية ، وقد صدر سنة 1873 .

7) أصداف الحجاج، ديوان شعر، صدر سنة 1863، وفي كتابه ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا مقطوعات متفرقة نقلها عن هذا الديوان وقد نشرت القصائد التي كتب عن الجزائر والبليدة ومازونة والصحراء في كتابي : دراسات أدبية مقارنة، ديوان المطبوعات الجامعيةالجزائر 1991 .

8) قبر الرومية، وهو أسطورة، صدرت عام 1865، ولدي صورة منها ويروي فيها قصة ذاك الجزائري، الذي وقع في أيدي الاسبان، واشتراه سحار إيطالي، ثم أطلق سراحه على شريطة أن يحمل حرزا، ليحرقه عند قبر الرومية بعد عودته إلى الجزائر. وما ذكره عن هذه الأسطورة في الفصل، الذي تحدث فيه عن قبر الرومية ضمن هذا الكتاب، إنما هو خلاصة لتلك الأسطورة الموسعة.

- 4 -

وضع مالتسان مقدمة لكتابه هذا، كتبها في لايبتسيغ بتاريخ 14 سبتمبر سنة 1862، وبما أن هذه المقدمة لا تهم القارئ العربي كثيرا، فقد كتبها المؤلف لمواطنه، ليسهل عليهم نطق أسماء المدن والأشخاص والأماكن العربية، وقراءتها قراءة صحيحة، فإني لم أجد ما يدعو إلى ترجمتها. لذلك اكتفى بتقديم بعض فقراتها هنا لمعرفةغاية المؤلف من نشر كتابه هذا ومغزاه من الرحلات التي قام بها.

يقول مالتسان إنه هدف من وراء تسجيل هذه المذكرات عن رحلاته إلى إفريقيا خلال ثلاث سنوات، إلى شيئين اثنين بوجه خاص. فقد أراد أولا أن يقدم للقارئ في إخراج متواضع صورۃ صادقة قدر الإمكان عن طبائع شعوب المغرب. وكانت رغبة في التنبيه إلى ما في هذه المناطق من آثار تاريخية هامة، يجهلها الجمهور الألماني عامة، ولا سيما آثارالرومان، سادة العام القديم، وبالتالي التعريف بقسم منها. ويطلب مالتسان من قارئه بعد ذلك ألا يقرأ كتابه لمجرد التسلية، فهو لم يضعه لهذا الغرض، وحده، وإنما وضعه ليحقق أيضا ما قصد إليه من تعريف.

ويلاحظ المؤلف أن رحلاته، التي تبدو في مجموعها كلا واحدا، لم تتم، كما قد يفهم من العنوان، في ثلاث سنوات متتالية، وإنما هي

في الواقع خمس رحلات مختلفة. ومجموع الوقت، الذي استغرقته هذه الرحلات، هو ثلاث سنوات، وهذا مصدر عنوان الكتاب. ويضيف أنه لم يقم برحلاته حسب الترتيب، الذي ظهرت به في هذا الكتاب، فقد اقتضت المحافظة على الملابسات الجغرافية أن يتحدث عن بلد دون آخر سبق له أن طاف بأرجائه قبل ذلك. ويذكر المؤلف أنه زار المناطق التي تحدث عنها في هذا الكتاب مرتين، وأتم مذكرات الرحلة الأولى عند القيام بالرحلة الثانية. ويشير أيضا إلى أن ذكر التواريخ في ظروف زمنية معينة كظروف عصره من شأنه أن يربك القارئ ، ومن ثم احتفظ بأغلبهالنفسه، فهي في نظره مملة جدا بالنسبة لمذكرات رحلة من الرحلات، وكانت رحلاته هذه تشكل في الأصل وحدة متكاملة، ولذلك أكد على ضرورةتوضيحاته هذه حتى لا يصطدم القارئ بما قد يكون في رحلاته من تناقض ظاهري أو تكرار.

لقد كتب مالتسان عن غيره كثيرا، أما هو نفسه فإنه لم يكد يكتب عنه شيء، ولا يعرفه اليوم غير القليل من ذوي الاختصاص. فلم أجد له ترجمة خاصة إلا في كتاب التراجم الألمانية العامة (ج 20، لايبتسيغ 1884، ص 154/153)، ومما كتبه عنه الجغرافي الألماني المعروف فريدريش راتسل قوله : »كان مالتسان، كما تدل على ذلك كتبه ورحلاته الأخيرة، في طريقه إلى أن يتحول من سائح مهتم إلى رحالة عالم له هدف واضح، وكانت موهبته وثقافته تؤهلانه لذلك. فمنذ بوركهات العظيم لم يتعود رحالة ألماني على حياة الشرق مثلما تعود عليها مالتسان. فمؤلفاته عن رحلاته، على الرغم من أسلوبه، الذي يغلب عليه الإسهاب والتفكك، مليئة بالملاحظات القيمة، وحتى مقالاته الصحفية السابقة كانت تنم عن رغبته في تحرى الحقيقة والصدق. فالمبالغات والجمل الفارغة غريبة أيضا عن مقالات مالتسان، التي كتبها بسرعة. « ولا تزال شهادة الجغرافي

الألماني، كما يقول الصديق فريديش كوخفاسر، رئيس تحرير مجلة التبادل الثقافي (عدد 2 / 1970، ص 221) معتبرة على يومنا هذا.

ويصفه كوخفاسر (ص 216) بأنه كان من أكثر الناس معرفة بالجزائروبلدان المغرب عامة في منتصف القرن الماضي. وقد خلف مالتسان وثائق كثيرة. كانت محفوظة ضمن وثائق الأسرة، وكان في نيتي أن أسافر إلى ألمانيا، رغم إمكاناتي الضعيفة، للإطلاع عليها، ولكنني علمت أخيرا أن مخلفات مالستان قد ضاعت كلها في فوضى الحرب العالمية الثانية. وهذا شيء مؤسف جدا، فلا شك أنها كانت تتضمن رسائل شخصية، تسلمها من أصدقائه في الجزائر، ولو لم تكن له مراسلات معهم، لكان من الصعب عليه مثلا أن يعرف أن سميه عبد الرحمن بن محمد قد انتقل إلى رحمة ربه، فاستطاع عندئذ أن ينشر كتابه عن مكة. وإنها لالتفاتة تدل على الوفاء، ولا أعتقد أن غير مالتسان كان يتواني في نشر كتابه لمجرد أن صاحب جواز السفر لا يزال على قيد الحياة!

- 5 -

يستعرض المؤلف في فصول الكتاب انطباعاته الكثيرة عن الجزائروشعبها ومدنها وقراها وطبيعتها. وكان جمال الجزائر الطبيعي أول ما جلب انتباهه، واستحوذ على مشاعره، عندما زارها لأول مرة. فسجل على غيره من السواح في بداية كتابه أنهم لم يشيروا إلى هذه البلاد جميلة إلى حد السحر والفتنة، وأشار إلى أن أبناء بلاده كانوا يتصورون الجزائر مدينة، تحتضن الصحراء أطرافها، اعترف بأن الإنسان لا يستطيع أن يتصور ما للجزائر من جمال طبيعي، يضاهي جمال إيطاليا وسويسبرا، إلا إذا قدم إليها وشاهدها وكثيرا ما كان هذا الجمال يثير قريحته الشعرية، فينظم أبياتا يتغنى فيها بما يشاهده من مناظر خلابة، كما فعل عند حديثه عن البليدة وعن مازونة. وفي بعض الأحيان يصف ذلك في مقطوعات نثرية

في منتهى الروعة، مثلما فعل عند حديثه عن سهل الشلف مثلا.

ويعجب مالتسان في الدرجة الثانية الإنسان النموذجي، فيقدم لنا نماذج جزائرية متنوعة، فيها الرحالة والمعلم والخياط والطرقي والمدفعي والعيساوي والشاب المبذر. ويتحدث عن هذه النماذج في إعجاب كبير تارة، وفي سخرية مرة تارة أخرى، ويحاول أن يستدل من خلال تصرفاتها على مدى رسوخ بعض العادات والتقاليد والطبائع الجزائرية. ويهتم بصورة خاصة بالنموذج الأصيل، الذي لم يتخل عن مميزات شخصيته، وقد وجد في شخص صديقه أحمد القادري، الذي قدم لنا عنه وعن رحلاته وعن علاقاته بغيره وعن مقاومته السلبية للدخيل الفرنسي صورة حية، نتبين من خلاله مدى احترامه له، وإعجابه به، واعتزازه بصداقته. ولا أعتقد انه من السهل العثور على مثل هذا النموذج الحي في أي كتاب آخر غير كتاب مالتسان! أما النموذج الممسوخ فقد قدمه لنا في شخص باش آغا قبيلة جندل أثناء وصفه لمنطقة الأصنام، وسخر منه ومن المسخ الذي حل بشخصيته.

وكما يسخر مالتسان من بعض الجزائريين، يسخر كذلك من الفرنسيين، وتكاد تكون هذه السخرية منهم عامة، فهو يسخر من ضباط المكتب العربي، الذي كانوا يشكلون الحكومة الحقيقية في الجزائر،ويسخر من الحاكم العام ويصور بعض تصرفاته المضحكة في الاستقبالات والاستعراضات، ويسخر من رجال الذين، الذين يبذلون مجهودات كبيرة في تنصير الجزائريين دون فائدة! وينتقد مشاريع الحكومة في بناء القرى وجلب جماعات من أنذال باريس وسفلتهاإليها، ليزرعوا فيها على حد تعبيره! يسخر من كل شيء يتخذ صبغة رسمية، حتى من الكرم العربي، لأن فرنسا جعلته رسميا، حين فرضت على القبائل العربية أن تكرم كل من يحمل توصية من المكتب العربي، واعتبرت ذلك ضربا من الإتاوة يؤدي إليها!

وينتقد مالتسان أيضا جنرالات فرنسا، الذين كانوا يقومون بحملات السلب والنهب، ثم يعتبرون ذلك انتصارات لهم في ميدان المعارك والحروب! ويصور كذلك بعض الجزائريين الموالين لفرنسا، مثل مصطفى بن عمر ومحمد بن الحسين في المدية ن ويصفهم بأنهم كانوا يحاربون إخوانهم في الدين إلى جانب أسيادهم الجدد! صحيح أن مالتسان لم يحضرالأحداث التاريخية التي يتحدث عنها، ولكنه لا يكتفي برواياتها فقط، وإنما يحاول دائما أن يعاق عليها بما يبين اتجاهه وتفكيره. وليس من المستعبد أن يكون قد استمدها من أحاديثه مع الجزائريين، سواء كانوا من أصدقائه أو من غيرهم.

ولا يتحدث مالتسان عن شيء هنا دون أن يعيده إلى أصله، ويتحدث عن تاريخه، ويصف الأجواء التي حوله، سواء كان هذا الشيء نبتة أو واديا أو قرية أو مدينة، ويجهد نفسه في أن يربط الماضي بالحاضر بالنسبةلذلك كله أثناء الحديث عنه. وهو لا كتفي هنا أيضا بنقل ما يرد في المراجع القديمة والحديثة على السواء، وإنما يحاول أن يناقش آراء المؤرخين والجغرافيين ليتوصل إلى نتيجة يطمئن إليها، ولم يقتصر على المراجع الأجنبية، بل استعمل أيضا بعض المصادر العربية، وخاصة ابن خلدون.وقلما يذكر المؤلف مصادره الحديثة، ولكنه فيما يبدو ويعتمد كثيرا على ما كتبه آدريان بيربروجير وبعض المؤخرين الفرنسيين الآخرين. ومع هذا لا شك في أنه قد استفاد أيضا من الروايات الشفوية، التي سمعها من مختلف الشخصيات الجزائرية وغيرها . وإلا فإنه من الصعب أن نعرف كيف حصل على الأشعار الكثيرة، التي نقلها إلى الألمانية، والتي كان قد نظمها الشاعر الدرويش، كما يسميه، احمد بن يوسف في مختلف المدن الجزائرية.

وكان مالتسان من جهة أخرى معجبا بالبطولة، التي تدفع بصاحبها إلى المقاومة والصمود إلا آخر لحظة. وقد تجلى إعجابه بها خصوصا في

حديثه عن قبيلة بني رامة، التي فضلت الموت على الاستسلام للكلاب المسيحية، على حد تعبيره! فقد أطال في الحديث عنها، ووصف منظر المغارة الرهيب في جبال الظهرة، وختمها بأبيات يشيد فيها ببطولة القبيلة العربية، التي اختارت الفردوس مثوى لها في هذه الأرض.

ولعل هذا الإعجاب نفسه هو الذي حدا به على الحديث أيضا عن البطولة، التي أظهرها بعض الفرنسيين في قرية بني مراد ومازغران، مما قد تشتم منه الروح الصليبية. وبهذه المناسبة أود أن أقول إني لا أدعي إن كل ما كتبه مالتسان صحيح مائة في المائة، فهناك ولا شك ما يحتاج إلى تمحيص ومناقشة، ومؤرخونا أقدر على ذلك مني. وحسبي أن أضيف أن مالتسان، فيما يظهر لي شخصيا، صريح إلى أبعد حدود الصراحة، لا يتردد أبدا في التعبير عما يراه حقا وصدقا، ويعتقده اعتقادا راسخا.

وبعـــد.

لم يكن غرضي من وضع هذه المقدمة تقديم خلاصة وافية عن محتويات هذا الكتاب، وإنما أردت فقد التعريف ببعض الجوانب لا كلها من حياة مالتسان والإشارة إلى بعض الخصائص، التي تتميز بها كتاباته، وأترك للقارئ الحكم للرحالة مالتسان أو عليه، واعتذر له سلفا أن وجد في هذا الكتاب تحريفا أو تصحيحا لبعض الأسماء، فقد صعب علي، رغم القراءات والاتصالات الكثيرة، التأكد من صحتها!

الجزائر، ابن عكنون 1973/6/6.

الكتـــــاب الأول

الجـــزائـــــر

الفصـــل الأول

الوصول إلى إفريقيا

مغادرة مرسيليا الرياح. - المقصورة. - الشوق إلى إفريقيا. - الوصول إلى الجزائر - الهرم الأبيض. - الميناء. - ساحة الحكومة. - الجامع الكبير. - داخله. - تاريخه. - مزغنة.

عندما غادرنا مرسيليا، مدينة الفوكير، الموغلة في القدم، كان البحر يبدو صقيلا كالمرآة. وبعد قليل مرت سفينتنا بقلعة الجزيرة الشهيرة بحصن إيف، وهي كتلة كئيبة رمادية اللون، تتألف من صخور كلسية مسننة. وكانت جدران السجن المعتمة، التي تتوج البحر الأبيض المتوسط العميق الزرقة، كأنها أبو هول كبير.

كان يبدو على مسافر فرنسي هزيل، حملته رئته المريضة على قصد الجزائر، أنه يتأمل جزيرة المعتقل باهتمام بالغ. فسألته،بناء على معرفته له، عن سبب اهتمامه، فأجاب :

- ألم يكن حصن إيف سجنا لرجل عظيم ؟

قلت :

- أتعني ميرا بو ؟

فصفر جناح الرئة الجريحة :

- ميرا بو ؟ لقد سمعت به، غيرأني لا أهتمبه. إنما أعني مونت كريستو.

كان الرجل الطيب نموذجا لأغلب الفرنسيين المحدثين. إن الكسندر دوماس أكثر من تاريخ بالنسبة لهم.

لم يدم الهدوء طويلا فوق الأمواج، إذ صاحبتنا من البر ريح شمالية باردة، لم تلبث أن تحولت إلى عاصفة رهيبة، راحت أخيرا تلسع الألواح، التي يحركها البخار، بسياطها بكل قوة وتسوقها أمامها. إلا أن الريح القادمة من وجهة السفينة كانت لحسن الحظ أكثر ملاءمة ومع ذلك فإن هذا لم يحل دون ارتفاع أنين المسافرين ونواحهم في مباراة مع الصياح من أجل إحضار الطشت. فقد أصابهم كلهم تقريبا دوار البحر وهو أمر مزعج، ولكنه مضحك بالنسبة للمشاهد السليم. وكان فيهم من أراد البقاء على ظهر السفينة على الرغم من ارتفاع الموج، إلا أنهم سرعان ما وقعوا تحت سطوته بصورة غير مسرة. أما الأذكياء منهم فقد رجعوا إلى مقصورتهم حيث اتخذوا وضعا أفقيا، وهو بالتالي أحسن وسيلة لمواجهة دوار البحر.

والمقصورة تشبه ما يوجد في السفن الأخرى كلها، فهي نفس ذلك الصندوق المربع الضيق الذي يقرب من النعش أو الدرج، والإنسان يتنفس فيه عادة هواء خانقا. ومع ذلك استطعت أن أنام فيه، بل أن أقرأ، والأفضل من هذا كله أن أسرح في خيالات عن إفريقيا. إفريقيا...

يا أرض الفتنة الغريبة التي كثيرا ما حملت بها! أرض الأزياء الأجنبية واللغات والعادات والمنارات الرقيقة والصحاري والواحات! كم كنت لطيفة وأنت غافية في ذهني.. عاجزة عن أن تحققي نفسك كما تصورتك أنا. وبرغم هذا... فها أنت لم تخيبي ظني. إني لم أجد فيك الشعر، وأنا لم أكن أطمع في العثور عليه في واقع الأمر، ولكني وجدت فيك أشياء كثيرة جديرة بالاعتبار.. فيها غرابة، وفيها تنوع في المظاهر، وتغير في الأشكال والعادات والتقاليد والمعتقدات وأساليب الحياة؟ أوفر مكافأة للسائح!

وفي صبيحة اليوم التالي، بينما كنت مضطجعا في المقصورة، عرفت من حديث جيراني أن القارة أصبحت منظورة. غير أني لم أصعد إلى

ظهر السفينة إلا بعد أن انتهت حركة الأمواج التي نشرت دوار البحر بين الركاب وبعد أن أصبحنا في مأمن خلف سد ميناء الجزائر.

وكل من قرأ انطباعات الرحلات الفرنسية عن هذه البلاد يعرف أنه قد جرت العادة على تشبيه الجزائر بالهرم الأبيض. والحقيقة أن أكثر التشبيهات ابتذالا هي تقريبا دائما أكثرها ملاءمة، وكذلك هذا التشبيه، فالتل المدبب يخدع النظر من جهة البحر ويبدو شبيها بالهرم، ولا يؤثر على بياضه حتى السقوف السوداء، ذلك لأن القسم الأعلى من المدينة كان لايزال عربيا تقريبا، ثم إن البيوت كانت تتوجها سطوح بيض باهرة. إلا أن المدينة لم تكن أول من استأثر بنظراتي بصورة مبهجة.

لقد كان شاطىء ميناء الجزائر يمتد إلى جانب المدينة على شكل هلالي.. قطعة فاتنة من طبيعة الجنوب! هناك كانت تصطف منازل رائعة بعضها إلى جانب بعض،و قببها البيض تلتمع فوق خضرة البرتقال والغار والأزهار من نباتات الجنوب البديعة.

بعد أن تغلبت على البؤس الذي مر بي في المقصورة حياني الشاطئ الضاحك، وقد امتلأ بـأشعة سماء صافية عميقة الزرقة، كأنها رؤيا جميلة عن بلد خرافي حلمت به. السهول متلألئة في ذوب ألوان الجنوب، وتلال الشاطىء رائعة، وقمم الأطلس تغطيها الثلوج، وصخور جرجرة بلاد القبائل منحدرة رمادية اللون. هذا كله فاق ما كنت أتوقعه. فلم أكن في الحق أنتظر أن أجد جمالا طبيعيا بالمرة.

لقد اقتصر السواح حتى الآن وبصورة دائمة تقريبا على الحديث عن الجزائر من الناحيتين العرقية والإحصائية وتوسعوا في ذلك. أما أن البلاد جميلة إلى حد الفتنة فإن أحدا لم يقل ذلك حتى هذه اللحظة. ورغم هذا فهي جميلة إلى هذا الحد ؟ والناس في ألمانيا يتصورون أن الصحراء تحتضن

الجزائر. والإنسان الذي لم يقدم إلى الجزائر لا يمكنه أن يتصور أن الشاطئ يجمع بين الجمال الطبيعي كما تعرفه السهول الإيطالية وروعة سلسلة الجبال الشامخة بجوها الشاعري، التي تذكر أشكالها الحية بسويسرا.

و بعد ذلك بدأت عملية الرسو، وما كدنا نصل إلى الميناء حتى انصب إلى ظهر السفينة جمع كبير من العرب، كانوا نصف عراة، تقطر القذارة من ثيابهم، وشرعوا في طلب صناديق الملابس وأحزمة الثياب وعلب القباعات لحملها. وكان كل واحد من هؤلاء الحمالين المهلهلي الثياب يحاول دون أن يدعى إلى ذلك، أن يستولي على قطعة من المتاع، فإذا تمكن منها جرى بعيدا وهو مبتهج بالغنم، وكان على المسافر أن يلحق به حتى لايضيع متاعه. وغالبا ما كان ذلك أمر غير هين. فقد ذهب حامل العفش إلى اليسار، وحامل الحقيبة إلى اليمين، بينما مضى حامل علب القبعات إلى الإمام ؟

واتجهنا إلى الشاطئ في موكب هؤلاء الشبان نصف العراة، وهناك،استقبلنا جمع من الحمالين، وقد ارتدوا بدلات رسمية، ويدل مظهرهم على المهارة، وكانت مهمتهم الإرشاد إلى الفنادق. وقد وقعت أنا في يد رجل ذي لحية سوداء شائكة، قادني بسلام إلى فندق « لاريجانس » الذي يملكه مرسيلي ضخم الجثة، مشهور بقسوته الإقليمية، وكان الفندق يقع في ساحة الحكومة، وهي ميدان يخف إليه جميع الجزائريين وبطن المدينة كلها، فالشوارع جميعها تصب فيه، وهذه الساحة التي تسودها الحياة والحركة دوما، فريدة في نوعها، ذلك أنها تتيح للإنسان في الوقت نفسه أن يتمتع، من مركز الحركة والتجارة المضطرب، بمنظر ساحر غني يطل على الميناء المزدهر وعمق البحر المتوسط.

وكنت في طريقي إلى ساحة الحكومة قد مررت بشارع البحرية، وفي هذا الشارع يفاجيء الإنسان منظر الجامع الرئيسي بالجزائر ويدعى الجامع

الكبير، وهو بناية عربية خالصة. إلا أن المساجد في المغرب ينقصها للأسف ذلك السطح الخارجي الرائع المتناسق الأجزاء الذي نعجب به في فن العمارة بالشرق. فهذا الجامع ليس له أيضا، مثل الجوامع الأخرى تقريبا، سطح. أما من ناحية الشارع فهناك واجهة جميلة بأعمدة من المرمر وعدد من الحنيات، مزين داخلها على شكل بديع. وقد أحببت في هذه الأشكال الظريفة أول نسمة من الشرق الرائع الذي طالما حلمت به والذي بدأ الآن يتضح لي. إلا أن خيبة ظني كانت كبيرة عندما علمت فيما بعد أن الفضل في وجود هذه الواجهة الغربية، التي ظهرت في شرقيه، لا يعود إلا إلى الفرنسيين.

ومن هذا الرواق يصل المرء إلى صحن داخلي مربع، تتوسطه نافورةمزخرفة من المرمر،يتطاير ماؤها في جميع الاتجاهات، حيث يتوضأ المؤمن. أما المسجد الحقيقي فيقع إلى اليمين وهو في الداخل فارغ وبدون زخرف، ماعدا المحراب الذي يحدد الإتجاه نحو مكة فإنه يحمل في سقفه زخرفا يشبه الرسوبيات المتصاعدة التي يتمتع الإنسان بمشاهدتها فيما بين الحمراء وطرابلس في كل مسجد وقصر عربي، وبه قبة جميلة تعلو بيت الصلاة.

أما المنارة المربعة فتشبه برجا إيطاليا قائما على حدة،و من المؤكد أنهما من أصل واحد. ففي وقت مضى كانت إفريقيا كلها مليئة بالقصور والبروج المسيحية التي اتبع فيها نوع البناء الروماني الغربي في العصور الأربعة الأولى للمسيحية بينما اتبع الأسلوب البزنطي في آسيا. وقد اقتدى العرب الذين تعودوا على حياة الخيام ولم يكن لهم فن معماري مستقل بالفن المسيحي في البلدان التي تغلبوا عليها، ولهذا فمنارة الجزائر ليست سوى برج عال مربع تغطى جدرانه زخارف، وتحيط بقمتها شرفة،

ينطلق منها صوت المؤذن في أوقات الصلات. أما القمة نفسها فيعتليها العلم الصغير الأبيض الذي يرفع يوميا عند أداء الفرائض.

وإلى جانب النافورة في الصحن الداخلي توجد مقصورة حمراء يجلس فيها المفتي لأداء وظيفته. وقد شاهدت هذا الشيخ، وهو رجل عجوز مغضن الوجه ذو لحية بيضاء طويلة، فيها مرارا جالسا فوق ديوان، وحوله القضاة والفقهاء والمؤذنون في انتظار أوامره.

و غير بعيد منه في مقدمة الصحن يوجد الكتاب الذي يشرف عليه «الطلبة»، وهو مكان مكشوف. وفي إمكان الإنسان أن يرى هناك يوميا مجموعة صغيرة من أطفال نصف عراة، وقد تربع بعضهم، وجلس بعضهم الآخر القرفصاء، يقرؤون الكتاب المنزل. و من المرجح أن هذا الجامع الرئيسي، أو الجامع الكبير، قد انشىء في بداية القرن الرابع عشر. فالمنارة تحمل كتابة يعود تاريخها إلى سنة 1322 ويبدو أن إنشاءه كان دليلا على انطلاق الجزائر نحو عظمتها الجديدة. ذلك أن مزغنةهكذا كانت الجزائر تدعى سابقاالتي لم تكن لها أهمية إطلاقا، قد تحولت منذ ذلك الحين إلى جزائر القراصنة والانكشاريين القوية.

لقد كان من نصيب ابن صانع الخزف في ليسبوس، عروج بربروسا، وأخيه، القرصان خير الدين، أن يجعلا من مستعمرة أصدقاء هيركليس، الذين ينسب إليهم التاريخ القديم إنشاء الجزائر، من يوكسيوم الرومانية ومزغنة العربية عاصمة.

الفصل الثاني

مدينة الجزائر

الجامع الجديد – شكل الصليب – المذهب الحنفي – المذهب المالكي – الجنينة – علي خوجة باشا– ثورة الإنكشارية – تمثال مليكة جويلية – الكنيسة– شارع باب عزون وباب الواد – دور عربية – الداخل – الفناء – المكتبة – السيد بريسينز – بيير بروجر –التدمير المتوقع –الأسواق – الصناعات العربية –كل شيء يصنع في باريس – الشرق لم يعد في الشرق.

فيما عدا الجامع الكبير يوجد في شارع البحرية مسجد آخر هو الجامع الجديد. وله أيضا منارة مربعة هي تقليد لخير الدا اشبيلية، بنى الفرنسيون فوقها ساعة لإدخال الرهبة في قلب كل مسلم. وتكون قبتها الرئيسية الشديدة البياض وأربع قبب صغيرة،عند النظر إليها من الميدان الرئيسي، منظرا يفاجيء المرء بجماله، وتخلع على هذا الجزء من الميدان، الذي سلبت غريزة التدمير بقية جوانبه الأخرى تماما، طابعا شرقيا ويروى أن بناء الجامع الجديد قد تم تحت إشراف بنّاء مسيحي، وهو عبد جنوي، كان مآله القتل لأنه احتفظ بشكل الصليب في الصحن حسب النموذج الكنائسي الذي تعود عليه. والجامع الجديد هو الآن المسجد الوحيد الذي يتبع المذهب الحنفي.

وحيث توجد اليوم ساحة الحكومة كان يقوم في العهد التركي مسجد سعيدة الجميل قبالة قصر باشاوات الجزائر وداياتها، وكان تابعا أيضا للمذهب الحنفي، وهو أحد المذاهب الإسلامية الأربعة، ويدين به أغلب الأتراك بما في ذلك السلطان. الأعظم. وبما أن حكام الجزائر من 1514-1830 كانوا من الأتراك فقط، فإن المذهب الحنفي كانت له رتبة الامتياز، فكان تبعا لذلك مذهب الأسرة الحاكمة ومسجده أجمل المساجد وأغناها. أما

المذهب المالكي الذي كان يدين به أمويو اسبانيا وخلفاء قرطبة وجعلوه مذهبا لهم في خلافة المغرب فهو اليوم مذهب أغلب العرب والحضر ويعتبر سلطان مراكش الرئيس الروحي لهم ومساجد الجزائر كلها، باستثناء الجامع الجديد المذكور آنفا، تابعة للمذهب الأخير. ولا توجد في المدينة سوى أربعة مساجد حقيقية تقام بها صلاة الجمعة بصورة منتظمة ويرفع فوق مناراتها العلم الأبيض خمس مرات يوميا.. إذانا بحلول مواعيد الصلاة.

و إلى جانب هذه المساجد يوجد في الجزائر عدد من القبب والأضرحة الإسلامية الصغيرة التي أقيمت لولي أو مرابط، بعضها يحتوي على رفات هؤلاء الأولياء الذين قضوا في الجزائر وبعضها الآخر مجرد ضريح نذري.

و الدور التي تحيط بميدان الجزائر الرئيسي، أو ساحة الحكومة المذكورة، كلها حديثة ومبنية على الطراز الفرنسي. في المرة الأولى التي زرت فيها الجزائر كانت لا تزال هناك الجنينة القديمة، قصر دايات الجزائر وهوبناية عربية خالصة. وكان يظهر عليها آنئذ آثار البلى من الخارج وتحمل آثار حريق وقع حديثا، ولكنها كانت تحتوي في الداخل على بهو جميل وحنيات وحمامات مرمرية ونافورات وزخارف تشبه زخارف الحمراء.

وكانت الجنينة حتى سنة 1817 المقام الرئيسي، بل في رأي البعض، المقام الوحيد لدايات الجزائر. ففي السنة المذكورة نقل الداي علي خوجة، وكان قد انتخب عندئذ، مقامه الرسمي إلى القصبة وأمر في الوقت نفسه بنقل الخزينة إليها رغم معارضة الإنكشاريين. وبهذه الطريقة استطاع الداي التخلص من طغيان الوجاق الذي لم يكن يكتفي بتنصيب الباشا فحسب، بل كان يعمل على عزله أيضا متى شاء، وفي خلال ذلك يلاقي المعزول حتفه دائما. وكانت ثورة الإنكشاريين جوابا على انقلاب الداي، فحاولوا أخذ القصبة قسرا، ولكنه استقبلهم من طرفه بطلقات المدافع فانسحبوا خاسرين.

ينتصب في وسط ساحة الحكومة تمثال دوق أورليان كذكرى وضيئة لملكية جويلية التي كانت،قد نسيت. وفي الجهة الغربية من الساحة ينفتح شارع يفضي إلى الكنيسة الفرنسية، التي هي تقريبا بناية تافهة، بنيت بأسلوب هو تقليد للأسلوب العربي،ولكنه يبدو مبالغا فيه ومزخرفا. وقد كلف بناؤها أكثر مما كلفه بناء مساجد الجزائر كلها، ومع ذلك ما أبعد الفرق حقا بينها وبين بساطة المساجد الفنية!

و في شمال الميدان الرئيسي وجنوبه يمتد شارع باب عزون وباب الواد، وهما الشريانان الرئيسيان للتجارة الجزائرية، وكلاهما يقود إلى بابي المدينة المقابلين وقد سمي كل منهما باسم الباب، فأطلق على باب الواد اسم واد يسوده الجفاف في أغلب الأحيان، ويعثر المرء على مجراه الرملي عندما يتوجه إلى قرية »سانت أوجين« أما باب عزون فيحمل اسم نافورة أوقفتها قبيلة بني عزون قبل عدة قرون، والنافورة غير موجودة الآن، وقل من يعرف اليوم من هم بنو عزون، ولكن الشارع ورث اسم العين ولسوف يحتفظ لمدة طويلة باسم المؤسسين المجهولين.

ولم يبق من بابي المدينة اليوم سوى الاسم أيضا، لأن الأبواب العربية الضيقة لم تلبث أن أصبحت عقبة في طريق اتساع حركة المواصلات في الجزائر الفرنسية.

و عندما دخل الفرنسيون سنة 1830 المدينة، التي كانت قد فتحت آنئذ، حياهم منظر رهيبمن فوق أسنان باب عزون. لقد كانت هناك رؤوس فاسدة تقريبا لأبناء وطنهم، هي رؤوس ضباط وملاحي السفينتين الحربيتين –سيلين ولافنتور– اللتين غرقتا في الشاطئ وقتل طاقمهما باسم الداي حسين، وباب عزون هذا مشهور أيضا بضربة خنجر صدرت عن يونس بولانيير البطل الفرنسي الذي شارك في حملة شارل الخامس. فقد وثب هذا الفارس الشجاع مرة أخرى، وذلك بعد أن طلب منه الانسحاب،

إلى الباب الذي يحيط به الجزائريون وركز أمامهم خنجره في خشبه دون أن يحول بينه وبين ذلك الرصاص المتساقط حوله. وهناك من الفرنسيين من يحمل ضربة الخنجر هذه التي قام بها مواطنهم معنى نبويا.

والشارعان الرئيسيان أوروبيان الآن تماما وكذلك قسم المدينة الواقع على السهل عموما، أما القسم العربي فينتصب فوق التل. وهناك أزقة كثيرة تقضى إليه وتنتهي قرب القصبة، قلعة الجزائر وقصر الداي قديما،التي تعتلي قمة التل.

وفيه أزقة غريبة ضيقة متداعية تعلوها بيوت تتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق، وقد بنيت بصورة تجعل الطابق الأعلى يمتد عرضافوق الأسفل على شكل الشرفة الألمانية ويكاد يلامس الطوابق العليا. وهذه الأزقة الضيقة لا يدخلها ضوء كثير بطبيعة الحال. والبيوت نفسها ليس لها سوى نوافذ قليلة صغيرة من ناحية الشارع، ويفصل بينها وبين العلم الخارجي، على الدوام تقريبا، شباك من حديد يزيد من انغلاقها.

وبقدر ما يكون المظهر الخارجي للبيت العربية معتما وبشعا في الغالب، يكون داخلها لطيفا يروق للعين التي تعجب بالجمال المعماري. فكل إنسان له نصيب ضئيل من الذوق لا بد أن يعترف بان هذه الصور المعمارية البسيطة المزخرفة أجمل وأكثر تناسقا من كل تلك البنايات الأوروبية الخرقاء التي تهدم بسببها كل هذه البيوت الصغيرة وهو الاسم الذي تعود الفرنسيون إطلاقه على البيوت العربية.

وأرضية هذه القصور الصغيرة تتكون عادة من مدخل مزخرف بالمرمر يحتل المقدمة يقيم فيه الخدم وبهو مقبب ذي أعمدة خاص باستقبال الرجال، لان قسم البيت الأعلى لا تطأه أبدا قدم رجل، ثم سلم مزخرف عادة بالخزف يفضى إلى الطابق الأول في البيت. وهناك يوجد الرواق

الذي يحيط به بهو الأعمدة، ويسميه العرب وسط الدار، ويدعوه الأسبان «باتيو» وهم مقلدون للعرب في ذلك، وهو نفس الفناء المعروف عند الرومان القدماء. وتحتوى الدور الكبيرة على الصحن الروماني الذي هو صورة مكبرة لوسط الدار. والأعمدة تصنع في بيوت الأغنياء دائما من المرمر اللولبي أو المقنى. وبها ثلاثة أقواس في كل من الجهات الأربع ونادرا ما يصل عددها إلى أربعة بينما لا يوجد في بيوت الفقراء سوى اثنين تشبه غالبا حذاء الفرس وتتخذ في بعض الأحيان شكلا مستديرا، ولكنها نادرا ما تكون مدببة، وللمنازل العربية كلها تقريبا طابق أعلا تتكرر فيه الأعمدة بالشكل نفسه، وهذا يكون شرفة هوائية تدعى االدربوزب يطل منها الإنسان على الفناء لمبلط بالمرمر. وفي الطالق الأعلى سلم يؤدي إلى السقف الذي يشبه السطح ويحمل عادة قاعة نصف مكشوفة، سندها أيضا أعمدة، ويبدو من أسفل أشبه بطابق ثالث لم يتم. والجدران في اتجاه الفناء الداخلي مزخرفة كلها تقريبا بألواح من الخزف الذي يحبه الحضر جدا. أما فيما يتعلق بالغرف فإن لكل جانب من جوانب الطوابق الأربعة غرفة واحدة طويلة. وغالبا ما توجد في الغرفة قبالة الباب حنية تزينها حفر الخشب، وفي النهايتين يرى المرء تجاويف خاصة بالنوم تشبه الكهف.

وأحسن البيوت العربية التي بقيت في الجزائر سليمة هي الآن دار (1826) الوالي العام والكتبة ودار إبراهيم باشا ودار الإخوة بن المرابط ودور أخرى قليلة. وكانت دار الوالي العام في القديم سكنا لحسن باشا خامس دايات الجزائر. وهذه البناية غنية بالزخارف المرمرية ويعتبر الفناءوقاعة الأكل مثالين أصيلين للفنالوطني، أما المظهر الخارجي فهو جديد بناه الفرنسيون بأسلوب شبيه بالأسلوب الفنييّاني.

وتعتبر المكتبة أيضا من الأمثلة الجميلة للفن العربي ومن المؤكد آنها كانت جديرة بأن تنسب إلى العصر الذهبي للعرب في إشبيلية أو قرطبة.

ويقدم الدور الأرضي، وتجدر رؤيته بسبب الزخارف المرمرية وحدها، متعة مضاعفة بفضل التحف الموجودة فيه، وهيتكون مجموعة هامة بالنسبة لتاريخ هذه البلاد. أما الطابق الأول، وهو مبلط بالخزف المطلي، فقد خصص للمحاضرات التي يلقيها المستشرق الممتاز بريسنيير عن اللغة العربية.

وفي الدور الأعلى توجد المكتبة في عدة غرف عربية يزينها الخشب المحفور والمرمر والخزف وهي منظمة بصورة جيدة وتفوق في ميدان اختصاصها، أي في المصادر المتعلقة بإفريقيا، أغلب المكتبات الأروبية إن لم تكن كلها.

وقبل أن يصل المرء إلى المدخل يترك عن يمينه مقصورة صغيرة مصفحة بالخزف هي مكتب وكيل المكتبة السيد بيربروجير. وقد كانت عزلة هذه الغرفة الصغيرة الهادئة مصدرا لعدة كتب عن إفريقيا خطها قلمه الخصب.

ويعتبر السيد بيربروجير نفسه أحد معالم الجزائر الرئيسية، فهو يقيم في هذه البلاد منذ ثلاثين سنة ويعرف آثارها أكثر من أي شخص آخر هذا بالإضافة إلى أنه أستاذ ممتاز في اللغة العربية. ويمكن القول عنه بأنه لا أحد من الأحياء يعرف الجزائر معرفته لها. وهو في الوقت نفسه رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية التي تصدر كل شهرين «المجلة الإفريقية» الهامة التي انطلقت منها أشعة كثيرة لتضيء ماضي الجزائر البعيد.

عندما رأيت هذا العالم للمرة الأخيرة كان مهموما جدا. فقد أخره المهندسون الفرنسيون، هؤلاء الفندال المحدثون، بأن بناية المكتبة قد حكم عليها بالهدم. فحاولت أن أشجعه غير أنه قال :

ـ لا فائدة من ذلك. لقد صدر الحكم على المكتبة. فيجب أن يسقط معبد الفن العربي الجميل بأعمدته المرمرية وزخارفه، لأن السادة المهندسين

يريدون ان يقيموا هنا بطارية. وبما انه يبدو أن في الجزائر قانونا لضرورة يقضي بان يختفي كل ما هو جميل بأسرع ما يمكن، فإنه لن تمضي سنة حتى يهدم هذا المعبد الصغير للعلم. وستستمر في نفس الطريق جميع البنايات العربية الجميلة الباقية. وربما سيظل الإنسان يرى في محلها تلك الدور الفرنسية الضخمة الشبيهة بالثكنات إلى أن تثبت هوة أرضية، أن نوع البناء الفرنسي ليس شنيعا فحسب، وإنما هو أيضا غير عملي في هذا البلد.

وفي الجزائر عدد كبير من الدكاكين أو الحوانيت التي يصطف بعضها إلى جانب بعض، ويطلق عليها العرب اسم السوق والأوربيون اسم البازار. ومن اكبر هذه الدكاكين وأشهرها دكان خاص بالبضائع الفاخرة يقع قرب الميدان الرئيسي ويستطيع الإنسان أن يشتري منه جميع أدوات الزينة والحلي الشرقية ويجد فيه أيضا تلك الأحذية النسائية الجزائرية اللطيفة، وتدعى البلغات، وهي معقوفة الرأس ومخملها مطرز بالذهب بكثرة. والى جانبها نعال النساء نصف المستديرة، وتسمى الشبرية، والبابوج المغربي المشهور وتوجد كذلك الأسورة المتنوعة المصنوعة من جواهر زجاجية مختلفة ألوانها أو من أصداف أو من خيوط ذهبية مفتولة تشبه النقش العربي، أو من قطع الذهب العربية المتماسكة أطرافها.

ويشاهد المرء هنا أيضا فم النارجيلات العربية المرصعة بالجواهر وإلى جانبها تلك الفناجين الشرقية الصغيرة التي لا مقبض لها ومن ثم لا بد أن يمسكها المرء بواسطة صحن محزم يشبه الظرف الخاص بأكل البيض، والبرانيس و« الحياك » تلك الشالات الجزائرية التي أصبحت الآن بدعة في أوروبا يراها المرء مكومة في دكاكين البازار. أما الأثاث الوطني فلا يوجد منه شيء يخول للمرء الاختيار أو لا يوجد سوى أبسطة إطلاقا. وما حاجة إنسان، مثل العربي، لا يجلس أبدا ذلك الجلوس المعروف عند الأروبي على الأقل، وإنما ينام أو يتربع أو يجلس القرفصاء، إلى الأثاث ؟ فالكراسي

والأرائك والمناضد والدواليب والخزانات ذات الأدراج والمكاتب أشياء مهولة لدى أهالي البلاد وما كان وجودها في البيت إلا ليزعج العربي. وقد جلب انتباهي منضدة صغيرة في علو كرسي واطئ يبدو أن كونها واطئة قد خص به أناس يقضون حياتهم فوق الأرضية. كانت مثمنة ومصنوعة من خشب الصندل ومزخرفة بالصدف والعاج ولها أربع قوائم مزينة. هذه المنضدة الصغيرة كانت فيما يبدو بالنسبة للعرب والحضر سلعة فخمة بحيث لم يفكر احد في شرائها.

وهناك صناديق خشبية تشبه حقيبة الثياب تقوم مقام الخزانة ذات الأدراج، وهي مصبوغة باللون الأحمر ومزخرفة بالنقش العربي المذهب أما ذلك الأثاث الذي يعتبر لدينا عربيا، وهو الديوان، فلا يمكن العثور عليه في الجزائر إلا في الدور الفرنسية. فالعربي لا يجلس، كما قلنا، إلا فوق الأرضية، ويضع فوقها في أحسن الظروف زربية وفي أغلب الأحيان حصيرة فقط. والزرابي التي يتصور الأروبي وجودها في كل بيت عربي لا يعرفها الحضر إلا في النادر، ذلك أن أغلبهم لا يملك سوى زربية واحدة يؤدون صلاتهم فوقها ثم يطوونها بعناية، وأرضية الغرف لا تغطي حتى عند الأغنياء أنفسهم إلا بالحصائر.

كانت لأصحاب دكاكين البازار أفكار غريبة عن عمليات المساومة. فقد سألت واحد منهم :

- كم سعر محفظة النقود العربية هذه ؟

فأجاب :

- أربعة فرنكات.

قلت وأنا أتأهب للذهاب :

- إني أجد هذا الثمن مبالغا فيه.

ـ كم تريد أن تدفع إذن ؟

فرنكا ونصفا.

ـ خذها!

حين أردت أخذ محفظة النقود همس يهودي في أذني :

ـ كان ينبغي لك أن تعرض عليه فرنكا واحد فسوف يبيعها أيضا.

إن السائح الذي لهج بالشرق ويأمل من كل قلبه أن يرى في هذه المنتجات الفنية والصناعية المعروضة للبيع هنا شيئا شرقيا أصيلا، سوف يشعر بخيبة أمل حين يستفسر عن أصل هذه الأعمال الفنية الجزائرية. عن أغلب هذه السلع قد صنع في باريس. فالبرانيس ذات اللون الفضي، وأحياك المطرزة بخيوط الذهب والفضة التي تشتريها سيداتنا الأنيقات ويتصورن أنهم يملكن حلي شرقية، أصلها من باريس أو من معامل ليون!

محافظ النقود المغلقة بالمخمل والمطرزة بالذهب تصنع هناك أيضا، والفناجين وأفواه الغلايين تأتي من مدينة لعب الأطفال.... من مدينتنا الألمانية المحبوبة نورنبيوغ. حتى الطرابيش، أغطية الرأس التي يتميز بها المسلمون، من صنع فرنسي. وهناك طبعا طرابيش تونسية، والعارف يفضلها على غيرها بلا حدود، ولكنها غالية بالنسبة لوسائل أغلب العرب المحدودة. إلا أن هذا لا يمنع اليهود من أن يبيعوا لزبائنهم من العرب الأغنياء طرابيش فرنسية بأثمان مضعفة على أساس إنها تونسية.

لقد رأيت في دكان يهودي لعبة عربية، بدا لي أنها تحمل طابعا عربيا صرفا. كانت لعبة حمراء ذات أدراج ولها أرضية ثلاثية قصد اللعب بها وكانت مزخرفة بالنقش العربي وفوقها الهلال، فسألته :

ـ كم ثمن هذه اللعبة ؟

فكان جوابه المضحك :

ـ عشرة فرنكات.

فأجابت ثائرا :

ـ لن أدفع ثمنا لها أكثر من ثلاثة فرنكات.

فقال اليهودي :

ـ لا أستطيع بيعها بهذا الثمن فهي تكلفني خمسة فرنكات في مصنع أوفنباخ.

إذن اللعبة العربية مصنوعة في أوفنباخ!

قلت لليهودي :

ـ ألا تستحي من بيع أشياء مصنوعة في أوفنباخ كبضاعة عربية ؟

فأجاب اليهودي :

ـ ما العمل، يا سيدي ؟ إن البدو لا يشترون منا شيئا. والسواح، ولا زبائن لنا سواهم، أغنياء على الأغلب بحيث إنهم يعتبرون كلما رسم فوقه هلال عربيا.

كل ما استطعت أن أتوصل إليه هو أن الأحذية والنعال هي الأشياء الوحيدة من بين ما يسمى بالمصنوعات الجزائرية، التي تصنع بالجزائر. أما بقية الصناعات الأخرى التي يظن الغريب الساذج أن موطنها إفريقيا فقد هاجرت إلى باريس وليون ونورنبيرغ أو أوفنباخ.

ـ لم يعد الشرق في الشرق. الشرق في باريس، في زاوية دكان للتحف أو مخزن أو محل للأزياء. وإذا كان الإنسان لا يزال اليوم يتحدث عن الشرق فإن ذلك يحدث غالبا كعلامة تجارية لخداع السذج!

سوق القيصرية



سوق بباب عزون

الفصل الثالث

دايات الجزائر

الماريشال - الغداء - زوجة الموظف - ذلك سهل جدا - هذا لا يمكن إطلاقا - الغزو في المحامل - المعاون المحتال- المكتب العربي - حفلة المستعمرة- المارشالة المدربة عسكريا - أبطال القصص المحدثون - قلة المشرفات - سائحة مزوقة - الحاكم الجديد - خطبة التهكمية - البطن الكبير - الصلعة - الأنف الأحمر - نكت قاسية - مدافع ملكوف.

كنت قد أخذت من باريس توصية رسمية إلى حاكم الجزائر، لأني كنت انوي زيارة داخل الجزائر واعلم أن ذلك غير ممكن دون إذن من السلطات العسكرية. وكان المارشال ر. يشغل هذا المنصب المحترم عند حضوري إلى الجزائر لأول مرة. ولم أكن قد قدمت إلى الجزائر للمشاركة في الحفلات الفرنسية، ولكني، لسذاجتي، تصورت أن الحاكم أفضل من يقدم على إعطاء معلومات وتقديم تسهيلات تتعلق برحلاتي داخل البلاد. وهكذا سلمت رسالة التوصية ودعيت لتناول الطعام على مائدته.

لقد كان غباء مني أن آمل سماع أشياء كثيرة عن إفريقيا في بهو حاكم لمقاطعة إفريقية، ولذلك ندمت على هذا الخطأ اشد الندم إذ حكم علي عندئذ أن اسمع حديث زوجة موظف فرنسية، أجلست إلى جانبي على المائدة لمدة ساعة ونصف. وكانت تحمل أكثر الأفكار الإقليمية سذاجة عن العالم. ولعل كونها لا تعرف أن العربية لغة، يحدد مستواها الثقافي!

فكانت ترى أن لغة البدو ليست شيئا آخر غير لهجة محلية! لهجة أقليمية من الجنوب، على حد تعبيرها الساذج. ومن ثم بدا أني لم أخف في نفسها انطباعا أفضل من الإنطباع أفضل من الإنطباع التي تركته هي

في نفسي. فعندما لاحظت أني لا أعرف شيئا عن عاصمة ولايتها قطعت حديثا معي وقصرت مهمتها على دراسة الأطعمة!

وبعد تناول الطعام أقبل علي المارشال العجوز القصير وسألني بابتسامة كبرياء عن مشروع رحلاتي، فأسرعت أحدثه عنه بعد أن انتظرت هذه الفرصة طويلا. ولما تساءلت عما إذا لم يكن هناك ما يحول دون تنفيذ مشاريعي هذه أو تلك، أجانبي المحارب القديم : » ذلك سهل جدا!« ولكن الضباط والمعاونين والجنود الفرنسيين كانوا يرون رأيا آخر، فحين شرحت لهم الأمر أجابوني بلهجة أكيدة قائلين : » هذا لا يمكن إطلاقا! « فمن أصدق إذن ؟ فليس بين هؤلاء السادة طبعا من رأى داخل البلاد.

كان الضباط المتألقين الشبان يعيشون في الجزائر حياة حافلة بالسهرات والحفلات كما لو أنهم كانوا في باريس، ولا يهتمون إطلاقا ببلاد البدو هذه ن كما يسمون إفريقيا احتقارا! كان المارشال الهرم شديد الاهتمام بسنواته الستين أو السبعين وبشاربه الجميل الأبيض الذي يشبه شارب القط وأمراض مفاصله الكثيرة، بحيث إنه لم يكن يجد الوقت للاستفسار عن المقاطعة التي يحكمها. حقا لقد قاد البطل الكبير حملة ضد القبائل، ولكنه، كما روى لي احد مساعديه، كان في خلال ذلك يسير في الليل بسبب الحرارة أو يجلس داخل محمل في أغلب الأحيان. فهل كان في مقدوره إذن أن يرى شيئا من البلاد ؟ لقد أدعى المساعد المحتال أن رئيسه كان باستطاعته أن يرسلني إلى مكان لا وجود له في الحقيقة.

تعرفت فيما بعد وبطريق الصدفة على ضابط يعمل في ما يسمى بالمكتب العربي، فعلمتني الخبرة أن جميع الضباط الموجودين في الجزائر لا يعرفون أي شيء عن المواطنين وعن داخل البلاد باستثناء أولئك الذين يشتغلون في المكتب المذكور، الذي يشرف على معاملات المواطنين ويقوم بتسويتها. وبواسطة هؤلاء فقط أمكنني بعد ذلك أن أجوب داخل البلاد

بتوصيات وتسهيلات، وأطوف بمختلف أطرافها.

وهكذا لم أكسب في قصر الحاكم شيئا ذا أهمية بالنسبة لهدفي. وكان حتما علي أن اكتفي بدراسة حفلات هذه المستعمرة.

إن الجزائر مستعمرة عسكرية بأتم معنى الكلمة! فالعنصر المدني، الذي تعامله الحكومة قاسية، يعيش هنا في عزلة. وعلى الرغم من وجود وال وجيش من الموظفين المدنيين، فغنهم يقومون بدور ثانوي مهين. أما أولئك الأشخاص الذين لا يساعدهم الحظ على أن يكونوا موظفين، ففي استطاعتهم بالتالي أن يكونوا سعداء إذا اعترف لهم بحق الوجود، ور يمكن الحديث هنا عن إمكانية مشاركتهم في الحفلات التي تقيمها الطبقة المفضلة في هذه البلاد.

لذلك حدث أني لم أر في قصر الحاكم سوى البزات العسكرية تقريبا. وكانت المارشالة المدربة عسكريا تستقبل الضباط الكبار بابتسامة متكلفة والمعاونين بهزة رأس ناظرة إليهم من أعلى والضباط الصغار بانحناءة لا تكاد تبين. أما الموظفين المدنيون، الذين حضروا في قلة ببدلات بشعة إلى هذا المكان المقدس، فكان يبدو عليهم خضوع يناسب رتبهم الحقيرة وشعورهم بها!

ولم تكن هذه الصفة الأخيرة تنطبق على الضباط وأقل من ذلك على أولئك الذين أتاح لهم الحظ أن يكونوا مساعدي الحاكم القدير. وكان يبدو على البعض من هؤلاء السادة أن الغرور قد وصل بهم إلى درجة مضحكة. فالبطولات التي أرادوا نسبتها إلى أنفسهم كان بإمكانها انم تتيح لروائي تحلية بطلة الأول وزيارة.

أما ما يخص النصف الأجمل من الحفلة، فلم يوجد منه سوى نماذج قليلة. ذلك أنه من الصعب جدا أن يجمع المرء عددا معينا من النساء

المهذبات اللواتي هن جديرات بالظهور في بهو الحاكم. وأغلب زوجات الضباط لسن مشرفات إطلاقا. هناك عدد من الجنرالات الكبار وبعض الموظفين المدنيين لهم شريكات يناسبن رتبهم.

وبين الحين والآخر تصادف أجنبية ما نبيل تزور هذا الشاطئ كسائحة، في قاعات الحاكم. فقد رأيت فيها أميرة روسية لها اسم طويل بشكل رهيب، ينتهي بـ أوف الضرورية. عن هذه السيدة النبيلة قد راق لها أن تقضي سنواتها الخمسين خلف طبقة من المساحيق، ولكنها لم تنجح في ذلك كما لم تتمكن بضفائرها المتماوجة وأسنانها البلورية الجميلة المصنوعة في باريس من خداع الناس. ولم تكن هذه السيدة هنا في المكان اللائق بها، أي أنها لم يعجب بها أحد فقط، بل إنها لم تقدر حق قدرها ولم تفهم. فالسائحة بالنسبة للفرنسيين كائن غير مفهوم. إن الفرنسيات لا يستطعن أن يفهمن كيف يستطيع المرء أن يسافر في الشتاء إلى مكان آخر غير باريس وفي الصيف إلى شاطئ البحر. أما السفرات الأخرى كلها فهي مغامرة. هكذا كانت الأميرة... أوف حقا عظمة لم تفهم، عبقرية غامضة، ومن ثم لم تبق مدة طويلة في بلد شديد القسوة، لم ينظر إليها، هي السائحة الأنيقة، فيه غير نظرته إلى مغامرة.

وفيما عدا ذلك هناك تقليد وحيد ممتاز في الحفلات الفرنسية وهو انه في مقدور الإنسان أن ينصرف دون أن يودع ربة البيت، وهذا ما نسميه عندنا اوداعا على الطريقة الفرنسية» فأغتنمت فرصة هذا الإذن وشيكا ومضيت إلى غرفتي الهادئة في فندق الاريجانس».

عندما أتيح لي في الشتاء الماضي (1861-1862) أن أجيء الجزائر مرة أخرى وجدت بطلا آخر يجلس على كرسي الحاكم المبطن بالمخمل، أعنى الدوق مالكوف الذي اشتهرت في حرب الكريم. وكانت آراء الجزائريين في

حاكمهم الجديد متباينة. ولم يبتهج على العموم إلا القليل منهم لما قام به صاحب الفخامة الجديد من أعمال.

إن بيلسيير إنسان فظ طويل البال، لا يصلح لحياة الصالونات. فهو يقول ما يفكر فيه وغالبا ما يفكر في أشياء لا تسمح قوانين اللياقة بقولها وقليل هم الفرنسيون الذين يقدرون صراحته التي تتحول أحيانا وبطبيعة الحال إلى قسوة. وقد جرحت صراحته هذه، خلال سفرة قام بها في مناطق الجزائر، مشاعر الضباط والموظفين الذين تعودوا على نفاق الصالونات. وكانت ملاحظات هذا المحارب القديم، التي جابه بها رؤساءه كاشفا عيوبهم المختلفة، جديرة ولاشك بان تثير حسرة كبيرة في قلب المشاهد المحايد، ولكن بما انه لم يستطع احد البقاء على حياده، وان كل من تعرض لسخرية المحارب القديم مما يصفه الفرنسي بأنه أحسن ما لديه، أعني مظهره الخارجي، قد نتج عن ذلك استياء عام. فقال هذا الساخر الذين لا يلين لضابط كبير ضخم الجثة : «إن لك بطنا كبيرا، لا يليق به اللباس العسكري إطلاقا. إلا يمكنك أن تشتري صدارا ؟

وكذلك اضطر نائب العمالة إلى سماع تلميح قاسي إلى هامته الجرداء : الو كانت لي صلعة مثلك لاتخذت شعرا مستعارا، والشعر المصنوع من شعر الكلاب ارخص الأنواع فبإمكانك إذن أن تدفع ثمنه بسهولة».

كانت ملاحظات بطل سيباستبول، التي تعود أن يدهش بها الشخصيات المكونة للدائرة، من هذا النوع. وقدم لموظف آخر دليل على أن الطبيعة قد حبته آنفا أحمر ودعاه سكيرا.

ولكن إساءة بطل الكريم إلى قوانين اللياقة، التي كان الفرنسيون يحترمونها قديما أشد الاحترام، لم تكن تتصل اتصالا مباشرا بطبيعته. فقد كانت نكتة القاسية لطيفة أحيانا أو كان ينبغي أن تكون كذلك

على الأقل فيما إذا أراد المرء أن يقول الحقيقة حتما. وهكذا فإن الجزائر مليئة بالحكايات الملفتة للأنظار عن مدافع مالكوف. وسأحاول التعبير عنها بكلمات اصطلاحية.

في احد الاستعراضات العسكرية التي تقام عادة يوم كل احد في الميدان الرئيسي بالجزائر، كان بطل سيباستبول قد بدا أما الجنرالات وضباط الميدان، الذين كانوا مرافقين له في أثناء لاستعراض، لطيفا مستخفا. وقد تم كل شيء على مايرام ونجح الاستعراض نجاحا كاملا، نال رضاءه التام، بحيث قرر في غمرة سروره أن يزود حاشيته الرسمية بنكتة قصيرة من نكت الجنود.

فعندما التفوا حوله، وكان الحديث يدور صدفة عن حرب الكريم، سأل فجأة اكبر الجنرالات سنا، عما إذا كان قد سمع بأذنيه مدافع مالكوف ؟ ولكن بما ان هذا الجنرال لم يشارك في حرب الكريم فقد أجاب بطبيعة الحال بالنفي وعندئذ صاح المحارب القديم اللطيف : إذن أريد أن أهيئ لك الفرصة لتستدرك ما فاتك».

وبعد لحظة سمع الملتفون حوله صوتا مدويا بالفعل لم يشكوا في مصدره وقال اللواء الظافر للحضور الذين تقاسمهم المرح وحمرة الخجل:

ـ ها هي مدافع مالكوف!

الفصل الرابع

ضواحي الجزائر

قبة سيدي عبد الرحمن - بستان مارينغو - حديقة الحيوانات - تمثال نابليون الأول - لقد حلم بهذا الفتح .الحي الصحي - قلعة الأربع والعشرين ساعة .قديس كاتوليكي جديد - قلعة الإمبراطور - شارل الخامس أمام الجزائر-مصطفة العلوي - حفيد الباشا بوصفه لباسا أصليا - (حديقة التجارب) الدار البيضاء - المدينة الصوفية - نقل المدن.

يفاجئ نظرنا أمام باب الواد من فوق التل الغربي ضريح في غاية الروعة لولي مسلم هو سيدي عبد الرحمن الثعالبي. وهذه الأضرحة، التي يسمعها العربي «القبة» والفرنسي «المرابط»، كثيرا ما تتخذ شكل المسجد ويكون لها مصلي مقبب. وليس من النادر، كما هو الأمر بالنسبة لهذا الضريح، أن تحتوي على منارة مزخرفة. وهذه المنارة تكون مع نخلة فاخرة إلى جانبها منظرا جميلا ذا طابع شرقي يكاد يصعب اليوم العثور على مثله في الجزائر.

وقلما يحدث إلا يجد المرء أمام باب الضريح سائلات عربيات تقدمت بهن السن جدا، ورغم ذهاب جاذبيتهن فإنهنّ كنّ لا يزلن يحملن الحجاب. ويجب على الإنسان إلا يمنحهن أي شيء إذا لم تكن له رغبةٍ في أن تقبل يده بالقوة مائة مرة على الأقل، ولا يجوز للرومي (المسيحي) في الواقع أن تطأ قدمه القبة. وبرغم ذلك أتيح لي بطرق ملتوية أن ادخلها ورأى داخلها مع وجود عدد من الطلبة المصلين الذين لحسن الحظ أروني ظهورهم أثناء صلاتهم. كانت القبة عبارة عن قاعة مثمنة ذات حنيات بشكل مخروطي في كل جانب، تسندها أعمدة مرمرية. أما ضريح الولي فيقع على يمين الداخل، وله شبه سرير فخم كبير الحجم، وهناك أغطية مخملية نفيسة

تستر الضريح. إن رفاة الولي مدفونة تحت هذا الفراش، ولكن الخيال الورع يستحضر في الفراش نفسه مثوى الولي الأخير. والمسلمون يؤدون صلاتهم بخشوع أمام ضريح سيدي عبد الرحمن.

عندما دلفت خطوتي النجسة إلى القاعة لم يسعني إلا أن أتأثر لبساطة العبادة الجميلة وجلالها الذي يهزأ بكل فتنة، ومع ذلك لا يبلغ حد الإسفاف في الابتذال! لقد انتصبت هناك أمامي جماعة من الشيوخ يهمسون بالآيات القرآنية الشاعرية، وقد أحنوا رؤوسهم في اتجاه الشرق، وبين الحين والآخر تنطلق تنهدة من أحد الصدور، وفي بعض الأحيان كان أحد هؤلاء الأشخاص المتلفعين بالبياض يخر بوجهه فوق الأرض بصورة مباغتة. كانت هناك عتمة صوفية تسود قاعة الضريح، وقد بدا أن روح الولي تحوم حول هامة إتباعه الباهتة.

كان سيدي عبد الرحمن أبنا حقيقيا للجزائر، أجل لقد كان ينتمي إلى الأسرة التي حكمت الجزائر قبيل مجيء الأتراك، ويعتبر الأمير الأخير ابن التومي الثعالبي الذي خلعه عروج بربروسا عن العرش، ابن عم للولي. وقد توفي المرابط بالجزائر سنة 1469، وهو الذي أشار على الطاغية عروج تلك الإشارة الغريبة، وهي ان يحكم دائما بمساعدة الأتراك وألا يجعل لعربي وظيفة في حكومته وكانت تلتف حول ضريح الولي قبور كثيرة من قبور المسلمين كالتفاف الكتاكيت حول الدجاجة، فهم ينون أنهم بهذه الطريقة الصوفية يشاركون الولي في قداسته.

يقع تحت القبة المذكورة بستان مارينغو الغني بالنباتات الجنوبية. هنا تنشر النخلة الهيفاء سعفها الجميل، وشجرة اليوكا ترفع رأسها الشبيه برأس النخلة في جلال، وبحر من الصبار المتنوع يتعانق فوق الأرض متخذا أشكالا والتواءات غريبة. وقد أقيمت في ظل الأشجار حديثا حديقة للحيوانات خاصة بالمجموعة الحيوانية الإفريقية يقوم فيها شبلان جريئان

بألعاب صبيانية مرحة، أما نمر التل وفهد الصحراء فيتركان فروهما الذهبي يلتمع في شعاع الشمس. وكان قرد وادي الشفاء يقوم بألعابه الشبيهة بأعمال الإنسان البهلوانية أمام جمهور عربي، وضبع الأضرحة الإسلامية يجرجر خطاه البطيئة العرجاء على طول القبضان الحديدية.

وفي هذه الحديقة ينتصب أيضا في ظل أشجار الدلب تمثال نابليون الأول. وهذا الرجل الكبير لا علاقة له في الواقع بالجزائر، ومع ذلك فإن له مكانه فيها لأنه كما يستفاد من النقش، حلم بفتح الجزائر على يد الفرنسيين. عن المرء ليبحث عبثا في البلدان التي فتحها نابليون بالفعل عن تمثال له، ولكن هذا التمثال النصفي موجود في الجزائر التي حلم بفتحها مجرد حلم! وهو يقينا ميزة فرنسية أصيلة!

قرية سانت أوجين الغنية بالدارات التي تبدأ غير بعيدة من بستان مارينغو وتمتد حتى «بوان بيسكاد» تمثل الحي الصحي لمدينة الجزائر. فهذه النقطة السعيدة لم تصبها أبدا لا الكوليرا ولا الحمى.

أما قلعة الأربع والعشرين ساعة المهدمة حاليا، فكانت تقع أما باب الواد مباشرة. وقد عثر العمال خلال عملية التهديم على هيكل عظمي داخل جدرانها السميكة، قال عنه أسقف الجزائر في الحال إنه هيكل عربي ولد في وهران وتنصر وأصبح تحت اسم هيرو نيموس قسا دومنيكيا في اسبانيا. ويقال إن هذا القس قد مات شهيدا في غضون القرن الماضي، ذلك أن باشا الجزائر أمر بأن يلحم بالجدار حيا، لأنه رفض بشدة أن يعود إلى دينه الأصلي، وليس من المؤكد أن يكون ذلك قد حدث في قلعة الأربع والعشرين ساعة، ولكن الأسقف لم يدع الفرصة تفوت دون ان يهدى لكنيسته قديسا جديدا!

وباب عزون الذي يقع في الجهة المقابلة لهذا الجانب من المدينة تماما يضفى بالتالي إلى الضاحية إيزلي، وهي قسم فرنسي جديد كل الجدة،

يوجد به المسرح وتمثال بوجودي إيزلي وخان السراي الحديث وسوق الحبوب وعدد من الثكنات.

وهذا الحي من المدينة تعتليه الإمبراطور القائمة فوق التل في جلال، وأسمها لا يرجع في أصله إلى العصر الحديث خلافا لما تحاول الإمبراطورية الفرنسية الجديدة أن توهم الناس بذلك، كلا! إن قلعة الإمبراطور قد سميت قيصر ألماني. فمن هذا المكان، حيث لم تكن ثمة قلعة في القرن السادس عشر، وإنما كانت هناك قبة صغيرة تدعى سيدي يعقوب، تمت حملة شارل الخامس الرئيسية على وكر القراصنة،والمعروف أن هذه الحملة قد منيت بالفشل الذريع نظرا لرداءة الأحوال الجوية. ويبدو أنه من الصعب تقريبا أن ندرك ما يقوله المؤرخون القدماء من أن الجيش الأسباني قد قطع مسافة ما بين هذا الموضع ومكان الإبحار عند نهاية ميناء الجزائر (وهي مسافة يقطعها المرء في ظرف ثلاث أو أربع ساعات مشيا على الأقدام) في ثلاثة أيام كاملة. وقد أسرع أتراك الجزائر، الذين كانوا في كل مرة يعرفون، عن طريق عدوهم، مواطن الضعف في تحصيناتهم فيعملون على تدعيمها... وبعد انسحاب الأسبان تبين لهم أنه يجب عليهم إقامة قلعة وبالفعل أقاموها وعرفت بقلعة الإمبراطور وهي التي احتلها الفرنسيون يوم 4 جويلية 1830 بعد أن أطلقوا عليها نيران مدافعهم مدة خمس ساعات. أما قلعة الإمبراطور الموجودة اليوم فهي جديدة.

وقرية مصطفى الكبيرة التي تقع في مكان شاعري وتجاور ضاحية إيزلي المذكورة آنفا، تستحق أن تدعى مدينة الدارات. وقد استمدت اسمها من رابع دايات الجزائر الأخيرين، هو مصطفى باشا، لقد أحسن سابقا إلى حسين المجهول آنئذ، الذي قدر له أن يكون آخر خلف له، فاسترد له حريته من النيابولتانيين، وعمل على رفع شأنه. كان مصطفى قد أمر بإقامة داره فوق التل الذي يحمل أسمه وأحاطها ببستان جميل، وهي الآن المنزل

الريفي لحاكم الجزائر.

ولا يزال أحفاد هذا الباشا يعيشون في الجزائر وقد تعرفت أنا شخصيا على حفيد له، تقدم له الحكومة الفرنسية معاشا شهريا مقداره 600 فرنك تعويضا له عن الضياع والمنازل التي افتكتها منها! هذه الشخصية الغريبة تحاول أن تعوض عظمتها الضائعة بارتداء الأزياء العربية الفاخرة بقصد جلب أنظار الفضوليين إليه، وكانت عمامته الحريرية التي تغطي رأسه الانكشاري القديم ذا الأنف الأقنى واللحية السوداء، كبيرة جدا بحيث إنه في الإمكان أن تصنع منها منامتين، واسعتين وكانت سراويل هذا الأصيل واسعة وفضفاضة بصورة مضحكة إلى درجة أنه في وسع المرء، كما أكد لي صديقي العربي سيدي حمود، أن يحول قماشها إلى ألبسة يكسو بها عائلة لها عدد من الأطفال.

أما مصطفى السفلي الواقع تحت حدائق الباشا القديمة فهو مدينة لغرس الفواكه والأزهار، وحقول البرتقال. وتوجد في هذه البساتين ناعورة، هكذا تسمى آلة الري،يحركها بغل، تزوده بالمياه.

وعلى مسافة بعيدة نوعا ما حديقة التجارب (جاردان ديسي) الواقعة قرب البحر، وهي مليئة بالنباتات الاستوائية وغيرها، نصفها حديقة نباتات والنصف الآخر يشتمل على أشجار لنباتات الجنوب، فيشاهد المرء هناك القطن والغار الهندي والصبار، والموز وأرز لبنان والأطلس ويرى كل أشجار الجنوب تقريبا مجتمعة فيه. وما أقل المدن التي لها بالقرب منها مثل هذا الكنز الذي للجزائر في هذه الحديقة.

ومن الـ « جاردان ديسي » ينطلق شارع على شاطئ البحر نحو حسين داي، وكان قديما ضيعة لآخر داي للجزائر، ولكنه الآن قرية لمستعمرين الأوروبيين.

وعند تتبع طريق الشاطئ يصل المرء إلى قلعة الدار المربعة التي بناها الأتراك وتدعى بالعربية الحراش. والجسر الممتد فوق وادي الحراش من الجسور العربية القليلة التي يعثر الإنسان عليها في إفريقيا. وقد نقشت فوق العمود الذي يتوسط الجسر أبيات عربية يذكر فيها ابراهيم بن رمضان باشا على أنه هو منشئي الجسر سنة 1149 (1736).

هناك بعض من الناس يريدون أن ينقلوا مدينة من العصر العربي القديم، تدعى ساسة إلى مصب وادي الحراش . ويدعى بعض العرب، مثلما يدعى بعض الأروبيين أيضا، أنها المدينة التي سبقت الجزائر، ونقلت حجارتها في القرن الثاني عشر إلى المكان التي توجد به الجزائر الآن، لبناية مدينة اليوم.

وبمقتضى هذه الأخبارالغريبة يجب أن لا تكون ايوكسيوم القديمة قد قامت حيث تقوم الجزائر اليوم، بل ينبغي البحث عنها هنا عند مصب الحراش. فتلك الآثار والنقوش الرومانية التي عثر عليها في الجزائر لا بد أن تكون إذن قد نقلت مع حجارة ساسة العربية إلى هذه الجهة. يجب أن يعترف المرء بأنه لا يستطيع أن يصدق بانتقال المدن إلا إذا كان له رأي خاص في علم الآثار!

الفصـــل الخامس

ميناء الجزائر

الجزر الأربع - القرصنة - بناء «البنيون» - عروج بارباروسا وآخر ملك عربي للجزائر - إهمال «البنيون» - الاستيلاء عليه - سد خير خير الدين - حوض الميناء - ولي الميناء - الغوث - 285000 ألف شر - شفاء العاقر - تضعيف صوفي لجثة.

إن من يشاهد اليوم ميناء إيكوسيوم القديمة في وضعه الراهن لا يكاد يعرف كم من تجارب قرون عدة، ومجهودات إنسانية، وتكاليف ضخمة كان يتطلبها إيجاد هذا الأثر الذي يبدو لنا اليوم بسيطا جدا. فالجزائر بطبيعتها لم يكن لها ميناء. فقد كانت هناك جزر أربع، أو بالأحرى صخور، تبعد عن الأرض ببضع مئات من الأقدام تقدم للسفن فيما بين الصخور المسننة والبر ملجأ متبعا جدا. ومن ثم بقيت ملامحة الجزار البحرية حتى أيام خير الدين باربروسا، أول من بدأ ببناء الميناء، بلا أهمية.

إن سادة »ايكوسيوم« القديمة قبل الأتراك، وهم من بني مزغنة،إحدى قبائل متيجة، الذين استمدت الجزائر منهم أسمها في القرون الوسطى لم يكن لهم اهتمام بالتجارة، ولكنهم مارسوا القرصنة إلى أبعد حد. فكانت هذه تمد رؤوسها كثعبان الهيدرا المتعطش للدماء نحو جيرانها في حوض البحر الأبيض المتوسط، فأصبح لزاما عليهم أن يدفعوا لها الإتاوة، وإن رفضت دولة من الدول دفع هذه الضريبة المهينة، فعليها أن تتوقع أن ترى عاجلا الكثير من أبنائها يقادون إلى عبودية المسلمين وبناتها يحملن على حريمهم. وقد تأذيت إسبانيا على الخصوص من شجع الجزائريين[1] .

(1) يفهم من كلام ما لتسان أن القرصنة كانت مقصورة على الجزائريين، وهذا مخالفا للوقائع التاريخية، فقد كان لإسبانيا نفسها قراصنها، لاسيما بعد طرد العرب من أراضيها. وعانت من قراصنة انجلترا وهولاندا بعد اكتشاف العالم الجديد. انظر حرب الثلاثمائة سنة لتوفيق المدني، ص72 وما بعدها.

لهذا اتخذ الكاردينال خيمينيس، أقوى وزراء إسبانيا أيام فرديناند وإيزابيلا، قرارا جزئيا، وهو أن يقضي على القرصنة من أساسها وكانت أهم مدن الجزائر الساحلية في ذلك الوقت، وهي مدينتا بجاية ووهران، قد سقطتا في يده عندما استولى سنة 1510 على جزر بني مزغنة وأمر ببناء قلعة فوق أكبرها، وذلك بقصد إرغام سكان الجزائر على الخضوع له. وقد سيطر هذا «البنيون» أو «البنون» ، هو اسم قلعة الجزيرة هذه، على المرفا كله، واستطاع أن يجمد القرصنة الجزائرية مدة وجوده، أي خلال سبعة عشر عاما، ولكنه لم يقض عليها نهائيا. وقد وصل الكاردينال خيمينيس إلى الحد الذي اجبر فيه أمراء الجزائر على الاعتراف بسيادة قشتالة. أجل، لقد علق شعار قشتالة فوق أبواب المدينة علامة على تفوق أسبانيا[1].

ولكن القراصنة لحما ودما، وهو ما كان عليه الجزائريون، لايستطيعون احتمال وضع من هذا النوع لمدة طويلة[2] . ولهذا دعا سالم التومي الثعالبي، آخر ملوك الجزائر من أهليها القرصان الشهيرعروج باربروسا لمساعدته، وهي خطوة لم يلبث أن ندم عليها .ـ وما كاد عروج يصل إلى مزغنة حتى آزال ربيبه سالم عن العرش، واستولى على المدينة، وبدأ حكومته بإعدام الحاكم الشرعي الذي دعاه إليه.

كان لا بد أن يصبح وجود الإسبان في « البنيون » شوكة في عين أكبر القراصنة. ولذلك نره في حرب متواصلة تقريبا مع حامية قلعة الجزيرة هذه ومع الاسبان الذين أسرعوا إلى نجدتها. وفي سنة 1516 تغلب على أمير البحر الإسباني دييغودي فير، الذي كان قد وصل بأسطول لنجدة الحامية،

(1) يذكر المؤرخون ان هذه العمليات الحربية قد تمت على يد بيدرو نافرو وهو الذي اشرف على بناء « البينيون »، وليس من المؤكد ان يكون خمنيس هو الذي اتخذ قرارا بشان ذلك كله. انظر جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص: 252 ـ 253.

(2) من الغريب ان يرجع مالتسان أسباب دعوة الجزائريين للاتراك إلى القرصنة المتمكنة منهم لا إلى رغبتهم في إبعاد الخطر عن المدينة، وخصوصا ان فيهم من فرّ من الاضطهاد الإسباني.



الجامع الجديد

وأنزل جنوده إلى البر عند باب الواد. وأحيط في نفس الوقت هجوما قام به حاكم القلعة نيكولاودي كينت. وكان من الضروري بطبيعة الحال أن تنتقم قشتالة من عروج. فجرت معركة بين الإسبان والأتراك فيما بين وهران وتلمسان، فانكسر عروج ولاذ بالفرار، ولكن فارسا أسبانيا لحق به في طريقه، وقطع رأسه وأرسله إلى شارل الخامس[1] . لا تزال الوثيقة، التي قدم بها هذا القيصر الرأس الشرقي كشعار للفارس جزاء له على بطولته، موجودة في مدريد.

ولم تنتفع القلعة بانتصار القشتاليين هذا. فبعد موت عروج واصل أخوه خير الدين الحرب ضد قلعة الجزيرة. وتمكن في سنة 1519 من هزيمة حملة إسبانية وصل بها هو غو دي مونكارا إلى القلعة التي لم يقدر لها أن تدوم طويلا. فقد أهمل شارل الخامس، الذي انشغل بحروب أخرى، أمر هذه المستعمرة الاسبانية إلى درجة أنه لم يصلها مدد مدة عشر سنوات، فكانت في أغلب الأحيان في حاجة إلى أكثر الأشياء ضرورة بالنسبة لها.

ولم يكن في سع الاسبان أن يستوردوا اقل شيء من البر، ومن هنا كان لابد أن ترسل المواد الغذائية من ميوركا أو من اسبانيا، وغالبا ما نقرأ عن حاكم من حكام القلعة، ركب البحر بنفسه إلى اقرب مستعمرة إسبانية لجلب المواد الغذائية. وفي سنة 1529 أصبح وضع المستعمرة القشتالية أسوا من أي وضع سابق له. بما أنه لم تأت أية سفينة إسبانية لمساعدتهم، فقد استطاع خير الدين ان يحاصر الجزيرة الصغيرة دون أن يرده عن ذلك شيء. وقد قاوم الحاكم الأخير مارتين دي فارغاس بفروسية وصمد أمام الباشا[2] . الذي كان يظن انه سيسلم له القلعة من غير ان يستعمل السيف ضده.

(1) قتل بعد مقاومة عنيفة قرب ريو صالد سنة 1818م، انظر: جوليان، ص258.

(2) لم تكن كلمة الباشا قد أطلقت على ولاة الجزائر في هذا العصر، كما هو معروف، والظاهر ان مالتسان يستعملها هنا على سبيل السخرية.

وكان ان تم عقب ذلك الهجوم على قلعة الجزيرة التي سقطت في آخر الأمر. ولم يبق من الإسبان المائة والخمسين عند الاستيلاء عليها سوى خمسة وعشرين شخصا.

وهدمت القلعة وأمر خير الدين عشرين ألف عبد مسيحي أن يبنوا بأحجارها السد الذي بلغ طوله ستمائة وثلاثين قدما والذي لا يزال إلى اليوم يدعى باسمه، فأصبح يصل المدينة بالجزر ويصل الجزر ببعضها البعض. ومنذ ذلك الحين أصبح البحر يكون مع الجزر وحدة، وصارت المدينة التي كانت قبل تدعى بني مزغنة، تسمى الجزائر.

كان هذا السد أساس ميناء الجزائر، فقد أمر حسن[1] وصالح رايس[2] اللذين خلفا خير الدين بتوسيعه. وفي سنة 1572 بني الداي عرب احمد فوق الجزيرة الرئيسية تلك المنظرة الجميلة والفنار الشبيه بالمنارة، وهما لا يزالان موجودين إلى اليوم. غير أن سد خير الدين لم يكن يكفي لحماية الجزائر، إذ ظل المرسى معرضا للرياح، ولم يكن السد إلى ذلك متينا، ومن ثم كان معرضا لاندفاع الأمواج. وما أكثر ما كانت العناصر المدمرة تجتمع عليه لإزاحته عن مكانه.

وفي سنة 1592 أيام شعبان باشا[3] كادت الزوبعة أن تحطم سد الجزيرة، ثم تهدم هذا السد، الذي أقامته أيدي الآلاف من العبيد المسيحيين، في سنة 1670 من جديد بفعل قوة العناصر. وكان الأتراك يكتفون بعد كل تدمير بحمل كتل كبيرة من الأحجار ورميها في البحر عند المكان المصاب دون أي اهتمام بما ينتج عن ذلك، وهي وسيلة خطرة. ذلك أن هذه الكتل

(1) حسن باشا بن خير الدين: وتسميه بعض المراجعه حسان، تولى رئاسة الدولة الجزائرية مرتين (1544م - 1552)، (1557م- 1568م) انظر جوليان، ص 267 وما بعدها.

(2) كان صالح رايس قد صحب عروج، وخير الدين، وشغل منصب البايلربي من 1552 - 1556م، المرجع نفسه، ص: 268.

(3) هو الحاج حسين باشا (1683 - 1688).

من الحجارة، التي لم يكن هناك ما يمسك بعضها بالبعض الآخر، كانت تهدد بالتناثر هنا وهناك عند ثورة أية زوبعة قوية. وفي سنة 1835 استطاع المهندس الفرنسي بواريل أن ينزل إلى القاع كتلا اصطناعية، جعلت لسد خير الدين متانته الضرورية.

وبعد ذلك فكرت الحكومة الفرنسية في حماية الميناء أيضا من الجهة المكشوفة، فأكمل السد الشمالي، الذي كان الأتراك قد بدأوا ببنائه، في أيام لويس فيليب، إلا أن الأرصفة الثلاثة،التي تحمي الميناء الآن من الشمال الشرقي والشرق والجنوب لم يشرع في بنائها إلا منذ قيام الإمبراطورية.

والميناء الذي تحيط به الأرصفة، وهو كما يرى المرء نتاج فني، تحتوي مساحته على 95 هكتار ويقوم في وسطه حصن صغير يدعى الجفنة. وميناء الجزائر الحديث هذا يعتبر فوق ما تتطلبه تجارتها المحدودة، فأغلب السفن الكبيرة الراسية فيه موضوعة تحت تصرف الحكومة. لقد نمت الحركة التجارية في السواحل الجزائرية،منذ بداية السيادة الفرنسية، فعلا ولكنها لم تحتل بعد المركز الذي كان لها سابقا. وهذا لا يعني أنها كانت مزدهرة في العهد التركي. كلا! ولكنها كانت كذلك قبل الأتراك، كان العديد من السفن الأروبية في أيام السيادة العربية المتسامحة يحل بالساحل كله بصورة منتظمة مما أدى إلى جعله مركزا تجاريا مزدهرا! فوضعت الحكومة التركية المتعصبة حدا دفعة واحدة.

والحصن الذي ينتصب فوق جزيرة المنارة بعد من أقوى الحصون الحديثة في الجزائر. ففي العهد التركي كانت توجد به حامية، ولكنها لم تكن تدافع عن الميناء الدفاع اللازم. وفيه وجد الفرنسيون سنة 1830 ذلك المدفع الذي كانت له شهرة أليمة،لأن الأتراك كانوا قد أطلقوا عليه استهانة وسخرية اسم مدفع القنصل حيث استعملوه آلة لتعذيب قنصلين

فرنسيين. ذلك أن الداي ميزومورتو [1] كان قد أمر وصل أمير البحر الفرنسي دوكيسن سنة 1683 لضرب الجزائر بالمدافع بناء على أمر لويس الرابع عشر بربط القنصل الفرنسي الأب باشير، الذي كان نائبا بابويا في الوقت نفسه، بفوهة المدفع المذكور وإطلاقه قطعا في اتجاه أمير البحر الفرنسي. وحين فتح قائد الحملة الجديد النار على الجزائر بعد ذلك بخمس سنوات وضع قنصل فرنسي آخر يدعى بيول في المدفع الرهيب فوصل أيضا إلى الأسطول على شكل قذيفة.

فالمرء يرى إذن أن وجود قنصلية في الجزائر في ذلك الحين لم يكن يعني الرتبة الكنسية. وقد نصب مدفع القنصل، الذي أطلق عليه هذا الاسم الهمجي، في مدينة » بريست« كعلامة على النصر وتذكار له.

وما كان ميناء الجزائر، على الرغم من التحسينات الحديثة، ليحظى بالثقة في نظر المسلمين، لو لم يوجد به ولي ما حام له. فالميناء له ولي يتمثل في شخص المرابط سيدي عبد القادر الجيلالي الذي توجد قبته على البحر تحت حصن باب عزون. ولعل هذا المرابط هو ذلك الولي الذي نال أكبر التبجيل في كامل الجزائر فمن المؤكد أن ثلاثة أرباع القبب المنتشرة في شمال إفريقيا قد أقيمت لذكراه. وهو مؤسس منظمة من أشهر منظمات »الإخوان« الدينية التي لها أتباع كثيرون في الجزائر. والشحاذون العرب أنفسهم يلتمسون الصدقة من المارين بأسمه قائلين : »أعطني على وجه سيدي عبد القادر« !وكثيرا ما كان الفرنسيون، الذين لم يكن يهمهم إلا ما يتعلق بـ »مجدهم« واللذين لم يسمع أغلبهم بعبد القادر آخر غير عدوهم الشهير الأمير الحاج عبد القادر، يغتاظون لهذا الدعاء ظنا منهم أنهم يستنجدون بخصمهم القديم، ولذلك غالبا ما كان الشاحذون يتلقون الصفعات الفرنسية بسبب دعوتهم باسم الولي!

(1) هو الحاج حسين باشا (1683 – 1688).

واسم عبد القادربالمناسبةمن أكثر الأسماء انتشارا في الجزائر. وجميع الذين دعوا بهذا الاسم يعتبرون الولي حاميا لهم. وكان هو الذي ظهر أيضا لأمير، كما تقول الأسطورة، وبشره قبل أن يقوم بثورته بأن الله قد اختاره ليكون سلطانا للعرب!

وقد عاش عبد القادر الجيلالي حياة ورع وتقوى إلى درجة أن الله وجده، كما تقول الرواية الإسلامية، جديرا بان يتحمل واجبات ما يسمى بالغوث وآثامه وجلاله الرباني، ولكن الغوث في نظر الفقه الإسلامي شخصية تقوم بدور كدور المنقذ الذي يتحمل ينفسه ؟أغلب ما ينزله الله كل سنة إلى العالم من شرور. فهو يأخذ ثلاثة أرباع من 385000 ألف شر التي تنصب فوق الأرض في شهر صفر. أما نصف الربع الرابع فيتحمله عشرون قطبا ورعا، والثمن الأخير يوزع على الخليقة كلها، والغوث لا يعيش بعد توليه هذه المرتبة المقدسة أكثر من أربعين يوما.

ولن يندهش احد لذلك، وإنما يتعجب على الأكثر كيف تبقى له بعد تحمل هذه الآلام كلها بقية من حياة ولا يسقط ميتا بعدها مباشرة. والواقع انه يجب أن يكون المرء أعجوبة، لكي يلتصق به 285000 ألف شر من مختلف الأنواع ثم تكون له بعد ذلك القدرة على الحياة لمدة أربعين يوما!

وسيدي عبد القادر الجيلالي بالمناسبةلم يمت أبدا، فقد حملته الملائكة وطارت به عن الأرض، ومنذ ذلك الحين وهو يحوم، تحيطه غلائل السحب، صاعدا هابطا في المناطق الممتدة بين السماء الثالثة والرابعة. وكثيرا ما يظهر لأتباعه الكثيرين فوق الأرض، فتبنى قبة في كل مكان يظهر فيه. ولهذا الولي خاصية أخرى لطيفة، وهي مباركة حضن العاقر، ولهذا يمضي الكثير من العربيات الجميلات لزيارة قرابته!

وفيا عدا سيدي عبد القادر الجيلالي، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي لذي ذكر في الفصل السابق، هناك مرابطون آخرون يحظون بالأجلال والتقديس في الجزائر. وتوجد قبته عند قرية مصطفى الخارجي، فقد قدر لهذا الولي العجيب ان تكون له بعد موته أكبر كراماته، ذلك أنه ضعف جثته بطريقة صوفية.

فقد توفى في قرية ببلاد القبائل ودفن بها، ولكن سكان الجزائر العاصمة الغيورين سرقوا جثته ليلا. فسمع القبائل بالسرقة وأسرعوا إلى القبر ظانين أنهم سيجدونه فارغا. ولكن يا للعجب! إن الولي لا يزال في قبره! ومنذ ذلك الحين أصبحت توجد منه نسختان، ولهذا دعى بوقبرين!

الفصـــل الســادس

الحضـر والحضريــات

التعرف على الأهالي .- الحضر .- الأصل . - الملامح . - اللباس . - الحضريات . - أزياؤهن . - ثيابهن المنزُلية . - الحضريات اللواتي يظهرن بمقابل من المال . - ثلاث حضريات جميلات سافرات . - حسناء الحريم السمينة . - النبيزة . - صناع الحضر . - قناعة الحضر . - فقرهم .

ما كدت أصل إلى الجزائر حتى تملكتني الرغبة في ألا أقصر اتصالي ،وهو عكس ما يفعله أغلب السواح الآخرين، على الفرنسيين الذين لم احل بالجزائر لرؤيتهم، وإنما أحاول ما أمكنني ذلك التعرف على المواطنين، إلا انه خلافا لما كنت أتوقع، لم يكن من السهل تحقيق هذه الغربة . فقد كان أغلب السواح يبحثون عما كنت ابحث عنه في الجزائر، ثم يعودون بصفة دائمة تقريبا دون أن يتعرفوا على مواطن آخر غبر الحمال العربي . ذلك انه من الصعب الاتصال بالطبقة الراقية من المواطنين، لأن أغلبهم يعيشون في عزلة عن الأروبيين لعدم ثقتهم بهم! وليس من الصعب توضيح هذا :

إن العادة، واللغة، والدين، والتاريخ، والتقاليد والقوانين. كل ذلك يفصل المسلم عن الرومي المكروه. وقد قال احد الأولياء العرب : إذا وضعت دم مسيحي ودم مسلم في إناء واحد فإنهما لن يختلطا أبدا .

ومع ذلك فإن عرب الجزائر، وهم في أعماق نفوسهم لطفاء، ما كانوا ليقيموا حواجز بينهم وبين أبناء أروبا لو أن الفرنسيين لم يتبعوا طريقة وقحة في معاملة هؤلاء الناس الأجلاء ولم يتعودوا على الاستهانة بالأحكام الإسلامية،ولم يعلوا على جرح مشاعرهم وإثارة حساسيتهم في كل مناسبة!

لقد اتضح لي بعد حين أن التعرف عن طريق الحفلات لا يمكن أن يتم إلا صورة غير مباشرة. ومن ثم وجب علي أن اتصل بواحد منهم بحجة ما كالرغبة في تعلم العربية مثلا، وبهذه الطريقة استطعت فيما بعد أيضا أن أقيم علاقة ودية مع هذا العربي أو ذاك، فأتيح لي بواسطته أن أوسع دائرة معارفي من بين المواطنين وأدرس بأناة الجوانب الخيرة والرديئة لهذا الشعب.

يكون الحضر نواة سكان مدينة الجزائر من المواطنين، الذين يبلغ عددهم الآن حوالي سبعة عشر ألف نسمة، وهم شعب خليط، إلا أن أصلهم يرجع إلى عنصرين أساسيين، فقسم منهم عربي أصيل، والقسم الآخر يرجع على الموريتانيين القدامى، فهو جنس بربري إذن، ولكنه تعرب منذ زمن طويل، ويوجد بينهم أيضا أحفاد الزنادقة الأروبيين من إيطاليين ويونانيين وفرنسيين وإنجليزيين أيضا، وعدد هؤلاء قليل طبعا! وهناك قسم آخر من الجزائريين، وقد لحقه اليوم انصهار كبير، ينحدر من مسلمي الأندلس، وهو إلى حد ما من أصل بربري أيضا.

أما ما يتعلق بالملامح فإن لحضر اليوم ملامح متناسقة التقاطيع، وأنفا طويلا أقنى في بعض الأحيان، ولحية قليلة الشعر، ووجها سديد البياض على الأغلب. وشعورهم سوداء عادة، إلا أن هناك أيضا شعرا أحمر وأشقر وفي لمعان الذهب، وذلك نادر بالطبع. وهكذا الأمر بالنسبة للعيون، فهي تقريبا دائما سوداء، غير أن العيون الزرق، رفيقة الشعر الأشقر، موجودة بينها أيضا.

ويتألف زيهم من غليلة، مصنوعة من الكتان أو النسيج، وبدعيتين متشابهتين، وسروال واسع قصير (وهو الرابيلا الرومانية)، ثم حزام غالبا ما يظهر فخامة ثيابهم، وبالتالي حذاء واسع مستدير الرأس يشبه النعل. وتبقى السيقان ابتداء من الركبة عارية عند الحضري الأصيل، وكذلك الأمر بالنسبة للعنق. أما الشعر فيقص بأسره باستثناء خصلة في أعلى الرأس،

وظيفتها فيما تقوله أسطورة صبيانية، أن تكون مقبضا للنبي عندما يحلو له أن يجر شبابه إلى الجنة! ورؤوس الشبان عارية ما عدا خصلة أعلى الرأس فإنهم يضعون فوقها طاقية صغيرة حمراء.

ويبدو أن وضع هذه الطاقية الصغيرة الحمراء فوق رؤوس الأطفال العرب عادة قديما جدا. ذلك أنها لا تختلف عن »بيليولوس« الرومان، الذي كان يرتديه الشباب البالغ بالطريقة نفسها أيام القياصرة المتأخرين ووصل إلينا في صورة الـ « جيريتينو » أو غطاء الموضع الحليق في رؤوس القساوسة الإيطاليين، أما الحضر الكبار فإنهم يغطون القسم الحليق من رؤوسهم بواسطة عمامة في حجم الشال الكبير، كثيرا ما تصنع من النسيج الثمين، يلفونها حول الطاقية بمقدار ثلاث أو أربع مرت.

أما ما يتعلق بالحضريات، فإن الإنسان لا يرى في الشارع إلا القليل من هؤلاء الجميلات المتحجبات، اللواتي يختفين من الرأس إلى القدم خلف عباءات قطنية، لها شبه بالأزر أو الأكفان. وتنشر الجميلة فوق محياها، لكي تطمس وجهها أمام نظرات الفضوليين، رقعتين قطنيتين. فما يسمى »بالعجار« يغطي الوجه من الذقن إلى ما تحت العينين، وبذلك يغطي الأنف، أما ما يسمى بـ »الفوطة انتاع السنانغ« فيبسط فوق الجبين ويصل حتى الحواجب إن »بالعجار« و »الفوطة انتاع السنانغ« يقسمان الوجه إلى نصفين غير متساويين ولا يتركان سوى خط ضيق مكشوف، تشبع من خلاله العيون العربية السوداء، وكثيرا ما يخدع الغريب في تقدير أعمار هؤلاء الجميلات المحتجبات، وكثيرا ما يسخر الحضر من الفرنسيين الذين يتبعون عجوزا، ظانين أنهم يسلكون طريق حورية!

وتخضع وجوه الحضريات لعدد من عمليات التجميل، قد تثير الاشمئزاز في أروبا، ولكنها تعتبر عملا لائقا، بل متميزا. فالحواجب تكحل بعصير »العفصة« قدر الإمكان، فتصير أقواسا سوداء، تلتمع تحتها

نار العيون التي تشبه لهيب الحب! أما الأهداب فتصبغ بالكحل من الجهة الداخلية، فيبدو فوق العين وتحتها خطان أسودان رقيقان، يزيدان من شعاع بياضها. ولا يستطيع المرء أن يأخذ فكرة عن لباس الحضريات من الشارع، لأنه يختفي تماما خلف ذلك الزي الشبحي، ولكن رؤية الحضريات في منازلهن تقتضي منعها تعاليم الإسلام منعا باتا، فكانت في السابق غير ممكنة بالنسبة للأروبيين. غير أن هناك اليوم، لحسن حظ السواح، بعض الحضريات الجميلات، اللواتي بدأن قبل وقت قصير يسمحن برؤيتهن، بثيابهن العربية الحقيقة طبعا، نظير مبلغ من المال. وفي وسع القارئ أن يتصور أني لم أتغافل عن فرصة كهذه، تتيح لي أن أرى قطعة من الحضرية السافرة.

وهكذا ذهبت ذات مساء، وكان يرافقني خادم أحدب، أطلق عليه الفرنسيون اسما شعريا، هو » عطارد الأنيق!« إلى المكان الذي يمكنني فيه رؤية الحضريات مقابل مبلغ من المال. وقد ارتبط دخولي إلى منزل هؤلاء السيدات بعبارات صوفية نطق بها » عطارد الأنيق!« ذلك أن هذا الرجل الطيب راح يتبادل كلمات مع عجوز زنجية، كانت في النافذة، ويرطن بلغة غير مفهومة. وقد حدث هذا في أقذر أزقة الجزار في ساعة متأخرة من الليل. وعندما ظهرت العجوز الزنجية وبيدها مفتاح كبير وشعلة تضيء ملامح وجهها المخيفة بوضوح، لم تبد لي كذلك الملاك الأشقر الذي يفتح أبواب جنة محمد! ومع ذلك فقد كانت هي التي سترينا الجميلات نظير مبلغ من المال. فتتبعنا الرسولة السوداء المنيرة في سلم ضيق ودخلنا الفناء العربي المحبوب. فرأينا سيدات الدار جالسات فوق الزرابي المبسوطة.

وكانت صغراهن، وهي فتاة في حوالي الثالثة عشرة، ذات عينين سودادين، وشعر مفلفل متماوج، وبشرة سمراء، وأنف قصير ما كر، وجبهة ضيقة، وحيوية صبيانية وكان يبدو عليها أن اللعب حاجة بالنسبة لها،

فقد كانت تتقلب فوق زريبة كانت على الأرض بأشكال مختلفة غريبة كقطة مسعورة، وكانت ترتدي مثل الأخريات البذلة المنزلية العربية. وهذه البذلة هي تقريبا، بعد خلع العباءة الخاصة بالخروج إلى الشارع، نفس البذلة التي يرتديها الرجال، إلا أنها تصنع عادة من قماش ملون لطيف مطرز بالحرير والخيوط الذهبية. ولا يجوز على الإطلاق أن يرتدي الثياب والأوشحة والمناديل المطرزة بالذهب والفضة غير النسا، وإذا تجرأ رجل على ذلك فسوف ينظر غليه على أنه مخنث! وتلبس المرأة كذلك طاقيتها الصغيرة الحمراء، وتدعى »قنيبة« تضعها فوق شعرها المسدل، فتبدو معلقة على جانب من رأسها كأنها ستسقط حتما في أي لحظة تالية، في حين يجب على الرجل أن يضعها مستقيمة فوق رأسه.

أما قطعة البذلة المنزلية العربية التي لا يلبسها الرجال أبدا فهي الفريملة[1] والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يدعى أن الفريملة قطعة من الثياب، فهي شبح لقطعة من الثياب، إذ أنها، إن أردنا آن نجد لها ما يشبهها، نوع من الصدرية، ولكنها صدرية تغطي نصف الظهر ولا تصل إلى الصدر بالمرة. وليس لها من الأمام سوى رباطين معقودين، وهي من الوراء عبارة عن رقعة مربعة، يحول الرباطان المذكوران بينها وبين السقوط. وكانت الحضريات اللواتي يظهرن أمام الناس نظير مبلغ من المال، يرتدين فريملات ثمينة، فرقعة الظهر مصنوعة من القماش المذهب.

وكان وجه الجميلة الثانية، التي ظهرت أمام ناظري في معبد الفخامة الشرقية، يشكل التناسق نفسه :عينان سودوان ناريتان، وشعر مسدل شديد السواد، وثغر جميل قلما ينفتح، وأنف يوناني ذو شكل نبيل، وبشرة ناعمة باهتة، ووجنتان سمراوان، استحى الورد أن يرتسم فوقهما. وكانت تعابير محياها تتسم بالوقار والجلال دون أن تكون جامدة منفرة.

(1) نوع من المشد.

وكان جسمها نحيفا، قوي العضلات بالنسبة لها كامرأة فوق ما ينبغي، فلم تكن طبيعتها أنثوية مطلقا. كانت صورة للغزالة الحزينة، وجها لأبي هول مصري قديم، يرتكز على تمثال يثير الإعجاب بنحافته النبيلة الرائعة التي لا تعرف الرخاوة، ولو أنه لا يثير إحساسا أكثر حدة. لقد كانت هذه الفتاة بنتا أصيلة للصحراء، لم تكن إقامتها القصيرة بمدينة الجزائر تكفيها بعد الاكتساب تلك الضخامة العربية، فذكرتني بأبيات الشاعر العربي الحريري التي يصف فيها بدوية نشيطة، ساكنة الخيام الهوائية النحيفة، إلى جانب جميلة ضخمة من حريم المدينة.

واكتمل الثلاثة بواسطة امرأة كانت على النقيض من السابقة تماما ؟ ولكنها تعتبر من وجهة النظر الشرقية، دون أدنى ريب، قمة الجمال ؟ كانت ضخمة الجثة تقف وسطا بين الامتلاء وثقل الحركة، ذات بشرة بيضاء ناصعة، تحسدها عليها بعض الأروبيات، ووجنتين حمراوين، لعلهما كانتا نتاجا اصطناعيا، قلدت فيه الطبيعة تقليدا خادعا. ولها شعر كثيف طويل مرسل في تماوج، يكاد يكون أشقر، وعينان شهونيتان متطلعتان، تسيحان أبدا في ذوب من الندى، وثغر يبدو صغيرا بالنسبة لوجهها الممتلئ، ويظل نصف مفتوح دائما بحيث يستطيع الإنسان أن يلمح لعب لسانها الوردي بين أسنانها البيضاء، وملامح متناسقة غير ذميمة، غير أنها من وجهة نظرنا شديدة الامتلاء وهي تكون وحدة تجعلها جديرة بأن تكون ذات حظوة في حريم سلطان مراكش!

إن كل واحدة من هؤلاء النسوة الثلاث يمكنها أن تكون نموذجا لشكل معين مختلف من الأنوثة الشرقية. فإذا كانت الأولى نصف زنجية، لم تلمسها المدينة إلا بصورة سطحية، ساذجة ولا تزال طبيعية رغم الهمجية التي قلل من حدتها الدلال نوعا ما، فإن الثالثة كانت تشبه زهرة نضرة استنبتت في بيت زجاجي : صورة حقيقية للشرق في تاريخه الزاهر، أيام

أن استراح من انتصاراته فوق أنقاض الأمم التي تغلب عليها واستسلم في غمرة الرفاهية السلبية لنعم الحياة، لكي يجني، بعد حين، السقوط كثمرة رادعة! أما مظهر الثانية فكان يوحي منذ البداية انه يختلف عن مظهر الأولى والأخيرة : كانت تبدو بين هاتين الرفيقتين، وهي بنت حقيقة لإسماعيل وطفلة للصحراء الرائعة الهادئة، كالمجاز الجميل، كالرمز : تجسيد الفكرة الإسلامية وتمثال التوحيد الإسلامي القديم، ذلك الدين المليء بالمعنى الجميل والشعر الحزين في الوقت نفسه، الذي يلعن فن الوثنية القديمة الرائق وثقافة المدنية الحديثة المهذبة بطريقة واحدة، ويسعى جادا ن واضح النظرة، وعلى انفراد شامخ، نحو هدف واحد رسمه له الخلود!

لم يتحدث هؤلاء النسوة كثيرا، وإنما اكتفين بإعطاء الأوامر إلى الزنجية لتقدم لنا القهوة في الفناجين الصغيرة المعروفة التي تشبه قمع الخياط. وبينما كنا نحن نشرب هذا الماء الأسود كن يسحبن الدخان من غلايينهن الطويلة المصنوعة من خشب الياسمين. وكان يخرج بين الحين والآخر سؤال من فم الثانية باللغة الفرنسية المكسرة أو باللغة الفرنجة، مثل »أنت فرنسي ؟« فكان علي أن أجيب بنفس الرطانة : »لا. أنا ألماني « فترد الجميلة بأدب : »الألماني طيب!« ثم يسود الصمت ثانية. ولم يكن تقدمي في تعلم العربية تقدما ملحوظا آنذاك، حتى اسمح لنفسي ان أقول شيئا ما بلغة الحضريات. ولذلك انتهت الجلسة بعد تسديد ثمن المشاهدة بقليل، وتركت معبد الفخامة، يقودني عطارد الأنيق!

وفي طريقي على البيت سألني الدليل الشاعري عما إذا كنت قد شاهدت النبيزة. كنت جديدا في مدينة الجزائر ولم تكن لي أية فكرة عن معنى »النبيزة« فقال لي عطارد : إنها رقصة عربية يمكنك، زيادة على النساء الثلاث اللواتي شاهدتهن قبل نظير مبلغ من المال، أن ترى أخريات وتعجب بهن. سآخذك غدا إذا شئت لمشاهدة النبيزة. وهكذا ذهبت في

المساء التالي مع الرسول الأحد بيت عربي آخر، لم نتمكن من الدخول إليه بسهولة. إلا أن الرجل اللطيف كانت له طريقة خاصة تفتح له كل أبواب هؤلاء السيدات. وهي عبارة عن غمز معين تهتز به عينه اليسرى كأنه يتضمن إشارة على محفظتي العامرة بالنقود، تجعل السيدات اللواتي يرين أنفسهن نظير مبلغ من المال، وصديقاتهن نهبة للطمع. ولم تكن الصديقات يحترفن إظهار أنفسهن بالمال، ولكنهن كن يرقصن بالمال، وهؤلاء السيدات لا يرقصن نظير قليل منه. وبما أن مطالبهم مرتفعة عادة بالنسبة للمشاهد الواحد، فإن على الرسول أن يجمع عددا من المتفرجين الذين يكونون على استعداد تام لدفع قسم، العشر أو أكثر من المبلغ كله. وبهذه الطريقة يمكنه أن يجمع دزينة من المشاهدين، تكفي لإقامة حفلة خاصة. فليس هناك حضرية تتجرأ على إظهار نفسها في بذلتها المنزلية بصورة علنية. وقد جمع عطارد هذه المرة أيضا دزينة من المتفرجين، وكان على كل واحد منهم أن يدفع مبلغا كبيرا، وهو خمسة وعشرون فرنكا، بحيث إن «النبيته»[1] كلها كانت تكلف ثلاثمائة فرنك. إذن فإن هؤلاء النسوة لم يكن يرقصن مجانا.

كان بقية المشاهدين للنبيتة، باستثناء رجل واحد، من الأوروبيين الذين لا أهمية لهم، ولذلك لم أهتم بهم بطبيعة الحال. أما ذلك الرجل فقد كان عربيا يرتدي برنوسا فاخرا وحذاء طويلا مطرزا بالذهب، وقد أخبرني الرسول همسا بأنه خبيث كبير وهو شيخ قبيلة تعيش في داخل البلاد، تعود أن يسلبها محصولها السنوي ليبيعه في الجزائر ثم بذر ثمنه. وها هو الآن بصدد تبذيره!

وبدأت «النبيتة». كان هناك حوالي أربع عشرة امرأة، كن جميعا يرتدين ثيابا مطرزة بالذهب والفضة ويتحلين بالجواهر والأحجار الكريمة،

(1) النبيتة وينطق بها النبيتسة تحريف كلمة المبيتة من بات يبيت.

وكانت كلها صحيحة فحكمت عليهم بأن الواحدة منهن تحمل من الحلي ما يعادل عدة آلاف من الفرنكات. وتعجبت لذلك فسألت الرسول: «كيف توصل هؤلاء الفتيات، اللواتي لا يمكن أن يكن ميسورات الحال، إلى امتلاك كل هذه الحلي الثمينة ؟» فأجاب عطارد مستخدما فرقا قانونيا: «إن ما تراه هنا امتلاك فقط وليس ملكا. فهن يمتلكن الحلي هذا المساء،وغدا سيمضي في كل اتجاه. إن ما تراه أمامك من الحلي غنما هو ملك لنصف مدينة الجزائر». اوكيف حدثت إعارته لؤلاء الراقصات؟ «إن الحضر يعيرون بعضهم بعضا أشياءهم الثمينة بمناسبة الأعياد وحفلات الرقص. ولم يحدث أبدا أن ضاع هذا الملك المعار مع أن الذين يستعيرونه غالبا ما يكونون فقراء». وجلست الجميلات، بل مددن بالأحرى على شكل دائرة مفتوحة من الجانب الذي كنا فيه، فظهرت الزنجيات يحملن القهوة والنارجيلات لسيداتهن، فبدأ بعضهن يدخن، وتمدد بعضهن الآخر فوق الوسائد، في حين شرع قسم ثالث في عزف المسامع أو الموسيقى النسوية الحضرية. وكانت للمسامع أنغام حزينة تحرك، رغم رتابتها، أوتار القلوب، فهي أنغام لطيفة عذبة هادئة دائما لا يقطعها صوت عال أبدا. فكانت تشبه أغنية يتردد صداها فوق بحيرة فيسمعها الإنسان من الضفة الأخرى. وبدا للحظة كأن الأنغام تعلو وتنسجم انسجاما تاما، ولكنها بمجرد أن تصل إلى النقطة التي ترتفع عندها، وتتعادل لتعود لها رتابتها القديمة، فقد كانت رتيبة. فلم يكن هناك سوى ثلاث أو أربع نغمات، تنطلق من لحن واحد وتتناوب باستمرار. ومع ذلك فقد كانت لهذه الموسيقى فتنتها.

وبدأت فتاتان ترقصان على هذه النغمات رقصا غريبا. هل يمكن أن نصف شيئا كهذا بأنه رقص ؟ لن يطلق عليه أوروبي هذه الصفة فقد وقفنا هناك بصورة مستقيمة دون أن تحركا أرجلهما، ولم تبدأ الحركة إلا من



« انبيتة » بالجزائر

الكعب، وكانت تشتد كلما ارتفعت إلى أن تصل إلى النطة التي تبلغ عندها أوجها، ثم تخف، وكان الرأس هادئا تقريبا مثلما كانت القدمان. وقد انحصرت الحركات بين هذين القطبين، وكانت تعنف كلما ابتعدت عنهما. أجل تعنف إلى الحد الذي تبدو فيه الراقصتان كأن الثورة الجنونية قد استولت عليهما. فكان الشرر يتطاير من عيونهما، والثغر منهما يرسل تنهدات ملتهبة، وكانت الوجنتان كأنهما قد احمرتا بفعل الحمى، ثم تأتي الحركة العنيفة ويحل الصراع مع قوة الترنح والاهتزاز التي تكاد عليهما، إرهاق خفيف، ثم هزة ثانية عنيفة، وبالتالي إرهاق ثان، تسقط الراقصة بعدها إلى الأرض فوق الوسائد الرخوة كما لو أنها قد رضخت للذة عارمة. وعندئذ بدأت الأخريات يرقصن جميعا. ولكن رقصتهن كانت تكرارا دائما لما وصفته. وبعد بضع ساعات مل المتفرجون من هذا التكرار. أما الذي لم يمل منه فكان ذلك الخبيث الكبير، فقد كان يبدو عليه على العكس من ذلك أنه معجب بالرقص والراقصات إلى أبعد حد، بحيث إنه أخرج فجأة قطعتين ذهبيتين ووثب وأخذ يركض بين النسوة كالمجنون، ثم الصق بلعابه قطعة على جبين كل من الراقصتين. وكان هذا العمل يجسم فروسية عربية محضة، ما أكثرما أتيح لي أن أراها بعد ذلك، فالإنسان طبعا لا يلصق دائما وأبدا القطع الذهبية على جبين الجميلات!

وعند العودة إلى البيت قال لي عطارد، وقد كان فرنسيا بطبيعة الحال : ألا ترى أن «للنبيتة» شبها كبيرا برقصتي «المابي» و«الشاطو دى فلور» عندنا ؟فقلت : الا أرى ذلك مطلقا. فإن رقصتي «المابي» و«الشاطو دى فلور» لديكم ساذجتان ولا تقدمان أية متعة فنية، فهما صور هزلية حقيرة، في حين أن للنبيتة، على الرغم من أن طبيعتها شهوانية، وإن قدمت بشكل رزين جاد، مضمونا فنيا لا ريب فيه!

إن عدد الحضر يتناقص الآن للأسف باستمرار، وقد ساعدت على ذلك بصورة كبيرة عادة التزوج من بعضهم بعضا فيما بين الأقرباء والأنسباء، وهم يكسبون رزقهم عن طريق التجارة، إلا أن اغلبهم يمارس الأعمال اليدوية. فهناك صناعات كثيرة خاصة بهم، ولا توجد لدى الأروروبيين إلا على نمط آخر. فالحرار هو الذي يصنع تلك الأحزمة الجزائرية الجميلة، والقصاص يستعمل الحرير أيضا، ولكنه يصنع شرائط الغلائل والبدعيات العربية. أما الحلاجي فيطرز بالذهب ويصنع على الأخص النعال المخملية النسوية، بينما يقتصر السراج على تطريز الجلد بالذهب،ويصنع «القاوقجي» طاقيات النساء من المخمل القاني ويطرزها بالأسلاك الذهبية، ويرتديها عادة الحضريات واليهوديات، بل حتى البدويات والقبائليات.

ويمتاز «السحلبحي» من بين الذين يعرضون المشروبات الجزائرية الأصلية للبيع،فإنه يعد مشروبا، لا يعرفه الأروبيون بالمرة، ويعرضه للبيع. ويدعى «السحلب»، وهو مشروب يغلي من الشعير المتخمر قليلا، والحضر معروفون به، ولا يشرب تقريبا إلا في الصباح، وذلك في ساعة مبكرة، ويقبل الناس على شربه في الشتاء بكثرة لأنهم ينسبون إليه خصائص مدفئة.

وجميع هؤلاء الصناع العرب لا يكسبون إلا القليل، لأنهم يقتصرون على صنع ما يستهلكه المسلمون الذين يعانون الفقر بصورة مستمرة تقريبا. وأحسن عامل بينهم لا يزيد دخله اليومي عن فرنكين، أما مدخول اغلبهم فيصل إلى فرنك واحد أو دون ذلك، ومع هذا فإن الجزائري يفضل أن يكون صانعا على الدوام!ويوجد بينهم عدد كبير ممن يستخدمون الجلد في أعمالهم، فيصنعون الأحذية والسروج ويوزعونهافي جميع أنحاء البلاد. ويجلس الصانع في المقدمة وحوله عد من المتعلمين، وهم شبان ذوو عيون سوداء وأشكال مضحكة، ورؤوس حليقة وخدود منتفخة، وأفواه مفتوحة في أغلب الأحيان!

إن حضر الجزائر كلهم قد أصبحوا اليوم فقراء ولم تكن ثروتهم في العهد التركي، بطبيعة الحال، كبيرة أبد، فلم يكن هناك في القرنالسابع عشر فيما روى لنا الأب دان الترينتيرى، إلا القليل من الحضر الذين يستطيعون اشتراء العبيد المسيحيين إلا أن فرنسة الجزائر، التي نتج عنها ارتفاع أسعار المواد الغذائية كلها مشاكلة لأوروبا، جعلت الميسور منهم نسبيا يصبح فقيرا، لأن هذا الشعب العاجز عن المساومات لا يعرف كيف يستغل الغلاء لمصالحه الخاصة!

وبالمناسبة فإن هؤلاء الناس البسطاء قلما يشعرون بالقفر الذي هم فيه، لأن لديهم احتياجات قليلة. فكثيرا ما تكفى غرفة صغيرة لإيواء عائلة كاملة، ومع ذلك لا تحس بالضيق الذي تحس به أسرة أروبية في غرفة حجمها ضعف تلك الغرفة، وعدم وجود الأثاث بالمرة يفسر هذا. ولإعداد وجباتهم وتجهيزها لا يحتاجون إلا إلى ثلاثة أو أربعة أوان. وهناك من يتنازلون منهم عن جميع الأكلات الساخنة عن طيبة خاطر، ويكتفون بتناول غذاء يتكون من الخبز وقليل من الزيتون وشيء من كسر الشعير وأشياء أخرى بسيطة. والحضري لا يحتاج زيادة على السكن والغذاء إلا إلى شيئين ضروريين جدا، وهما حلاقة الرأس والحمام.والحفاف لدى الحضر شخصية متميزة،وكثيرا ما يجتمع الأعيان في حانوته. أما الحمام فواجب على المسلم يفرضه عليه دينه، ذلك أن القرآن لا يكتفي بفريضة الوضوء الذي يتم خمس مرات في اليوم قبل الصلاة. وهناك مناسبات في الحياة تتكرر باستمرار تحتم أن يغسل الجسد كله. والحمام هو الذي يؤهل المسلم للدخول إلى بيت الله.

الفصل السابع

البدو

البدوي يسمي نفسه عربيا. ما هو أصله الحقيقي؟ - أثر قرطاجنة في القبائل البربرية. - تعريب القبائل. - هناك ثلاث أصناف من البدو. - البدو كفلاحين. - أزياؤهم. - نساؤهم هي دوابهم.

إن البدو ليس لهم محلات إقامة دائمة في مدينة الجزائر وفي الأماكن الكبيرة ومع ذلك فإنهم يحيطون بمناطق المدن من جميع نواحيها، وفي وسع المرء أن يشاهد الكثير منهم في الأسواق والبازارات، وهذا ما يجعلهم جديرين بأن نتحدث عنهم هنا بصورة أدق، لأننا سوف نغفل ذلك عندما نصف داخل البلاد.

والوقع أن المواطن الجزائري الذي يسكن الخيمة لا يعرف عبارة البدوي. وعندما يطلق عليه الفرنسي هذا الاسم، فإنه يكاد يعد ذلك شتيمة، مع أنها عبارة شرقية، تخلعها على نفسها القبائل الصحراوية في الجزيرة العربية ومصر وقد سمعت منها ذلك بنفسي.

ويفهم عادة من كلمة البدو القبائل التي ليست لها دور ثابتة. فالبعض منها يعيش في رحلة مستمرة، والبعض الآخر يستقر لمدة معينة. أما القسم الثالث فيعيش حياة مستقرة، إلا أن هذه الصفة تشملهم جميعا، وهي أنهم يسكنون الخيام أو ما يسمى بالقرابة والقسم الأكبر من بدو الجزائر يطلقون على أنفسهم اسم العرب، ويقسم أهالي البلاد في الحياة العادية على نصفين غير متساويين، القبائل الذين يتكلمون اللغة القبائلية، والعرب الذين يتكلمون اللغة العربية. ويوجد من القبائل بالجزائر ما يقرب من المليون، في حين أن عدد العرب ضعف عدد القبائل. ويكاد يكون أولئك اللذين يتكلمون اللغة العربية من البدو، أي أنهم يحيون في الخيام.

ولهذا أطلقت عبارة البدو على من يسمون في الجزائر عادة بالعرب. فهل لهذه القبائل جميعها بدون استثناء الحق في أن تطلق على نفسها اسم العرب ؟ هناك من ادعى أن جميع القبائل الجزائرية التي تتكلم العربية، تنحدر من تلك الهجرات الكبيرة الثلاث التي تمت عند فتح العرب للبلاد وإدخالها في حظيرة الإسلام. ولكن مهما بالغ الإنسان في تقدير عدد العرب المهاجرين، فإنه لم يجد بينهم أجداد كل الذين يتكلمون العربية الآن. فهناك واحدة فقط من الهجرات العربية الثلاث، وهي الأخيرة التي حدثت في القرن الحادي عشر، استطاعت أن تجلب أسرا، بل قبائل بأسرها إلى البلاد، في حين أن الهجرتين الأخريين كانتا حملة عسكرية محضة. أما القبائل العربية إلي يعود الفضل في نسبها إلى الهجرة الثالثة فمن السهل معرفتها اليوم : لقد احتفظت بأسمائها وشجرة نسبها من غير تغيير وهؤلاء البدو موزعون الآن بين التل والصحراء وقد بقوا بدوا كما كان آباؤهم، ولا يمكن الشك في نسبهم.

أما القسم الآخر ممن يسمون بالعرب فهم من أصل قبائلي عربوا مع مرور الزمن. ولعل البعض منهم كانوا قد تركوا عاداتهم ولغتهم الوطنية في وقت سابق، وذلك عندما فرض القرطاجنيون على القبائل الساحلية لغتهم وحضرتهم. فقد كانت اللغة الفينيقية، فيما يذكر لنا أبيان وآغوستينوس وبروكوبيس، مستعملة من طرف سكان البلاد في المناطق الساحلية بإفريقيا بعد سقوط قرطاجنة بمدة طويلة. ولم يكن هؤلاء السكان مثل القرطاجنيين من أصل فينيقي، وإنما كانوا من أصل بربري وهم ما يسمون اليوم بالقبائل وقد كان من السهل على هذا القسم من السكان أن يخضع للغة العربية، لأنها كانت قريبة جدا من اللغة الفينيقية التي كان متعودا عليها.

وفيما عدا هذه القبائل الأصلية التي خضعت لفاتح مبكر، هناك عدد آخر من القبائل البربرية، قاومت في القديم النفوذ الأجنبي، ولكنها اعتنقت

في أيام الفتح العربي دين الفاتحين وأخذت لغتهم وتقاليدهم وقد فرض القرطاجنيون في القديم والعرب في العصر الوسيط لغتهم على أقسام من الطوائف البربرية. أما اللغة اللاتينية فيبدو أنها لم يكن لها في أيام حكم الرومان، على الرغم من كثرة مستعمراتهم في إفريقيا، إلا نفوذ محدود جدا نسبيا. لقد انتصرت رومة على قرطاجنة، ولكنها لم تستطيع القضاء على لغتها.

ويمكن القول أن البدو أو ما يسمون بعرب الجزائر ينتمون فيما يخص نسبهم أو درجة تعريبهم إلى ثلاثة أصناف مختلفة.

1 - عرب أصلاء، أحفاد الهجرات العربية الثلاث، خاصة الهجرة الثالثة التي يكادون ينتسبون إليها بصورة مطلقة. وقد قوى عدهم بعد أن كانوا أقلاء نسبيا بواسطة أولئك الذين كانوا يصحبون قوافل الحج في طريق عودتها من مكة ومن الجزيرة العربية أو مصر في العصور المتأخرة، ويستقرون في المغرب.

2 - أحفاد الشعب النوميدي البوني، الذين هم من أصل بربري ولكن الفينيقيين والقرطاجنيين قضوا على قوميتهم في وقت مبكر.

3 - أحفاد تلك القبائل البربرية التي تخلت عن لغتها منذ الفتح العربي شيئا فشيئا لتتخذ العربية لغة لها. وهذا النوع الأخير من تعريب القبائل لا يزال مستمرا حتى يومنا هذا. فهناك أربع قبائل تسكن بجوار دلس، كانت قبل خمسين سنة تتكلم لغة قبائلية سليمة، أما اليوم فلا يتكلمها غير الشيوخ.

ولا يمكن عادة الاطمئنان إلى أجوبة الأهالي أنفسهم عندما يسألون عن أصلهم، فهم جميعا يريدون أن يكونوا قبائل عربية أصيلة، يجري في عروقها الدم الحجازي الخالص، بل هناك من القبائل البربرية من تسرف

إسرافامضحكا في إدعاء الانتساب إلى شجرة النسب العربية. وهذا ناتج عن الأحكام المسبقة التي اعتنقت مع الإسلام والتي جعلتهم يرون في الجزيرة العربية مهد جميع الأنساب الكريمة، وهو يشبه ما وقع في العصور الوسطى بأوروبا عندما عادت بعض الأسر بشجرة نسبها إلى شخصيات إنجيلية.

ففي الجزائر وتونس، وخاصة في المغرب، عدد كبير من الأشخاص يدعون أنهم ينحدرون من نسب النبي محمد ويخلعون على أنفسهم كدليل على هذا النسب اسم الشرفاء، وهناك قبائل بأسرها تتسمى بهذا الاسم. وبدو الجزائر يسكنون التل في الغالب، أي في قسم البلاد الواقع شمال الصحراء، إلا أن هناك عددا كبيرا منهم يعيش في الصحراء أيضا. وهم يفلحون الأرض في التل ويربون الماشية، أما في الصحراء فيقتصرون على الماشية. وخيامهم سوداء مصنوعة من جلود الحيوانات، وهي منخفضة وضيقة وغالبا ما تكون في منتهى الوساخة والهلهلة.

والبدو لا يأتون إلى مدينة الجزائر إلا لبيع القمح. والأعمال الفلاحية المهمة تكاد تكون مقصورة عليهم. ذلك أن الفرنسي، مستعبدهم الحديث، ما هو إلا مستعمر رديء. إن حكومته لم تتوصل حتى الآن، مع أنها تبذل أقصى مجهودها في إنشاء المستعمرات، إلا إلى نتائج غير مرضية. ومن ثم فإن البدوي، نظرا لاحتياجاته القليلة، يبيع قمحه بثمن زهيد جدا، بحيث إنه ليس هناك فرنسي واحد يقدر على منافسته ثم إن المواطن يوفر على نفسه، بواسطة زراعة الأرض بصورة بسيطة ساذجة أتعابا كثيرة. فالأرض التي يزرعها قليلة القيمة نسبيا، لهذا فهي لا تستحق أن يعتني بها أكثر من ذلك.

وهكذا يكتفي بإبعاد الأعشاب الضارة ويفضل أن يزرع ثلاثة حقول، يبذل فيها هدا بسيطا على أن يزرع حقلا واحد يكلفه عملا شاقا والبرنس، الذي أصبح معروفا في أوروبا منذ عشرين سنة هو لباس البدو الرئيسي،

يرتدونه عوضا عن السترة والصدرية والمعطف إلا أنه من النادر أن يكتفي العربي، الذي يسكن داخل البلاد ببرنس واحد. فكثيرا ما يرتدي برنوسين حتى في أشد أيام الحر، وأحيانا ثلاثة أو أكثر. ويدير حول رأسه لفافة من الصوف تدعى حائكا، بشكل هرمي ويشدها بخيط من شعر البعير الأبيض. والبدوي يخلع على هذا الخيط معنى وهميا :

خيط مقدس من شعر
الهجين الأبيض.

ومن النادر جدا أن يرى الإنسان نساء البدو في المدينة نفسها، ولكنه يجد المرأة أحيانا جالسة أمام «القرابة» القذرة خارج أبواب المدينة. وهن سافرات ولهن ملامح متناسقة في أغلب الأحيان، إلا أن الوشم فوق الجبين والوجنة كثيرا ما يشوهها. إنهن عبدات رجالهم وخادماتهن ودوابهن. فليس من النادر أن يرى الإنسان أمام أبواب الجزائر عددا كبيرا من العرب المتسخي الثياب الكسالى يسيرون في يسرو خلو بال ونساؤهم خلفهم يرزحن ويلهثن تحت أحمالهن الثقيلة وكل بدوي تقريبا يتزوج عدة نساء لأنهن، عوض أن يكلفنه ثمنا، يصبحن على العكس من ذلك مكسبا له. فهن فتيات عاملات يشغلهن في حقوله، دون أن يقدم لهن أجرا. أما الحضري فإنه يكاد يقتصر دائما على امرأة واحدة.

الفصــــل الثامــــن

القبائــــــــل

البربري الأصلي.- لغته واللغات القريبة منها. - القبائل في مدينة الجزائر. - قلة النظافة وحب الزيت. - بخل القبائل الرهيب. - لماذا لا يوجد جامعو الخرق ببلاد القبائل. - البسكريون. - ماسحو الأحذية. - حسن الجميل الميزابيون. - خدم الحمامات. - بروستانيو الإسلام. - الزنوج. - نشوات الحرية. - الزنجيات. - شعائر الجن. - عيد الأضحى. - اليهود. - صمويل من باريس وصمويل من الجزائر. - الحضريات المزيفات في لندن. - الخداع الثري.

تسكن هذه السلالة التي لا شك في أصلها البربري، ويقدر عدد أفرادها بحوالي 850 ألف نسمة ويسكنون في الغالب مقاطعة قسنطينة، نوميدياالقديمة التي حارب فيها أجدادها الرومان والقرطاجنيين بصمود. ولها لغتها الخاصة التي تنتمي إلى مجموعة للغاب البربرية، وهي صنف من اللغات التي لا نعرف عن أصلها حتى يومنا هذا إلا القليل. فهل لها يا ترى علاقة بالهيروغليفية المصرية القديمة، أو اللغة القبطية، التي يمكن أن تكون قد انتقلت من النيل إلى المحيط وسادت في الشمال الإفريقي كله ؟ هذا سؤال لا جواب له بعد. ومهما يكن فالظاهر أن اللغة الليبية القديمة، لغة تلك الكتابات القليلة التي عثر عليها في إفريقيا والتي لا تعد فينيقية ولا نوميدية، هي أم اللغة القبائلية. ويبدو أن لغات الطوارق، وهم شعب في الصحراء الكبرى، وأمازيغ مراكش، وشلوح فاس وقبائل البربر الصحراوية، إنما هي أخوات اللغة القبائلية. ومن هذه اللغات كلها لم تبق سوى لغة الطوارق، التي أطلق عليها اسم « تيماشيك » محتفظة بكتابتها. وقد وضع لنا حديثا هانوتو، مؤلف كتاب النحور القبائلي قواعد وقدم مختارات من الـ « تيماشيك » بحروفها الأصلية الغريبة ولابد أن يكون

القبائل قد فقدوا حروفهم، إن وجدت لديهم على الإطلاق، في وقت مبكر، فهم يستعملون الحروف العربية منذ الفتح العربي.

وكثيرا ما يرى الإنسان أبناء بلاد القبائل في مدينة الجزائر، يحملهم على الحضور إليها التجارة وأحيانا مجرد الفضول. ولا يكاد مظهرهم يختلف عن مظهر البدو إلا أنهم عادة أقل نظافة وارث ثيابا من هؤلاء، والذي ينفر منهم زيارة قلة النظافة هو مظهرهم الزيتي. ذلك أنهم لا يمسدون بشرتهم بالزيت فقط وإنما يشربون ثيابهم به أيضا. والبرنس القبائلي يصل دوما إلى درجة كبيرة من الرثاثة وقلة النظافة والبشاعة على صاحبه بقدر ما تحتمله قطعة الثياب من ذلك.

ويمكن القول بحق عن ألبسة سكان الجبال هؤلاء أن الوساخة هب التي تمنحها تماسكها وثباتها. ولا يوجد ببلاد القبائل جامعو الخرق، لأن هذه كلها تتخذ ألبسة وجمع المال ثم جمع المال هو الشيء الوحيد الذي يشغل فكر القبائلي. فلا الأشياء المريحة ولا الفخامة تغويه بشراء أي شيء. ويقال عنه إنه يدفن أمواله وحتى الآن لم يستطع أي إنسان أن يعرف مصير أموال القبائل في نهاية الأمر.

والقبائلي رجل نشيط مثابر على العمل، قوي العزيمة، شديد الاعتدال، ولكنه متعصب جلف يعيش في عالم من الأوهام. ومع ذلك فإن البخل هو عيبه الرئيسي، وهذا أمر لا شك فيه، ويصل بخله إلى درجة لا تصدق بحيث إنه لا يسمح لنفسه إلا بتناول الضروري من المواد الغذائية، ويرضيه أن يجد قطعة من الخبز وفنجانا من الزيت يشربه معها.

وعلى الرغم من هذه العيوب كلها، فإنه يبدو أكثر استعدادا من البدوي لقبول الحضارة الفرنسية، لأنه لا ينقصه الشغف بالعلم ولا الاهتمام.

بالثقافة الأوروبية، في حين أن العربي لا يهمه أن تصلح أوضاعه أو تبقى على ما هي عليه. ومن الطبيعي أن يقف الإسلام حاجزا لا يمكن اجتيازه دون فرنسية هذه القبائل العربية.

البسكريون :

إن البسكريين يمثلون القبائل العربية الصحراوية في مدينة الجزائر بكثرة. وهم ينتسبون إلى واحدة بسكرة ويستمدون اسمهم منها. وتشغل واحدة بسكرة القسم الشمالي من الصحراء، وهي تابعة لمنطقة قسنطينة. والبسكريون الذين يعيشون بمدينة الجزائر يكونون طائفة نشطة، ولكنها في الوقت نفسه وسخة إلى حد كبير. ويشتغلون حمالين وخدما، ولكن الأجنبي يتعرف عليهم في ميزتهم الخاصة: وهي مسح الأحذية، فهم يعرضون عليه مسح حذائه مائة مرة في اليوم. وأغلبهم من أولئك الشبان الذين يعودون إلى بلادهن بعد أن يجمعوا شيئا من المال ليتزوجوا ويقيموا هناك بصورة دائمة. ومكسبهم ضئيل جدا، ولكن قناعتهم الرائعة تتيح لهم أن يوفروا شيئا من المال. فهناك مستعمرة من ماسحي الأحذية البسكريين تقيم في شارع باب الواد.

وكانت ثيابهم رثة على درجة كبيرة، إلا أنه ليس من النادر أن تختفي تحت هذه الخرق هيأة أدونيسية. فقد كان بينهم شاب جلب أنظار المارة بوجهة الأسمر الرائع الجمال، وقامته المتناسقة. وقد رأته ذات مرة أميرة روسية عجوز كانت تزور الجزائر،فقررت أن تحرره من خرقة البالية. فاشترت له أجمل بذلة عربية واتخذتهخادما لها. وقد أتيح لي أن أرى حسن الجميل في يوم تحوله، فلم يكن لي أن أعثر على جسم أنبل من جسمه.

وقد تسببت هذه الحادثة في ثورة بين البقية من البسكريين فأصبحوا ينظرون على كل أجنبي على أنه قد يكون من طبقة ثرية وراحوا يعرضون خدماتهم على كل مسافر يمسحون حذاءه.

ولكن المساكين لم يكن لهم جمال أخيهم حسن ولا حظه.

الميزابيون :

إن تلك الطائفة التي تخدم في الحمامات بنشاط وهمة وحيوية تنتمي كلها إلى بني ميزاب أو الميزابيين. وقد أقبل أفرادها من عدد من الواحات التي تقع على حدود الصحراء الجزائرية. ولغتهم تلتقي مع اللغة القبائلية في أصل واحد. وهؤلاء العمال الميزابيون ينتقلون كالبسكريين إلى مدينة الجزائر للبحث عن العمل ويشغلون في الغالب خدما في الحمامات ويمارسون فيما عدا هذا الأعمال التجارية المهمة بالنسبة لوطنهم وذلك بجمع نتاجهم الرئيسي وهو التمر، لبيعه هنا وشراء ما يحتاجون إليه من قمح. وهم لا يقيمون أيضا في مدينة الجزائر إلا لبعض سنوات، يعودون بعدها إلى واحات بني ميزاب، وقد أصبحوا، من وجهة نظرهم أثرياء.

أما فيما يخص عقيدتهم الدينية، فغن الميزابيين يعتبرون أمرا فظيعا بالنسبة لكل مسلم سني، فهم لا ينتمون إلى أي من المذاهب السنية الأربعة، وإنما يدينون بالمذهب الذي يدين به الوهابيون في الجزيرة العربية، وقد أطلق على هؤلاء اسم بروتستاني الإسلام، لأنهم لا يتبعون السنة ويرفضون عبادة الأولياء. أجل إنهم لا يوافقون حتى على الشعائر التي تقام عند قبر النبي. والمعروف أن الوهابي (محمد بن عبد الوهاب)، منشيء هذا المذهب كان قد أعلن الجهاد وفتح المدينة وأباح لجنوده أن ينهبوا الحلى التي كانت متراكمة فوق قبر النبي محمد وجميع الزرابي

التي كانت تغطيه. كان عبد الوهاب زيشكا[1] الإسلام. ويطلق الجزائر اسم «الخامسة» على مذهب بني ميزاب، وبما أنه ليس هناك سوى أربعة مذاهب سنية، فإن هذا الاسم اكبر لعنة ينطق بها المسلم. فالأخطاء العقائدية أسوأ في نظره من أبشع الجرائم.

الزنـــوج :

يقل عدد هؤلاء الأفراد السود في الجزائر باستمرار، فالقوافل التي كانت تجلب معها مجموعات منهم سنويا من تمبكتو قد توقفت تحت الحكم الفرنسي. وهكذا أصبح تكوينهم لا يتم عن طريق الاتصال بالمنبع الأصلي، ولم يعد الزنوج عبيدا منذ سنة 1848، وفي تلك السنة التي أعلنت فيها الجمهورية الفرنسية حريتهم لم تعرف فرحتهم في البداية حدا،إلا أنها لم تدم طويلا. فقد عاد الكثير منهم بعد فترة وجيزة إلى أسادهم، وكانوا قد تركوهم في غمرة فرحتهم باستعادة حريتهم مع أنهم كانوا يعيشون عندهم في ظروف حسنة ولم تكن لهم أعمال كثيرة يقومون بها. عادوا إليهم وتوسلوا إليهم أن يعيدوهم إلى خدمتهم، ذلك أن الأعمال التي أجبرتهم الضرورة على ممارستها قد جعلتهم يدركون أنها أشق بكثير من الأعمال التي كانوا يقومون بها عند أسيادهم القدامى، الذين أتاحوا لهم في الغالب أن يتمتعوا بثرواتهم المحبوبة دون أن يكون هناك ما ينغص عليهم تلك المتعة، فالأعمال المنزلية في بيوت المسلمين كانت تقريبا دائما قليلة.

وعدد الزنجيات في المدينة أكثر بكثير من عدد الزنوج، ويراهن المرء جالسات فوق الأرض في الأسواق العامة، الواحدة منهن إلى جانب الأخرى في صف طويل وفي حضن كل منهن كومة من الخبز الشبيه بالفطائر تبيعه

---

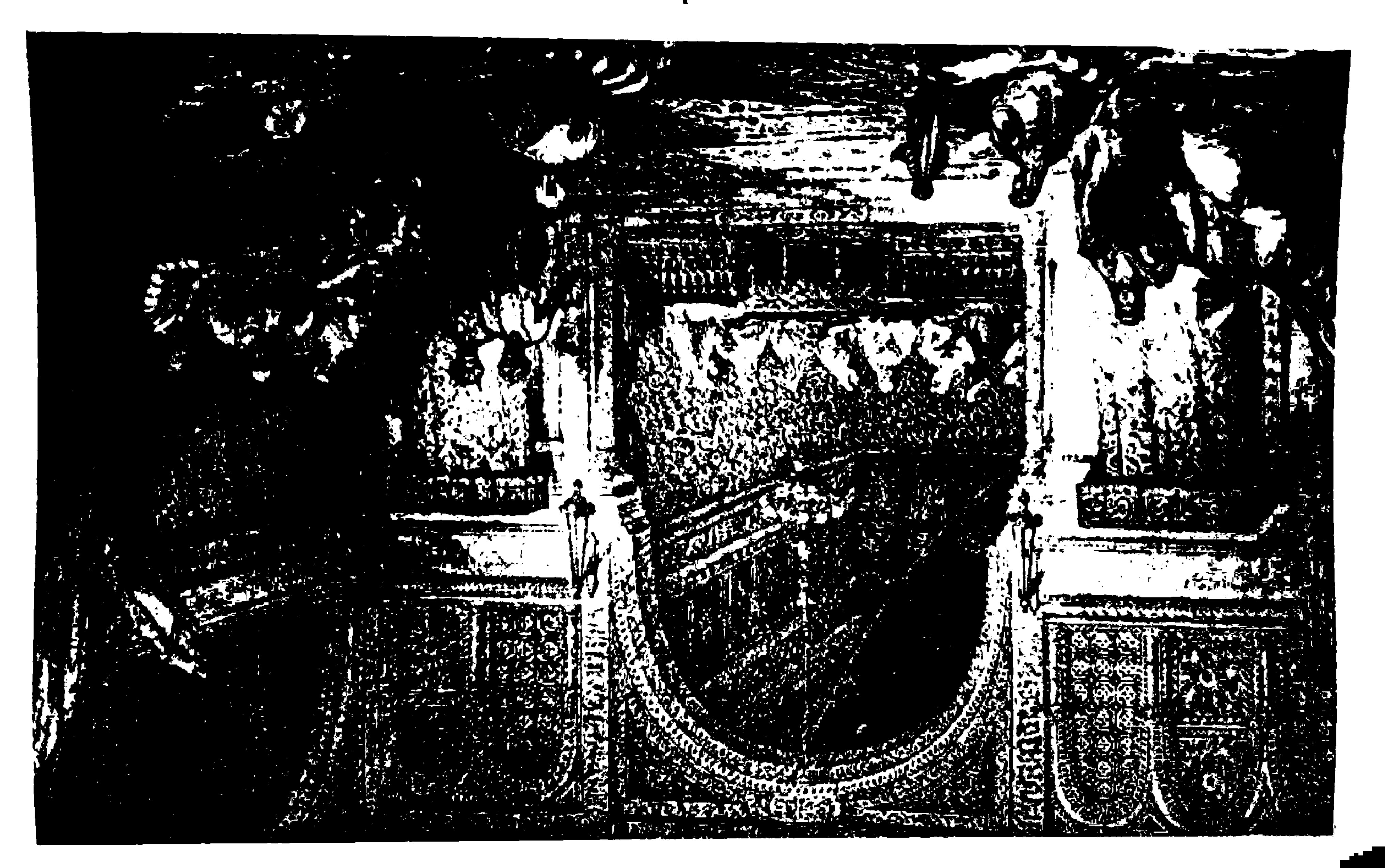
(1) يوهان زيشكا (1375 - 1424) من القواد الهوسيين، سجل عدة انتصارات حربية في تشيكوسلوفاكيا. (المترجم).

للمواطنين بسعر زهيد. ويقمن إلى ذلك عند النساء بنفس العمل الذي يقوم به الميزابيون عند الرجال في الحمامات العربية. مع أن جميع الزنوج مسلمون فإن لهم نوعا من الشعائر الخاصة، وهي عبارة عن حفلات وتقاليد ومراسيم وهمية لابد أن تكون قد انحدرت إليهم من وثنيتهم الأصلية. فهم يقدمون الضحايا للجن الذي يقال إن له دخلا في صحة الإنسان ومرضه. وهناك عدد كبير من حضر مدينة الجزائر، وخاصة الحضريات، يؤمنون بان هذه الشعائر الزنجية تشفي من الأمراض. وتوجد قرب الجزائر عين، يمضي إليها كل صباح من يوم الأربعاء شيخ زنجي لتقديم الضحية. فيذبح دجاجة أو حمامة استرضاء للجن وإشفاء للمريض الذي دفع ثمن الضحية، ويتبعه عدد كبير من النساء العربيات،بل حتى اليهوديات، ولعل ذلك الشيخ يخدع نفسه أكثر مما يخدع غيره.

وللزنوج أيضا أعيادهم الوطنية والدينية، وتدعى الدردبة، التي تذبح فيها مجموعة من الحيوانات كتضحية للجن. وقد حضرت دردبة ذبح فيها ثوران وعجل وخمسة وعشرون شاة. وقبل أن تبدأ التضحية قدمت شيخة زنجية، وهي عجوز قبيحة متزينة، الرقصة المقدسة بخطوات بطيئة رزينة ولكل بيت زنجي شيخه، ويتكون البيت الزنجي في كل مرة من جميع الزنوج الموجودين في الجزائر والمنتمين إلى نفس القبيلة. وبالجزائر الآن سبعة من هذه البيوت أطلقوا عليها أسماء القرى التي توجد بموطنهم السودان.

اليهـود

لا ينبغي أن ننسى، بين هذه الطوائف الأهلية في مدينة الجزائر تلك الأسر اليهودية الكثيرة التي وجدها الفرنسيون عند احتلالهم للبلاد. وهؤلاء الأهالي من اليهود لا يقفون الآن مع اليهود الفرنسيين على قدم واحدة، فهم لا ينظرون إليهم على أنهم إخوة، وصمويل وليفي الجزائر



يحتقرون من طرف صمويل وليفي باريس بصفتهم همجا. وقد انتفع اليهودبالمناسبةمن الحكم الفرنسي انتفاعا كبيرا. كانوا في أيام الدايات يحيون حياة الذل والخنوع والاضطهاد، مجبرين على إخفاء أموالهم وثرواتهم، وعلى ارتداء لباس اسود معتم على الدوام، وكان المسلمون يهينونهم دون أن يكون لهم الحق في رد الإهانة أبدا. كانوا باختصار يحيون حياةمنافية لكرامة الإنسان، وقد تغير كل ذلك الآن. فيهودي الجزائر موسر اليوم وثري في الغالب، وهو الوحيد من بين الأهالي الذي عرف كيف يستغل الحكم الفرنسي لصالحه. فأصبح يملك الدور والمصانع والضياع، بل يمكن القول أن نصف مدينة الجزائر ملك له. ولم يعد بعد الآن مضطرا لإخفاء ثرواته، وثيابه تعكس غرور سلالته. وهناك كثير منهم اتخذوا الزي الفرنسي لباسا لهم، ولكن الأناقة الباريسية ظلت بعيدة عنهم. أما الزي الحضري فإن اليهودي الأهلي، عندما يرتديه، يبدو عليه نوع من الرقة وكثير من الأبهة على كل حال، وخاصة في يوم السبت الذي يحرص على أن يظهر فيه أثمن الأقمشة المزخرفة. وبذلة اليهودي الأهلي تشبه بذلة الحضري إلا أنه يفسد مظهره بارتداء قبعة وحذاء فرنسي، وهي أشياء تثير اشمئزاز المسلم.

ويغلب القبح على يهوديات مدينة الجزائر، ولا وجود للجمال إلا عند أولئك اللواتي هن من أصل أسباني، غير أنهن أقلية في الجزائر في حين أنهم يشكلن الأكثرية في وهران ومراكش. ونادرا ما ترتدي بنات اسرائيل بذلات الحضريات الجميلة، وهن لا يفعلن ذلك أحيانا إلا لغرض مادي بحت. فقد شاهدت في لندن في «هايماركت» أولئك الـ«موريش ليديز» السيدات الحضريات، اللواتي كن يظهرن أنفسهن كحضريات نظير مقابل من المال. إن هؤلاء الحضريات المزيفات كن يظهرن في جميع عواصم أوروبا، يساعدهن على ذلك احد إخوانهن في الدين، يدعى بنهاس، انتسب هو

نفسه إلى الترك. وهذا اليهودي الذي جمع ثروة كبيرة بهذه الطريقة ورجع إلى الجزائر في الأخير ليعيش فيها كرجل ثري، يقدم أسخف مثل على غرور اليهودي، الذي يصل إلى الثروة، وادعائه. فقد تعود أن يركب عربة مزينة برفقة خدم يرتدون زيا رسميا مضحكا ويسير في شوارع المدينة. وسائقه زنجي يلبس بذلة حمراء مطرزة بالذهب، ولا بد أن ترتدي زوجته، عندما ترافقه في جولته، ثيابا مطرزة بالذهب وتعلق فوق صدرها عقودا لؤلؤية وماسية. وفوق رؤوس أطفاله غطاء، تكدست فوقه القطع الذهبية السلطانية. أما هو فيرتدي عادة الزي الأوروبي إلا أنه يظهر بين الحين والآخر بشوارع الجزائر في أردية طويلة من المخمل المطرز بالذهب.

وقد أنفق على زخرفة بيته مبالغ كبيرة، وبما أنه ينقصه الذوق المهذب فقد جعل نفس الزخرفة على الأسلوب الباريسي لمقهى «شانطان».

والبذلة المميزة لابنه ابراهيم في الجزائر هو ثوب طويل أسود اللون في الغالب مطرز بالذهب فوق الصدر إلى حد كبير. ويحملن فوق رؤسهن غطاء عاليا من السلك والكاغد مغلفا بالحرير. وعلى هذه الصورة تتعثر هؤلاء اليهوديات في شوارع الجزائر.

إنهن لا يحتجبن مثل الحضريات وهن مخطئات في ذلك، فمن المؤكد أن الذي لا يرى وجههن يعتبرهن أجمل مما هن عليه في الواقع.

الفصل التاسع

حمام عربي

حمام سيدنا .- الزي الشبحي .- عملية العرق . - الدلك والمسد . -القاعة الحارة . -رغوة الصابون . -العمامة الخانقة . - النوم بعد الحمام . - لاشعور بالراحة . - حب الناس للحمامات العربية .

ينتهز كل سائح فرصة إقامته في الجزائر فيذهب إلى الحمام العربي، فالحمام جدير بالاعتبار من جهة، ثم إن استعماله يفيد في معالجة السعال والنزلة وداء المفاصل من جهة أخرى. وهكذا ذهبت أنا أيضا في إحدى الأمسيات، لأنه خاص بالنساء في أثناء النهار، إلى حمام سيدنا، أكبر حمامات الجزائر، الذي كان سبقا، كما يدل على ذلك اسمه، حمام الباشا.

وكان حمام سيدنا يحتوي على ثلاث قاعات، تعتليها قباب مثقوبة، فيخلع الإنسان ثيابه في القاعة الأولى. وعند دخولي إلى الحمام كان فيه رجال نائمون، يتراوح عددهم بين العشرين والثلاثين شخصا، وقد التفوا في أردية بيضاء فوق مرتفع يشبه الكنبة.

وما كدت أنتهي من نزع ثيابي حتى لف حولي إزار، وقدم لي قبقاب لألبسة، وكان القبقاب عالي الكعب، فكان علي أن أسير في حذر لكيلا أنزلق فوق الأرضية المرمرية البليلة الملساء. وأخذ يدي خادم ميزابي شاب، فسهل على المناورة الصعبة. وقادني إلى داخل القاعة الثانية، فتلقاني بخار حار، يتصاعد من أسفل القاعة، اخذ على أنفاسي في بداية الأمر. وأوصلني الميزابي إلى دكة في وسط القاعة، لا بد أن يتمدد الإنسان فوق غطائها المرمري، ليستسلم لأثر الحرارة الأول. وبعد ذلك كان علي أن أنبطح فوق لوحة مرمرية أريق فوقها الماء، ورأسي مستند إلى عمود خشبي. وعندئذ

بدأ الدلك والمسد، وقد قام بذلك ميزابيان في مقتبل الشباب بإيقاع، وهما يترنمان بأغنية بلغتهما الخاصة، تمزق نغماتها الأسماع.

وبعد المسد، وهكذا يسمى عجن الجسد، جاء دور الدلك بقفاز مصنوع من شعر الحصان. وقد تم ذلك بعناية تامة إلى درجة أن الدلك شمل غشاء الرقيق، الذي أراني إياه الفتيان، وهما فخوران بم غنماه من بشرتي!

وبعد أن فتحت هذه العملية مسام الجسد وجعلت الجسم قادرا على احتمال الدرجة التالية من الحرارة، قادني الخادمان إلى القاعة الثالثة المقببة، التي بلغت درجة الحرارة فيها حدا كبير جدا. وهناك بدأ المسد والدلك من جديد، وأضيف إليه سحب الأعضاء وفرقعة المفاصل، وقد حاول شاب قوي أن يفرقع عمودي الفقري، وذلك عندما آمال جزئي الأعلى بصورة جعلت وجهي يقترب من عنقي. وبعد الانتهاء من هذه العملية انتقل الخادم إلى الغسل الحقيقي، وبدا برأسي، فكان علي أن أغمض عيني، لأنه صبّن رأسي عدة مرات وغسله كما ينبغي، ثم صب فوق جسدي بحرا من رغوة الصابون، فارتحت لانحدارها فوق بشرتي، وفي النهاية أبعدت عن جسدي بفيض من الماء الحار.

وأخيرا تعب الميزابيان معي بما فيه الكفاية، فخرجت من بين أيديهما وقد مسدت ونظفت وغسلت ودلكت. وبعدئذ أدخلت في لباس شبحي، يتكون من أزر بيضاء،ووضعت فوق رأسي عمامة كبيرة خانقة وأرجعت إلى القاعة الأولى لأنام النومة الإجبارية. وكان الفراش قد اعد هناك ليستريح الجسم التعب فوقه ساعة من زمان، وحمل إلي الجبوق (الغليون) والقهوة، فاستسلمت بعد ذلك لغفوة لذيذة. ولم يمض وقت طويل حتى جاءني من جديد ميزابي وراح يدلك جسدي، وأعاد ذلك عدة مرات خلال الساعتين اللتين استرحت فيهما.

إن هناك كثيرا من الأروبيين لا يعجبهم الحمام، وأنا لا ألومهم على ذلك، فنحن لم نتعود على أن نكون لعبة في أيدي خدم الحمام القساة، الذين لا يحترمون أجسادنا على الإطلاق. إلا أني يجب علي أن اعترف بأني قد شعرت في مقابل ذلك التعب براحة تامة وتلقيت عوضه قوة كبيرة، بحيث إني عدت بعد ذلك مرات عديدة إلى الحمام حيث تلقتني أيدي الميزابيين.

إن الحمامات العربية في مدينة الجزائر، ويوجد منها اليوم تسعة حمامات، كلها بأيدي بني ميزاب، الذين تقيم قبيلتهم في الصحراء على بعد حوالي خمس عشرة مرحلة من الجزائر. وخادم الحمام لا يبقى عادة سوى بضع سنوات في الجزائر، وعندما يجمع مبلغا من المال، بعود إلى واحته في الصحراء، وهناك لا يمكن أن يدخل حماما عربيا أبدا، ذلك أن الحمامات لا توجد في بلاد الميزابيين، وهذا أمر غريب، فهم يشتغلون خدما في الحمامات. فيشتري في بني ميزاب حقلا من النخيل نحو مائتين من الفرنكات، ويتزوج عددا من النساء، يشتغلن من اجله، ويستسلم منذ تلك اللحظة إلى ذلك العمل، الذي أغرم به الأهالي كلهم، وهو البطالة الحلوة.

الفصل العاشر

الدروس بالعربية

الحاج محمد. - اللغة الفرنجية. - الخليط. - محادثة باللغة الفرنجية. - قدم هذه اللغة. - تاريخها. - معرفة موليير لها. - لغة عرف. - طريقة التعليم العربية. - عادات الحاج الغريبة. - هجرته وعودته خائبا. - معلمي الثاني.عجوز ذو نساء كثيرات. - الموسيقى العربية.

لقد ذكرت آنفا انه كانت لي رغبة جريئة في التعرف إلى بعض المواطنين الجزائريين، وذلك ليكون حكمي عليهم حكما صادقا. ونظرا لأني كنت انوي تعلم اللغة العربية، فقد بدا أن نيتي هذه أحسن وسيلة للتعرف إلى شخصية أو شخصيات جزائرية على الأقل. فبدأت أبحث عن معلم، وسرعن ما عثرت في شخص الحاج محمد بن أبي نار.

ولو حاول المرء تحليل هذا الاسم لوصل به إلى حد أدنى، ذلك أن الحاج، كما هو معروف لقب المسلم الذي يحج إلى مكة، وابن وأبو لفظتان تناقض إحداها الأخرى، فاسمه إذن ابن بونار، إلا أن هذا لا يعني بالطبع إلا بونار نفسه، فالعرب يحبون مثل هذه التسمية. وهكذا لا يبقى من هذا الاسم الرنان سوى الحاج محمد.

كان الحاج أشيب اللحية، نحيلا جدا، ولكن مظهره كان يوحي بالاحترام والإكبار له، وكان يتكلم قليلا من الفرنسية، غير أنه كان متمكنا من اللغة الفرنجية التي لا يتطلب تعلمها مشقة كبيرة. ذلك أن هذا الخليط اللغوي لا يكاد يتألف من غير اللغة الفرنسية والايطالية والاسبانية، التي تنطق بصورة رديئة جدا، وبعض الكلمات العربية. وإذا أراد الإنسان تعلمها، فإنه ليس في حاجة إلى بذل مجهود كبير، فهي لا تعرف القواعد النحوية، كما أنها تتكون من كلمات في منتهى البساطة. ومفرداتها

البسيطة عبارة عن مصادر لغات مختلفة، تستعمل لجميع الأشخاص ولكل الأزمنة، وأسماء وصفات فرنسية وإيطالية وإسبانية، لا تعرف غير صيغة الفاعل المرفوع، وعدد من الحروف والضمائر وحروف النداء، تصلح لأن تكون نباحا إنسانيا أكثر من صلاحيتها لأن تكون قسما من أقسام لغة من اللغات.

ولم تكن اللغة الفرنسية قد تقدمت على لسان الحاج محمد، ومن ثم فقد التجأ في بداية الأمر إلى ما يسمى باللغة الفرنجية، التي هي سهلة جدا، بحيث لا يحتاج المرء عند تعلمها إلى دروس خاصة. ولعل المحادثة التالية، التي جرت بيني وبين معلمي، تعطي صورة عن طبيعة هذه اللغة.

كان علي أولا أن أفهمه بأني أريد أن أتعلم اللغة العربية، فعبرت عن رغبتي هذه باللغة الفرنجية على الوجه التالي :

- (أنا أراد تعلم العربية) mi voular a prendre arabe
- (أنا أعطى درسا لك) moi donar a toi leçon
- (قداش الدرس) kaddache leçon

فرد علي المعلم بنفس اللغة :

- (نصف دورو) mizzo doro..

فليعجب الإنسان للطريقة التي يتم بها اختيار هذه المفردات حسب الحاجة إليها. فالجملة تتألف من كلمتين فرنسيتين وكلمة إيطالية وأخرى إسبانية، وكذلك الحال في الجملة الثانية تقريبا، وعلى العكس من ذلك نجد في الجملة الثالثة كلمة عربية وأخرى فرنسية، أما الجملة الرابعة فإن الكلمة الأولى فيها إيطالية والثانية اسبانية. وبعد ذلك بدا الدرس بأن أمرني الحاج قائلا :

- (أنت كتب الأبجدية) ti scribir alphabet

إن كلمات مثل scribir (كتب)، bibir (شرب)،chapar (أخذ) andar (ذهب) marchar (مشى) ومئات غيرها من مصادر، نصفها ايطالي والنصف الآخر فرنسي، هي روح اللغة الفرنجية. وقلما يمر المرء بميناء الجزائر وأسواقها دون أن يسمع كلمات من هذا النوع،تعبر عن أشياء كثيرة.

وعلى الرغم من أن هذه الرطانة مضحكة، فإن لها تاريخها الخاص فعندما زار بعض أفرادالطائفة المعروفة باسم « ترينيتير»[1] السواحل الجزائرية قبل قرون، وجدوا هذه اللغة شائعة الاستعمال، ولعلها كانت قد اتخذت في أوائل القرون الوسطى وسيلة للتفاهم بين التجار الإيطاليين والاسبانيين والفرنسيين وبين الجزائريين. وقد قال الأب دان[2]، رئيس الطائفة المذكورة، الذي نشر في القرن السابع عشر وصفا للدول التي زارها، عن اللغة الفرنجية.

La langue franque est un parler facile et plaisant composé de mots français, italiens et espagnols

(اللغة الفرنجية لهجة ساذجة مضحكة، تتألف من كلمات فرنسية وإيطالية واسبانية).

إذن فإن هذا القس الورع نفسه قد وجد هذه اللغة مضحكة، والواقع أنه ليس من اليسير دائما العثور على رطانة، من شأنها أن تضحك العالم اللغوي، خاصة إذا تمن من معرفة ثلاث عبارات أو

(1) Trinitaires طائفة مسيحية أسسها يوحنا فون ماتا سنة 1198. وكانت مهمتها تنحصر في التبشير بتعاليم المسيح وإطلاق سراح الأسرى والعناية بالمرضى، وقد انتشرت في فرنسا على الخصوص، وكا اتباعها يعرفون بإخوة الحمار. (المترجم).

(2) نشر الأب دان، المتوفى سنة سنة 1649، كتابا عام 1637، تحدث فيه عن حكومة الجزائر وأسطولها، وقد تتاح الفرصة للحديث عنه في وقت آخر (المترجم.

أربع من المصطلحات التي تتألف منها هذه اللغة، فإنه لا بد ان تتكون لديه عنها صورة غريبة جدا. ولم أستطع أنا أبدا أفهم كيف يقدر الناس على استعمال اللغة الفرنجية ويظلون مع ذلك جديين. إنه ليمكننا بحق ان نطلق عليها اسم الدعابة اللغوية.

وقد عرف موليير، أشد كتاب فرنسا سخرية، جوانب اللغة الفرنجية المضحكة ن فسجل للأجيال المتأخرة معارفه عن هذه الرطانة في ملهاته « المثري النبيل »، وخلد تلك المصادر الساذجة المريحة، لا سيما في الأبيات التالية، التي وضعها على لسان المفتي، فقال :[1]

Si ti sabir
Ti respondir
Se non sabir
Tazir, tazir

ويمكن ترجمتها إلى لغتنا، مع الحفاظ على المصادر الضرورية، كما يلي:

إذا أنت عرف
أنت أجاب
إذا ما عرف
سكت سكت

فأي حكمة تكمن في الوقت نفسه في معنى هذه الصيغ النحوية الساذجة! لقد ظن الفرنسيون مدة طويلة أن موليير قد وضع على لسنان المفتي لغوا فاحشا، ومقاطع يأخذ بعضها ببعض، لا تعني شيئا ولا تعود إلى مصطلح من المصطلحات، ثم إذا بأبناء لوتيتيا[2] يكتشفون سنة 1830 أن أبناء الجزائر، التي فتحت آنئذ يفهمون لغة المفتي في « المثري النبيل »

(1) انظر المشهد التاسع من الفصل الرابع. (المترجم).
(2) الاسم اللاتيني لمدينة باريس. (المترجم).

ولعل الفرنسيين قد أطلقوا، استنادا إلى الفعل الرئيسي في تلك الأبيات الخالدة، على اللغة الفرنجية اسم «لغة عرف».

واللغة الفرنجة تستعمل أحيانا في وطننا بألمانية، مقتصرة على المفردات الألمانية، وأقرب مثل على ذلك هو ذلك القيصر الذي اتخذ لنفسه لغة خاصة، يستعمل فيها مصادر الأفعال وحدها، مثل «أنا هذا لا أحب» «هو حمار يكون» وأنا «الأكل أراد» و«هو إلى الشيطان ذهب»، وغيرها من العبارات التي لا تزال ترن في آذان البعض من معاصرينا!

كانت الطريقة التي يتبعها الحاج محمد في تعليم الطالب المبادئ الأولية بسيطة جدا، فهو يطلب منه أولا أن يكتب الأبجدية بحروف كبيرة، وذلك بقلم القصب، الذي هو عند العرب عوض عن قلم الحبر، ويعيد كتابتها إلى أن يستطيع طالب ألف باء تاء التهجية. ثم يحدث نفس الشيء مع الأسماء والأفعال التي تستعمل بكثرة، وبعد ذلك يعلمه عددا قليلا من الجمل المستعملة كثيرا في الحياة اليومية.

إلى هذا الحد كان كل شيء على مايرام، إلا أنه ما أسرع ما توقفت معارف الحاج، ذلك أنه لم يكن يعرف القواعد النحوية بالمرة. ومن المؤسف أن بعض العرب يعتبرون هذه القواعد أشياء لا فائدة منها، والعالم عندهم هو ذلك الطالب الذي حفظ القرآن كله وهكذا يتجه التعليم بأسره نحو هذه النقطة. حفظ ببغائي منتظم. فإذا حفظ أحدهم القرآن الكريم، ويستغرق ذلك عادة عشر سنوات من حياته، فإنه يكون قد وصل إلى درجة من الغباء، لا تبقي له معها رغبة في الإقبال على تعلم شيء آخر، فالأشياء المحفوظة لا تشرح للطلاب أبدا، وما دام الأمر يتعلق بالحفظ فقط، فلا أحد يستطيع فهم معنى من معاني القرآن الكريم، ولا يشرح القرآن إلا للكبار، وذلك بصورة ميسرة.

كان لا بد لي من شيء من الصبر، حتى استطيع احتمال تصرفات الحاج وسلوكه، خاصة وأن محيطه كان يمتاز بالحيوية والنشاط. وكان هذا المحيط يتألف، كما عرفت ذلك وشيكا وفزعت له أشد الفزع، من عدد كبير من تلك الحيوانات الصغيرة الضاربة إلى الخضرة، النشيطة الحركة، السريعة الوثب، التي لا يتحملها في جسده أي أوروبي، ولكنها لا تزعج العربي إطلاقا، فإذا مسك بها أبعدها عنه بعناية، غير أنه لا يقتلها أبدا. ففي أثناء الدرس كانت تلك الحشرات اللطيفة تذهب وتجيء فوق أنف معلمي المحترم ولحيته وصدريته وعمامته، ولكنها لم تكن قادرة على أن تخرج الرجل الطيب عن هدوئه الفلسفي. وقد ظننت من أول وهلة أن علي أن أنبهه إلى ذلك، فكان جوابه أن مسك بواحدة من تلك الكائنات المذكورة بلطف، ووضعها على المنضدة بهدوء، وترك لها كل الحرية في الغرفة. فلا ينبغي للمرء أن يطلب من العربي قتل هذه الحشرات الشيقة.

وهناك مسألة أخرى، خلعت على درس الحاج شيئا من الأصالة، ولكنه لم يكن دائما مقبولا. فالمسلم إنما هو إنسان العادة إلى أقصى حد، وإذا أصبحت العادة طبيعية فإنه لا يمكن التغلب عليها كما لا يمكن التغلب على الطبيعة. فالحاج الذي قضى حياته كلها في تعليم الأطفال الصغار. ثم بدأ في شيخوخته يعطي دروسا خصوصية للأروبيين، كان متعودا على ضرب العرب الصغار على أصابعهم في أثناء الدرس، وكثيرا ما كان يحدث ذلك. ومن ثم لم يستطع الرجل الفاضل أن يتخلى عن هذه العادة، الأمر الذي أدخل على قلبي سرورا كبيرا، ولو أن أصابعي شعرت في نفس الوقت بآلام شديدة. وقد تعود محمد طبعا أن يتعذر كما حدث ذلك، إلا أن العادة كانت أقوى من الحيلولة دون تكراره.

كان الحاج محمد مع ماله من أخطاء أفضل نموذج لعرب الجزائر، فقد كان طالبا يحفظ القرآن عن ظهر قلب، يصلي ويقرأ القرآن في المسجد

خمس مرات في اليوم، ويتوضأ قبل كل صلاة، ويذهب إلى الحمام مرتين في الأسبوع. وكان إلى ذلك زوجا طيبا، ويقوم بكل ما عليه من واجبات نحو زوجه، بحيث إنها لم تذهب مرة واحدة إلى القاضي لترفع شكوى ضده، خلافا لما يفعله نساء عدد كبير من الناس. وكان أيضا أبا رحيما طيبا، ترك ابنه يرتدي البالي من الثياب، ولكنه لم يبخل عليه بغذائه الروحي : القرآن الكريم!

ومنذ أن أصبح الحاج محمد معروفا بين الفرنسيين، صار يكسب عن طريق إعطاء الدروس الخصوصية ما يكفيه، بل فوق ما تتطلبه احتياجاته البسيطة. فكان بالنسبة لغيره في وضع يحسد عليه، إلا أن قدره أراد أن يسلط على رأسه فكرة معينة، يشاركه فيها جميع المسلمين تقريبا. لقد أشقاه أن يسكن في بلد يحكمه الكفاروكان يشكو كثيرا من شرور المدينة الفرنسية التي تنل إعجابه أبدا، ومن الغلاء الشديد الذي طرأ على الواد الغذائية والترف المتزايد. وكان يثيره على الأخص إثراء اليهود الجزائريين، الذين كانوا سابقا خاضعين خضوع العبيد، فينفر منهم ولا يحب رؤيتهم يوم السبت وهم يختالون ببدلاتهم الراقية! ولأجل أن يتجنب هذا التفرنس ومساوءه، ويبتعد عنه ما أمكنه ذلك قرر أن ينتقل بعائلته إلى مدينة مسلمة، وفي جنونه ذاك لم يقع اختياره على مدينة أخرى غير القسطنطينية، حيث كان وضعه أشد تأزما وأصعب مخرجا.

يا لك من حاج عجوز مسكين! كم كان ندمك كبيرا فيما بعد وكم امتلأ قلبك حسرة على قرارك هذا! كم كان مظهرك تعسا، وكم كنت مغبرا، بائسا، رث الثياب، مفلسا عندما التقيت بك مصادفة خلال السنة التالية في شوارع تونس! اجل! إنك لم تجد في إسطانبول أوروبيين يدرسون عليك العربية الجزائرية نظير «ميزو دورو»، وينطرون بصبر إلى

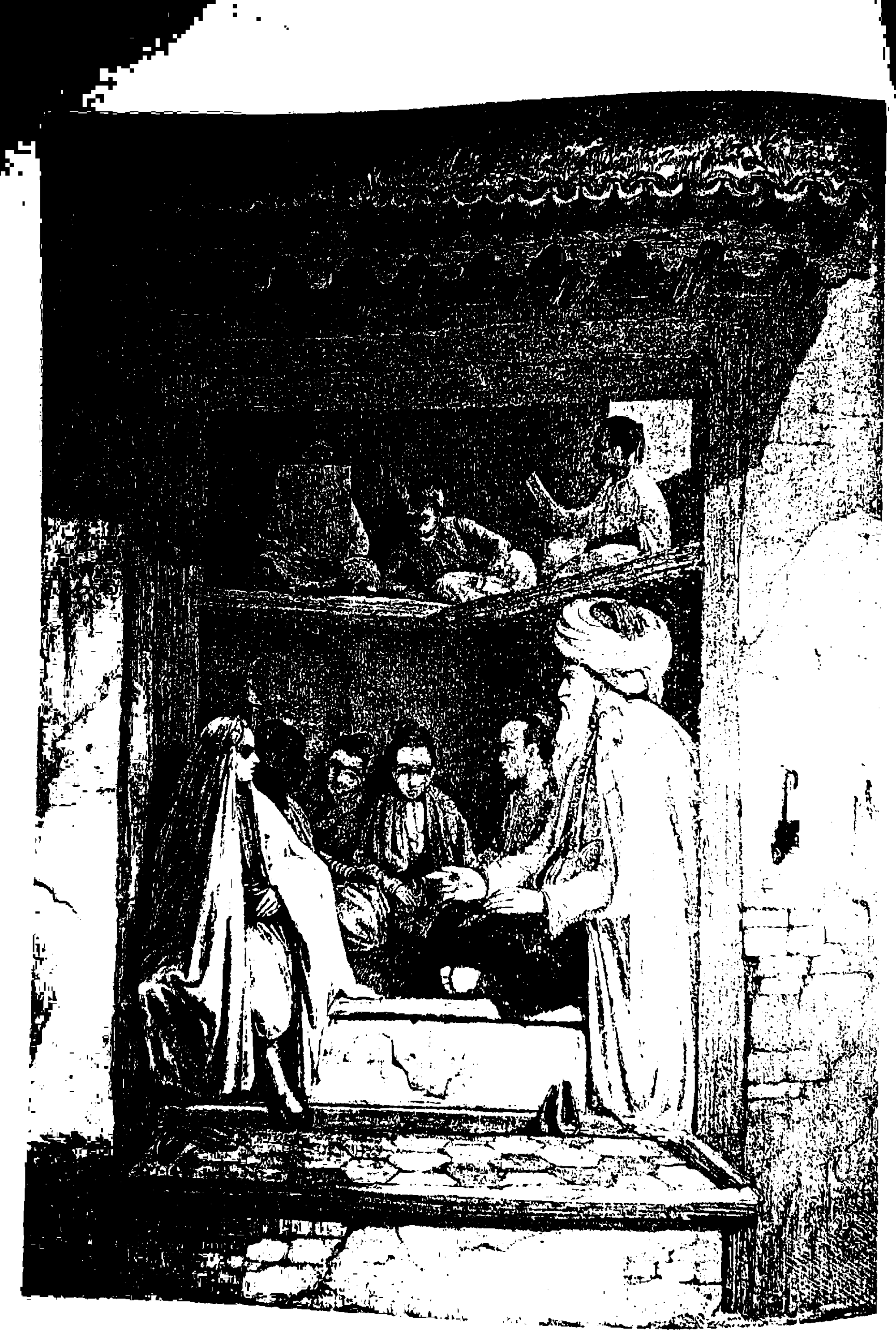
حرب الحشرات على لحيتك، ويسمحون لك إلى ذلك بضربهم على أصابعهم بالمطرق!

بعد أن قام الحاج أخيرا بسرفته التي كان قد وضع مشروعها قبل مدة طويلة، أحيل علي معلم آخر يدعى عبد الرزاق. كان هذا المعلم رجيلا عجوزا، أشيب اللحية، نحيف الجسم، نظيف الثياب، ذا أخلاق مقبولة، إلا أنه كان للأسف جشعا طماعا. وألحق أنه من اليسير أن نفهم لماذا كان الرجل الفاضل يعاني باستمرار ضيقا ماليا شديدا، فقد علمت أن له، إلى جانب زوجاته الأربع، عددا من الخادمات الحسان، أرغمته إعالتهن على التسول وإعطاء الدروس الخصوصية.

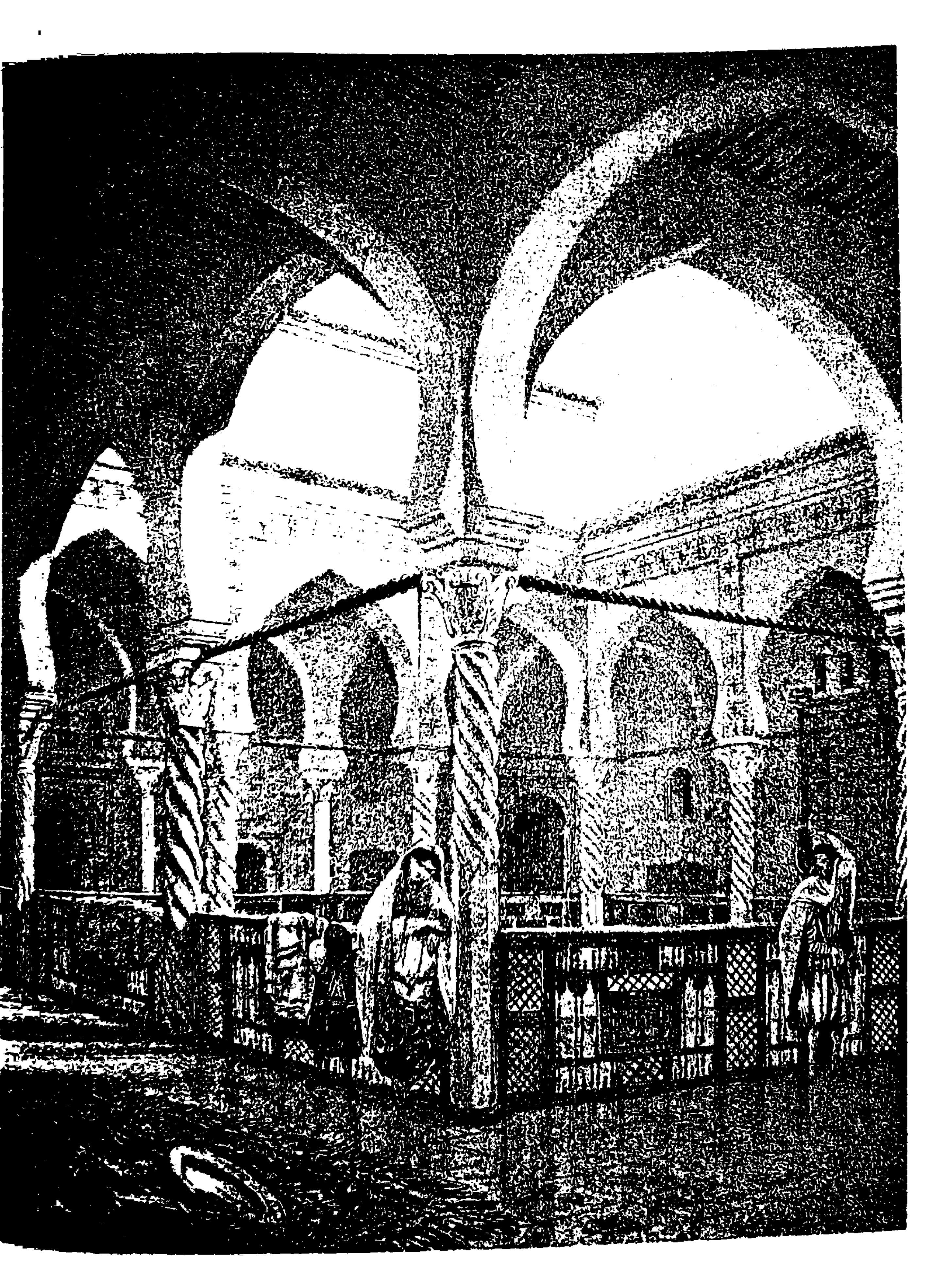
وكان لهذا الرجل هواية غريبة بالنسبة لعمره، ذلك أنه كان مشغوفا بالعزف على القيثارة بصورة جيدة من وجهة النظر العربية، وكانت عادته ان يقصر عزفه على جميلات حرمه، إلا أنه وافق مرة على العزف في حفلة ختان عربية، أتيح لي ان أحضرها أنا أيضا، والغناء للمدعويين إليها.

وليس في وسع أي أروبي، يسمع الموسيقى العربية لأول مرة، أن يعرف قيمتها ويقدرها حق قدرها، إذ لا بد أن تتعود حاسة السمع إلى حد ما على هذه النغمات التي يصطف بعضها إلى بعض، والتي تختلف عما هو مألوف جد الاختلاف، حتى إنه ليمكن اعتبارها شيئا آخر غير أصوات لا تناسق فيها ولا انسجام لها. فالموسيقى الجزائرية ينقصها الانسجام، ومن تعود على سماعها، فإنه لن يصعب عليه أن يجد لها متعة وعذوبة.

والموسيقى الجزائرية ليست شيئا آخر غير تلك الموسيقى القديمة، التي عرفناها عن طريق هذا الشعب الذي لم يتغير منذ آلاف السنين، كما ثبت ذلك حديثا (شهر مارس) مقال نشرته المجلة الإفريقية التي تصدر في مدينة الجزائر.



تعليم اللغة



قصـــر

الفصل الحادي عشر

أسرة جزائرية

معارف أخرى من الحضر. - أحمد. الغرور. - مشروع مشاهدة الحريم. - حيلة. - القطة المصبوغة بالأحمر. - دي لعبة لبلوغ الغرض. - الدخول إلى الحريم. - خيبة الظن. - عملية الزينة لدى الحضريات. - الحناء.

كان من بين معارفي في سنتي الأول بالجزائر، غير الشيخ الحاج وعبد الرزاق ذي الحريم الكثير العددشاب عربي، يدعى أحمد بن عبد الرحمن. وقد تعود أن يأتيني يوميا لمدة ساعة، أتمرن معه فيها على الحديث بالعربية. وكان صديقي الجديد نموذجا أصيلا لأغلبية شبان عرب الجزائر، فهو من أولئك الناس المرحين، المنطلقي المزاج، الذين يبدو عليهم الرضا، سعداء كانوا أم أشقياء، قلما يحتفظون في نزقهم بالقطعةالنقدية. ومن ثم عرفوا جميع ضروب الترف بقسميه العربي والفرنسي، وأحبوها ومارسوها، ولكنهم مع ذلك قادرون إذا لزم الأمرعلى أن يعيشوا دون احتياجات تقريبا.

كان أحمد أعزب، وعلى الرغم من انه لم يكن غنيا، فإن عمله كان يتمثل في البطالة الحلوة. وكان يبدو عليه أن هوايته الوحيدة هي الثياب الجميلة، فكانت له ثروة معينة، وكلما كانت أنفس كان ذلك أفضل. لقد أراد أحمد أن يسبق اليهود المكروهين إلى ذلك، وكانوا قد أتيح لهم وحدهم دون أهل البلاد أن ينعموا بالثروة، بحيث إنهم لم يضطروا إلى ارتداء اللباس الشرقي ممزقا. هذا في الوقت الذي نجد فيه مسلمي الجزائر فقراء إلى درجة أن المزق والقذارة هماسمة ألبستهم الرسمية. ولهذا لم يكن في وسعي أن أسر صديقي الشاب سرورا عظيما إلا بأن اهدي له بدلة كاملة، طرزت حواشيها بالذهب بما فيه الكفاية. ومنذ ذلك الحين صار يتجول فيها بساحة الحكومة مزهوا فخورا. وكان يحب الظهور في بدلته

الجديدة كلما ظهر هناك جمع من الشباب اليهودي المتغطرس، ففاقهم وتمتع بعاطفة الحسد، التي كان في نظره لا بد أن يشعر بها أبناء اليهود.

لقد أتيح لي بواسطة احمد أن أرى فناء منزلي عربي، وهذا شيء لا يتاح لأروبي في مكان آخر. كان أحمد يسكن مع أمه الأرملة، التي كانت ترأس عدا من الفتيات من أقاربها باعتبارها أكبرهن. فالعادة الجزائرية تقضي بأن يسكن أناس ينتمون إلى أجيال ثلاثة في بيت واحد، وفي هذه الحالة يضم الحريم جميع أعضاء الأسرة من الإناث. وكان بطبيعة الحال ممنوعا علي كأوروبي وكرجل معنا باتا الدخول إلى قداسة الحريم، إلا أن استعمال الحيلة بذكاء خول لي أن أحقق هدفي بمشاركة احمد لي في هذه الزيارة. لقد ذهبت برفقة سيدتين سائحتين، كانتا تأملان أن ترضيا فضولهما بالإطلاع على حياة الأسرة العربية، إلى بيت والدة احمد في اليوم المحدد، فاستطاعت السيدتان الدخول بسهولة كما دخل احمد باعتباره أين البيت. أما أنا فقد كانت العادة تتطلب أن أبقى خارج المنزل.

وبينما كنت واقفا أما الباب، وأنا خائف من أن تفشل تلك الحيلة البريئة، التي وعدني بها أحمد الدخول، تعالى فجأة صراخ رهيب. عواء حيوان وصراخ النساء، فعرفت معنى ذلك. كان احمد قد رمى قطة عمته العزيزة المصبوغة بالحناء من فوق الشرفة إلى فناء الدار، كما كنا قد اتفقنا، وذلك دون أن يراه أحد، فوصلت القطة إلى الأرض سالمة، إلا أن هذا لم يمنعها من أن تصرخ صراخا رهيبا، كما لو أنها كانت على وشك الموت. وقد نتج عن هذا الوضع أن ساور النساء، اللواتي يفزعن بسهولة، كثير من الاضطراب والخوف فأسرعن كلهن صائحات باكيات متوثبات نحو الجهة التي سقطت فيها القطة.

وفي غمرة هذا الاضطراب الذي نشأ عن سقوطها استطعت أن ألقي نظرة على داخل الدار، استغرقت لحظة واحدة وأرضي فضولي تماما. ولكن

أية خيبة كانت تنتظرني هناك ؟ إني لم أر شيئا من تلك الثياب الفاخرة والأزياء البديعة، التي ترتديها عربيات الجزائر وتظهرن أنفسهن للفضوليين نظير مبلغ من المال. حقا إن الأزياء كانت هي نفسها، إلا أنها كانت كريهة ممزقة مهترئة قذرة، بحيث إن بنات عم أحمد الشابات أنفسهن كن يظهرن فيها أشبه بالنظار. كانت لأغلب ساكنات البيت سمنة فيها انتفاخ وتورم.. كن عبارة عن كتل متحركة من الشحم، وقد غارت عيونهن وتهدلت الوجنات منهن. إلا أن هذا هو ذوق عرب الجزائر،فهم يعتبرون كتل الشحم المتحركة فتيات جميلات. إن هذه النظرة فيالحقيقة لم تكن جديرة بحيلتنا، التي تؤذ القطة المصبوغة بالحناء إطلاقا.

وعرب الجزائر يعتقدون أن الألوان التي منحتهم الطبيعة إياها في حاجة إلى تجميل عن طريق الأصبغة، ولذلك فإنهم يقومون بأعمال خارقة في حقل الطلي بالمساحيق والاصبغة، خاصة الحناء، ويستعملون منها ما يحلو لهم بحيث إن الخدود والأظافر والأيدي والأرجل تحمل ألوان الزنجفر، حتى الأطفال تصبغ شعورهم باللون الأحمر. وكثيرا ما ظننت أن الصغار يلبسون جوارب حمراء، ولكن أرجلهم كانت في الواقع مصبوغة باللون الأحمر. وقطط الحريم تحمل هذا اللون أيضا : الحناء!

الفصل الثاني عشر

نموذج جزائري

الحاج العجوز. - شغفه بالرحلات. - تعاطفه مع الأروبيين. - صورة الدويرة. - مشاكل العزاب. - ذكريات الحاج عن رحلاته. - سنة في مكة. - الحاج في باريس. - حياة حقيرة ومسكن فاخر. - صهر الباشا. - الحاج وحسين داي. - شكواه من انقراض الحضر الحقيقيين.

يمتاز عرب الجزائر الحقيقيون عن الأروبيين المقيمين فيها بما فطروا عليه من أدب ولطف وكرامة وحسن ضيافة. إذا أتيح الأروبي المهذب أن يحظى بعشرتهم، فإنه لم يجد فيهم ما يمكن أن يسمى بسوء الأدب. وفي وسع كل أروبي، ولو كان من طبقة أرقى، إذا اتسمت تصرفاته بالعقل والرشاد، أن يشعر عند معاشرته لهم بالاطمئنان إليهم وعدم الكلفة، بل أن يحس بأنه في بيته الخاص، وليس الحال كذلك فيما إذا أراد معاشرة من يشاكلهم في الطبقة لاجتماعية بأوروبا. وأغلب عرب الجزائر في نظر الأروبيين ينتمون إلى طبقة أدنى في مدرج الرتب الاجتماعية، لأنهم كلهم تقريبا عمال أو تجار، ولا يكاد يوجد بينهم ذو الدخل السنوي أو مالك الأرض، إلا أنه ليس في إمكان المرء أن يطبق عليهم المقاس الأروبي فيما يخص الرتبة. فالخياط العربي أو الحذاء أو أي صانع آخر يتصف في أغلب الأحيان بالنبل سواء من ناحية الخلق أو النسب، ذلك أن بعضهم ينحدر من أسرة عريقة ماجدة.

وفي خلال إقامتي الأخيرة بالجزائر أتيح لي أن أتعرف إلى رجل، كان أكثر ملاءمة لغرضي،وهو معرفة هذا الشعب المهم والاطلاع على حياته وأعماله من كل الذين تعرفت إليهم سابقا. وكان هذا الرجل حاجا عجوزا، قضى قسما كبيرا من حياته في الرحلات، وكانت له معرفة بطبائع الناس

والأشياء غير عادية بالنسبة لعربي جزائري، لا يملك قبل الزواج إلا خبرات قليلة. وكان قد حج ثلاث مرات وأقام في مكة المكرمة سنة كاملة. ولا شك أن الحماس الديني هو الذي حمله على ذلك، إلا أن شغفه برحلات كان هو السبب الرئيسي في ذلك. ولعله هو نفسه لا يعترف بذلك أمام نفسه، فلم تكن لهذا العجوز اللطيف هواية أخرى غير القيام برحلات مختلفة. وكانت قد استبدت به، وهو لما يزل شابا، ولم تدعه يستريح إلا بعد أن طاف بالشرق كله وزار بعض الدول الأوروبية، ومع انه لم يتعلم كلمة فرنسية واحدة، فقد سافر إلى باريس قبل اختراع القطارات بمدة طويلة، وأقام بها أكثر من سنة. وإلى الآن لم يتخل عنه شغفه بالرحلات، ولا يزال رأسه مليئا بمشاريع لرؤية بلدان جديدةوشعوب جديدة!

وقد كانت وسائل الحاج إلى رحلاته محدودة، لأنه لم يكن غنيا، وحتى لو كان غنيا، فإنه كان يقوم بهذه الرحلات نفسها بصورة بسيطة رخيصة، فلم تكن لتكلفه أكثر مما كلفته. ذلك أن من قواعد عرب الجزائر أن يمتنعوا في خلال السفر عن جميع أنواع المباهج وضروب الراحة، وألا يسمحوا لأنفسهم بصرف أموالهم في غير وسائل النقل أو خبزهم اليومي بمعناه الضيق. ولا يشذ عن هذه القاعدة حتى أغناهم، فهم يسافرون في جميع الظروف على ظهر السفينة، حيث يتعرضون للعواصف والأمواج، للشمس والأمطار، ولكنهم يقتصدون بعض الفرنكات. ولم يكن الحاج، كما سبق أن قلت، غنيا، فأبوه، كان مفتي الجزائر، وإذا كانت هذه الوظيفة تجلي لصاحبها الاحترام والنفوذ فغنها لم تكن قط ذات راتب كبير.

إن الحاج العجوز قد تخلى في أثناء رحلاته عن كثير من أحكام عرب الجزائر المسبقة، وقد بقي حقا صحيح الدين، يؤدي ما أمر به الشرع في أوقاته، غير أن أفقه المتسع لم يسمح له أن يعيش في تلك العزلة التي يصر عليها أغلب الجزائريين تجاه الأوروبي. بالعكس، لقد كان الحاج يحب

الأوروبيين، وخاصة السواح منهم، الذين يقضون حياتهم مثله يجوبون أطراف العالم . ولما كان لا يعرف اي لغة اوروبية، فإنه لم يكن يعاشر إلا من كان منهم يتكلم لغته العربية! ولذلك كانت دائرة معارفه من الأروبيين صغيرة، لم يكن بينهم فرنسي واحد!

كان اسم هذا الرجل، الذي عرف باللطف ودماثة الخلق، الحاج احمد القادري، وكان في السابق يزاول مهنة الخياطة، ولكنه ترك الآن هذه الحرفة. وكنت قد تعرفت إلى الحاج بواسطة ابن اخيه محمود بن الشيخ علي، الذي كان يعطيني دروسا في قراءة القرآن. وكان محمود مؤذنا في الجامع الكبير، ولهذا كان يقضي لياليه قريبا منه ليؤذن لصلاة الصبح في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. ومن اجل ذلك سره جدا أن يكون بيت عمه قريبا من الجامع الكبير. وهكذا تعود أن يقضي أمسياته ابتداءمن السابعة عند الحاج. وكم كان سروري عظيما، عندما اقترح علي ذات مرة أن أرافقه إلى نزل الحاج.

ولأول وهلة لاحظت ما يمتاز به الشيخ الحاج عن جميع أبناء العاصمة الجزائرية،الذين أتيح لي أن أتعرف إليهم سابقا. اجل، لقد حدثني قلبي بأني سأشعر وشيكا بحب لهذا الذي طاف ببلدان كثيرة، وأني قد انجح في اتخاذ صديقا حميما. كان احمد القادري في حوالي الستين من عمره، ولكن الشيب لم يكن بعد قد تغلب على رأسه، لأن الطبيعةوهذا شيء نادر في الجزائرقد منحته لمة ولحية حمراوين. وكانت بنيته كانها سكبت من فولاذ، وكان يتمتع بالصحة والعافية باستمرار، له أنف طويل اقني، وجبهة عالية، ولكنها ضيقة، وكان إلى ذلك أدرد... في عينيه بريق فضول وكانت وجنتاه غائرتين، ولكنهما قويتان سليمتان، ولحيته كثيفة، هي مزيج من البياض والحمرة... كل ذلك يكون النقاط المكملة لهيئته.

كانتا الرخاوة غريبة عن الحاج إلى درجة لا تصدق، فهو لم يكن

مثلا يدرك لماذا يسافر الإنسان في الدرجة الأولى أو الثانية ما دامت الراحة التي تقدمها الأفرشة فيهمالا تساوى الثمن الذي يدفعه من أجلها .أما هو نفسه فكان يسافر دائما على ظهر السفينة أو في الدرجة الثالثة. وعندما رجع أخر مرة من الإسكندرية، التقى على ظهر الباخرة بيهودي جزائري، كان قد أخذ الدرجة الأولى ودفع خمسمائة فرنك، بينما دفع الحاج في الدرجةالثالثة ثمانين فرنكا. وعندما وصلا إلى ميناء الجزائر. نادى الحاج اليهودي قائلا : «لقد دفعت أكثر مني، ولكن ماذا أفدت من ذلك ؟ لقد وصل كلانا، وإذا تساءل المرء من تمتع منا السفرة، فسوف أكون أنا في نهاية الأمر ذلك الذي فاز بهذه المتعة!»

وكانت الغرفة التي يسكنها القادري من نوع ما يسمى بالدويرة. والدويرة تصغير كلمة الدار، وتعني حرفيا البيت، ولكنها تتألف دائما من غرفة واحدة، وهي مفصولة عن المدخل العام لسكان الدار الآخرين، فلها مدخلها الخاص، وفي وضعها هذا فائدة لصاحبها لا تقدر بثمن. ذلك أن الجزائري، الذي يسكن دارا يشاركه فيها غيره من المستأجرين ولا يستطيع اليوم استئجار بيت كامل إلا أكثر الجزائريين غنى وثروة مجبر على اتخاذ احتياطات غير ملائمة، وذلك لكي يتجنب رؤية نساء جاره. فذلك الأعزب التعس، الذي يسكن غرفة في منزل به عائلات كثيرة، مضطر لقضاء سحابة يومه كله خارج غرفته، التي لا يستعملها إلا للنوم، إذ أن عليه أن يتركها قبل طلوع النهار، ثم لا يعود إليها إلا عند هبوط الظلام... وإلا فسوف يحدث له ما يكره! وإذا التقى في طريقه بامرأة سافرة، فالويل له كل الويل! فقد حلت به، ونزلت على رأسه نقمة المجتمع ولعنته. فهو منذ تلك اللحظة إنسان لا أخلاق له، ولن يسمح له أي رجل متدين بالزواج من ابنته، كما انه لن يكلمه بعد إنسان مهذب، وسينظر إليه على أنه كافر أو رومي وهذا أسوأ.

ولما كان الحاج أحمد لم يشد رباط الزوجية الناعم أبدا، فإنه كان عليه أيضا أن يخضع لهذا الطرد المزعج، ويبقى خارج بيته طوال النهار، لو لم تكن له دويرته، التي كانت عزيزة عليه كطفلة. لقد زينها وغطى أرضيتها بقطع من المرمر، كان قد التقطا من الشارع، كما تعود أن ينظفها ويغسلها يوميا في حب أبوي. وكلما وجد قطعة من ورق مزركش، زين بها جدران دويرته. وقد خلت الدويرة طبعا من الأثاث، وعوض ذلك وضعت حصيرة فوق المرمر، امتدت فوقها زربية. وكانت هناك مطارح جيدة مريحة تشغل ثلاث زوايا من الدويرة، تغطيها الزرابي، فكانت تشبه الأريكة. هذه هي الأشياء الوحيدة الفاخرة التي كانت تحتوي عليها غرفة الحاج، فالمطرح في مدينة يعتبر نوعا من أنواع الترف. أما في الريف فإن المواطن الجزائري لا يعرفه، وإذا هو رآه مرة، فلا بد أن يفكر كثيرا في معرفة ماهيته.

كان الحاج وضيوفه يتسامرون حتى منتصف الليل أو بعده، بقليل، وقد سمحت لي دراستي للعربية بمشاركتهم في الحديث أثناء جلساتهم التي كانت تعقد كل أمسية، ولم ألبث أن أصبحت عضوا في دائرتهم الصغيرة،التي تعود عليها الكل بسرعة وألفوها.

كان القادري بالنسبة لعرب الجزائر، شعب الصمت، حديثا إلى درجة كبيرة، وكان يحب على الخصوص الحديث عن رحلاته. وكانت هذه الرحلات مهمة جدا بالنسبة لي، لاسيما رحلته إلى مكة المكرمة وإقامته فيها لمدة سنة كاملة. فمن شان هذه الرحلات وتلك الإقامة أن تثيرا شوق الأروبي إلى اكتشافات عن هذه البلاد العجيبة المحرمة، نظرا لاستحالة الاقتراب من هذه الأمكنة بالنسبة له.

ولكي يكون لإقامة القادري سبب معقول، فقد فتح دكانا في مكة واتخذه في الوقت نفسه سكنا له، ولم يشتغل بالتجارة، لأنه لم يكن يريد ذلك، وإنما جعل منه فرصة للتعرف إلى أهل المدينة وعرب ما حولها، فقد

كان مغرما بمراقبة الناس، ولم تكن تنقصه دقة الملاحظة واستنارة النظرة. كان فضوليا ومتعطشا إلى العلم في الوقت نفسه وهذان أمران نادرا ما يعثر المرء عليهما لدى المسلمين، إذ أن معرفة أغلبهم تنتهي على ضفاف النيل ولا تتعداها!

ولم تكن للحاج شمائل سكان مكة، وعلى الرغم من أن العدد الأكبرمنهم كان يعيش عالة على ما يتصدق به بقية العالم الإسلامي... وأن أغنياءهم لم يصلوا إلى الثروة إلا بفضل مواسم الحج، فإنهم كانوا يكرهون الغرباء. كان عليهم طبعا أن يحتموا وجودهم بينهم في أيام الحج، ولكن ما يكاد يضيع تيارا أولئك الرحل الأتقياء، حتى تبين عواطف الكره للغرباء من جديد وبصورة أشد. والويل لمن يبقى منهم بمكة في فصول السنة الميتة، فإنهم عندئذ سيتعرضون لكثير من الشتائم والسباب،بل لسوء المعاملة من طرف سكان مكة وللسلب والنهب من طرف البدو القاطنين في نواحيها. وقد عاش الحاج نفسه تجارب سيئة من هذا النوع، وتعرض للطعن أكثر من غيره من المسلمين الغرباء، لأنه، بصفته جزائريا، كان يحمل جواز سفر فرنسي ومن رعايا الحكومة الفرنسية، فاعتبروه لذلك مارقا، نصف كافر، وكثيرا ما سمعهم يتهمونه في دينه وعقيدته، إلا أن هذا كله لم يثنه عن عزمه على الإقامة في مكة المكرمة لمدة سنة كاملة!

وفي آخر الأمر أتاحت له دماثة خلقه والخدمات التي قدمها لهم أيام نفورهم منه أن يرغمهم على الاعتراف بما لوجوده بينهم من فائدة تعود عليهم، كما وفق تدريجيا،وذلك بفضل جلده وصموده ومزاحه المرح أبدا، إلى تجريدهم من أحكامهم المسبقة عنه، فلم يبخلوا عليه بعدئذ بما يليق به من احترام وإكبار، حتى إنهم أرادوا استبقاءه عندما أراد العودة إلى وطنه، إلا أن الحاج كان في هذه المرة هو الذي لعب دور المتحفظ الأنوف!

وكان من الشيق جدا أيضا الاستماع إليه وهو يتحدث عن إقامته في باريس، وكان قد سافر إليها برفقة ثلاثة من أبناء بلاده، وكان أرقى هؤلاء الأربعة منزلة وأعلاهم شأنا نسيب باشا الجزائر الأخير حسين داي. إن هؤلاء الناس البسطاء كانوا يحيون في باريس نفس الحياة التي تعودوا عليها في وطنهم الجزائر. فكانوا يهيئون أكلهم بأنفسهم، ويجلبون الماء من البئر بأنفسهم، ويمضون إلى السوق والقفة تحت أذرعهم. باختصار، لقد نظموا حياتهم بصورة بسيطة رخصية بحيث إن تكاليف الأكل والشرب، كما أكد لي العجوز، لم تكن تتجاوز في المدينة العالمية أربعة فرنكات في اليوم، أي فرنك واحد لكل شخص، والأغرب من هذا أن هؤلاء الأناس الطيبين كانوا قد استأجروا مسكنا متناقضا تماما لاحتياجاتهم البسيطة. ذلك أن المسكن كان عبارة عن طابق كامل في بيت مؤثث بشارع ريفولي، لا تقل أجرته عن خمسمائة فرنك في الشهر الواحد، وهو مبلغ كبير بالنسبة لهم.

ولكنهم كانوا قد اقنعوا نسيب الباشا بأن مقامه يتطلب مثل هذا المسكن الفخم، فلم يكن لصهر الداي، وهو سيخ من حيث السنوات، طفل من حيث التجارب، مفر من أن يدفع هذا المبلغ شهريا، ولو كان يعني الدمار بالنسبة له. لقد كانت لهم بهذا المسكن غرف كثيرة جدا، ولكنهم لم يكونوا في حاجة إلا إلى غرفة واحدة... حتى الأفرشة لم تكن ضرورية بالنسبة لهم. وهكذا استعملوا غرفة للنوم، أما الغرف الأخرى فلم يستعملوها بالمرة، وكانت أفرشتهم في البهو ليلا ونهارا، حيث كانوا يطبخون طعامهم أيضا على كوانين الفحم، التي كانوا قد حملوها معهم، لان آلات الطبخ الفرنسية كانت طبعا لغزا في نظرهم. لا بد أنه كان من الشيق جدا أن يرى المرء المواعين الفخارية متناثرة فوق آرائك ومقاعد بهو باريس فاخر. وعلى ذكرها لا بد من الإشارة إلى أن الطبخ كان إلى

جانب الرحلات هواية الحاج الرئيسية. فكان كانون الفحم مشتعلا في دويريته أبدا، وكان على المرء أن يشرب القهوة والشاي ويأكل الكعك فوق كفايته، كما يتناول في أحيان أخرى الحلوى العربية. وإذا لم يصب المرء بعسر على الأقل، فإن العجوز الطيب لن يرضى عنه.

وعندما كان الحاج أحمد يسكن مع أصدقائه الثلاثة، ومن بينهم نسيب الباشا، ذلك البيت الفخم في باريس، ويأكل طعاما يسيرا، كان يحدث أحيانا أن يأتي مندوب من طرف الحكومة الفرنسية لزيارة نسيب الداي، وفي هذه الحالة يجري تغيير في المسكن وزخرفة تامة. فبخرج الكانون من البيت وتبعد مواعين الطبخ، وينظف كل شيء، وينظم الأثاث تنظيمايليق بمبعوث حكومي .ويحدث كذلك تغيير في الأشخاص أنفسهم، فإذا كانوا سابقا يعيشون على مستوى واحد، وينامون على الأرض، وقد اختلط بعضهم بالبعض الآخر، لا يعرفون الفروق الطبقية، فإن هذه الفروق تعد إلى الظهور الآن. فيجلس نسيب الباشا، باعتباره شخصية لها مكانتها واعتبارها، فوق الأريكة في أبهة وجلال، بينما يقف الآخرون حوله في خشوع، متظاهرين بالخضوع له والوقف على خدمه. فهذايحمل القهوة، وذاك يحمل النارجيلة، أما الثالث فيمثل تلك الشخصية التي تظهر عادة إلى جانب كبار المسلمين، لا عمل لها إلا التثاؤب والظهور بمظهر الغباء!

وليأت المبعوث الفرنسي الآن، فإنه سوف يستقبل استقبالا رائعا وباحترام بالغ. وحين تنتهي زياراته ويمضي في سبيله، فلا بد أن يكون قد تأثر لما شاهده من حرص المستخدمين في منزل مسلم على النظام والترتيب، إلا انه ما يكاد يختفي عن أنظارهم، حتى يعود نظام البيت إلى ما كان عليه قبل ذلك ويتغير المنظر. فها هو نسيت الباشا قد أصبح من جديد جزائريا عاديا، فاضطجع فوق الأرضية بين خدمه الموقتين، وراح الآخرون ينتقمون منه، وينكتون عليه لما فرضوه على أنفسهم بسببه. ولهس ذلك

لان نسيب الداي لم يكن له سابقا منزلة مرموقة حقا، وإنما لأن مجده كان عند زيارته لباريس قد انتهى، ولأن الجزائر كانت قد سقطت، ثم إن الجزائريين لا يقيمون وزنا إلا للشخصية العاملة رسميا، فالباشا المعزول قليل الأهمية في نظرهم، حتى ولو كان قد نقل أمواله إلى مكان آمن، أما إذا لم يفعل هذا فهو لا شيء إطلاقا!

وكان الحاج قد عرف الداي أيضا معرفة جيدة، إلا أنه لم يعرفه كحاكم، بل عرفه فيما بعد في المنفى. وما أكثر ما كان يقول. «عندما كان حسين لا يزال دايا، كنت لا أراه إلا وانأ خائف مرتعد، لأنه لم يكن هناك ما هو أيسر له من حز الرؤوس. غير أني تعرفت إليه فيما بعد بالإسكندرية، وسرعان ما أصبحت ضيفا يوميا في منزله لقد كان لطيفا.. مرح المزاج، ولم يكن يبدو عليه أنه تأثر كثيرا لما فقده من مجد وسلطان. وعلى ذكر هذا... فالفرنسيون يزورون الحقائق عندما يقولون عنه انه قد نقل سبعة ملايين فرنك إلى مكان آمن، فلم يكن بالجزائر كلها شخص واحد يملك مثل هذا المبلغ. ونحن عرب الجزائر لن نكن نعرف ما عنى المليون على الإطلاق. وكان صديقي الخزناجي أغنى رجل في الجزائر... كان أغنى من الباشا نفسه، وقد عددت أمواله بنفسي، ولكنها لم تكن تتعدى ستين ألف دولار إسباني».

وكان الحاج يعرف جميع عرب الجزائر الأصلاء، الذين يمتازون عن سكان الأرياف بما لهم من سجايا حميدة وأخلاق نبيلة، وكان يشكو من أنهم قد أصبحوا الآن قليلين جدا، إذ هاجرت بعض الأسر، وانقرض بعضها الآخر، وما بقى منها ذهب ضحية الفقر والبؤس!فاستوطن الجزائر عدد كبير من القبائل والأعراب، وبدأوا يرتدون لباس أبناء العاصمة، فأخذ الفرنسيون ينظرون إليهم على أنهم عرب مدينة الجزائر الأصلاء!

أحيانا كان يطيب لي أن أجلس مع الحاج في السوق، نتأمل المارة، وكان يحلو للحاج أن يذكر لي أسماءهم جميعا وان يخبرني من الأصيل منهم ومن الطارئ، وان عدد الأصلاء منهم لا يبلغ العشر. وكان يلتفت إلي بعد ذلك حزينا ويقول : «ألا ترى ما آل إليه أمر مدينة الجزائر ؟»

كذلك نظر النائب الروماني النبيل بحزن وغضب إلى أبناء المعتوقين، عندما رآهم بعد سقوط الإمبراطورية العالمية، يتخذون أمكنتهم في المجلس، الذي لم يكن يرى فيه سوى أمثاله!

الفصل الثالث عشر

حانوت خياطة في مدينة الجزائر

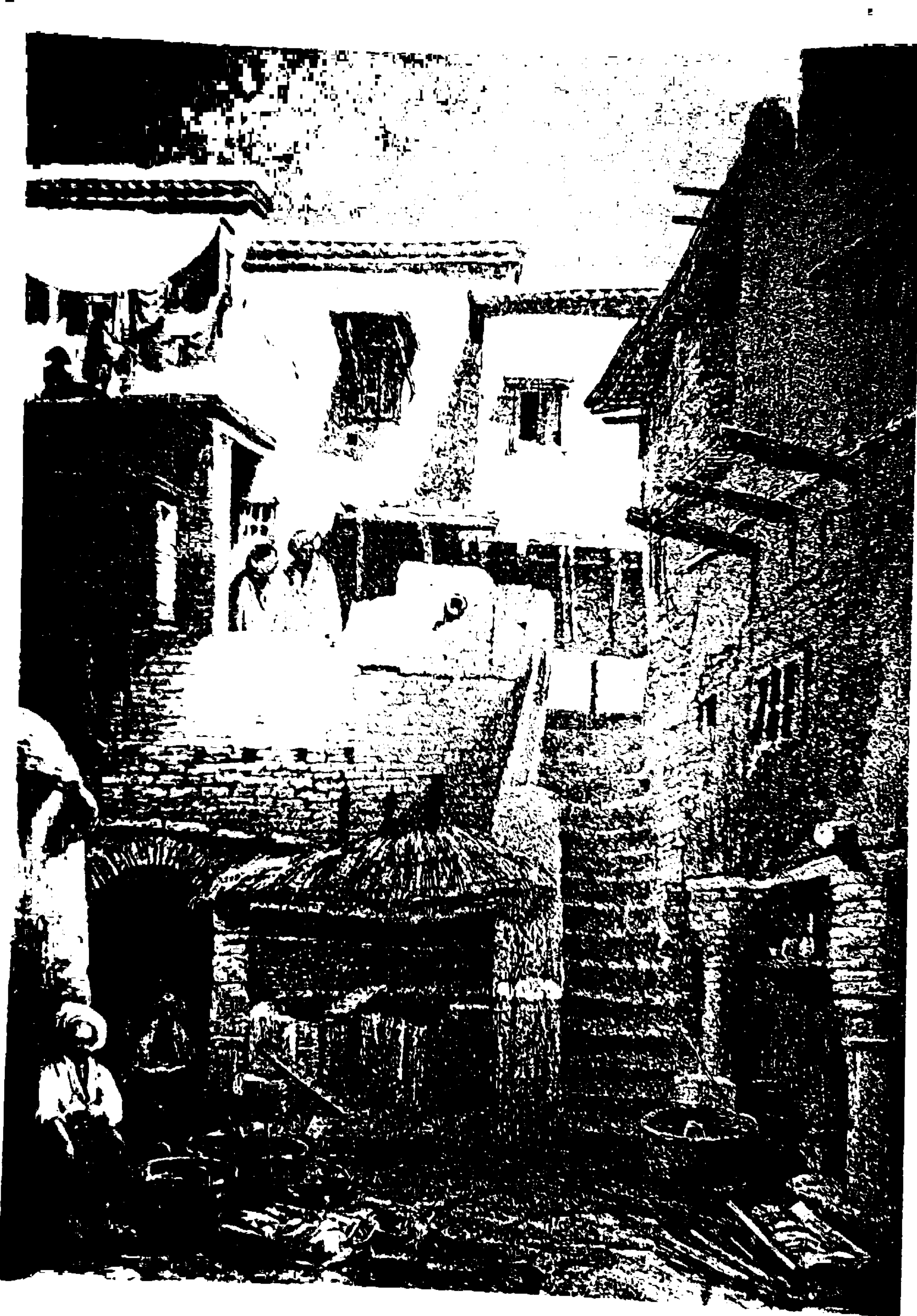
الخياطون الجزائريون. - المقهى. - حانوت الحلاق. - الحوانيت المحلات والجلوس فيها. - دكان الخياط «المعلم». - عجوز حانوت الخياطة. - الحاج مجانا .الإخوان. - العالم الأحمق المضحك. - عجوز أصلع. - الشاب المسرف. - المعلم الذي أثرى فجأة.

كانت حرفة صديقي الحاج، كما ذكرت آنفا، الخياطة، إلا أنه لم يعد يمارس هذه المهنة الجميلة، لأن تهيئة الملابس العربية لم تعد مجدية، بحيث إنها لا توفر القوت للخياط إلا بمشقة كبيرة. فالخياطون من عرب الجزائر لا يبيعون صناعتهم إلا لأبناء المدينة نفسها، أما الأعراب والقبائل فإنهم لا يرتدون السراويل ولا البدعية ولا القطفان، وإنما يكتفون فقط بالرداء والبرنوس من صنع زوجاتهم، واليهود لهم خياطوهم الخاصون بهم. وكان الأتراك أحسن زبائن أولئك الخياطين من رعب المدينة، ولكنهم لم يعد لهم وجود في الجزائر. ثم إن الجزائريين قد وصلوا إلى درجة من الفقر، أرغمتهم على الاكتفاء بارتداء الألبسة الوطنيةالبالية. ولهذا لا يوجد اليوم بالمدينة كلها إلا ثلاثة معلمين من الخياطين العرب!

لم يكن للحاج آنئذ عمل يقوم به، فقصر اهتمامه على دراسة نارجيلته، التي تظل مشتغلة أبدا، وتصدر عنها قرقرة كانصباب مياه النافورة، فيكون لنغمتها الفاترة تأثير منوم على الأمزجة البسيطة. إلا أن الرجل الأنيس لم تكن له رغبة في تدخين النارجيلة بمفرده، وفي النهارلا يطأ عتبة دويرته احد، فقد كانت حفلات السمر لا تقام إلا في المسا. فأين يمكنه إذن أن يستسلم لمتعته المفضلة ؟ لا يزال بعد هناك المقهى، ليس المقهى الفرنسي، فهو محتقر مرذول، وإنما المقهى العربي، إلا أن المقهى العربي، للأسف،

يختلف إليه جمع من الأنذال لا حصر له، بحيث لايدخله عربي مهذب، كان من المدينة نفسها أو غيرها. وكان الإنسان يرى بين الحين والآخر بين أولئك الأوباش سائحا ما، في صورة إنجليزي معتوه، جالسا بينهم، وفي زعمه انه يستطيع أن يتوصل إلى معرفة عادات عرب الجزائر وتقاليدهم العربية في مكان، لا يرتاده سوى أنذال هم خيار أسوأ الطبقات الجزائرية. إذن فالمقهى لا فائدة منه، إلا أن هناك أيضا حانوت الحلاقة. حانوت الحلاقة، ذلك هو ملتقى ذوي الشأن من عرب المدينة وغيرها، الذين يضعون رؤوسهم المبجلة تحت موسى الحلاق المنتصر مرة في الأسبوع على الأقل. غير أن حانوت الحلاقة لا يعجب الحاج أيضا. ذلك أن «الحفاف» أحسن طفيلي يمكن تصوره. فهو يتقرب إلى ذلك الغني، الذي يدفع فرنكا ثمنا لحلاقة الرأس، ويحدثه عن أحسن الحكايات الجديدة وأجملها، ويسمعه أغنية عربية أو نشده أشعار شاعر مشهور، ويدعوه دائما إلى استراحة للهضم في حانوته، ويجاذبه أطراف الحديث والمسارة. وكثيرا ما كان يجلس في حانوته دستة من وجهاء المدينة، الذين ساعدوه بما لشخصياتهم من وزن على شهرته.

ونظرا إلى أن الحاج لم يكن غنيا، فإنه لم يكن يحلق رأسه المحترم إلا نادرا، وذلك بثمن لا يزيد عن خمسة صورديات.. لذلك لم يدر بخلد الحلاق أن يتملقه. والحق انه كان في مقدوره أن يجلس في حانوت الحفاف، لأن عربي المدينة لا يمنع أحدا، ولو كان أجنبيا، من الجلوس في حانوته بلا ثمن. ولكن الحاج إنسان له كرامته. فكان يمقت التطفل، مع أنه كان يعرف أن في الجزائر حوانيت كثيرة، هو فيها ضيف عزيز ثم إن إخوته لم يكن عددهم يقل عن خمسة، وكانت لهم حوانيتهم الخاصة، فكان في إمكانه أن يجلس فيها ويستسلم لنارجيلته وفق هواه، ويتحدث ما شاء له الحديث ومتى أراد. غير أن إخوته كانوا يقومون بأعمال وصناعات،



صبّــاغ

لم تكن تهمه هو في قليل أو كثير. لقد كان مرة يمارس مهنة الخياطة، فعاودوه الحنين بفعل المكوى المغنطيسية القاهرة إلى حانوت الخياطة.

كان يعرف جميع خياطي الجزائر ومعاونيهم، كما أنه كان قد رآى أغلبهم وهم يكبرون وشاهد غرزات إبرهم الأولى، فكانوا كلهم يحبونه ويجلونه، وقد ساعد على هذا الحب والإجلال أن الرجل العجوز الطيب كان يدعو دائما زواره إلى شرب القهوة أو تعاطي نارجيلة التبغ، بل كان يساعدهم بالمال على سبيل القرض كلما احتاجوا إليه وكانت الحرب سجالا بين الخياطين الثلاثة، فكان كل واحد منهم يريد أن يحضى حانوته بجلوس الزميل القديم فلم يكن على الحاج أحمد القادري إذن إلا أن يختار حانوتا من حوانيت الخياطة، لينعم عليه بزيارته وجلوسه فيه. وبالتالي قرر أن يلتحق بحانوت صديقي سيدي حمود، أصغر مفصلي الثياب في الجزائر وأمهرهم، فتفصيل الثياب لا يتم إلا على يد المعلمين، أما المعاونون فلا يعرفون شيئا من ذلك.

وهكذا اتخذ الحاج حانوت حمود حانوتا له أو مكانا لإقامته، والحانوت في الجزائر يلعب دورا كبيرا في حياة الناس، ولهذا لا بد من أن نعرض له ها هنا.

إن الحانوت بالنسبة لعربي المدينة كل شيء في واحد، فهو يجد فيه كل ما يجده الأوروبي في بيته، في مكتبه، في ناديه، في قهوته، في قاعة تدخينه، وفي كل محل يختاره بصورة عامة ليقيم فيه خلال ساعات مختلفة. إن معني الحانوت الحرفي هو الدكان، وهو محل للتاجر وورشة للصانع، ومع أن نصف عرب مدينة الجزائر ليس لهم دكان، كما أنهم لا يعملون فيه، فإن لكل واحد منهم حانوته الخاص، بمعنى أن في إمكانه أن يستعمل دكان صديقه متى شاء وأراد، فيجلس فيه حسب رغبته، ويطلب فيه قهوته من أقرب مقهى، ويدخن نارجيلته، وينام إن كان تعبا، ويتناول

طعامه فيه إذا لم تكن له رغبة في الذهاب إلى البيت لتناول طعام الغذاء. كل عربي من عرب مدينة الجزائر له، بشرط ألا يكون سافلا نذلا، حانوت معين، هذا إن لم يكن له حانوته الخاص، يقضي فيه وقتا من نهاره.

ولما كانت العادة تقضي بأن تترك الدار في النهار للنساء، فإن العربي المتزوج لا يمضي إلى بيته إلا ليأكل أو ينام، أما الأعزب فلا يذهب إليه إلا في أوقات النوم. وقد نتج عن هذه العادة الصارمة، التي تحول بين الرجل وبين رجوعه إلى البيت في أثناء النهار، أن أصبح من الضروري أن يحصل كل رجل على حانوت يكون مفتوحا له ويرحب به كضيف. وأحيانا ينمو الإحساس بهذه الحاجة الملحة إلى درجة أن الرجل يتفق مع صديقه على دفع قسم من أجرة حانوته، وذلك حتى يكون له الحق في الجلوس فيه باستمرار، دون أن يكون لصديقه عليه فضل! والحانوت إلى هذا كله عنوان عرب المدينة، فلا أحد منهم يستلم رسائله في الدار، لأن ساعي البريد قد يتعرض لخطر النظر إلى أبنة المرسل إليه أو زوجته،الأمر الذي قد يؤدي إلى كارثة مريعة!

كان حانوت المعلم حمود اكتشافا ثمينا بالنسبة لي، فكم كانت هناك من فرصة لدراسة الحياة العربية في أمزجة تلك الرؤوس الأصلية الكثيرة، التي كانت تملأ جوانبه كعمال أو زوار... جماعة غريبة الأشكال والأطوار وصور طبق الأصل، استطعت بعد ثلاثة أيام أن أعد قصصها على أصابعي.

فكان هناك أولا سيدي حبيبي، وهو رجل في السبعين من عمره، له ما لطفل في الثانية عشرة من خلق وطيش ومهارة. وكان فقيرا كفأر الكنيسة! وقد أصبح نشطا غير قادر على الكسب، لأن عينيه كانتا قد تخلتا عنه إلى حد كبير، ولكنه كان نشطا مستعدا للعمل في أي لحظة، أشبه بالخادم في تلبية ما يطلب منه، فكان العمال، الذين هم أحسن

حالة منه، يجودون عليه لذلك ببعض الصوردیات. غير أن أولئك القساة كانوا يظنون، بناء على ما يمنون به عليه، أن من حقهم أن يسخروا من ذلك الشيخ الأصيل، ويعبثوا به. ومع ذلك كان سيدي حبيبي يحتمل مزاحهم، الذي كانوا يلقونه على رأسه المبجلة، بصبر وهدوء. وكان له غزاء، ما أكثر ما كان يلجأ إليه، حفظ عليه رضاه ومرحه، وهذا العزاء هو سبسيه المفضل، الذي كان له بمثابة الزوجة والولد والجاه والمال وكل شيء. وكان المعلم لا يحب السبسي، ولذلك كثيرا ما كان ابن الأربعين يثور بسبب تدخين العجوز المستمر، وينهره كما ينهر طفل في المدرسة، غير أن سيدي حبيبي كان يلزم الصمت، ويضع سبسيه إلى جانبه طائعا. وما أن يخرج «المعلم»، وغالبا ما كان يحدث ذلك، حتى يتناول سيدي حبيبي سبسيه ثانية تحت طغيان البهجة والسخرية من زملائه، ويحشوه بأغلى أنواع التبغ العربي، ثم يدنيه من فمه ويمتص، كما في القبلة الملتهبة، الدخان الممتع من القصبة المحبوبة!

وكان سيدي حبيبي أحد أولئك العزاب الأشقياء وقد تحدثت عنهم سابقا الذين لا يقيمون في منازلهم إلا فيما بين غروب الشمس وطلوع النهار، ومن ثم كان لا غنى له عن هذا الحانوت. وقد رأيته يتناول طعام غذائه البسيط في حانوته، وكان طعامه عبارة عن خبز جاف لا غير. إن فقر هذا العجوز المسكين وتحمله لمعاكسات الآخرين قد أثارا نخوة صديقي الحاج، فقام بدور المدافع عنه، وكان يطلب له القهوة ست مرات في اليوم، ويدفع ثمنها من جيبه، ولو انه لم يكن يتجاوز ثلاثة صورديات، إذ أن ثمن القهوة بلا سكر في المقاهي العربية هو نصف صوردي، وسيدي حبيبي لم يكن يعبأ بالسكر!

أما جار سيدي حبيبي من حيث الجلوس في حانوت الخياط فكان الحاج أحمد الطويل، رجل في الخمسين من عمره، جادت عليه الطبيعة

بمزاج مرح، وهذا المزاج المرح هو مزاج عرب مدينة الجزائر كلهم تقريبا. وقد استحق لقب الحاج دون أن يسعى إليه نفسه سعيا، فقد زار مكة من غير أن يخطو خطوة واحدة. فقد حجت أمه قبل ولادته بأشهر، فضمن هذا، كما تقضي الشريعة الإسلامية، لقب الحاج لذلك الذي لم يكن قد ولد بعد!

وكان الطويل عضوا في طريقة من طرق «لخوان» المنتشرة في الجزائر بكثيرة، وأشهرها وأكثرها انتشارا هو طريقة إخوان سيدي الطيب وسيدي عبد القادر وعيساوة، والأولى أرفعهم مقاما، أما طريقة عيساوة فأعضاؤها ينتمون إلى الطبقات الدنيا. وبينما يجتمع أعضاء طريقتي سيدي الطيب وسيدي عبد القادر لتلاوة بعض المدائح الدينية المعينة أو لتناول الطعام مع بعضهم بعضا، يقدم عيساوة كثيرا من الشعوذة والحركات البهلوانية كبلع النار وأكل العقارب والثعابين وقطع المسامير بالأسنان المجردة وغير ذلك،ويدعون أنهم قد استمدوا من رئيسهم ومؤسس طريقتهم سيدي عيسى موهبة التمتع بالسم دون أن يلحقهم منه سوء.وقد شاهدت كثيرا من حفلاتهم الليلية في الجزائر، ورأيت شعوذتهم الغريبة. إلا أن الحفلات التي شاهدتها في المغرب لأصحاب الطريقة نفسها كانت أحسن بكثير وأروع من هذه.

ومن الواجب أن اذكر بهذه المناسبة انه ليس هناك عربي، يحترم نفسه يرضى بالانتماء إلى طريقة من هذه الطرق، بل أن المسلم المتدين يسخر منها جميعا على اختلاف أنواعها، وينفي أن تكون لها صلة بتعاليم الإسلام، الذي يدين به المسلمون في كل مكان!

كان هناك أيضا أحد أعضاء عيساوة، يتعلم الخياطة في الحانوت، في الثلاثين من عمره، ضخم الجثة، كروي الشكل، يدعى بن شاقور، وكان أجهل الموجودين في الحانوت وقد أصبح بن شاقور عيساويا من وجهات

الكسكسي لا غير، إذ كثيرا ما كانت تتصدق بها عليهم أيد، تعلق أصحابها بالخرافات والأوهام. وكان مغرما بالعراك مع طالب، يدعى مصطفى وخي، كان يتعلم الخياطة أيضا، لأن علمه لم يكن يدر عليه إلا القليل. وكانت تنقصه الفطنة التي كانت لابن شاقور، فكان الحضور يضحكون عليه عادة خلال عراكه معه.

كانت للطالب سذاجة الطفل، فكان يتعذر عليه لذاك أن يلاحظ ما يضمن حديث زملائه من استهزاء به وسخرية منه أو مزاح معه، وكثيرا ما كان يسأل عما تغدى في يومه ذاك، غير أن الطالب السليم الطوية لم يكن ينتبه إلى السخرية التي تختفي خلف هذا السؤال، ولذلك يبدأ بعد الأطعمة البسيطة التي تناولها، إلى أن تتعالى ضحكات الحاضرين في حانوت الخياط، وعندئذ يدرك أنه تصرف مرة أخرى تصرفا صبيانيا!

وثمة نموذج آخر يمثل المسلم العنيد أحسن تمثيل، من النادر العثور على أمثاله الآن في الجزائر، وهو بابا حسن. كان مدفعيا في عهد الأتراك وكان يتمنى من كل قلبه عودة تلك السيادة التي عمت فيها الفوضى. فقد كان الأتراك بالنسبة له مثالا للخير والنبل، ولهذا كان يكره الرومي حتى الموت، ولا شك أنه كان قد أخذ على نفسه يمينا مغلظة ألا يكلم روميا أبدا، فكان من بين الحضور في الحانوت الوحيد الذي لم يتبادل معي قط كلمة واحدة!

وكان هناك عامل آخر، هو بن مقفولجي، شاب في السابعة والعشرين من عمره، حسن المنظر، بهي الطلعة،ولكن الطبيعة البخيلة قد حرمت رأسه النبيل من العقل الراشد، الذي كثيرا ما تجود به على الأحدب والكريه بما فيه الكفاية. فهو لم يخلق ليتعلم الخياطة، فقد كان أبوه غنيا، وعندما مات والداه تركا له ثروة محترمة، وفي هذه الحالة تقضي الشريعة الإسلامية بأن يكون القاضي وصيا على كل من لم يبلغ سن الرشد، ويجب

أن يبقى كذلك حتى لو اعتبر بمقتضى القوانين الفرنسية راشدا. فالأطفال يبلغون، من وجهة النظر الاسلامية، سن الرشد إلا إذا كانوا مميزين بقدر كاف، يمكنهم من التصرف في أموالهم وتدبيرها على شكل مرض. إلا أن مقفولجي كان في الواحدة والعشرين لا يزال صبيا من حيث عقله، وكان يبدو عليه انه سيظل قاصرا أبدا.

وعلى ذكر هذا فإن أحواله في أيام الصبا كانت مرضية للغاية، فقد كان القاضي يدفع له مبلغ معينا، يصله بصورة منتظمة. ولم يكن هذا المبلغ يكفيه ليعيش بالنسبة لعرب المدينة عيشة رضية فحسب بل يبقى له منه ما يتصدق به على عصابة الطفيليين، الذين التفوا حوله. وكان أبناء مدينة الجزائر ينظرون إليه على أنه إنسان سعيد، خلي البال، مطمئن النفس، غير أن نفسه سولت له أن يستمع إلى نصائح يهودي، كان قد أوضح له أن في إمكانه أن يرفع أمر القاضي إلى القضاء الفرنسي،ويطلب منه تسليم أمواله كلها إليه! والقانون الفرنسي لا يعرف تلك التدابير والاحتياطات التي يتخذها الشرع الإسلامي لحماية أموال الأطفال الكبار. وهكذا رفع بن مقفولجي مسألته مع القاضي إلى القضاء وربح القضية، وبذلك أصبح له حق التصرف في أمواله كلها.

ومنذ تلك اللحظة صار يحيا حياة مسرفة، أنتهت سريعا وعلى صور مؤلمة، ذلك أن عصابة الطفيليين كان عددها يزداد باستمرار، وإذا به يصبح فجأة عاجزا عن عد أصدقائه الذين تكاثروا حوله. وكانت أيامه تمر في رحلات، يقوم بها مع عدد كبير من أصدقائه ويدفع تكاليفها من جيبه العامر، ولياليه تنقضي في حفلات ساهرة برفقة سرب من الجميلات العربيات... يمنحهن من ماله في سخاء، يفرط فيها في الأكل والانهماك في الشراب... حتى الصباح. وقام كذلك بسفرات مختلفة، رافقه فيها جمع من الطفيليين. إنه باختصار لم يترك أي وسيلة تمكنه من القضاء

على ثروته في اقرب وقت. فكانت عاقبة تلك الحياة المسرفة نهاية ثروته، وانهيار مجده وتشتت أصدقائه الطفيليين وانصرافهم عنه. وها هو بن مقفولجي قد أصبح الآن عاملا في حانون خياطة، يتسلل عبر الشوارع في ثياب بالية... حتى طفيليوه القدامى ينظرون إليه من فوق أكتافهم باحتقار وسخرية، ولو تجرأ على مخاطبتهم، فإنهم سيلتفتون إليه في استهانة واستصغار!

إلا أن بن مقفولجي لم يكن الوحيد الذي أصابه مثل هذا المصير، فإن في الجزائر مئات من الشبان والشيوخ، تخلصوا من ثروتهم بنفس طريقته هو، دفعتهم إلى ذلك قلة العقل والفساد الخلقي.

وما يكاد ذلك المستهتر يقضي على تركة أبيه، حتى ترتفع جوقة من العتاب ضده، هو الذي كان يتملق قديما. وكان أحد الأصدقاء، الذين تعرفت إليهم فيما بعد، يلعنه بدون انقطاع وبحماس متزايد. وكان هذا الصديق طالبا فقيرا... رجلا كبير السن يدعى الطيب. وكأن القدر أراد أن يبلو الطيب، ليعلم ما إذا كان في حالة كهذه سيتصرف تصرفا غير تصرف بن مقفولجي الذي يعاتبه بشدة ومرارة. فقد ورث الطالب العجوز على حين غرة مبلغا من المال قيمته عشرون ألف فرنك، ومنذ ذلك الحين تغير الطيب تغيرا كاملا. فكان يرتدي ثيابا كثياب الباشا، ويقيم الحفلات في كل أمسية، واتخذ حريما كبيرا من الجميلات، فساعدته على استهلاك ثروته خلال مدة قصيرة. وقد عاد الطيب الآن إلى ما كان عليه... أصبح من جديد طالبا فقيرا، فقل عتابه لابن مقفولجي.

إن عرب مدينة الجزائر، باستثناء القليل منهم،أطفال وسيبقون أطفالا إلى الأبد!تتمثل طفولتهم في سذاجتهم وقلة خبرتهم... في عدم الاهتمام بمستقبلهم،إلا أنهم أطفال أيضا في دماثة خلقهم، بل حتى في لطافتهم في أكثر الأحوال!

الكتـــاب الثاني

ولاية الجـزائـــر

الفصل الأول
أسطى والي

هضبة أسطى والي[1]. - سيدي فرج. نزول الفرنسيين. الانكشاريون الواثقون من النصر. معركة أسطى والي. الغارة الأولى. الخيالة غير المنظمة وفرقة المشاة المنظمة. النصر. مهاجمة الجزائر. ـ الاستيلاء عليها. دير الترابستيين. الأب. عذاب الصوم. العذراء الجديدة.

عندما يجتاز الإنسان تل ساحل الجزائر الغني بالبساتين، ويترك إلى اليسار سهل متيجة الخصيب، يصل فوق طريق جميل إلى القليعة. مدينة العرب المقدسة، التي كانت قديما مقر لولي شهير، وأصبحت اليوم مدينة صغيرة يسكنها المستعمرون الفرنسيون. وفي الطريق إليها يمرالإنسان بميدان معركة أسطى والي، ولعلها كانت أشهر أو أهم معارك الجزائر على أية حال. فقد جرت هناك تلك المعركة الحاسمة التي مهدت للفرنسيين الطريق إلى أبواب الجزائر والتي نتج عنها تسليم المدينة نفسها إليهم.

والمنطقة التي تحيط بأسطى والي عبارة عن هضبة ترتفع بضع مئات من الأقدام فوق سطح البحر. وهي أرض مقفرة، وقد نبتت فيها أشجار النخل الصغيرة وأشجار الصبار واللأذن والرند والصبر والقطب وكذلك الأزهار البرية والأعشاب والأدغال، وبها شعاب كثيرة تغطي مجاريها الرملية أشجار صغيرة، في حين أن الهضبة نفسها لا تكاد ترتفع فوقها شجرة واحدة وفي أدغالها الكثيفة الشائكة يسكن ابن آوى ويرفع عواءه العنيف أثناء الليل، ويتسلل الضبع فوق ميدان المعركة المقفر، وكأنه يبحث عن الجثث الكثيرة التي تعفنت هنا قبل اثنين وثلاثين سنة!

ويشاهد الإنسان من أعلى نقطة في الهضبة البحر الغامق الزرقة، الذي

(1) جاء في المجلة الإفريقية، عدد 5 / 439، أن الأهالي يعتقدون أن أصل هذه الكلمة هو سطح الوالي!

يحتضن شبه جريرة سيدي فرج المخددة. ألا يبدو هذا اللسان النائي من الأرض، الذي يمتد بجرأة في داخل البحر، وكأنه يريد، وقد تقبب فوق البحر الأبيض المتوسط ابتداء من هنا، أن يكون أول مرحلة في جسر عجيب يربط بين جزئيين من العالم، عادى احدهما الأخر في السابق ولا يزال إلى اليوم من الصعب عليهما الوصول إلا صلح حقيقي؟!

وتقع شبه جزيرة سيدي فرج في أقصى نقطة في الشمال قرب الجزائر، فاختيرت بسبب موقعها هذا لتكون أول باب يدخل منه أبناء المدينة إلى هذا الجزء الهمجي من العالم[1] فمن هنا نزل الجيش الفرنسي إلى البر تحت قيادة المارشال بورمون في 14 جوان سنة 1830، ليضع بعد أقل من شهر عاصمة هذه البلاد عند أقدام وطنه. والغريب أن نزول الفرنسيين إلى البر قد تم دون أن يعوقه عائق[2]. وكان الأتراك، حكام الجزائر. واثقين من أنفسهم إلى درجة الجنون، فراحوا يسخرون من غرورالفرنسيين، ذلك الغرور الذي هيأ لهم نهاية حتمية ومكن المنتصرين من غنائم كثيرة. ومع أن الانكشاريين لم يكونوا يعرفون عن التاريخ إلا القليل، فقد احتفظوا مع ذلك بأخبار تلك الغنائم الوفيرة التي تم الإحراز عليها في المعسكر الإسباني بعد هزيمة شارل الخامس، فكانوا لهذا يأملون أن يستولوا على غنائم مثل التي استولى عليها أسلافهم قبل ثلاثة قرون، فالإنسان، الذي يريد أن يسلب عدوه، لا بد له من أن يترك لعدوه ما يكفيه من الوقت لا نزال أملاكه فوق أرضه وإخراجها من حقائبهاهذا ما فكر فيه الانكشاريون، ولذلك لم يحولوا دون نزول الفرنسيين!.

---

(1) يلاحظ ان مالتسان لا يستطيع دائما أن يخفي عنصريته ولا أن يعالج مسائل تاريخية كهذه بموضوعية ومن غير أن يستعمل كلمات يصون قلمه عنها النزيه، وهو هنا مؤرخ أكثر منه أي شيء آخر.

(2) المعروف أن الفرنسيين لم يسهل عليهم النزول إلى البر إلا لأن برج سيدي فرج لم يكن به سوى عدد قليل من الجنود، وقد اضطروا إلى اخلائه تحت وقع القنابل الثقيلة.

ولم يرسل الداي قواته بقيادة صهره ابراهيم آغا لملاقاة الفرنسيين إلا بعد أن استعد هؤلاء للزحف على مدينة الجزائر. وكان الجيش الفرنسي قد ابتعد عن سيدي فرج بمقار ميل، عندما التقى مع جيش الجزائر فوق هضبة أسطى والي. وبدأت المعركة الحاسمة التي قضت على ذلك الحكم الذي دام ثلاثمائة سنة.

فقد اجتمع صبيحة 19 جوان سنة 1830 حوالي خمسين ألف من العرب والقبائل بصورة غير منظمة، وحوالي عشرة آلاف من الجنود عربا وأتراكا، وهي قوة أكثر تنظيما، ولكنها بالمفهوم الأوربي لا تزال سيئة التنظيم إلى حد كبير. وكان باي قسنطينة، الحاج أحمد، الذي استطاع فيما بعد أن يقاوم الفرنسيين لمدة طويلة أكثر من أي حاكم آخر من حكام الجزائر الأتراك، يقود فرقة الخيالة القبائلية السيئة التنظيم، بينما كان باي تيطري يقف في مقدمة جموع عرب التل والصحراء. وكان البابان قد رتبا قواتهما في المسيرة والميمنة، واحتل القلب ابراهيم آغا نفسه، الذي كان يقود الانكشاريين والميليشيا.

ولا تزال هناك خمس نخلات، اختلطت عروقها ببعضها بعضا، والتحمت، وتستظلها صورة مشهورة للعذراء، تحدد النقطة التي ضرب فيها ابراهيم آغا مظلته،رمز القائد العام، ليقود المعركة من هنا.

وجمع الفرنسيون في مقابل هذه القوة حوالي عشرين ألفا، وهو عدد قليل بالقياس إلى الأهالي ولكنه كان يفوقهم من حيث النظام والفنون الحربية واختيار المواقع المهمة. وقد تمت الغارة الأولى من جانب الأتراك، وكانت من القوة بحيث اضطرت فرقة المارشال بورمون إلى التراجع فاقتحم الانكشاريون جدار الحصن واحتلوا متارس الكتيبة الثامنة والعشرين، غير أن مدة النصر كانت قصيرة. فقد تقدم الجنرال شوات على رأس فرقته وهاجم الأتراك في الجناحين واستطاع أن يرغمهم على ترك المواقع التي احتلوها قبل ذلك. وفي

هذه الأثناء قام العرب بغارتين والقبائل بثلاث غارات وهم يمتطون خيولهم، فانتظرهم الفرنسيون وقد اصطفوا بشكل مربع، وتركوهم يقتربون منهم دون أن يطلقوا النار. وعندما أصبحت هذه الخيالة المضطربة الصفوف قريبة من فرقة المشاة الفرنسية، أطلق هؤلاء عليها النار، وقد كانت تتوقع منهم موقفا آخر غير هذا، فانهزمت وتشت جمعها.

حينئذ انتقلت المبادرة إلى الفرنسيين، فهاجمت فرقتا بير تنيز ويوفيردوالانكشاريين، بينما قامت فرقة أسطار بحماية الجيش في الخلف من جناحي المحاربين العرب. فانتصر الفرنسيون بفضل الهجوم الذي قاموا به بحراب البنادق، وتشتت شمل أولئك المحاربين بعد مقاومة قصيرة في جميع الاتجاهات، فانهزم العرب والقبائل، وتراجعت الخيالة التركية مختلة الصفوف. ولم يعرف قائد الأركان ابراهيم آغا الراحة إلا بعد أن قفل خلفه أبواب الجزائر، حيث كان حسين داي يهيئ له استقبالا سيئا. فقد جرد الباشا، في فورة غضبه الأولى، صهره من منصب الآغا وأجبره على الإقامة في داره فوق تل بوزريعة غير أن ذلك لم يدم طويلا، فقد عفا عنه أمام توسلات ابنته، ولكن هذا العفو فقد قيمته عندما سقط الداي بعد مدة قصيرة.

لقد وقع المعسكر التركي كله في أيدي المنتصرين، وكان به ثلاثة عشر مدفعا ن مائة جمل، وعدد من الأحصنة والبغال، وأربعمائة خيمة، من بينها خيمة القائد العام للمشاة، فغنم الفرنسيون ذلك كله.

بعد هذا النصر زحف المارشال بورمون في اتجاه مدينة الجزائر. وأقام الجيش من 24 إلى 29 جوان فوق مرتفع أبي جارية، وهو موقع لم يحسن الفرنسيون اختياره، فقد كانوا عرضة للهجمات التي كانت تنطلق من رؤوس الجبال المجاورة. ومن ثم قرر القائد العام ترك هذا الموقع الخطر الذي كلف الجيش تسعمائة قتيل خلال خمسة أيام، والاقتراب من ابواب

الجزائر نفسها وقد استمرت الاستعدادات لضرب العاصمة بالقنابل حتى يوم 5 جويلية. وقد كان هذا التأخير مفاجأة بالنسبة للجزائريين، فظنوا أن الفرنسيين لم يجلبوا معهم المدافع الثقيلة. ويقال إن الانكشاريين كانوا يسألون، من فوق أسوار المدينة، المحاصرين في سخرية عما إذا كانوا في حاجة إلى استعارة بعض المدافع. وعلى الرغم من هذا الغرور فإن مقاومة المدينة لم تدم طويلا. فقد ضربت قلعةالإمبراطور بالقنابل في صبيحة 5 جويلية، فتركها الأتراك بعد حين ونسفوها في الجو، وبعد ذلك بساعات وقع الصك الذي سلم المدينة للفرنسيين. فابتهج الداي، لأنه استطاع أن يحتفظ بأمواله، التي تقدر بسبعة ملايين من الفرنكات، وان ينجو بحياته التي كانت في الفترة الأخيرة مهددة من طرف الانكشاريين. وهكذا أصبح سقوط عاصمته وسيلة من وسائل النجاة بالنسبة له، وأتاح له أن يكون من أولئك الدايات القليلين الذين نجوا من القتل.

وبهذا النصر أصبحت الجزائر فرنسية، ولم يلبث سهل أسطى والي، ميدان المعركة الشهيرة، أن تحول إلى مقر جمعية تعاونية تحيا حياة هادئةمطمئنة. فقد قدمت في سنة 1840 قطعة أرض، تحتوي على ألف هكتار، لطائفة الترابيستيين[1]، فأنشأوا بها ديرا، يمر الإنسان اليوم ببنايته الرئيسية على حافة الطريق العام.

وعندما زرت هذا الدير تأكد لدي أن الرهبان في إفريقيا لهم نفس الصفات اللطيفة والأخطاء والعيوب التي توجد لدى غيرهم من البلدان الأخرى. فقد طاف بي في القاعات المقدسة أب، له صلعة جميلة ملتمعة، ولحية طويلة بيضاء، وبطن مكور بالضرورة. وكان الرجل الصالح يرتدي رداء شديد البياض، خلع عليه، إلى جانب خديه

(1) طائفة من الرهبان الكاثوليكيين تاسست عام 1664، وانتسب إلى جماعة الزيسترسيان المصلحين ثم انفصلت عنهم قبل نهاية القرن الماضي، وكان افرادها يلتزمون الصمت ولا ينطقون بغير عبارة التحية «فكر في الموت!» (المترجم).

الموردين المكتنزين الملتمعين، منظرا صبيانيا وادعا ساذجا بصورة خاصة. ولم يكن في الدير إلا القليل مما هو جدير بالمشاهدة : لقد بدا للأب أن قاعة الأكل أهم ما في الدير. وتنازل في هذا المكان وراح يحدثنا عن عذاب الصوم، الذي يبدو أن نتائجه الرهيبة لم يكن لها اي تاثير بالنسبة لوزن هؤلاء الزهاد. لقد استطعت على الأقل أن أشاهد في حديقة الدير بعض الأشخاص تدل استدارة أجسادهم في الوسط على أن التقشف يلائمهم بصورة جيدة.

و الترابيستيون يشكلون كما هو معروف، طائفة ذات أنظمة شديدة، فعلى كل من ينظر إليهم أن يخضع لأوامر ثلاثة، تناقض طبيعة الإنسان الطبيعي، وهي العمل، والصوم، والصمت، إلا أن هناك تسوية مع السماء أبدا. فالسماء تنظر بعين الاعتبار لما يعتري الصحة لإنسانية. ففي إفريقيا لا ينبغي للإنسان أن يصوم كثيرا ويعمل كثيرا. أما القيام بعمل قليل فهو تسلية شافية. والصوم مريح إذا كانت قاعة الأكل تحتوي على ذخيرة كبيرة من الأسماك الجيدة، والصمت لعدة ساعات طوال فترة ما بعد الظهر، مفيد لعملية الهضم. وهكذا يصمت هؤلاء الرجال القديسون ويصومون ويعملون. وتدل بساتين الخضر والحقول المزروعة التي تحيط بالدير على أنهم لا يهملون العمل تماما. ولكن القسم الأكبر من أملاكهم لا يزال مكانا مقفرا تغطيه الأدغال والغابات.

وأما الدير تنصب في الساحة تلك النخلات الخمس المتعاقبة التي ضرب تحتها ابراهيم آغا مظلته عندما وقعت معركة أسطى والي. والآن يشاهد المرء هناك تمثالا للعذراء، أقيم قبل سنوات قليلة، ومع هذا فقد احدث، فيما يقال بضع معجزات، واتخذت هذه العذراء أسمها في ميدان المعركة وامتاز تمثالها عن التماثيل الأخرى بالاسم الجميل: «عذراء اسطى والي» وفي النهاية باع لنا الأب المبجل عددا من الأوسمة التي ترسل، حسب



ما يدعيه، تعزية لقلوب المؤمنين في جميع أنحاء العالم، وذلك بقصد التعريف : «نوتردام دي ستاويلي» المجهولة!

وفي أثناء انصرافي التقيت أمام باب الدير بلفيف من الأطفال العرب العراة يتناولون شربة العظام التي طبخها الآباء الأتقياء من فضلات الدير وقدموها لهم. ولكن هذا الطعام، الذي يتكرر في أغلب الأحيان، لم يساعد حتى الآن، لسوء حظ الرجال الأتقياء، على تنصير أي من أولئك الأطفال المسلمين وحملة على الإيمان : «عذراء أسطى والي!»

الفصل الثاني
البليدة

سهل متيجة. - شهرتها عند العرب. - بوفاريك. - بنو مراد. - منظر البليدة. - واحة البرتقال. - الحرب من أجل احتلال البليدة. - مدينة الزواوة. ميدان البرتقال. - ضفة الوادي الكبير. - المرابط.

ليست هناك نقطة تربط بالجزائر عن طريق المواصلات ارتباطا وثيقا مثل البليدة، وليس هناك مكان مجاور يسهل الوصول إليه مثلما يسهل الوصول إلى هذه البلدة التي تمتاز بقربها المناسب من العاصمة.

وتقد المدينة الصغيرة الجميلة في الطرف الآخر من السهل الخصيب، وهو سهل متيجة الذي يبتدئي بعد منطقة دارات مدينة الجزائر مباشرةوتبعد عن الجزائر بحوالي ستة أميال ألمانية، أي حوالي خمس وأربعين كيلو مترا، إلا أن هذه المسافة تقطع، بفضل البريد المنظم، ونظرا لاستواء الطريق وجودته، في مدة قصيرة نسبيا، وهي أربع ساعات.

بعد أن عبرنا من سلسلة التلال القريبة من مدينة الجزائر، انبسط أمام أنظارنا سهل متيجة الذي يحمل في أعماقه ثروة الأجيال القادمة :

يمتد سهل متيجة بعيدا
من البحر إلى هناك... حيث
تصطف قمم الأطلس الشامخة،
وتهتز مرواح النخلات الصغار،
وتنشر أزهار الدفلى ثوبها الأرجواني،
ويكثر الآس البري وأشجار الغار،
وتتلاصق المروج المتماوجة،
التي تطل من أعطافها نخلات فريدة[1].

(1) للمؤلف ديوان شعر بعنوان أصداف الحجاج، نشره سنة 1865، يحتوي على قصائد مختلفة عن الجزائر، بعضها يصف جمالها الطبيعي والبعض الآخر أحداثا تاريخية معينة.

ولمتيجة فتنتها الخاصة،وهي في الواقع مساحة جرداء نسبيا، خاليةمن الأشجار تقريبا لا تنبت فيها سوى الأدغال القصيرة ولا تحتوي إلا على قطع متناثرة، حولت إلى حقول للحنطة، تلتمع كالواحة، ومع ذلك فإن جبال الأطلس، التي تحد أطرافها، تخلع عليها نوعا من الفتنةوالجلال، وهي جبال الأطلس الصغرى فقط، إلا أن علوها كاف ليقدم لنا في الشتاء غالبا وأحيانا في الربيع أيضا منظر القمم المغطاة بالثلوج التي ترتفع فوق منطقة استوائية، ينتصب فيها النخل هنا وهناك.

وكان بعض هذه الجبال عبارة عن صخور جرداء رمادية، وبعضها الآخر يلوح في خضرة أشجار الصنوبر والأرز الداكنة، وكان هناك نوع ثالث منها يقدم للنظر المروج العالية الخضراء المتداخلة. وكنا نرى على امتدادا الطريق كله تقريبا الكثير من القرى الفرنسية، أما في داخل سهل متيجة فكانت تسود الخيام العربية السوداء المصنوعة من جلد البقر.

ويبدوا أن سادة العالم القدماء، أبناء مدينة التلال السبعة، رومة، الذين أنشأوا في إفريقيا مستعمرات كثيرة، لم يكادوا يعرفون متيجة تماما أو أنهم استهانوا بها. فمخزن حبوب الجزائر هذا لم يشتهر إلا في العصور الوسطى. قد أثنى عليها المؤرخون العرب ثناءا كبيرا، فوصفها أبو الفداء بأنها «أرض كبيرة»، وأطرى قمحها ليو أفريكانوس (الحسن بن محمد الوزان) وقال عنه إنه «أحسن قمح في المغرب». وكان الجزائريون يطلقون عليها في القرون الماضية اسم «أم الفقراء، وأفضل السهول، التي يتدفق الخصب من أعماقها تدفق مياه الجداول!»

كان يشتغل بالزراعة في بداية هذا القرن ما يزيد عن مائة وخمسين ألف عامل أما اليوم فإن الإنسان ليبحث عن مثل هذا العدد. فقد أصبح القسم الأكبر من السهل ملكا للدولة ويمنح للمعمرين بشكل قطع صغيرة، ولكن هؤلاء لا يهتمون في الغالب إلا باستثمار القليل منها. والكثير

من المستوطنين قرب مدينة الجزائر ليسوا سوى معمرين مزيفين ومضاربين حقيقيين تهدى لهم الأراضي ليبيعوها بعد حين بعشرة أضعاف ثمنها، فأسعار قطع الأرض قرب الجزائر ترتفع سنويا ارتفعا كبيرا!

ومررنا في وسط الطريق بين الجزائر والبليدة بقرية المعمرين الفرنسيين بوفاريك، وأغلب سكانها من الألزاسيين، وهم أصلح الفرنسيين لإقامة المستعمرات. وكان هذا المكان قديما من أشهر الأسواق الجزائرية، وقد اتخذ في أيام الجهاد كناد سياسي عظيم. ففيه كان المرابطون يلقون خطبهم الحماسية ضد الفرنسيين ويدعون الحجوطيين، أقوى قبائل متيجة وأشجعها، إلى الجهاد ويمدونهم بالأسلحة. وعندما احتلها الفرنسيون نهائيا فيما بعد، أصبحت هذه القرية أقوى الخطوط الأمامية ضد هجمات الحجوطيين المذكورين.

وكان المكان التالي، الذي وصلناه فيما بين بوفاريك والبليدة، هو قرية بني مراد الصغيرة وقد سميت باسم قبيلة تسكن قريبا منها، ولا يسكنها الآن غير الأوروبيين. وفي سوقها شاهدنا تذكارا أقليم على شرف فرقة فرنسية، هاجمها الحجوطيون أثناء جهادهم وأبادوا أفرادها :

كان معسكر الفرنج في بوفاريك :
فأرسلوا فرقة من الخيالة لرؤية
ما إذا هناك فرس صحراوي،
يبدو قرب المعسكر، لكنهم لم
يلمحوا شيئا
وعندما وصلوا على هنا شاهدوا
فجأة ذيول الخيل تهتز. كان الفرنج عشرين، والآخرون
مئات. فهاجمهم هؤلاء بشدة
كان في وسعهم الآن يهربوا،

لكن المحاربين الشجعان يعتبرون الفرار فضيحة،
لصد المهاجمين. فصالت السيوف
والتمعت الرصاصات القاتلة،
مخترقة الألبسة الفضفاضة..
محرقة إياها. وقبل أن يموت
الشجعان قضوا على الكثير من المهاجمين[1].

وبعد استراحة قصيرة، علفنا خلالها الخيل، انطلقت بنا هذه عبر السهل الذي كانت تلفه سحب الغبار وفجأة بدت البليدة لأنظارنا : جزيرة خضراء تنبعث من بحر متيجة التي تشبه الصحراء :

بدت بساتين البليدة كالواحة
تنبعث من الصحراء المقفرة :
بدت ترتاح بين أحضان الحدائق
الخضر والأحواض المزهرة...
وتسيل فوق ضفة النهر،
وقد جعلتها براعم بساتينها،
وقبابها لابيض الملتمعة كأشعة
القمر مدينة خرافية

لقد ترك الشاعر العربي أحمد بن يوسف، الذي قضى حياته متنقلا في إفريقيا، العديد من الحكم الشعرية عن مختلف المدن الجزائرية، ولا تزال هذه الحكم تدور على ألسنة الحكم تدور على ألسنة أهالي البلاد. وأشعاره لا ترفع من قيمة أغلب الأماكن التي تحدث عنها. أما البليدة فلم يخصها هذا العالم المتشرد بغير الكلمة الطيبة :

«سموك : بليدة وأسميك : وريدة».

(1) هنا يفتخر مالتسان بشجاعة الفرنسيين، ويستعمل كلمة «الفرنج» - ومدلولها في هذا المقام واضح - في مقابل كلمة «الجهاد». ولا شك أن الثوار لم يتركوا للفرنج مجالا للفرار!

بهذا مدحها الدرويش الشاعر. وأحمد بن يوسف محق في ذلك: لكي يظل الإنسان عديم الإحساس بجمال البليدة الطبيعي، يجب أن يكون سوداويا حقا! في وسع المرء أن يتصور مساحة، قطرها نصف ميل، وقد قسمت إلى عدد من الحقول والبساتين، يمتد بعضها في السهل وبعضها الآخر على سفوح الجبال كأنها شرفات. وهذه الشرفات، هذه البساتين كلها تخضر وتنمو في بحر من ألطف الأزهار وأطيبها شذى. وفوق هذه النباتات المنخفضة ترتفع أشجار البرتقال التي يلمح بين أغصانها التفاح الذهبي وينشر جلاله الطبيعي. وعندما نقترب من هذه الأشجار يسكرنا شذا البراعم الفضية التي يروق لها أن تبدوا إلى جانب التفاح الذهبي فشجرة البرتقال كثيرا ما تجمع بين الثمار والبراعم. ويمد الوادي الكبير ذو الخرير الناعم خيوطه حول هذه البساتين، بينما الجبال تومئ إلى القريب والبعيد وتدعو الرحالة إلى اكتشاف أسرار غابة الأرز المعتمة.

لقد خدع اسم البليدة الدكتور شو، فأراد أن يرى فيها «بيدا» الرومانية، التي ذكر أنها كانت في عام 484 بعد المسيح مقرا لأحد الأساقفة غير أن الثابت الآن تقريبا هو أن «بيدا» القديمة كانت توجد في مكان جامع الصهاريج التي تقع في بلاد القبائل. يضاف إلى ذلك أن اسم البليدة كما هو واضح، عربي، وهو تصغير بلد. وقد أنشئت هذه البليدة العربية في العهد التركي[1] وتعرضت سنة 1825 لهزة أرضية شديدة فهدمت عن آخرها تقريبا.

وكان الباشا قد أمر الذين أصبحوا بلا مأوى أن يبنوا بلدتهم الجديدة على بعد نصف ميل شمال القديمة، إلا أن العادة كانت أقوى منهم، فأقيمت البليدة الجديدة على أنقاض القديمة. وكانت البليدة، في السنوات الأولى لاحتلال الجزائر من طرف الفرنسيين، عرضة لتوالي الحكام عليها

(1) أسسها سيدي أحمد الكبير عام 1553 بمساعدة مهاجري الأندلس. (انظر كتاب الجزائر ص 186).

باستمرار. فقد احتلها المارشال بورمون لأول مرة في 25 جويلية سنة 1830، ثم تركها بعد أيام. وفي 19 نوفمبر من السنة فتحها الجنرال كلوزيل للمرة الثانية بعد اشتباك عنيف [1] إلا أن العرب استعادوها من الفرنسيين في 26 من الشهر نفسه، وذلك بقيادة ابن زعمون، الذي لم يتمكن هو الآخر من الدفاع عنها والمحافظة عليها، وبعد حين استدعى الماريشال كلوزيل الكتيبة التي طردت ابن زعمون فعادت البليدة على أيدي أهاليها مرة أخرى.

وفي مارس سنة 1832 استولى عليها الجنرال بيرتزين من جديد، غير أن أهالي البليدة لم يلبثوا أن زعزعوا بعد حين هذا النير الكريه، وانضموا إلى الجموع التي نظمها سيدي السعاجي لمحاربة الفرنسيين. فعاقبهم على ذلك جيش الدوق روفيقو في 20 سنة 1832 وهاجم المدينة ونهبها. غير أن الفرنسيين تخلوا عنها في هذه المرة أيضا من تلقاء أنفسهم. وبعد انسحاب الفرنسيين خضع سكانها للأمير عبد القادر واعترفوا له بالطاعة حتى 29 أبريل سنة 1837 حيث ألحقت معاهدة التافنة البليدة بالأملاك الفرنسية نهائيا، فدخلها الماريشال في يوم 3 ماي 1838 واحتلها رسميا باسم حكومته.

وقد تطورت البليدة منذ ذلك الحين في ظل الإسلام والأمن ووصلت إلى درجة من الأزدهار لم تعرفها قبل ذلك. فكثرت فيها العمارات الجيدة، إلا أن هذه العمارات طبعا، وهذا شيء يؤسف له، تشبه في أسلوب بنائها الثكنات، وقد أصبح هذا الأسلوب الثقيل بدعة لدى الفرنسيين في الجزائر.

إن موقع البليدة عند قدم الأطلس الشاعري، تغطيها أشجار البرتقال والليمون والرمان والغار ويتخللها الوادي الكبير بخرير مياهه الصافية صفاء

(1) يذكر فاغنر (رحلات 1841، ص 169) ان المعركة وقعت بعد ان وجه الجنرال الفرنسي مارقا ابطالها، يدعى يوسف، إلى القائد العربي ليقول له على لسانه «إني احب ان انام اليوم في البليدة!» فكان جواب القائد العربي: «وانا احب ان احول بين الفرنسيين وبين النوم فيها!».

البلور، يقدم للرحالة أجمل مكان للاستراحة ويتيح له أن يرتوي من منابع الجمال الطبيعي قبل أن يواصل رحلته في منطقة جرداء.

ولا يزال عدد سكان البليدة من العرب كبيرا إلى حد ما[1]. ويرتدي الرجال من أهاليها نفس اللباس الذي يرتديه حضر العاصمة. أما النساء فإن لهم طريقة خاصة في تغطية وجوههن. فهن يحملن فوق رؤوسهم شالا صوفيا سميكا، يستر أحد طرفيه الجانب الأيسر من الوجه، بينما يمتد الطرف الآخر على شكل خط منحن من الذقن إلى العين، بحيث يغطي الجانب الأيمن من الوجه، وهكذا لا يبقى شيء في الوجه عاريا إلا العين الواحدة. وطريقة الحجاب هذه قديمة جدا وكانت معروفة عند الأغريق والرومان وكانوا يطلقون عليها اسم « كاليبيون » وقد عثر في « بومبي » على صفيحة مسطحة نحتت فوقها صورة واحدة من هؤلاء الـ « كاليبتيري » أو المقنعات بطرقة جميلة، يمكن أن تعتبر صورة لحضرية معاصرة في البليدة. وعلى العموم فإن أشكال الكثير من الألبسة العربية والحضرية لها أصول قديمة. ففي استطاعة الإنسان أن يجد الـ « بيروس » الروماني، كما يبدو في تمثال الراعي الذي اكتشف في « بومبي »، متمثلا تماما في برنوس اليوم. وظاهر أن البيروس والبرنوس كلمتان متقاربتان.

ولا تزال البليدة أيضا مدينة للزواوة فلم أر في أي مكان العدد الذي رأيته هنا من أفراد هذه الفرقة النشيطة المتنعمة بالحياة فهذه الجماعة المرحة تملأ المقاهي والحانات، وتتأبط أذرع بنات أصحاب الحانات على ضفة الوادي الخرار، وتمارس الألعاب المرحة، وليس جيوبها مال بالمرة، وهي لا تعرف الهموم وتحيا أسعد من أي إنسان فوق الأرض.

---

(1) يذكر فاغنر (رحلات 2/189) ان عدد سكان البليدة كان يتراوح بين الستة والسبعة آلاف ، وبعد احتلالها من طرف الفرنسيين هبط هذا العدد سنة 1838 إلى الفين ، منهم 1500 من الحضر والباقي من الاتراك والكراغلة والزنوج واليهود .

وللمدينة بناياتها العامة وفنادقها ومقاهيهاومسرحها مثل مدينة الجزائر ن إلا أن ساحة البرتقال شيء خاص بمدينة البساتين الإفريقية وهذه الساحة ذات الظلال الوارفه مغروسة كما ينم الاسم على ذلك بأشجار البرتقال، التي تنشر شذاها في شهر أفريل وتوزعه في كل جهة.

إن ضفاف الوادي الكبير تغري الأهالي بالمضي إلى شاطئه للتمتع بالشذا الذي يتصاعد هناك من براعم البرتقال. ومن عادة حضر البليدة أن يلجأوا في أوج الصيف أثناء النهار إلى ضفاف الوادي الكبير وظلالها فرارا من أشعة الشمس المحرقة فيجلسون هناك، وقد تجردوا من قطع الثياب المزعجة، وأرجلهم غارقة في الماء البارد حتى الركبة، وعلى رؤوسهم أكاليل الأزهار الجميلة التي ضفرتها لهم نساء حريمهم. وكانت نغمات القيثارة تتعالى بجانب خرير الوادي. ووجود نظرات الحوريات يجعل الجنة قريبة.

وهناك قرب البليدة حقل الزيتون القديم الذي يعتبر من أجمل المنتزهات فيها وأبهاها. وفيه تنتصب قبة جميلة، تمثل قبر احد الأولياء[1] يثوى فيها، بعد حياة مليئة بالمعجزات، تحت ضلال الأشجار التي مضى عليها قرن من الزمان.

أما ما يتعلق بالآثار القديمة في البليدة، فلعله من الممكن أن يبحث الإنسان في هذه المنطقة عن » تمريسينوم « التي ورد ذكرها في الدليل الخاص بالطرق لأنطونيني أوغوسطي، فقد جاء في هذا الدليل أن « تمريسينوم »تبعد عن « تناراموزاكاسترا » (وهي موازية اليوم) بستة عشر ميلا. والمسافة بين البليدة وموازية تقدر بأربعة عشر كيلو مترا، وهذا لا يتناسب تماما مع ما ذكر في الدليل بطبيعة الحال، إلا أن الدليل غالبا ما تعوزه الدقة في ذكر المسافات. وعلى أية حال فإنه سيكون من الغريب جدا أن يكون القدماء قد جهلوا الموقع المناسب الذي تقوم عليه البليدة!

(1) لعل المؤلف يعني السيد احمد الكبير، مؤسس المدينة المتوفى سنة 1550 م ا

الفصل الثالث

المدية

الطرق من البليدة إلى المدية. - جوانفيل. - مهاوي الشفاء. - جبل موزاية. - منظر المدية الأول. - المنطقة الشمالية. - الجسر الروماني. - الاحتلال الفرنسي الأول. - دفاع مصطفى وخدعته. - حرم الإسلام. - هوراس بيرنيت. - تعاسة المعمرين.

تقع المدية، وهي مدينة جبلية، على بعد 45 كم تقريبا، ويبلغ ارتفاعها 3300 قدم. وكانت في السابق عاصمة مقاطعة تيطري، ولها نفس الأهمية السياسية التي كانت لمدينة وهران وقسنطينة. أما الطريق الذي يؤدي إليها فهو من المناظر الخلابة التي يقدمها الريف الجزائري لعشاق المناظر الطبيعية الساحرة.

وكنت قد قطعت هذه المنطقة الجبلية الجميلة بعربة أكتريتها من البليدة، وكانت رحلتنا في أول اليوم عبر السهل على مقربة من الوادي الكبير، وقبة المرابط محمد حتى الموضع الذي ينتهي عنده وادي البليدة ويصب مياهه القليلة في وادي الشفاء الجبلي.

وتنتصب قرب هذا الموضع قرية فرنسية يسكنها المعمرون، أطلق عليها الاسم الأورلياني «جوانيفل»، في حين أن هناك موضعا آخر في شمال البليدة، فاز باسم أخوي هو «مونتبنسيير»، وقد شيدت «جوانفيل» في منطقة بني يخلف التي أفتك الفرنسيون أراضيها من أيدي الأهالي! ولكنها لا تعرف الأزدهار مثل بقية المستعمرات الأخرى التي أقامها الفرنسيون في الجزائر.

ومن هنا ينطلق الطريق صعدا نحو الجبل، ويكاد يشرف باستمرارمن ارتفاع مجرى وادي الشفاء الجارف، الذي يشكل تحت أقدامنا مائة هوة

قاسية المنظر، وقد نبتت في أعماقها أشجار الدفلى والزيتون البري والبطميات ذات الروائح الزكية، والتوتيا البيضاء، والرند ذو البراعم البيضاء. أما جدران الصخور العالية فقد نبت فيها البرواق المداد والضرو الزكي الرائحة، والتويا والآس ببراعمه البيضاء، وفوق الصخور العلية البرواق المداد ونباتات أخرى ذات براعم وردية وبنفسجية. وكانت الكرتيلة الإفريقية ترتفع في أحراش كثيفة وتتماوج أزهارها الزرقاء.

وكان الوزان الإسباني ينتصب بخضرته الفاتحة وبراعمه الصغيرة الملتمعة إلى جانب اللاذن القوسي الورق. أما الدفلى والعرعر الفينيقي، وخاصة أشجار الفستق، سواء منه الشبيه بالشجر أو الشبيه بالبطم الشرقي، فكانت ترسل عبيرها الفاغم. بالإضافة إلى هذا كانت هناك فوق الجبل حدائق تتكون من نفس الأشجار والأحراش، وهي تشبه الأدغال، ويقيم فيها جيش من القرود الصغيرة السريعة الحركة، وكثيرا ما كنا نرى بعض هذه القرود النشيطة تنزل إلى الوادي وتبرد أعضاءها في مياهه المزبدة. وعلى يمين طريقنا كان يرتفع جبل موازية، الذي دخل التاريخ بممر الثنية العالي. إن الهجوم عليه قد كلف الفرنسيين في 37 نوفمبر 1830 مجهودا كبيرا. وتوجد فوق هذا الجبل معادن النحاس المشهورة التي كانت ولا تزال سببا في وقائع النصب والاحتلال في البورصة الباريسية.

كان الطريق يمر بسفح هذا الجبل بين مهاوي سلسة جبال الأطلس الأول عبر كثير من المحنيات. وعندما ينعطف في النهاية عند ناتيء من الصخور تبدو للناظر هضبة المدية. أما المدينة فتقع وسط غابة من أشجار الفواكه فوق مرتفع تذكر نباتاتها الخضراء وثروتها المائية بألمانيا أكثر مما تذكر بإفريقيا التي حرقتها الشمس. كان كل ما حول المدينة مزهرا يانعا، ولكن الأشجار لم تكن أشجار البليدة، تلك الواحدة من البرتقال. كان

كل شيء يضحك وينضر حول المدينة غير أن أزهاره وأحراشه كانت نباتات منطقة أكثر برودة.

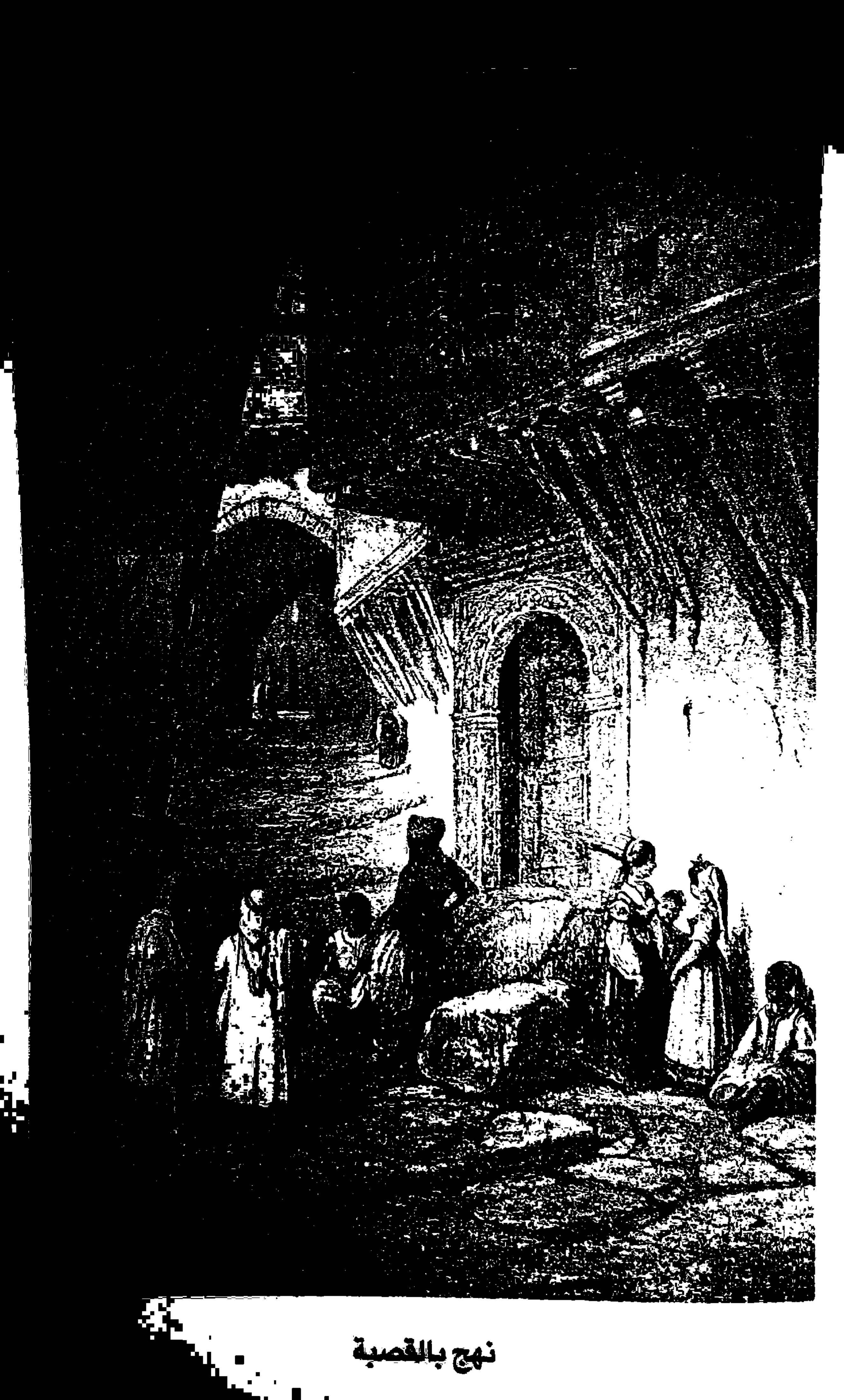
كان الجسر الروماني، الذي يمتد فوق شعبة الهضبة في زهو قرب باب المدينة، يخلع على المنطقة طابعا ذا أهمية تاريخية. إن منظر علامة الاستفهام الحجرية الكبيرة ليحمل الرحالة على البحث عن تاريخ مدينة الشعب الملكي التي ارتفعت أسوارها ها هنا ذات مرة. وعلى الرغم من الآثار التاريخية التي عثر عليها هنا، فإن الاتفاق لم يتم بعد حول المدينة الرومانية، التي أقيمت في هذا المكان قديما. فقد ذهب الدكتور شو إلى أنها «لا ميدا» التي ذكرها بطليموس، غير أن آخرين يرون أنها المدينة الرومانية الحصينة التي وصفت في مجلس قرطاجنة عام 464 بأنها مقام الأسقف، وليس لهذين الرأين من دليل سوى التشابه في الاسم. ومن المحتمل أن يكون اسم المدية غير روماني، بل عربي، فقد ذكر ابن خلدون، وهو أبو التاريخ الإفريقي، أن الخليفة المهدي كان قد أمر ببناء حصن، وأطلق عليه اسم المهدية، ثم اختصر على ما يراه العرب، إلى المدية.

استولى المارشال كلوزيل على المدية لأول مرة في 21 نوفمبر سنة 1830 بعد أن تم له النصر في معركة موزاية، وترك فيها حامية بقيادة ماريو، وعين مصطفى بن عمر بايا على التيطري. فاستطاع هذا أن يبرهن بعد مدة قصيرة على إخلاصه لأسياده الجدد. ففي 27 نوفمبر وقع هجوم على مدينة المدية من طرف بومزراق، ابن باي التيطري، وجرت معركة دموية أمام أسوار المدينة، وكاد يتم القضاء على الحامية الفرنسية نهائيا، لو لم يجمع مصطفى بن عمر أهالي المدينة ويحملهم على مساعدة أسياده الجدد ومحاربة إخوانه في الدين ولعلها المرة الأولى التي يقف فيها العرب إلى جانب الفرنسيين، وكانت عاقبة ذلك وخيمة، فقد كان من الصعب على الفرنسيين التمييز بين أعدائهم والموالين لهم، لأنهم كانوا جميعا يرتدون

البرنس، الذي لم يكن لهم غنى عنه، ولذلك أخذ الفرنسيون يطلقون النار دون أن يفرقوا بين أعدائهم وأصدقائهم، فنتج عن ذلك اضطراب شديد في الصفوف، وتصور الأهالي حين لاحظوا جزءا مساعدتهم للفرنسيين أنهم قد خدعوا.

ومع هذا استطاع العقيد ماريو مصطفى بن عمر صد هجوم بومزراق، غير أن المدينة كانت محاصرة من جميع الجهات، وقطعت عنها المواد الغذائية كما تعطلت المواصلات كلها مع مدينة الجزائر، فلم يكن ثمة أمل في وصول الإمدادات. وكان من المستحيل إنقاذ المدينة لو لم يستعمل مصطفى بن عمر حيلة، فقد أمر بكتابة برقيات مزورة، تعده بصول نجدات من الجزائر في وقت قريب. وترك الرسول المدينة في الليل سرا، وبعد أن ابتعد عنها بعدة ساعات دون أن يراه أحد، عاد راكبا على الطريق العام، فاعتقله العرب وأخذوا منه البرقيات المزورة، وذلك ما كان يريده الباي المحتال. ولما قرأ الجزائريون تلك البرقيات صدقوا بوصول النجدات المزعومة، وداخلهم الخوف. وكان من نتائج هذه الحيلة ان أهالي المدية استطاعوا في نفس الأمسية أن يشاهدوا من شرفات منازلهم تراجع المحاربين الجزائريين.

وبعد مدة قصيرة دعيت الحامية الفرنسية إلى مدينة الجزائر، لأن الفرنسيين كانوا يعتقدون أن مركزهم في المدية معرض للخطر في الظروف الراهنة. لقد ارتكب الفرنسيون أخطاء جسيمة، منها تلك الغزوة الناجحة، التي لم يكن لها ما يبررها، وهي التي قام بها الجنرال بير تزين سنة 1832 في هضبة المدية، والتي جعلت من أهالي المدية، الذين كانوا دائما يتعاطفون مع الفرنسيين، أعداء ألداء لهم، إذ أصيب مواطنو المدية في أملاكهم أكثر مما أصيب غيرهم. والواقع أن هذه الغزوة لم تكن سوى غزوة نهب، حرق فيها الفرنسيون ودمروا كل ما لم يستطيعوا أخذه وعاد الجيش الفرنسي إلى الجزائر وهو يسوق أمامه عددا من القطعان المسروقة.



نهج بالقصبة

وقد وصف الجنرال بيرتزين حملته هذه بأنها كانت غزوة مظفرة وأرسل تقريره عنها إلى فرنسا!

وفي سنة 1836 استولى الجنرال كلوزيل على مدينة المدية للمرة الثانية وولى عليها، عوضا عن الباي الذي كان قد توفى قبل ذلك، محمد بن الحسين، الذي دفع حياته ثمنا لإخلاصه للفرنسيين، إذ لم يلبث أن انتصر عليه أحد خلفاء الأمير عبد القادر، وهو المرابط البركاني، وأخذه أسيرا وسيره إلى الأمير، فأمر عبد القادر بنقل محمد التعس إلى المغرب وإرساله إلى بلاط السلطان عبد الرحمن دليلا على انتصار الأمير في جهاده، إلا أن حاكم أحد المدن الواقعة على الحدود، وهي مدينة وجدة، أبى عليه اعتزازه بقومه إلا أن يقضي على حماسة ذلك الزنديق الذي وضع نفسه تحت تصرف الأعداء، فأمر بإعدامه شنقا، مع أن المسلمين لا يكادون يعرفون هذا النوع من الإعدام، فهو يعتبر من أشنع طرق الموت. وفي 17 ماي سنة 1840 فتحت المدية مرة أخرى من طرف الدوق دورليان وضمت إلى الممتلكات الفرنسية بصورة نهائية.

وتعتبر المدية عند المسلمين مدينة مقدسة،ويمكن أن نطلق عليها من هذه الناحية اسم «لوريتو» الإسلام، فهي تشبه «البيت المقدس» في ذلك المحج الإيطالي الشهير في أن المدية هي الأخرى قد حملتها الملائكة، كما تقول الأسطورة، من البلاد القديمة عبر الفضاء ووضعتها على سفح الأطلس. يقول الشاعر أحمد بن يوسف عن المدية :

أيتها المدية، يا من حملتك الملائكة.

لو كنت امرأة لما تزوجت سواك.

حين يحل الشر بأبوابك.

تطردينه قبل أن يحل المساء.

ويبلغ عدد سكان المدية حوالي سبعة آلاف نسمة، منهم حوالي الف من الأروبيين والباقي من العرب واليهود، ولكل ديانة معبدها الخاص.

وقد حول جامع مراد القديم إلى كنيسة كاثوليكيةو وحولت منارته الجميلة التي تشبه «الخيرالدا» إلى برج الناقوس، الذي يعتليهو نكاية بكل مسلم، صليب حديدي كبير!

وكان «جامع مراد» هو الجامع الرئيسي في المدية، وكان تابعا للمذهب الحنفي،ولا تكاد توجد في الجزائر مدينة واحدة لم يحدث لها ما حدث هنا بنفس الطريقة، فسلب شيء من مقدساتها وقدم هدية لدين الغالب، غير أن الغالب لا يستعمل بطبيعة الحال ما يسلبه من المسلمين في هذا الميدان، فقلة الاهتمام بالدين أكثر انتشارا بين فرنسي الجزائر منها في فرنسا نفسها. ولا يزور هذه القاعات، التي كانت قديما تضج بصلوات المسلمين يوميا، سوى عدد من القساوسة ذوي اللحي الكثيفة.

وكان الفندق الذي نزلت فيه يحمل اسم «إلى الذواقة»، غير أن هذا لا يعني أن المرء لا يجد فيه نفس الأكل الذي يجده في غيره وقد تنازل هوارس بيرني، رسام الأحداث التاريخية المشهورة، فرسم لوحة تمثل الاستيلاء على مدينة الأغواط، لتعلق فوق بابه. ولما وجد صاحب الفندق أن اللوحة جميلة جدا بالنسبة للغرض الذي رسمت من اجله، فقد نقلوها إلى قاعة الطعام.

ولمناخ المدية شيء من جو الشمال، إذ لا توجد فيه أشجار البرتقال والليمون كما ينعدم فيه النخيل. وتوجد عوضا عن ذلك أشجار الحور الرقيقة والكمثري والتوت وأشجار الدردار التي تتخللها الدوالي، رافعة رؤوسها المورقة في هذه المنطقة الخصبة التي استغل الجزء الأكبر منها. وهناك واد صغير، هو وادي مرجان، يرسل خيطه الفضي خلال الهضبة التي

تقع فيها، زيادة على مدينة المدية، مستعمرتان فقيرتان من مستعمرات المعمرين، هما «لودي» و«داميبطه» (عين الذهب). وقد سمعت هنا، كما سمعت ذلك في جميع أنحاء الجزائر، شكوى المعمرين، فهم يدعون أن قلة سقوط الأمطار في السنوات الأخيرة كادت تنزل بهم الدمار، إلا أن سبب دمارهم الحقيقي يكمن في عجزهم عن إقامة المستعمرات، فالحكومة الاستعمارية، التي تكاد تمارس حكما عسكريا مطلقا، لا تهتم برغبات الأهالي. حقا إن الحاكم العام، الذي يمتلئ سمعه بشكاة المعمرين يوميا تقريبا، قدم لهم أحيانا مساعدات من أموال الدولة، ولكنه يستهين عادة بمطالبهم استهانة الأبطال بالفلاح الذي يمارس مهنته المتواضعة. ذلك أن أوضاع المزارعين الأروبيين تزداد تدهورا باستمرار، ومما لا شك فيه أن الفلاح والشحاذ سيكون لهما مدلول واحد في الجزائر!

والعرب يتشفون في أعدائهم الذين فشلت مشاريعهم الاقتصادية. أما اليهود فإنهم يشترون من المعمرين أملاكهم بأموال زهيدة. إن إسماعيل واسرائيل ليبتهجان لشقاء الدخلاء الأروبيين وأخطائهم الكثيرة. وليس من الصعب أن نعرف ما سيؤول إليه هذا الوضع. إن المستعمرات الأروبية في الجزائر لن تكون في آخر الأمر سوى ثكنة كبيرة وسوف تبقى كذلك في المستقبل!

الفصل الرابع
قبر الرومية

التمثالان القديمان.- مارينغو. - بحيرة علولة الجافة. - قبر الرومية. - الانطباع الأول . - من أين جاء هذا الاسم؟. - دائرة الأسطورة. - الأسرتان الموريتانيتان. - حجم التمثال. - اكتشاف قام به بير برو جر. - غطاء الضريح المضاعف. - تيبازا الموريتانية. - مدينة الشهداء والعجائب.

تحتوي بلاد الجزائر، زيادة على عدد كبير من الآثار التاريخية المتفاوتة في شهرتها، على تمثالين، يعودان إلى العصور القديمة، يمتازان بعظمتهما، إلا أن تاريخهما لا يزال يكتنفه الغموض، فهما مجهولا الأصل والهدف. وينتصبان في مكان فقر، لا يحظى بزيارة أحد باستثناء بعض السواح المغمرين بالبحث عن الآثار القديمة، وما أكثر ما يصابون بالدهشةعندما يقفون أمام هيكلهما الغامض، أحدهما، ولعله أقدم من رفيقه، هو قبر صيفاقس أو ما يسميه العرب باسم «مدغاسن»، ويقع في ولاية قسنطينة بين مدينة قسنطينة ومدينة باتنة الجبلية. أما التمثال الآخر فهو قبر الرومية الواقع على بعد حوالي خمسين كيلو مترا من البليدة، قرب آثار مدينة رومانية هي تيبازة الموريتانية. وليس هناك رحالة واحد، له اهتمام بالتاريخ والآثار، قاده فضوله إلى الجزائر، استطاع أن يستغني عن زيارة قبر الرومية ومشاهدة معالمه، في حين أن ضريح مدغاسن قلما تشد الرحال إليه نظرا لبعده.

أما أنا فقد أتيح لي أن أرى الضريحين الهرميين وأقارن بينهما، إلا أني سأقتصر هنا، لكيلا ينقطع وصف الرحلة المتواصل، على الحديث عن الضريح الواقع قرب مدينة الجزائر.

لقد انتهزت فرصة بالبليدة، فقمت برحلة إلى قبر الرومية، والطريق يؤدي غليه عبر حقول البرتقال وحدائق الأزهار على امتداد سهل متيجة

الخصبة، ويمر بقرية المعمرين الفرنسيين، التي تدعى «مارينغو» (حجوط). وفي هذا القسم الرائع من السهل، الذي يمتد في انخفاض إلى اليمين، كانت تقع حتى وقت قريب بحيرة علولة القذرة الضحلة، التي أمرت الحكومة الفرنسية بتجفيفها، وأنفقت في سبيل ذلك عدة ملايين. فغنمت ثلاثة آلاف هكتار، يعتقد المهندسون أنها ستكون في غاية الخصوبة. ولكن، ويل لذلك المعمر الذي يضع المحراث في هذه الأرض، فهي مستنقع عفن يزخر بالأوباء.

كان قد جلس بجواري في العربة، فيما بين البليدة ومارينغو، رجل لا يزال في فتوة شبابه، غير أن شحوب وجهه جعله يبدو متقدما في السن، وكان ينظر ن والحمى تهز أوصاله، على سهل علولة، البحيرة القديمة، الموبوءة، ثم قال والكراهية تمتزج بكلماته :

- هنا أصابتني الحمى.

وبعد ذلك أخبرني أنه هو الذي أشرف على تجفيف بحيرة علولة بصفته مهندسا، وكان حديثه عن الجنود الذين فرض عليهم العمل هنا شبيها بسجل طويل، قيدت به أسماء المرضى والموتى، إذ أن أحد من المتطوعين لم يسلم من الحمى، التي كانت قاتلة في بعض الأحيان، إلا انه لم يمت شخص واحد في البحيرة نفسها، فقد كانت الحكومة حريصة على إلا يحدث ذلك، فبمجرد أن يصاب عامل بهذا المرض يرسل في الحال إلى البليدة، حيث يقضي نحبه الكثير منهم، ومع ذلك فقد كان النفاق الرسمي يقتضي ألا يذكر أحد أن الإنسان يموت وهو يمارس أعمالا حكومية.

وتقع قرية «مارينغو» فوق هضبة غرب سهل متيجة الذي يعتبر أروع السهول على الإطلاق. وكل ما شاهدته في هذا المركز البعيد عن الحضارة

لا يتعدى حوالي ثمانين منزلا، طابعها البؤس والكآبة، وبضع مئات من المعمرين المهترئي الثياب، ومن بينهم للأسف عدد من الألمان، ثم عدد من المطاعم والحانات القذرة. وقد جعلني هذا كله أبتعد عنها بسرعة، فقد كانت معالم التعاسة الحديثة شديدة الوضوح، وأهرب إلى وحدة القفار الجميلة، التي كانت تحتضن آثار قديمة، يحلو للخيال أن يخلع عليها ألوانا شاعرية.

وبعد سفرة دامت ساعة وصلنا إلى قرية عربية تدعى شنوة، ويقع قبر الرومية بينها وبين تيبازا. وسرعان ما اكتشفت أنظارنا ذاك الضريح المغبر الذي يعود إلى فترة غامضة لا تزال لغزا، وقد انتصب بين أشجار النخل والضرو ونباتات الكريتة والوزال الإفريقي والبروق وغيرها من الأحراش المختلفة.

إن الانطباع الذي يتركه هذا الضريح العظيم في نفس المشاهد لأول وهلة مهول، وإن كان غير مسر، ذلك أن الشكل الأصلي لهذا التمثال، ولعل بناءه الأول كان يخلف انطباعا مماثلا لأهرام مصر، قد شوه أثناء المحاولات التي قام بها العرب لهدمه[1]، فأصبح أساسه مغطى، بحيث أصبح من الصعب التوصل إلى معرفة قيمته الفنية القديمة. وهذا ما لم يحدث لضريح مدغاسن، فهيكله لا يزال سليما، كما سيأتي وصفه في محله، ومشاهدته متعة للعين.

وبعد مدة قليلة وقفت الجياد أمام كوم الحجارة الغامضة، وانتصب أمامنا قبر الرومية، نصفه برج ونصفه الآخر هرم، أو بالأحرى قبة تحيط بها حجارة كبيرة متناثرة هنا وهناك، تغطيها الأنقاض التي وقعت من أعلاه، وقد التفت حوله أحراش كثيرة، وكأنه علامة استفهام كبيرة وضعها العمالقة سخرية بالبشرية.

(1) لم يذكر مالتسان أي مصدر، اعتمد عليه في هذا الادعاء!

لماذا دعي هذا التمثال قبر الرومية، مع أنه فيما يبدو كان موجودا قبل انتشار الدين المسيحي، أم أن هناك خطأ في الترجمة كما حدث بالنسبة للعديد من الآثار الإفريقية الكثيرة؟ إن الأهالي يطلقون عليه اسم «قبر الرومية»، والكلمة الأصلية لهذه التسمية هي «قبر روم»، ويطلقها الفينيقيون، حسب ما ذكره غزينيوس، على الأضرحة الملكية، فجعل العرب من كلمة «روم» كلمة «رومية». فكان أن ترجمها الفرنسيون بالمعنىالمعروف اليوم، فصار أسمه «قبر الرومية». وقد نسجت حول هذه التسمية، مثلما يحدث عادة في حالات مشابهة، خيوط من الأساطير. فهناك من يدعي أن المقصود بهذه التسمية المسيحية هو ابنه القائد الغوطي تيودور، الذي استدعاه الأهالي إلى أسبانيا، لينتقم من روديريك الذي هتك عرض ابنته. وهناك من يعتقد أنها ابنة »جرجر« أو غريغوريوس، آخر الحكام البيزنطيين في إفريقيا. والأسطورة تجعل منها جارية مسيحيةفي منتهى الجمال، كانت حظية لملك من ملوك المغرب، فأتاح لها أن تظل وفية لدينها.

وتتحدث هذه الأساطير كلها تقريبا عن كنز عظيم، ينطوي عليه التمثال، وقد اتفقت آراء البدو على أن هذا الكنز، وهم لا يشكون في وجوده إطلاقا، لا يستطيع إخراجه إلا رومي، ولم ينجح المسلمون حتى الآن في الدخول إليه. وتقول إحدى الأساطير انه كان يعيش قبل بضعة قرون حضري، أسره القراصنة المسيحيون وباعوه لمنجم ايطالي. وكان هذا المنجم على علم بالتعويذة التي يستخرج بها الكنز، فتعلمها الحضري منه وبعد عودته إلى بلاده، مضى إلى قبر الرومية وأخذ يردد تلك التعويذة التي حفظها عن ظهر قلب، وإذا به يسمع فجأة صوت الرعد ويلمح وميض البرق، فانفتح الهرم، وشاهد صفوفا من الكنوز تنبعث من الضريح، وترتفع في الجو وتحلق بعيدا كأنها سرب من الطيور. ولكن، بالخيبة الأمل. لقد

أخذت طريقها،بدل أن تقع في حجر قارئ التعويذة، فوق البحر لتصل إلى موطن ذلك المنجم الايطالي الذي استحضرها. فحز ذلك في قلبي العربي، وامتلأت نفسه طمعا، فأخذ برنوسه ورمى به في الجو، ليحول دون طيران تلك الكنوز ويمسك بعضها عل الأقل في أعصاف ثيابه. وفجأة اهتزت الأرض وانبعث البرْق والرعد من الضريح، فقطعت الكنوز طريقها الفضائي وتوقفت. وفي اليوم التالي لم يجد ذلك الحضري، وكان البرق قد شله، في ثنايا برنوسه غير الديدان والثعابين مكان الكنوز التي مسك بها وهي طائرة!

ويكاد الباحثون يتفقون الآن على حقيقة هذا الضريح المدعو بقبر الرومية، فهو ضريح الملوك المريتانيين كما أن مدغاسن هي ضريح الملوك النوميديين. وقد تحدث بونبونيس ميلا[1]، وهو الوحيد من بين المؤرخين القدامى، عن هذا التمثال ووصفه بأنه ضريح الملوك (أنظر الكتاب الأول، الفصل السادس). وقد تعب شراح هذا الجغرافي في فهم ما عناه كلمة «تمثال». أما ايساكوس بوسيوس فيذكر موقع هذا التمثال في الجزيرة المقابلة ليوليا القرصية، حيث توجد اليوم قلعة جوانفيل. ولم يعرف موقعة الحقيقي غير ياكوبى بيريزونيوس، الذي يقول في كتابة «ملاحظات عن بومبونيوس ميلا»: «ومما لا شك فيه أن التمثال يقع بين يوليا القيصرية وايكوسيوم، فقد ذكر بطليموس أن تيبازا تقع في الفسحة التي بينهما». وليس في الإمكان وصفه بأحسن مما جاء في هذه الكلمات.

ولكن إلى أية أسرة من أسر ملوك موريتانيا ينتمي هذا التمثال ؟ إن هذا السؤال لم يجب عليه حتى الآن بصورة مرضية. فالتاريخ لا يكاد يذكر شيئا عن أقدم الملوك الموريتانيين لكننا نعرف أكثر من ذلك بكثير عن الأسرة الموريتانية الثانية، التي آلت بفضل روما على يوبا الثاني،

(1) اديب ومؤرخ روماني عاش في القرن الملا دى» المترجم» .

حفيد ملوك نوميديا القدماء، الذي نشأ في رومة وأصبح نموذجا للعبيد الملكيين، ولم تعش أكثر من خمسين سنة. ويمكن القول، اعتمادا على ما اكتشفه بيربروجر، أن القسم الأقدم، وهو النواة الحقيقية للتمثال، يحمل آثارا، من الواضح أنها تعود إلى ما قبل عهد يوبا الثاني،بحيث يبدو من الصعب أن ننسبه إلى الأسرة الموريتانية الثانية. فلم يبق إذن أن ننسبه إلى موريتانية قديمة مجهولة حقا لقد حاول مانير أن يقدم لنا تاريخا لهذه الأسرة الحاكمة، إلا أن تاريخيه هذا يقوم على الأوهام في كثير من أجزائه، ولذلك يصعب علينا أن نفهم كيف ينحط عالم مثله إلى هذه الدرجة.

وإلى أن تتم معرفة ذلك على وجه اليقين يمكن القول بأنه من المحتمل جدا أن يعود غطاء الضريح الخارجي إلى عهد يوبا الثاني، فهو الذي ألبسه هذه الحلة الفاخرة تعبيرا عن شغفه بالفنون، ولم تكن عاصمته يوليا القيصرية (شرشال) تبعد عن الضريح كثيرا. ويبلغ ارتفاع الضريح 126 قدما، ولا يبدو من أساسه، الذي هدم القسم الأكبر منه، إلا أجزاء من غطائه الخارجي متناثرة هنا وهناك، وبقايا بعض الأعمدة. وفي وسع الإنسان أن يتصور على أساسها شكله القديم، وهو في مجموعه متعدد الأوضاع والزوايا، شبيه بالمعبد، ويكاد يكون مستديرا. أما سقفه الذي يحل محل القبة فهو هرم مدرج، وقد حجبت الدرجات طبعا بعد أن تزحزحت حجارة كانت فوقها في أماكن أعلى، ومن هنا أصبح من العسير معرفة شكله الحقيقي.

وتوجد بالجهة الشمالية أنقاض هائلة تحيط بالضريح، وقد أبعدها بير بروجر في رحلته الأثرية الأخيرة عام 1856. ومن السهل على الإنسان أن يصل اليوم إلى ما يبدو شبيها بالباب في الناحية الشمالية، وهو عبارة عن حجرة عظيمة ارتفاعها اثنتا عشرة قدما وعرضها قدمان. ولا تزال هناك أجزاء العرصات السفلى، وبعدها عن بعضها بعضا هو الذي جعل

بير بروجر يعتقد أن أساس القديم كانت له اثنتا عشرة زاوية. وقد اتبع الأسلوب اليوناني في تنظيم الأعمدة، إلا انه يختلف كثيرا عن النماذج المعروفة منه، فقواعد الأعمدة كبيرة جدا على خلال ما هو معروف في الفن اليوناني، فهي ليست قاعدة فوق أخرى أعرض منها. أما أعمدة الأبواب فتحتوي على زخارف عوض الدوائر، وهذه الزخارف تشبه الأوراق ولها ما يشبهها في معبد » ايريختيوم« بأثينا.

أما أعمدة مدغاسن فهي على النسق الروناني القديم، ولعلها تعود إلى تلك الفترة المجهولة نوعا ما، التي أخذ فيها الأسلوب الهيليني يتطور عن الفن الفرعوني. ومن الجائز أن غطاء قبر الرومية كان شبيها بغطاء مدغاسن. وفي إمكان الإنسان على الأقل أن يرى في هذا الغطاء القديم بقايا أربطة الأعمدة، تنتشر هنا وهناك بين الضريح وأساسه، فوق أعمدة تعود على عصر أحدث، وهذه البقايا تشبه تماما ما نجده في ضريح صيفاقس.

إن تشابه مدغاسن وقبر الرومية في الشكل القديم يحملنا على الظن بأنهما قد تم بناؤهما أثناء حكم أسرتين معاصرتين لبعضهما بعضا، فضريح مدغاسن يعود إلى عصر ملوك نوميديا، بينما يعود قبر الرومية إلى عهد أقدم سلالة موريتانية. فهل أصبح قبر الرومية يا ترى مثوى للأسرة الأخيرة أيضا، أسرة العبيد الملكيين، يوبا الثاني وابنه بطليموس ؟ من الممكن الإجابة على هذا السؤال إذا استأنفت البحوث التي بدأها العالم بير بروجر، ثم تخلى عنهاللأسف بأمر من الحكومة، بعد أن توجها باكتشاف غرفة الضريح.

وكان بير بروجر قد قدر في تحرياته الأخيرة أن مركز القبر، أي المكان الذي يظن أن غرفة القبر توجد به، يبعد بحوالي ثلاثين قدما. ومما يؤسف له أن الحكومة لا تخصص للبحوث الأثرية في البلاد إلا مبالغ ضئيلة بشكل مخيف، ويعتقد بير بروجر ان المبلغ الضئيل الذي يطالب به،وهو خمسة

آلاف فرنك، سيخول له أن يكشف عن حقيقة قبر الروميةتماما، ولكن الحكومة بخلت عليه بهذا المبلغ.

واتجهنا من قبر الرومية نحو الشاطئ عبر سهل منخفض، تقع فيه مدينة تيبازا الرومانية التي جلبت انتباهنا. ولاحظنا بقايا كنيسة مسيحيةمن خلال غابة من أشجار الزيتون الكبيرة. وكان طولها 180 وعرضها 95، وهي تنتصب على البحر، وإلى جانبها أنقاض بيوت كثيرة. وكان من السهل التعرف على مكان القاعة الكبيرة، بل كان في الإمكان بكل تأكيد تخطيط شارع كامل وإظهار معامله. وتحمل آثار تيبازا، التي لم تكن معروفة في أيام البربر، الطابع الروماني. فلم يخطر ببال احد، كما هو الحال بالنسبة لبقية المدن الرومانية في الجزائر، أن يضيف إليها بنايات أخرى غير البنايات التي تركها الرومان، ولعل السبب في ذلك يعود إلى وقوعها في مكان منعزل. ولهذا تقيم تيبازا حفلاتها على شاطئ البحر وحيدة مهجورة، وتأسف لمصائر روما العظيمة.

إننا لا نعرف شيئا عن هذه المدينة في الفترة التي سبقت ميلاد المسيح، وقد ذكرها القديس أبتاتوس على أنها مدينة عرفت اضطهاد الدوناتيين للكاثوليكيين. ففي سنة 484 عانى سكان تيبازا كثيرا من الاضطهاد في عهد الملك هونريق، ولم يستطيعوا النجاة منه إلا بالهجرة إلى إسبانيا.ومن الجرائم التي ارتكبها الطاغية الفندالي انه قطع ألسنة العديد من القساوسة ورجال الذين في تبازا. ولكن هذه الوحشية لم تؤثر على مجد أولئك المؤمنين، ذلك ويا للعجب أن الضحايا، الذين قطعت ألسنتهم، استمروا في الغناء والخطابة. فقد كتب فيكتور بينتسيس، الذي عاش حوالي 500 تعد الميلاد، في كتابه «الاضطهاد الفندالي» عن ذلك قائلا : «من شك في هذه المعجزة فعليه أن يذهب إلى القسطنطينية، فلا يزال يعيش هناك في بلاط الملك زينو الأسقف سوبديا كونوس، الذي تكلم عدة لغات بطلاقة

تامة، مع أن لسانه قد قطع بأمر من الملك هونريق ». ها نحن نرى أن الجزائر كانت منذ القديم بلاد العجائب!

وتحدث بروكوبيوس[1] أيضا عن شهداء إفريقيا، الذين قطعت ألسنتهم، فكانوا يجوبون الشرق ويلقون الخطب في أماكن مختلفة، ولكنه يضيف قائلا إن هذه الموهبة اللغوية الجميلة، التي منحت لمقطوعي اللسان، كانت مرتبطة بشريط سماوية، وهي ألا يتخلوا عن طهارتهم. وقد نسي اثنان، فيما ذكره المؤرخ البيزنطي، من هؤلاء الأتقياء أنفسهم، وارتكبا إثما، فأضاعا لغتهما منذ تلك اللحظة.

(1) مؤرخ بيزنطي عاش حوالي منتصف القرن السادس.

الفصل الخامس

شرشال

شكوى المعمرين. - المعمر لعبة رسمية في افريقية. - العربة. -مستعمرة «زوريخ». - شرشال. - الفندق. - الميناء الروماني. - العبيد الملكيون. -أساقفة القيصرية. - المتحف. - جولة أثرية. - مكتشف رغم أنفه.

كان علينا، بعد رجوعنا إلى مارينغو، أن ننتظر، في قهوةحقيرة، العربة التي ستحملنا إلى شرشال، فأخذت صاحبتها، ومن قبيل الصدف أنها كانت ألمانية، تحدثنا، لكي تتيح لنا قضاء وقت ممتع، عن أكثر الأشياء لطفا، وهي تعاسة المعمرين. فقد كانت السيدة الطيبة ترى انه من المفزع ألا تنفق الحكومة على المعمرين، في حين أنها تنفق الكثير على الجنود الكسالى. والظاهر أنها كانت تعتبر المعمرين موظفين لدىالحكومة! حقا إن الدولة تقدم الكثير من الوجبات اليومية للجيش، ولكن كيف تستطيع أن تعول الجميع من أموالها ؟ وليس ذلك لأن عددهم كبير جدا، وهي عاجزة عن القيام بهذا الواجب، بل لأنها أو نفذت هذا المشروع الغريب على سبيل المزاح، أو بعبارة أكثر إنسانية، من باب الرحمة، وأنفقت على هؤلاء المساكين، فإن كثير من الأصوات الشيطانية ستعلو في الجو بهذه المناسبة.

وكيف يمكن الاعتراف بصواب ما يدعيه البعض من أن المعمرين في الجزائر عبارة عن شيء كمالي رسمي، لعبة من اختراع الحكومة لتزجية فراغ السلطات الإدارية ؟ لقد أرادت فرنسا أن تكون لها في إفريقيا مستعمراتها كما لانجلترا مستعمراتها في كندا واستراليا، والمعمرون الإنجليز يعتمدون على أنفسهم بطبيعة الحال، أما المعمرون الفرنسيون فهم منتجات اصطناعية باهضة، زرعت في الجزائر لخداع الرأي العالمي وحمله على الاعتقاد بأن الأمة الفرنسية قادرة بدورها على أن تستعمر غيرها!

وأخيرا وصلت العربة المتداعية، التي تحمل اسم عربة الجياد، إلى مارينغو، وحملتنا إلى عاصمة موريتانيا القديمة، فبلغناها بعد سفرة دامت ثلاث أو أربع ساعات. وكانت آخر محطة وصلنا إليها قبل الدخول إلى يوليا القيصرية، هي قرية «تسوريخ» (سيدي عمار) التي بناها السويسريون في الأصل. ولم يبق اليوم احد من مؤسسيها على قيد الحياة، فقد كانت المنطقة غير صحية، خاصة بعد إصلاح الأراضي وتسميدها. لقد أقبل السويسريون المساكين على إصلاحها بنشاطهم الجرماني، لتكون جثثهم سمادا لأرض إفريقيا. فآلت الآن تلك البساتين والحقول التي أقاموها إلى الملاك من المضاربين الفرنسيين. وقد صعد واحد من هذا النوع الجميل، وهو فرنسي مزوق ضخم الجثة، إلى العربةفي قرية «تسوريخ» كما ركب معنا راهب، لم يلبث أن اخرط معه في نقاش حول المستعمرة وإخلالها بالصحة. فادعى القسيس أنه حضر سنويا أضعاف الثلاثين من الجنائز، وأن هذا لا يعني بالنسبة لمائتين من السكان أن المناخ صحي، غير أن المضارب السمين كان له رأي آخر: إن «تسوريخ» سليمة ما دام هو سليما. ومثل المعمرين في بلاد الحمى كمثل الجنود في ساحة الحرب: من عاش منهم نال الترقية، ومن قتل نسي بسرعة!

دخلنا من باب الجزائر إلى شارع تنس، وهو أكبر وأجمل شارع في شرشال الحديثة، وهذا لا يعني طبعا الشيء الكثير، فقد كان من الصعب علي أن اعثر على فندق في عاصمة موريتانيا القديمة. فقد اختفى اثنان من الفنادق الثلاثة التي ذكرها كتاب سياحي كان معي، وذلك لقلة الحركة في هذه المدينة التي تقع إلى حد ما خارج العالم ولا يحج إليها إلا عشاق الآثار القديمة. وكان الفندق الثالث قد غير اسمه وأصبح يدعى «الفندق التجاري»، وهي تسمية مبتذلة ولعلها تمت بناء على طلب التجار الفرنسيين عوض اسمه القديم «فندق يوبا الثاني». ولم يكن هذا الفندق



مريحا على الإطلاق، وكانت به عجوز درداء تقوم مقام جميع الخدم، وقد أجبرت على مكافحة الحشرات في غرفتي الحقيرة، واستطعت في النهاية أن أنظف هذا الإسطبل وكانت تلك الساحرة العجوز هي النادل الأول والوحيد في أرقى مقاهي شرشال الواقعة في الميدان الرئيسي. وكانت هذه المقهاة أجمل بناية في الساحة لسبب بسيط، وهو أنه لم يكن هناك غير هذه البناية.

إن شرشال مدينة البساتين : أغلب منازلها ذات الطابق الواحد يحيط به مكان غرست به أشجار، تخلع على المنطقة كلها منظرا بهيجا ترتاح النفس إليه. وأكثر منازل العرب مغطاة بالبلاط الملون، وهي لطيفة المنظر إذا قيست بمنازل الأروبيين الشبيهة بالثكنة.

لقد تم اختيار الوقع على البحر بصورة موفقة، فمنظر الشاطئ الذي يشاهده المرء في الميناء، في منتهى الروعة. فهناك برزخ منخفض يمتد إلى حافة بعيدة داخل البحر، ويحمل فوق أعلى نقطة قلعة «جوانفيل» والمنارة. وقد بنى الفرنسيون على الجانب الشرقي من شبه الجزيرة هذه سدا حجريا، طوله ثلاثمائة وثلاثين مترا، لحماية الميناء الخارجي. أما الميناء الروماني القديم وهو الميناء الاصطناعي الداخلي، فقد نظف تماما وأعيد بناؤه وهو اليوم يستعمل كما كان يستعمل في العهد الروماني. وهذا الميناء الروماني القديم الذي أعيد بناؤه يقدم لنا صورة معبرة عن الرقي الذي أحرزت عليه موانئ المدن الكبيرة في عهد الشعب الملكي، لأن شرشال كانت تحتل المقام الأول بين مدن إفريقيا. والفرق بين هذه الموانئ والموانئ الحديثة، أنها كانت محاطة بالأسوار أو السدود، ولذلك كانت تطابق البرك أو ما يسمى اليوم بالأحواض. كان وجود باب ضيق يكفي للدخول على الميناء الروماني، فعرض السفينة الرومانية لم يكن يتجاوز ثلاثة أقدام وكانت هذه الموانئ ذات أهمية كبيرة بالنسبة لزينة مدينة ما

أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة للموانئ الحديثة فكانت تقع في المدينة أو بالأحرى، كانت المدينة ترتفع حول سدودها وأسوارها، في حين ان الموانئ الحديثة كثيرا ما تبعد عن المدينة بحيث لا تعتبر جزءا منها. كان ميناء يوليا القيصرية محاطا بالبنايات الفاخرة، فكان معبد نبتون المرمري يرتفع في المكان الذي تنتصب فيه المنارة اليوم، وإلى جانبيه تمتد أروقة المنازل التي توجد تحتها محلات التجار. وكان قصر الملوك وقصر الحكام يطلان على الميناء، ولم تكن حمامات ديانا وينابيع يوبا المعدنية بعيدة عنه.

لا تزال منظر الميناء الداخلي في مدينة شرشال رائعا شيقا إلى اليوم، وذلك لا لأن السفن توجد فيه، فهي قليلة الوجود به، نظرا لانعدام الحركة التجارية بهذه المدينة الصغيرة الحديثة، وإنما لما فيه من انسجام وتناسق، فكل ما فيه نظيف جديد متألق، بنيت أسواره وسدوده وأرصفته من حجارة مربعة نحتت بعناية، كما بنيت المنارة وقلعة جوانفيل بأسلوب جميل. اما بناية الجمرك القريبة منها، فهي أقل قبحا من مثيلها في فرنسا. إلا أن ما يسحر الإنسان هنا هو أمواج البحر الأبيض المتوسط الجميلة الغامقة الزرقة، التي دخلت إلى الميناء الروماني القديم واختارته قصرا لها.

يشبه هذا الميناء بحيرة اصطناعية جميلة، لم يحفرها المرء إلا ليتخذها بركة، تتجمع فيها كتلة من المياه الناعمة المتناسقة الألوان. أما بالنسبة للأغراض التجارية والمواصلات البحرية بمفهومها الحديث فإن هذا الميناء، الذي وصلت تكاليف إعادة بنائه إلى أربعة ملايين، عديم الأهمية، فهو لا يأوى غير السفن التي يتراوح وزنها بين الخمسين والمائة طن.

ويبلغ عدد سكان شرشال، بالإضافة إلى الحامية، التي يبلغ عددها خمسمائة جندي، ثلاثة آلاف نسمة، يكون الحضر الثلثين، والباقي من الأروبيين واليهود من أهل البلاد.

وبناية المسجد القديم رائعة إلى أبعد حد، فصحونه الثلاثة تقوم على مائة عمود، ودعائمه لا تخلو من قيمة فنية. إلا أن معبد الإسلام هذا قد حول للأسف الشديدإلى مستشفى عسكري!

وقد تباينت آراء علماء الآثار حول مدينة شرشال. وكان الدكتور شو أول من عرف فيها يوليا القيصرية الرومانية، التي حدد موقعها ادابر» في مدينة الجزائر و«مانير» في مدينة تنس. ويعود الفضل في إزالة الشك حول أصل هذه المدينة إلى البحوث الحديثة التي أثبتت أن رأي السائح الإنجليزي الشهير هو الصحيح. كانت القيصرية في الزمن القديم مستعمرة فينيقية قرطاجنية، وأسمها الفينيقي يول. وبعد سقوط قرطاجنة استولى عليها النوميديون، وقد ذكرها سولينوس باعتبارهاعاصمة ملك من أهل البلاد يدعى بوكوس، إلا أنها بقيت بدون أهمية إلى عهد يوبا الثاني، حيث اتخذها هذا العبد، الذي توجه أغوسطس، عاصمة له وأطلق عليها اسم يوليا القيصرية. وكان يوبا الثاني، وهو آخر نسل من سلالة ملوك نوميديا القدامى، قد حمل أيام طفولته أسيرا إلى رومة، فنشأ في بلاط أغوسطس، ونال حظا كبيرا من الثقافة، ولم يلبث أن امتاز بعلمه وشغفه بالمعرفة. فزوجه أغوسطس برفيقة له في المصير، وهي الأميرة الأسيرة كليوبترا سيلينة، ابنة ماركوس انطونيوس وملكة مصر الأخيرة. ولم تكن كليوبترا سيلينة، كما يتضح من النقود الموجودة في متحف الجزائر، أقل جمالا من أمها الشهيرة.

وكانت نوميديا، الإرث الذي سل من يوبا الثاني، قد اتخذت في ذلك الحين الطابع الروماني إلى حد كبير، بحيث إنه لم يكن من الصعب على الفاتحين أن يحكموا هذه المقاطعة بالطريقة التي تروق لهم. أما موريتانيا فقد كانت، باستثناء منطقة ساحلية ضيقة متمدنة، كلها تقريبا في أيدي أهاليها الليبيين القساة، الذين يعترفوا بسلطة رومة إلا اسميا،

وكانوايحاولون التخلص من نيرها الكريه كلما سنحت لهم الفرصة بذلك. وكان مهمة سليل الملوك النوميديين، التي كلفه بها أغوسطس، تتمثل في تمدين هذه الشعوب وإخضاعها لرومة عن طريق نشر ثقافتها. ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأن هذا الهدف قد حقق إلى حد ما على الأقل. ذلك أن الرومان وجدوا موريتانيا بعد موت يوبا بمدة قليلة في وضع يسمح بضمها كلها وتسيير شؤونها من رومة مباشرة.

وقد حكم يوبا ؟، الذي تسمى بالثاني حرصا على تقاليد أسرته، مع أن يوبا الأول كان ملكا على نوميديا لا على موريتانيا، لمدة ثمان وأربعين سنة، كما تقدم لنا الأدلة على ذلك النقود الكثيرة الي عثر عليها في شرشال والتي تعود إلى فترات مختلفة من حكمه. ويعتبر عصره أزهى عصور القيصرية. وكان محيط المدينة في أيامه يزيد عن ميل وقطرها ستة آلاف قدم، في حين أن قطر شرشال الحالية ألفان ومائة قدم فقط. إن بقايا المدرج الفخم أمام المدينة الشرقي، وآثار بلاط الحاكم، وآثار المسرح وسط مدينة شرشال الحالية، والينابيع في غربها، وحمام ديانا في شمالها قرب المنارة، وآثار معبد نبتون، كل هذه البنايات، التي يمكن إقامة الدليل عليها بوضوح، تتحدث عن عظمة عاصمة موريتانيا القديمة وأهميتها.

بعد موت يوبا الثاني تولى الحكم ابنه بطليوس، الذي استمد اسمه من السلالة المصرية الأخيرة، التي تنحدر منها أمه، ولم يحتفظ هذا الأمير بمركزه كملك، يحكم صوريا، لمدة طويلة. فقد دعاه القيصر كاليغولا إلى رومة، وعاملة في بداية الأمر بلطف كثير، باعتبار ما بينهما من خؤلة، فقد كانا من جهة أمهما حفيدي ماركوس أنطونيوس، ثم غار من الشاب الإفريقي حين ظهر بالمسرح في هيأة عظيمة، فأعجب الشعب بثوبه الأرجواني وهلل له، فأمر بقتله، فانتهى وانتهت معه أسرتان، كان لهما في الماضي شأن كبير، بطالسة مصر، وملوك نوميديا يوبا، ويوغورطة

ومصنيصا. وهكذا انتهى آخر العبيد الملكيين فأصبحت موريتانيا منذ ذلك الحين مقاطعة رومانية بصورة نهائية.

وكانت القيصرية في عهود المسيحية الأولى مسرحا للتنكيل بالعديد من الشهداء، وأشهرهم القديس اركاديوس، الذي قطع إربا إربا في المسرح الذي لا تزال آثاره واضحة. ولهذا القديس دور معين في تاريخ الكنيسة، ويشكل موضوعا لعدد من الدراسات الدينية، وهي لا تزال في حوزتنا.

وتعتبر بقايا كنيسة كاثوليكية، تقع في الساحة الحالية، تمثالا صامتا لما كان للقيصرية قديما من أهمية كنسية. ففي هذه الكنيسة جرت تلك المناقشة الشهيرة بين أغوسطينوس والأسقف الدوناتي أميريتوس، التي نجدها في مؤلفات أبي الكنيسة أغوسطينوس. وقد نسيت أسماء ثلاثة من أساقفة القيصرية. وكان الأسقف فورتوناتوس قد حضر اجتماع زعماء الكنيسة، الذي عقد عام 314 بمدينة آرل الفرنسية، بصفته الممثل الوحيد لموريتانيا القيصرية، مما قد يدل بصورة غير مباشرة على أن شرشال كانت لا تزال في ذلك الحين تعتبر عاصمة. أما كليمنس فقد كان يعيش حوالي 373 أيام ثورة فيرموس. يوجد فورتوناتوس آخر مثل الكنيسة الكاثوليكية، بينما مثل الأسقف أميريتوس المذكور المذهب الدوناتي في اجتماع زعماء الكنيسة الذي انعقد بقرطاجنة عام 411.

وفي وسع الإنسان أن يعثر في بقايا البنايات الرومانية حتى في أقل الحفريات عمقا على عدد كبير من الآثار القديمة.

وقد أصبح للمدينة متحف، بني قبل بضع سنوات، حفظ فيه القسم الأكبر من الآثار التي عثر عليها. ولا تفعل الحكومة إلا القليل من اجل الحفاظ على الكنوز القديمة، فقد خصصت مكانا للمتحف، وعينت امينا للعناية به مقابل راتب زهيد جدا. ومكان المتحف عبارة عن بستان في

الخلاء. والأمين لا يتقاضى راتبا زهيدا فقط، وإنما يعاني أيضا من الآلام التي تسببها له الحكومة، وذلك لأنها تأخذ أجمل ما في متحفه عند كل مناسبة وترسله إلى الجزائر أو باريس. إن أمين المتحف هذا، وهو رجل عالم، ليس من الحراس الذين نجدهم عادة في المتاحف والذين لا يهمهم إلا ما يتعلق برواتبهم. فهو يحب متحفه، ويعتز به، ويدرك أنه لا يمكن في أفريقيا كلها آثار تضاهي آثار يوليا القيصرية في كثرتها وغزارتها. ثم إنه في الوقت نفسه مواطن من شرشال، لا يريد أن ينتزع من مدينه الشيء الوحيد الذي يجلب السواح إليها. ولذلك كان عندما زرت المتحف، قد سافر إلى الجزائر ليرفع إلى الوالي شكوى ضد السيد بير بروجير، أمين متحف الجزائر، الذي أفتك منه مرة أخرى أثرا، وهو تمثال نصفي لنبتون بالغ الروعة.

قادتني في البستان المخصص للمتحف عجوز لطيفة. كان المتحف مليئا بتماثيل الآلهة والأبطال والملوك القدماء، يعود بعضها إلى الفترة التي ازدهر فيها الفن، وبعضها الآخر إلى الفترة التي بدأ فيها التدهور. والذي جلب انتباهي في هذه التماثيل هو البتر الذي لحق بها كلها على وتيرة واحدة، فقد كانت كلها بلا أنوف. ولا شك أن الفندال أرادوا أن يسخروا من الفن الروماني بهذه الطريقة الهمجية، فقد جعل هذا البتر للأنوف من رؤوس فينوس الجميلة صورا هزلية.

ومتحف الجزائر غني كذلك بالآثار القديمة، التي اكتشفت في شرشال، وخطفها السيد بير بروجير، مما أثار حنق أمين متحف شرشال. فتمثال نبتون الجميل، حلية المتحف الرئيسية، وتمثال فينوس الناقص، وتمثال فتاة رومانية، ومجموعة الخناث وشياطين الغاب، وتمثال فينوس البرونزي الصغير، وعدد كبير من الواح النقوش الهامة، كل ذلك قد عثر عليه في ينابيع القيصرية وحماماتها التي تقع غرب المدينة.

وكانت النزهات، التي دعتني للقيام بها شرشال ونواحيها، قد أثارت في نفسي اهتماما، لا يمكن أن يثيره في نفوس عشاق الآثار إلا القليل من مدن العالم. فالإنسان يعثر عند كل خطوة يخطوها على تماثيل الشعب الملكي، والمدينة مليئة بذلك.

وسلكت، ابتداء من الفندق، نهج تنس، ومررت بالمتحف، ثم اتجهت إلى اليسار، حيث توجد آثار مترامية الأطراف محدقة في الفضاء، وهي أنقاض الحمامات، وبقايا بناية عظيمة، كانت تغطي مساحة، لعلها كانت تشكل خمس المدينة الحالية. ومن المؤسف أن هذه الآثار مردومة، وأن ما ظهر منها قد علقت به القاذورات والأوساخ، بحيث أصبح من المستحيل الوصول إلى معرفة أجزائه المختلفة بصورة حقيقة. ومن الحمامات اتجهت إلى الميناء، فوجدتني أجتاز عالما مليئا بالأنقاض العظيمة : بقايا الأعمدة، والركائز المكسورة، وقوائم الأعمدة، وأنقاض التوابيت الحجرية، ولم تلمسها يد ولا عرفت لها قيمة في هذه المدينة الأثرية الغنية، وتتوسط هذا العالم بناية منخفضة، بيضاوية الشكل، مكشوفة، تعود إلى العصر الروماني، ومع ذلك فقد بقيت سليمة إلى حد ما. وهناك سلم يفضي إلى الصور الذي يعلو البناية، ويمكن من فوقه النظر إلى داخلها المكشوف بسهولة، وهو عبارة عن قاعة طويلة بيضاوية الشكل تغطي أرضها بلاطات حجرية ويفضي إليها سلم. وقد كانت حماما رومانيا، يشبه المسبح. ولم أر فيما شاهدت من آثار صورة أصدق دلالة على الآثار القديمة من صورة حمام ديانا.

واتجهت من هذا النصب التذكاري الأثري، مارا بالميناء، إلى منتزه شرشال الكبير الجميل، الذي غرست فيه أشجار الدلب، وقد انتصبت في جانب من هذا الميدان بناية غريبة، أطلق عليها اسم بلاط الحكام، وهي تعود إلى فترات مختلفة، بصورة غير متناسقة مما يدل على أن هذا

الحصن يرجع بكل تأكيد إلى العصر البيزنطي. ذلك أن الفن البيزنطي في إفريقيا لم تكن له أبدا الأصالة التي تميز بها في الشرق. فقد جاء الحكم البيزنطي بعد فترة الهدم، فترة حكم الفندال، ولعل البيزنطيين قد توقعوا فترة دمار آخر في المستقبل القريب، ولذلك اكتفوا بضم حجارة التماثيل، التي تعود إلى عصر رومةُ الذهبي أو إلى أيام تدهور سلطانها أيضا في هذه البلاد، إلى بعضها بعضا لمجرد قضاء حاجاتهم المؤقتة.

وقادتني نزهة أمام باب تنس إلى سور القيصرية القديم، الذي يبعد عن شرشال بمقدار ربع ميل، وتتضح معالمه من خلال الخندق الذي يرافقه في كل اتجاه. وهناك وجدت معمرا مسكينا، عثر على عدد من الحجارة المربعة أثناء إصلاحه للأرض. وكان ثائرا على عمدة شرشال لأنه منعه من إبعاد هذه الحجارة، ولم يكن الرجل الطيب يعرف أنه اكتشف احد أبواب يوليا القيصرية!

الفصل السادس

مليانة

المكتب العربي هو حكومة البلاد الحقيقة. - السفر من البليدة إلى مليانة. - الشفاء. - الاستعمار الرسمي. - تنرا موزاكاسترا. - العفرون. - أعمال المعمرين البريسيين المرحة. - شواء الأسود وصيد الأسود. - مليانة. -مليانة الرومانية مكان ظلم. - الحامية. - الرياح الغربية. - الفأر المخرطم. - النقوش الاصطناعية.

أقصر طريق للسفر من الجزائر إلى وهران هو بطبيعة الحال طريق البحر بواسطة البواخر الحكومية. ولكن هدفي كان رؤية داخل البلاد أكثر منه الوصول إلى تلك المدينة الساحلية، ولذلك فضلت أن أسافر عبر الولايات بعربة الجياد. فتزودت برسالة توصية إلى الكتب العربي في البليدة. والمكتب العربي في جميع «المناطق العسكرية»، وهذا يعني تسعة أعشار البلاد الجزائرية (فالمناطق المدنية لا تشمل إلا المدن ونواحيها) هو السلطة العليا الوحيدة، فالقبائل الأهلية كلها خاضعة له أحيانا بصورة مباشرة، وأحيانا أخرى بواسطة آغا وخليفة وقائد. ويمثل الباش آغا أعلى منصب عربي إذ يخضع له عدد من المناطق يترأسها أغوات، والباش آغا نفسه يترأس دائما المكان الذي تقيم فيه قبيلته.

ويخضع للآغا شيوخ أو رؤساء القبائل المختلفة. وهذا التقسيم الإقطاعي للسكان يرجع إلى العهد التركي. أما تقسيمهم إلى مناطق يترأسها خلفاء، وقواد فهو تقسيم عربي محض. فالخليفة يترأس عادة عددا من القواد ويترأس هؤلاء بدورهم الشيوخ. إلا أنه كثيرا ما يحدث أن يرتبط القائد.

وأحيانا الشيخ البسيط أيضا بالمكتب العربي مباشرة. وقد احتفظ الفرنسيون بذلك التقسيم في جميع المناطق كما وجدوه فيها عند

الاحتلال، والظاهر أن هذا التقسيم قد تم بطريقة فوضوية إلى أبعد الحدود. لذلك يجد الإنسان في أغلب الأحيان بالدائرة نفسها منطقة تخضع للباش آغا، وأخرى للقائد، ثم يجد منطقة ثالثة استقل بها باش آغا، بل قد يعثر على عدد من الشيوخ في دائرة واحدة، تخضع مباشرة للسلطة الفرنسية ولا تعترف لا بالقائد ولا بالآغا ولا بالخليفة.

يعتبرالمكتب العربي، إذا شئنا، هو الحكومة الحقيقية في الجزائر، لأنه يتولى تنظيم الشؤون السياسة لأكبر عدد من السكان. فلا يستطيع الأجنبي ولا الفرنسي السفر إلى داخل البلاد إلا برخصة منه. وإذا حظي المرء بحماية المكتب المذكور فإنه لا يحصل على رخصة السفر فقط، وإنما يحصل أيضا على جميع التسهيلات والتوصيات الممكنة من جانب رعايا المكتب العربي، أعني الأهالي.

ومن أجل الاستفادة من هذه التسهيلات قدمت رسالة التوصية إلى القايد سالينياكفينيلو، رئيس المكتب العربي في البليدة، فقدم لي، بالإضافة إلى جميع المعلومات التي أردتها، رسائل إلى جميع رؤساء المكاتب العربية في ولايتي الجزائر ووهران اللتين كنت مبدئيا انوي السفر إليهما وأحضر لي زيادة على ذلك جواد وبغلا للأمتعة، استولى عليها من اقرب قبيلة عربية، كان في الإمكان، لو أردنا الدقة، ألا أدفع ثمنا لهما!وأرسل معي أيضا فراسا عربيا كدليل وحارس في الوقت نفسه.

وقادني امتطائي لصهوة الجواد من البليدة إلى مليانة، وهي محطتي الأولى في طريقي برا على وهران، عبر هضاب وجبال أغلبها جرداء ويغلب على نباتاتها خليط من الأدغال : ذلك النوع الكبير من الكريتة ذات البراعم الشبيهة بأزهار القنطريون، والزعتر الطويل الساق، والوزال الأصفر وهناك أحراش الحلفاء، والضرو الطيبة الرائحة وعدد كبير من نباتات الوقل واليتوع المختلطة. أما الأشجار فلم يوجد لها أثر باستثناء شجيرات الصبرة والباهرة

الأمريكية، تلك النبتة الجميلة التي كثيرا ما يختلط اسمها على أفواه الأروبيين باسم نبات الصبر.

هذه النباتات هي كل ما كان يحتوي عليه الطريق الجبلي وكثيرا ما تذكرت لدى رؤية هذه الباهرةالصبر، أبياتا من قصيدة فرايليغرات الجميلة التي يتحدث فيها عن احتلال الجزائر[1].

أشجار اللوز تزهر في البوادي،

والصبر يتحدى العواصف بأوراقه

المدببة القائمة من فوق الصخرة الجرداء

فبوركت يا بلاد باي التيطري

وكنا قد دخلنا منطقة بايلك التيطري القديمة. وأوصلنا ركوب الصباح الأول إلى قرية المعمرين الصغيرة «الشفاء» التي تقع على واد يحمل نفس الاسم. وقد بنيت هذه القرية الصغيرة، وعدد سكانها 250 نسمة، بناء على مرسوم وزاري صدر في 22 ديسمبر 1846. من خصائص قرى المعمرين في الجزائر أنها نشأت كلها بطريقة رسمية مشابهة. فلا يوجد مركز للتجمع الشعبي، نشأ في منطقة ما، لأن المواصلات والضرورة اقتضت نشوءه. كلا فالحكومة هي التي تأمر بإنشاء قرية هنا أو هناك. ومن أجل إيجاد السكان لهذه القرية، التي لا وجد لها أحيانا إلا في الورق تعمل الدولة على إغراء عدد من المعمرين المساكين عن طريق توزيع الأراضي عليهم. فيتلقى مل من هؤلاء المعمرين الضحايا حكرة ارض كبيرة أو صغيرة، ويلزم نفسه بإصلاح سدسها وفي أغلب الأحيان عشرها خلال فترة معينة لا تتجاوز نهاية السنة. والكثير من هؤلاء الفلاحين المعمرين رسميا يذهبون ضحية المناخ والتعاسة. ومن نجا منهم من ذلك يعيشون حياة شاقة ويكونون سكان القرية الرسمية الأجلاء.

---

(1) نظمت هذه القصيدة في أواخر سنة 1830 وتحل عنان الشيخ في سيناء انظر مؤلفات فرديناند فرايلغرات ج (1906) ص 83-82 (المترجم).

وبعد أن ابتعدنا عن الشفاء بمقدار ساعة وصلنا إلى المدينة الحديثة موزاية التي يبلغ عدد سكانها تسعمائة نسمة. والواقع أن موزاية لا اهمية لها، ولولا وقوعها على طريق معادن النحاس، التي تضمن لها على الدوام نوعا من الحركة، لما استطاعت ان تحتفظ بوجودها كمدينة سنة أخرى.

ومع ذلك فإن لهذه المدينة قيمة أخرى بالنسبة للسائح المثقف وهي القيمة الأثرية. فقد تم العثور في المحطة الرومانية القديمة تناراموزا كاسترا فالكتابة التي عثر عليها فوق قبر الأسقف دوناتوس، الذي عاد إلى هنا بعد أن عاش في المنفى مدة طويلة بسبب إقراره بعقيدته المسيحية وسقط خلال حروب الأهالي، تدل لارتباطها باسم هذه الشخصية وتاريخ وفاتها على الاسم الروماني الحقيقي لهذا المكان. فقد جاء في هذه الكتابة سنة المقاطعة 456 وبما أن التاريخ الموريتاني يبدأ بسنة 40 بعد المسيح، وهي السنة التي ضمت فيها المقاطعة إلى الإمبراطورية الرومانية، فإن هذا التاريخ يوافق سنة 496 بعد الميلاد. ونجد في قائمة أساقفة إفريقيا لذلك العصر اسم دوناتوس المنتسب إلى تناروموزا كاسترا[1]. يضاف إلى ذلك أن موقعها يوافق المسافة، التي تفصلها حسب ما ورد في خريطة أنتونيفي أغوسطي، عن روسكورم (دلس) ومليانة.

والاضطهادات التي تشير إليها الكتابة هي تلك الإضطهادات التي عانت منها الكنيسة المسيحية كلها في إفريقيا أيام هو نريق الآري[2]. أماالمنفى فهو الذي حكم به الملك الفندالي المذكور على جميع الأساقفة الكاثوليكيين، ودام من سنة 484 إلى 494، أي إلى تلك السنة التي سمح فيها الملك غونتاموند[3] بإعادة الكنائس والأساقفة إلى الكاثوليكيين. كان

---

(1) انظر : Revue Africaine, T. 1,P. 53

(2) ملك الفدال (477-84) انظر محمد مبارك الميلي تاريخ الجزائر ج 1/255.

(3) هو عبتاموند بن جنصون (484-96) المرجع السابق.

دوناتوس قد مضى عليه إذن سنتان في بلاده عندما قتله الثوار من الأهالي. وتوجد هذه الكتابة المهمة الآن في متحف الجزائر.

وقد عثر في هذا الجانب أيضا على تمثال إله الخمر الشاب باكوس، الذي هو الآن من حلي متحف الجزائر الرئيسية. وهناك آثار كنيسة مسيحية واضحة المعالم هي كنيسة تناراموزا كاسترا القديمة. وفي السنة الماضية (1861) عثر بيربروجير، من بين ما عثر عليه من الآثار الأخرى القديمة في المكان نفسه، على أثر مسيحي بالغ الأهمية، وهو عبارة عن مصباح برونزي كبير سميك، له ثلاثة اذرع، وقد نقش رمز الحمامة المسيحي عدة مرات بإتقان كبير، والمصباح يحتوي عموما على نقوش كثيرة، قلما نجدها في التماثيل التي تعود إلى العصور المسيحية السابقة.

وبعد أن ابتعدنا عن موزاية بمقدار ساعتين وصلنا إلى قرية العفرون، مبيتنا الأول. والعفرون قرية مبنية كلها من الحجارة بصورة منتظمة، فالدار تشبه أختها في كونها ذات طابق واحد، متينة، سميكة، محاطة بحديقة وساحة ازدحمت فيهما أشياء كثيرة. ولكن أية دهشة اعترتني عندما دخلت القرية! لم تكن فيها أية حركة. كانت تبدو كأنها قرية الموتى كان هناك فقط شيء من الحياة في مطعم صغير، استطعت أن أجد فيه غرفة وذلك ما لم أكن أحلم به.

وأثناء العشاء دار الحديث حول ما لحق القرية من إهمال، وعندئذ علمت أنها كانت قبل سنوات قليلة مسرحا للمباهج والمسرات، ثم اخرج منها سكانها بأمر من الحكومة، وكان السر في ذلك ما يلي :

كانت الحكومة الجمهورية السابقة قد أصدرت في سنة 1848، وذلك من أجل ان تستعمر الجزائر بالقوة، أمرا يقضي ببناء قرية تحتوي على حوالي مائة منزل على حسابها الخاص، ثم حاولت أن تعثر لها على

السكان والفلاحين في الوقت نفسه ليقوموا بإصلاح الأراضي الخصبة المجاورة. ولتحقيق هذا الغرض خصصت لكل من يستقر في هذه القرية منزلا وستة هكتارات من الأرض على شريطة أن يسهر على إصلاح ملكه خلال سنتين، ووفرت له زيادة على ذلك طعامه اليومي، على شكل ما يتناوله الجنود يوميا أثناء السنتين الأوليين. هل ينبغي للإنسان ان يصدق أن أحدا لم يقبل بهذه الشروط البسيطة ؟ وأن أولئك الذين استقروا هنا قد سمح لهم بالانصراف بعد انتهاء المدة المحددة ؟

يقال إن الذين اجتمعوا هنا بدعوة من الحكومة كانوا يشكلون طائفة غريبة متنوعة. إن الفلاح الفرنسي لا يهاجر بسهولة، إلا أن الحكومة قد وجدت عوضا عنه عددا كافيا من المفلسين من التجار الصغار، وأصحاب المقاهي وصانعي الشعر المستعار والحلاقين، وجواسيس الشرطة المتقاعدين، والممثلين الفاشلين، والمغنيين، وراهبات الحب العجائز، وعمال بنوك القمار السابقة، والنصابين، والسراق الذين كانوا مشتاقين إلى الراحة وغيرهم من أصحاب الوظائف الاجتماعية والمضادة للمجتمع في مدينة عالمية كبيرة فاسدة، لاستعمار الأرض الإفريقية وتمدين البلاد. وكان هؤلاء الممدنون تقريبا بلا استثناء، من الباريسيين ولم يكن سكان نهر السين اقل سرورا لتخلصهم من هذه الحثالات المتهورة.

في مقابل ذلك كان على النهضة الإفريقية أن تصبح شاهدة على الدعارة وكذلك للأسف على الخبث والخداع الذي عرف به المهاجرون إليها من المدينة الكبيرة. فلم يفكر واحد من هذه الكائنات، المتمدنة جدا بالنسبة لإفريقيا، في العمل ولو لحظة واحدة. وكان جدول العمل المفضل : ما أحلى البطالة! وكانت المقاهي والبليار، وكذلك مسرح الهواة، تساعدهم على قضاء الوقت بشكل مقبول، فقد كانوا خلي البال، إذ هيأت لهم الحكومة الطعام لمدة سنتين. وهكذا لم تلبث القرية

أن أصبحت نسخة من أحط أحياء باريس. إن الشرور، ولو اكتفت بإثارة الحواس، تجتذب دائما الشعوب المتأخرة، فقد اخذ البدو مع مرور الوقت يزورون القرية أكثر فأكثر فتعلموا تعاطي المسكرات، ولعب القمار، وغير ذلك من فضائل الحضارة.

وها قد تغير الآن كل شيء، وساد الصمت الكبير على هذه القرية على النقيض مما عرفته في السابق من صراخ حاد وبهجة عارمة.

وفي العفرون تناولت لأول مرة طعاما غير عادي لمعرفة مذاقه، ولم يكن هذا الطعام غير شواء الأسد. ولكن لحم ملك الحيوانات لم يكن ملك اللحوم، بل كان يابسا شبيها بالجلد، ولا يحتاج الإنسان أن يكون ذواقة لكي يفضل عليه لحم البقر العادي. وكان صاحب الجلالة الوحشية قد اصطيد من طرف عربي ولم تكن طريقة اصطياده قطعا من ذلك النوع الذي يمارسه اليوم جرار وشاشين فالمعروف أن هذين الصيادين الشجاعين، اللذين تفوق حكاياتهما القصص المرعبة كانا ينتظران ملك الحيوانات في العراء، ولا يطلقان النار إلا حين يصبح الحيوان على بعد قفزة منهما، وكان يصوبان النار إلى رأسه. فإذا لم يسقط الأسد في الحين تعرض الصياد لخطر كبير. وكانت وثبة الحيوان ولمسه من مخلبه كافيتين للقضاء على حياة نمرود الشجاع. ولذلك كان من الضروري اختراع تلك الرصاصة التي أطلق عليها اسم الرصاصة المصممة. فهذه الرصاصة المصممة التي تشبه القنبلة في انفجارها هي الوحيد القادرة على قتل الأسد في الحال في حين أن الرصاصة العادية تكاد تترك دائما للأسد المصاب إصابة قاتلة الوقت للوثوب على عدوه وإلحاق الجروح الخطيرة به. إلا أن العرب ليست لهم هذه الرصاصة المصممة وطريقتهم في الصيد تختلف عن طريقة جيرار وبومبونيل وشاشين إذ يقيم عدد من الصيادين ليلا في حفرة تحت الأرض لها فتحات الطلاق النار، وتدعى المطمورة ونربط خارجها معزة أو نعجة

لإغراء الحيوان المفترس. فإذا اقترب الأسد وتمكن من الحيوان المعرض له، انتظروا إلى أن ينشغل بفريسته كل الانشغال، ثم يطلقون النار دفعة واحدة، وكثيرا ما تقتله رصاصة واحدة منها وهذه هي الطريقة المتبعة على العموم في صيد الأسد بإفريقيا. ويتبنى هذه الطريقة، بالإضافة إلى العرب، سنويا عدد من السواح البسطاء أو المجانين الذين يشيعون في البيت قبل سفرهم أنهم ذاهبون إلى إفريقيا الصيد الأسودب فثلاثة أرباع الشبان الإنجليز الذين يزورون الجزائر كل شتاء يأتون بالقصد الذي قيل بصوت مسموع وهو «الصيد الأسود» وعندما يصلون إلى الجزائر يعرفون أن طريقة جيرار في صيد الأسود غير مناسبة لهم مطلقا، فيرمون بأنفسهم بعد ذلك في المطمورة لصيد الأسود! ولم يحدث أبدا، بقدر ما تعود الذاكرة بالإنسان إلى الوراء أن اصطاد أسدا أحد من هؤلاء المدعين. وقد عرفت واحد منهم، كان يقضي لياليه في المطمورةلمدة أربعة شهور، وفي النهاية أطلق النار على معزة، وكان من الصعب إقناعه بأن المعزة ليست أسدا! وكان أغلبهم يكتفي بشراء جدل الأسد من مدينة الجزائر لكي يطلع، عندما يعود إلى بيته فيما بعد، أقرباءه المعجبين على هذه الغنيمة العظيمة!

وفي اليوم التالي تركنا العفرون وواصلنا رحلتنا إلى مليانة. وكان ذلك في يوم من أيام أبريل، فشعرنا فوق هذه الهضبة ببرد الصباح القارس. وكان الضباب يسير على سفح جبل موزاية الذي يبلغ ارتفاعه 4800 قدم، وكان يبدو وكأنه يشكل سطح ماء، يرفع الجبل الشامخ رأسه فوقه فيشبه جزيرة صخرية عظيمة. وحين أشرقت الشمس راحت تصب فوق مجرى الضباب حبرا بنفسجيا، وتخلع على الجبل فوقه لونا أصفر ضاربا إلى الحمرة. وعند الظهيرة استرحنا في منطقة بني علوان قرب مخيم عربي' يدعى «بو ماضي» وكانت خيم هؤلاء البدو، وهي مصنوعة من جلد

حي باب عزون

البقر، متناثرة في المنطقة الخاصة بكل قبيلة، ويتراوح عدد كل منها ما بين العشرين والثلاثين خيمة وكانت كل مجموعة من الخيم محاطة بسياج من الأعواد والأشواك، توضع فيها الماشية في الليل. وقد كمنت حول هذه الخيم كلاب عربية شبيهة ببنات آوى، وقد دربت على ألا يقترب منها أروبي دون أن تهاجمه وتعضه أو تمزقه أيضا! وكلاب المعمرين الفرنسيين تكره العرب أيضا فتهجم على لابس البرنوس حانقة غاضبة بمجرد أن تراه!

كانت مليانة، التي وصلنا إليها في المساء فرنسية المباني كلها تقريبا مثل البليدة والمدية والقسم الأكبر من مدينة الجزائر. وكان المسجد بمنارته الرشيقة والحمام، الذي يوجد دائما وأبدا، يشيران وحدهما إلى أننا في إفريقيا وفي مدينة أغلب مظاهرها إسلامية. وتقع مليانة فوق هضبة ترتفع 2700 قدم عن سطح البحر.ونواحيها جبلية غنية بالنباتات القصيرة الساق ولكنها مفتقرة إلى الأشجار وتغطي حقول العنب، التي زرعها اليهود ونباتات الصبار سلسلة الجبال المنحدرة تحت جبل زكار الذي يبلغ ارتفاعه 4000 آلاف قدم وتقع المدينة القديمة في سفحه.

وقد برهنت الآثار القديمة، التي عثر عليها ها هنا، من أحجار منقوشة وتماثيل وبقايا الأعمدة التي استعملها الأتراك في بناء سور المدينة، على الأهمية التي كانت لمليانة في العصر الروماني. وقد عرف فيها الدكتور شو مونيسيبيوم مليانا الرومانية. وادعى الأثري الأنجليزي أنه عثر هنا على قبر أحد بومبيوس. والواقع أننا نقرأ فوق تابوت روماني وضع في مكان غير بعيد من المسجد اسم 5. بومبيوس كيني فيليوس، ونحن نعرف من «مارتيال» أن حفيد بومبيوس الكبير قد مات بعيدا عن وطنه في مكان غامض. إذن فقد كانت مليانة الرومانية، رغم آثارها التي تدل على فخامتها، مكانا غامضا مثل كثير من المدن الإفريقية،

مثل إيكوسيوم التي كثر الحديث عنها في هذه الأيام، وهي أم الجزائر، ولعلها أكثر الأماكن غموضا.

لقد أراد البعض أيضا أن يرى في قبر بومبيوس ضريح بومبيوس الكبير نفسه. ونحن بطبيعة الحال لا نعرف شيئا عن قرب آخر لثالث حكام روما ويقول مارتيال[1]:

كان أحفاد بومبيوس في آسيا وأروبا، أما هو نفسه فقد دفن في ليبيا إن كان ما روي صحيحا.

حقا إن عبارة «دفن بليبيا» تدل على هذا، غير أن مليانة بعيدة نوعا ما عن بيلزيوم التي لقي حتفه فيها.

وكانت مليانة في العهد المسيحي مثل أية قرية في أفريقيا، مقر الأسقف، وقد وصل إلينا أسمان من أسماء هؤلاء الأساقفة. حيث حضر الأسقف الكاثوليكي فيكتور وعدوه الأسقف الدوناتي نيسطوريوس اجتماع زعماء الكنيسة الذي انعقد سنة 411 بمقر طاجنة. وفي سنة 484 أرسلت مليانة أسقفها باتيرنوس إليها أيضا، حيث نفي هو وغيره من الأساقفة الكاثوليكيين من طرف هونريق.

ويبدو أن الدرويش العربي، احمد بن يوسف، شاعر الجزائر القومي، يحمل فكرة سيئة عن سكان مليانة، فهو يقول عن المدينة وأهلها :

لك، يا مليانة، وفر من الماء والشجرة،

ولكن أهلك ظلام،

يسود نساؤك ويستعبد رجالك!

ولم ابق في مليانة مدة طويلة حتى أتأكد مما إذا مقرا خاصا بالرجال المستكينين لنسائهم كما يعتقد الشاعر.

---

(1) شاعر روماني توفي في بداية القرن الثاني الميلادي. (المترجم).

وعندما سقطت الجزائر سنة 1830 من يد الأتراك، واعتقد كل شخص ان في إمكانه أن يستولى على خرقة من البلاد التي كانت تحكمها السلطة التركية، ظهر لسلطان المغرب أن يرسل حاكما إلى مليانة فحكمها بالفعل بضع سنوات ثم أصبحت المدينة فيما بعد من ممتلكات الأمير عبد القادر، فعين أخاه بايا لمليانة[1] وآلت إلى فرنسا منذ 2 جويلية 1840.

عند وصولي إلى مليانة سلمت رسالة التوصية إلى رئيس المكتب العربي،النقيب برنار، فدعاني لتناول طعام الغذاء على مائدة الضباط. وعلى هذه المائدة أتيح لي مرة أخرى أن أدرس بدقة على الأقل نموذج الرسميين الفرنسيين الشبان في إفريقيا. كان الحاضرون على العموم ضباطا شبانا، يحبون اللهو والحياة، ولا تهمهم البلاد التي يعيشون فيها، ولا يهتمون بكل ما يحيط بهم. وكانت الدوافع التي تحمل السواح على المجيء إلى الجزائر لغزا غامضا بالنسبة لهم، فهم لم يجدوا في البلاد كلها ما يستحق اهتمام هؤلاء الأبطال الكبار، ولم يكونوا يعرفون، بعد انتهائهم من العمل الممل، تسلية أخرى غير شرب الابسنت ن وتدخين السيكار أو لعب الورق. إن إفريقيا الفرنسية لا تهم هؤلاء الأبطال. حقا لقد وجدوا انه من الصواب احتلال الجزائر، إلا انه لا ينبغي أن يطلب منهم التعرف عليها.

وما كانوا ليحيوا حياة أخرى لو أن حاميتهم، عوض أن تكون في إفريقيا، كانت في كاربينترا أو بيزينا تينك المدينتين الفرنسيتين الصغيرتين.

وكانت حامية مليانة تتكون من إحدى الكتائب الإفريقية، التي سميت «الرياح الغربية» تعني تقريبا بالنسبة للفرنسيين ما تعنيه الفرقة الأجنبية بالنسبة للأجانب في فرنسا :ملجأ المجرمين الحقيقي! إلا ان تكوين الفرقتين مختلف طبعا. فالفرقة الأجنبية تتكون من أسافل البلدان

(1) جاء في تحفه الزائر (ص 214) إن الأمير ولى عليها السيد محي الدين بن علال.

المختلفة، في حين أن « الرياح الغريبة » تتكون من أدنياء الجيش الفرنسي الذين حكم عليهم، لذنب ارتكبوه، بالخدمة في هذه الفرقة غير أن هذا لا يمنع من أن تتكون « الرياح الغربية » من شبان يتدفقون حيوية ومرحا، تروى عنهم حكايات مضحكة لغاية. من ذلك تلك الظاهرة الطبيعية، وهي الفأر المخرطم، الذي تفنن في اختراعه أحد جنود « الرياح الغربية » حيث قطع ذيل فأر آخر وألصقه بجبين هذا الفأر بعد أن أجرى له عملية جراحية! وكان علماء باريس قد وصفوا الحيوان الجديد وحددوا صنفه عندما اكتشفت الخديعة، وكانت سببا فيما لحق بأولئك العلماء من خزي، وذلك المخترع من ألم، لان الحيوان الغريب كان قد أصبح معدنا ذهبيا بالنسبة له، إذ حصل عن طريق بيعه على أموال كثيرة!

ولست أدري طبعا إلى أي حد كانت هذه الأعجوبة الطبيعية ممكنة، وقد أتبعت في هذه الرواية ما ذكره الضباط الفرنسيون من أخبار موثوق بها عامة ن ولكن الذي أعرفه تمام المعرفة هو أن جنود » الرياح الغربية« ماهرون في صنع النقوش القديمة. وقد شاهدت بنفسي نقشا فنيقيا، أعده أحد هؤلاء الجنود. وهذه النقوش خادعة إلى درجة أن ثريا باريسيا غير متخصص اشترى نقشا، اعتبره حقيقيا، بألفي فرنك! ويقدم هذا النقش طبعا إيضاحات تاريخية مثيرة للدهشة، فهو يتحدث عن وصول الرومان إلى السودان وعن موقع مستعمرة رومانية قرب مدينة تمبكتو. وكان لهذا الاكتشاف قيمته فلم يكن لأي من المؤرخين علم بأي شيء من هذا حتى الآن!

الفصل السابع

سهل الشلف

المتشرد اليهودي أسيرًا ومرافقا. - الشلف. - بحر الحنطة. - المبيت عند بني راشد. - عذاب الليل. - أنواع مختلفة من الصيافة العربية. - الوصول إلى شيخ أولاد يحي. - غداء هزيل. - حقل الصبار. - الشارع الروماني. - تيقافا مونيسيبيوم. - المبيت عند أولاد قيصر. - المناظر الريفية.

قلت للنقيب برنار عندما رأيت جوادي، الذي استولى عليه المكتب وقدمه لي، يعرج :

ـ إن الجياد التي يقدمها المكتب العربي في منتهى الرداءة!

فأجاب النقيب :

ـ أتريد الحصول على جواد أحسن عن طريق الاستيلاء عليه ؟

ـ ولكني على استعداد لدفع ثمنه، فإني لا أريد أن أركب جياد العرب المساكين مجانا!

ـ هذه مسألة أخرى طبعا. إذا دفعت الثمن فإن في إمكانك أن تحصل على حصان الشيخ نفسه.

وهذا ما حدث، فبعد قليل من الانتظار تركت مليانة فوق حصان رائع اكتريته من الشيخ بخمسة فرنكات يوميا. وقد أحضر لي الصبائحي العربي الذي كان عليه أن يرافقني إلى مدينة الأصنام، مرافقا أسيرا، وكان ذلك علاوة خاصة بالنسبة لي، وهو شريد يهودي بائس، من مواليد مكناس المغربية، أحد مقار السلطان مولاي محمد. وكان هذا الوغد الشقي قد اتهم بالجوسسة لصالح المغرب، فحكم عليه بأن يعاد إلى المغرب ويسلم إلى السلطة هناك. وكان زري الهيئة، قذر المنظر، مهلهل الثياب، يبدو عليه النفور من هذه السفرة التي لم يكن يرغب فيها. وقد لقي مرافقي، وهو

الصبائحي وبعض البغالين العرب، كثيرا من العناء في حمل ابن ابراهيم على النهوض، إذ كان متشبثا بالأرض بحركة تشنجية، مما جعل ركلات المسلمين ضرورية لإنهاضه.

وما كان ينهض حتى وقع في الجانب الآخر، واندفع يمينا في محاولة يائسة للهرب، ولكن المحاولة فشلت. وذلك أمر أسفت له. لأني لم أكن مرتاحا لمرافقي، وهذا شيء واضح. فقد أرغموا هذا الإنسان الشقي على السفر تحت القرعات والدفعات والضربات والركلات، وقد رجوتهم عبثا أن يكون في معاملتهم شيء من الإنسانية!

وانحدرت قافلتنا الصغيرة ببطء من أعالي زكار الجرداء متجهة نحو سهل الشلف الواسع الخصب. وكان هذا السهل الرائع، الذي يمتد على جانبي أكبر أنهار الجزائر، يتزين في ذلك الحين بحقول الحنطة المتماوجة فبدا منظره من آخر مرتفعات جبل زكار فاخرا. فقد كانت الأرض الممتدة على مدى البصر بساطا ذهبيا، تغطيها السنابل الشامخة التي توشك أن تحصد. ولم تنتصب في هذا البحر من الألق شجرة واحدة، ولم تكن ثمة صخرة تلقي بظلالها القاتمة على أنبل حبوب الأرض : كان الشلف فقط يسحب خيطه الفضي في مهواة عميقة بين جدران الأراضي الخصبة الناعمة.

وفي سفح جبل زكار داخل سهل الشلف حيتنا القرية الفرنسية الصغيرة آفرفيل (خميس مليانة)، التي سميت باسم آفر، أسقف باريس، الذي سقط سنة 1848 فوق متاريس مدينة نهر السين. وآفرفيل قرية رسمية، تقع في منطقة ينتشر فيها مرض الحمى، ويسكنها 80 شخصا، بقيت لهم أجسادهم بفضل الكينين. ولا شك أن الرومان كانت لهم مستعمرة في هذاالمكان، تدل على ذلك الآثار القديمة التي عثر عليها ها هنا. ويحتوي متحف الجزائر على جرة حفظت فيها عظام الموتا عثر عليها في آفرفيل، وهي وعاء من الرصاص له غطاء، ميزته أنه مصنوع من عظام الحمار. ولكن

ما هو اسم آفرفيل الروماني ؟ لقد افترض، على أساس خريطة أنطونين، أنه قد يكون روكبار القديمة، التي تدعى أيضا كولونيا أغوسطا، غير أن التماثيل التي عثر عليها ها هنا لا تأكد هذا الراي.

وسلكنا طريقا منبسطا سهلا فوصلنا بعد ساعتين إلى قرية لافراند (سيدي الأخضر) الصغيرة الواقعة على ضفة النهر. ولاشك أن الجسر الممتد هنا فوق نهر الشلف روماني في الأصل مثل جميع الجسور الجزائرية تقريبا، إلا أن العرب أعادوا بناءه بطريقة، يصعب معها معرفة الأسلوب المعماري الأصلي. وهنا تركت قافلتنا الصغيرة الضفة اليمنى لتواصل سيرها حتى الأصنام على الضفة اليسرى للنهر. وتتمتع لافراند، مثل آفرفيل وجميع قرى سهل الشلف، بمناخ ينتشر فيه مرضى الحمى.

وسألني الصبائحي ونحن نواصل سيرنا :

ـ لماذا يختار الفرنسيون في أغلب الأحيان مواقع صحية لإنشاء قراهم؟

فأجبت :

ـ لعل ذلك يعود إلى نفس السبب، وهو أن الإنسان كما يقول المثل القشتالي، لا يلتقي بأسبانيا أثناء حرارة منتصف النهار إلا بالفرنسيين والكلاب!

فقال اليهودي، الذي لم يسمع ما قلنا، بدقة تامة :

ـ إن الفرنسيين أمة عظيمة، فهم لا يسألون عن حياة المساكين!

ولاحظت في مكان غير بعيد من لافراند، يقع بين الضفة والطريق أكواما من الآثار الرومانية. والعرب يطلقون على هذا المكان اسم الخضراء فقد اكتشفت هنا على امتداد النهر آثار رصيف قديم وكذلك مقبرة في الجانب الشرقي. وهناك آثار جسر روماني تنتصب فوق نهر الشلف في شموخ، وتدل على أن الخضراء كانت لا تخلو من أهمية

أيام الشعب الملكي. وخريطة أنطونين تجعلنا نظن ان هذا موقع أوبيبدوم نوفوم (المدينة الجديدة).

ويعتبر نهر الشلف أكبر أنهار الجزائر وربما أكبر أنهار المغرب، إلا انه بعيد عن أن يكون نهرا كبيرا بالمفهوم الأروبي. وطول هذا النهر من منبعيه طبعا، ويقع احدهما في واحة تيارت والآخر في واحدة جبل عمور بلقب الصحراء حوالي ثمانين ميلا. ولكن عرضه وعمقه ومياهه قليلة الأهميةجدا، ولا تضمن له اسم النهر عوض الجدول إلا هنا، حيث يندر الماء الجاري طوال السنة كلها. والعرب يسمون الشلف نهرهم الكبير، مثلما سمي اليهود نهر الأردن بالكبير، مع أن مياهه كما هو معروف كانت متواضعة.

ويضيق نهر الشلف عند منحدرات جبل عال، يبلغ ارتفاعه 6000 قدم وهذا الجبل الشامخ، ويدعى جبل دوي يطل بكتلته السوداء على الرياض الضاحكة، وتسكن فوق أعاليه قبائل بعيدة عن المدينة، لم تكد تخضع بعد، وهي من نسل تلك القبائل التي أتعبت ثورتها في القديم تيودوزيوس، مساعد القيصر. وكان المفروض أن نصل مساء اليوم الذي تركنا فيه مليانة إلى مقام شيخ عربي يدعى مصطفى بن حميد، شيخ أولاد يحي، ولكن صديقنا اليهودي اضطرنا بمشاكساته للمبيت عند قبيلة عربية أخرى هي قبيلة بني راشد.

كل من يحمل وصية من المكتب العربي له الحق في الضيافة العربية الرسمية، التي تعتبر جزءا من الإتاوة التي يدفعونها للدولة، إلا أنه، لكي يبرهن على حقه في ذلك، لا بد أن يكون معه خطاب رسمي. وكان لي خطاب من هذا النوع إلى الشيخ المذكور، لا إلى بني راشد الذين أرغمني الحظ على المبيت عندهم. ومن المؤسف أن الكرم العربي الذي يضرب به المثل أوشك أن يختفي تحت الحكم الفرنسي، ولم يبق منه سوى ذلك الكرم الرسمي النغل الذي يتم بالنسبة للأروبي بوصاية من الحكومة. والكرم الذي

ينسب إلى هذه الشعوب مبالغ فيه على الإطلاق لأن أسباب الراحة الموفرة للضيف قليلة الأهمية بحيث إنها لا تكلف المضيف جهدا ولا مالا. وقد رأيت هنا عند بني راشد مم تتألف ضيافة البدو تجاه أبناء قبيلتهم. كانت ثمة خيمة عامة، تستعمل مسجدا في النهار، خصصت ليلا للمسافرين ليريحوا أجسادهم المتبعة فوق أرضها الصلبة العارية.

ولو لم يكن معي الصبائحي، الذي فرض عليهم، إلى حد ما، احترامه برتبته العسكرية من جهة، وبصفته عربيا من جهة أخرى، لقضيت ليلتي دون شك من غير طعام. فقد استطاع هذا الصبائحي، الذي عامله العرب بلطف وهم يشعرون بخوف مضحك أمام كل من يحمل بزة عسكرية :، أن يستعطف بدويا من أجل بضع بيضات. وهكذا أمكنني أن أنقص من جوعي على الأقل. أما العطش فإني لم أستطيع إزالته. فالمفروض في هذه القبائل، التي حرمت عليها الخمر والجعة، فلا تكاد تعرفهما في الغالب، أن تحرص على الأقل على إحضار الماء العذب الصالح للشرب، إلا أن الكثير منها يكتفي بمياه البرك الوحلة، وحتى هذه كثيرا ما يضطرون إلى جلبها على بعد نصف ميل. وكان ماء بني راشد أيضا من بركة، لونها أصفر ضارب إلى الحمرة، تقع في مكان مجاور.

كان علي بعدئذ أن أعاني من عذاب الليل في خيمة البدو. وكانت لي فكرة غير واضحة عن الطريق التي يقضي بها أبناء التل لياليهم في خيمهم، فلم أكن أعرف عن عادتهم في ذلك إلا القليل. كان علي أن أتعرف هنا على أسلوب حياة البدو كما هو، وان أشاركهم في حياتهم على الرغم مني. لقد سخرت من لوازم السفر التي تتكون من الخيمة، والفراش، والموقد، والماء وغيرها من الأشياء التي لا يستغني عنها في الشرق، في رحلتي الأولى إلى الجزائر، لأن ضباط المكتب العربي أكدوا لي بأنني سأجد في كل مكان مبيتا على الطريقة الأروبية. وإذا اقتضى الأمر أن أمضي ليلة عند الأهالي، فلن

يكون ذلك إلا عند القائد أو شيخ القبيلة، حيث توفر لحامل التوصية جميع أسباب الراحة. وكان كل هذا ممكنا لو أن بطء اليهودي المغربي التعس لم يعق خطوات جيادنا. غير أن هذا العناء، الذي حكم علي أن ألاقيه لم يخل على الأقل من فائدة واحدة بالنسبة لي، وهو أنه أتاح لي أن اطلع على حقيقة الحياة التي يعيشها البدو، وذلك ما لا يتيسر لأغلب المسافرين. فما أقل السواح الذين يتوصلون إلى معرفة جانب آخر من حياة الأهالي غير الجانب الرسمي!

فالعديد من الشبان الإنجليزيين، الذين يجوبون الجزائر سنويا، وذلك بحجة إرضاء رغبتهم الملحة في صيد الأسود، يحملون في جيوبهم وفرا من التوصيات إلى الشيوخ، والأغوات، والباش أغوات، فيتناولون عندهم طعام الضباط الرسمي، وينامون أحيانا فوق جلود الأسود، ولعلهم ينامون فوقها ليعزوا أنفسهم عن خيبة مساعيهم الدائمة في الصيد بإفريقيا! فهم لا يرون غير الجانب الرسمي المزوق غير حلية الضيافة العربية، التي خلع عليها الفرنسيون اسما معبرا، وهو «ضيافة الأبهة»! إلا أن هذا لا يمنع هؤلاء الشبان الحيويين من أن ينشروا انطباعاتهم فيما بعد باعتبارها وصفا حقيقيا لحياة البدو وأعمالهم، وصفا حقيقيا لعاداتهم وأخلاقهم. ومن هؤلاء وأشباههم جاءت تلك الأفكار الكثيرة الخاطئة التي رسخت في أذهان الأروبيين إن الحياة البدوية. عن حياة البدو الحقيقية فيما يتعلق بالرفاهية أو بالأحرى بعدمها، هي كما يلي تقريبا:

يسكن البدو في خيام لا تقفل، معرضة للريح والمطر ومصنوعة من جلود البقر القذرة، وينامون فوق الأرض الصلبة، والغني منهم من يضع فوقها حصيرة، ولا يأكلون عادة غير عجين الشعير الحامض المزيت، ويسمونه بقصد التجميل الخبز، ويشربون الماء العكر. أما القهوة والتبغ اللذان يظن أكثر الأروبيين أنهما شيئان لا غني عنهما بالنسبة لكل مسلم، فهما من الأشياء الكمالية التي لا توجد إلا عند الأغنياء من الشيوخ والقواد.

يعتبر التدخين في المغرب كله عادة سيئة على الإطلاق، أي أنه ليس حراما لكنه مكروه. وكان شرب القهوة في القديم يعتبر عيبا، ولم يكن يجوز للابن أن يشربها أمام أبيه أو عمه ولا للشاب أمام الشيخ. وقد تعود صديقي الحاج حميد في الجزائر أن يصفع الشاب، بل والرجال الذين بلغوا الخامسة والعشرين من عمرهم،إذا هم أباحوا لأنفسهم أن يشربوا القهوة أو يدخنوا بمحضره.

ولباس البدو عادة برنوس مهترىء يلبسونه ليلا ونهارا ولا يغيرونه أبدا إلى أن يبلغ أقصى حد من الرثاثة والقدم والاهتراء.

وقد جلب انتباهي، كلما ازددت تعرفا على حياة البدو الحقيقية، وجود شبه كبير بين هذه الحياة وبين حياة » المور« أو » الموريزيين« الذين سكنوا في القديم نفس المنطقة من إفريقيا. وقد ذكرت سابقا أن أغلب البدو، الذين يعتبرون أنفسهم عربيا، من أصل بربري أو قبائلي. ولذلك يمكننا أن نعتبر أولئك الموريزيين الذين وصف لنا حياتهم الغليظة بروكوبتوس،أجداد كثير من بدو الجزائر بحق. فيقول مؤرخ الحروب الفندالية عن مواطني افريقيا الأصليين (بروكوبيوس، عن الحرب الفندالية :

« إن الموريزيين يحيون حياة غليظة شاقة. يرتدون نفس اللباس صيفا وشتاء ولا يخلعون حتى في الليل. فالرداء المكسر والقميص الخشن هما لباسهم الوحيد. وهو ينامون على الأرض الصلبة (كالبدو اليوم تماما.) ويسكنون في خيام، هواؤها ملوث، والمواد الغذائية الجيدة، كالخبز والخمر وهما من المواد البسيطة، كلها غير معروفة لديهم. والشيء الوحيد الذي يطعمون منه هو الشعير والحنطة السوداء، وهم لا يصنعون منهما الخبز والطحين، وإنما يتناولونها كالحيوانات ».

ويكاد المرء يعتقد أن كاتب هذه الكلمات قد عرف حياة البدو الراهنة ومع ذلك فقد عاش في عصر القائد بيليسار!

لقد استطاع رجالي باعتبارهم عربا أن يحظوا بضيافة أبناء جنسهم العادية، لا الضيافة الرسمية، فجلسوا في الخيمة الفارغة المذكورة المعدة للضيوف فوق الأرض،وقد سرني أن أحظى بالجلوس إلى جانبهم. وكان عشاء مرافقي يتكون من ذلك العجين الحامض المزيت الملتمع، الذي يسميه العرب خبزا، ولا علاقة له في الحقيقة بالخبز إلا من حيث الشكل.

وأشعلت نار الحطب في وسط الخيمة بسبب برودة المساء، فأختار الدخان أن يخرج من الفتحة التي تقوم مقام الباب. وقضينا الأمسية، ونحن جالسون حول النار فوق سروج جيادنا ولباداتنا برفقة ما يزيد عن العشرين من الشحاذين المتجولين، الذين كانوا ضيوفا معنا. وبما انه لم يكن من الممكن الحصول على الفراش في خيمة منعزلة ن فلم يبق لي إلا أن أفعل ما فعله رفاقي في الخيمة الذين ناموا في نفس المكان الذي كانوا جالسين فيه في المساء، وأن أسقط بين ذراعي الكرى.

واتخذت نفس الطريقة في النوم. إلا أن ما حولي كله كان يشخر بصورة لا يحسنها إلا عربي، فلم أستطع لذلك أن أنام لمدة طويلة. وأخذت انظر من خلال باب الخيمة إلى السماء البعيدة المضيئة، وكان شعاع القمر الباهت ينير الشخصيات العربية إلى جانبي بوضوح. وكان الليل باردا إلى درجة أني تمنيت لو أن المدخل لم يكن فتحة، بل بابا يغلق. كان فراشي شديد الصلابة بشكل غير عادي، وكان من المستحيل الحصول على بساط لدى هؤلاء البدو المساكين، فاستعضت عنها بحصيرة أخذتها من الصبائحي، ولكنها خفيفة جدا، فجعلتني الأرض الصلبة، التي نمت فوقها، أحسن قساوتها بكل وضوح.

ولعلي كنت قد نمت حوالي ساعة حين أفزعني فجأة صراخ مدوي، فنهضت بسرعة وقد خيل لي أن النيران تأكل الخيمة، إلا اني لاحظت

بدهشة أن ذلك الصراخ لم يكن شيئا آخر غير مناجاة استسلم إلى سحرها بعض البدو في لحظة من لحظات اليقظة! ولأبد أن لجهة أخرى غير هذه اللهجة المدوية، مع أن أصواتهم عالية بطبيعتها، تبدو لهؤلاء الرفاق في غرفة النوم نوعا من الإهانة لرجولتهم، فهم يتحدثون بصوت عال، بل بصراخ مدو على الدوام ولو كانوا إلى جانب فراش أحد المرضى!

ونهضت في الصباح من فراشي الصلب، وأعضائي كلها متشنجة كأنها قد تغيرت. وكان من مزعجات الليل بالإضافة إلى صلابة الفراش أني لم أكن قد تعودت النوم في ملابسي، ولم تكن ثيابي الأروبية صالحة لذلك فمن السهل على الإنسان أن ينام في الألبسة الشرقية الفضفاضة كما ينام بين الأزر، والبدو لا ينزعون ألبستهم أبدا ، وهم متعودون على النوم فوق الأرض الصلبة والهواء الطلق. أما إلى أي مدى يجب على الأروبي أن يتعود على الخشونة حتى يستطيع أن يفعل ذلك دون عناء، فلي عليه هنا دليل.

ومن مزعجات الليل في خيام البدو أيضا كثيرة تلك الحيوانات الصغيرة التي تغني بها ميفيسطوفليس في قبو آوباخ بصورة جميلة[1]. وعلى الرغم من أني لم تكن لي نفس الواجبات مع » السادة والسيدات في البلاط« على حد تعبير الأغنية، فان غزارة نماذج هذه الحشرات المتوثبة قد جعلت من المستحيل على أروح عن نفسي بشكل محسوس.

لقد دبت الحياة في المخيم منذ الرابعة صباحا، فكانت الديكة تصيح والكلاب الكثيرة الشبيهة ببنات آوى ترسل عواءها المصم للآذان،والحمير والبغال تغني بطريقتها السوداوية الخاصة، وكان العرب، جيراني، يحيون بعضهم بعضا بتحية الصباح. فلم يكن في وسعي الاستراحة بعد، مع أني

(1) ينشد شيطان فاوست اغنية البرغوث ، انظر فاوست لغوته ، الجزء الأول ، الشهد الخامس .

لم أكد أنام ثلاث ساعات، وكانت معدتي الفارغة بمقتضى المثل الفرنسي » الذي ينام يتعشى« في حاجة إلى النوم. ثم إن ضوء الصباح قد أراني المكان الذي نمت فيه، كريها، مقرفا، بحيث سرني الابتعاد عنه بسرعة.

كان رفاقي في السفر قد استيقظوا قبل طلوع النهار بمدة طويلة. إن العرب لا يعرفون الهدوء الليلي المنتظم ولا يستطيعون تقدير قيمته، ذلك أنهم فيما يتعلق بالنوم قادرون على تعويض ما فاتهم منه في أية ساعة من ساعات النهار. أنهم ينامون مبكرين ويستيقظون مبكرين ويقطعون حتى أقصر أوقات النوم بالأحاديث اللطيفة، ولكنهم ينامون بالنهار. ويتكون الليل عند العرب من اليقظات والنهار من القليولات.

كان اليهودي، الذي أرغم على السفر معنا قد روض إلى درجة أنه راح يتبعنا دون أن يتلقى القرعات والضربات، التي كان العرب يوجهونها إليه بسخاء.

وأوصلتنا الساعات الست، التي امتطينا خلالها جيادنا عبر حقول القمح المتماوجة الخالية من الأشجار، إلى منزل شيخ أولاد يحي، الذي كان المفروض أن نقضي عنده ليلتنا السابقة. وكان هذا الشيخ قد حقق بعض التقدم وتخلى عن الخيمة. كان منزله عبارة عن فندق كبير مبني من الحجارة، أقامها له مهندس فرنسي بثمن باهض.

كان الشيخ جالسا فوق الأرض في غرفة مستطيلة منخفضة، جدرانها من الآجر، وليس لها من أثاث سوى مقعد فرنسي غير مستعمل، وحوله شخصيات قبيلته. بعد أن قرأ الرسالة التي أعطاني إياها المكتب العربي لأقدمها له، دعاني للجلوس فوق المقعد القديم المهلهل، ولكني لم أقبل ذلك احتراما للعادة العربية المتبعة، وجلست بدلا من ذلك فوق الحصيرة مثل الشيخ ورعاياه. ومما أثار دهشتي هنا أن سلوك الأسير اليهودي التعس

كان حميدا إلى أبعد الحدود. فقد توجه عند دخولنا إلى الشيخ وحياة تحية عربية، تمثلت في لمس يده وتقبيلها، كما لو أنه كان هو نفسه شيخ قبيلة وليس يهوديا شقيا، يتلقى ركلات المسلمين في كل مناسبة. إلا أن بساطة هذه القبائل الصبيانية كبيرة جدا إلى درجة أنها لم تكن مناسبة إلا في نظري. وبعد ذلك جلس اليهودي، دون أن يأذن له احد بذلك، في وقار ملكي فوق المقعد القديم، وهو الشيء الوحيد، الذي كان يرتفع فوق أرض الغرفة بكاملها، مع اني كنت أنا قد رفضت الجلوس فوقه تواضعا، فاعتلاه وكأنه ملك فرعوني فوق مجموعة من العبيد الجالسين فوق الأرض.

كان منظره عجيبا رغم قبحه الوحشي. ولكن العرب لم يشعروا بهذا أيضا. والظاهر أن المقعد الشبيه بالعرش، الذي جلس فوقه اليهودي، لا يمثل في أذهانهم أية فكرة عن الفرق بينه وبين من جلس القرفصاءفي المرتبة.

وقبل أن يواصل الشيخ حديثه معنا قدمت لي ثلاثة فناجين من القهوة المرة غير المصفاة، التي لابد منها عادة في المنازل الإسلامية الراقية، فأرتشفها بلذة كبيرة، إذ لم أكن قد تناولت في هذا المشروب البني اللطيف قطرة منذ مليانة، وشعرت عندئذ كيف أن العوز يجعل حتى لأكثر خيرات المدنية ابتذالا قيمة في نظرنا.

وكان الصبائحي قد أشار بطلب مني إلى الجوع الذي كنت أعاني منه وحينئذ تلقيت خبرا ممتعا، وهو أن الشيخ قد أمر بأن تعد دجاجة لغذائي.

وحضر الطعام الذي وعدت به فترة قصيرة من الانتظار، وكانت الدجاجة المطبوخة مغلقة في رغيف من الخبز وموضوعة في سلة مزخرفة، تقوم مقام الطبق. وكان الخبز من ذلك العجين الحامض المزيت الذي كنت قد عرفت في الأمسية السابقة أنه لا يأكل. ولهذا كان أخذ كفايتي من

الطعام مقتصرا على الدجاجة إلا أن هذه للأسف كانت بطريك حظيرة الدجاج، فكان لحمها عبارة عن خيوط تشبه الجلود أو الحبال، مما جعلني لا آكل منها إلا القليل وأتأسف عليها، فقد كان ينبغي أن يتركوها تعيش رغما عن أحفادها إلا أن العرب يفعلون هذا دائما، فالدجاج لا يحصل على حقه في الذبح إلا إذا تقدمت به السن وضعف. ثم إن اللحوم كلها تهيأ بعد الذبح مباشرة وتطبخ خلال مدة قصيرة تبقى نية إلى حد ما. وفي النهاية خطرت للشيخ فكرة طيبة وهي أن يقدم لي طاسة من اللبن المحبوب في طول البلاد وعرضها فسررت بذاك لحاجتي إليه.

وكان مضيفي شيخ أولاد يحي، في حوالي الستين من عمره، ولكن هذه السن لم تمنعه من أن تكون له ثلاث زوجات شابات، وزوجات هذا الشيخ هن الوحيدات من بين نساء قبيلة أود يحي اللواتي لا يشتغلن في الحقل، وحياتهن تشبه إلى حد ما حياة حضريات الجزائر، أعني أنهن يستسلمن للفراغ الحلو، ويحببن نعيم الحمام كل الحب، ولذلك أمر الشيخ ببناء حمام لهن : رفاهية فريدة بالنسبة لمنزل رئيس من رؤساء البدو. وقد شاهدت في تلك اللحظة زنجيا ماردا في موقد الحمام يهيئ للجميلات متعة الاستحمام اليومية المحبوبة.

ومن الفندق، وهذا هو اسم موطن أولاد يحي، قمت برحلة إلى الآثار الرومانية المجاورة، التي يطلق عليها العرب اسم «الزدين»، وترى فيه بقايا قناة جلبت فيهاالمياه قديما من جبل عريب المجاور، وكذلك مقبرة تعود ولا شك إلى العهد المسيحي ولم يرد اسم هذا المكان الروماني في أي نقش من النقوش. ولكني أعتقد أن «الزدين» بناء على موقعه هو «غارها» التي ذكرها بطليموس، فهي تقع على بعد قليل شمال غربي المدينة الجديدة. ولم يرد ذكر «غارها» في خريطة أنطونين، لأنها لم تكن واقعة على ضفة النهر ولأن طريق الرحلة كان محاذيا للشلف.

وعلى بعد ساعة من وطن شيخ أولاد يحي قابلتنا مستعمرة أروبية، أنشئت 1857 عند مصب وادي الروينة، وهو جدول صغير بين حقول السنابل الذهبية، دون أن نلمح شجرة في وجهة اليمن واليسار على السواء باستثناء شجيرات الصبار الكبيرة، التي كانت تقطع بحر السنابل الأصفر، وهي ذلك النوع الذي تدعى ثماره الصبار البربري، ويسميه العرب «كرموس النصارى» إن الصبار لا ينمو قرب مدينة الجزائر على جانب الطريق إلا بشكل شجيرات، أما هنا فهو عبارة عن حدائق أو بساتين ويتخذ شكل الأشجار الكبيرة ويشبهها. وهذه البساتين مربعة الشكل بصورة منتظمة، وتشكل مكعبات خضراء غامقة ساحرة ألقيت في هذا السهل الأصفر المضيء. وكانت هذه البساتين الشاكئة المتشابكة قد تزينت في ذلك الوقت من السنة ببراعمها الصفراء الشبيهة بالأجراس، التي تخرج بلا ساق من الورقة السميكة مباشرة. وكانت ثمة أزهار زرقاء، تطل من بين الأوراق، تخلع على البساتين الصبار منظر ساحرا وبعدأن تركنا وادي روينة خلفنا بساعات، عثرنا من جديد على آثار رومانية والأهالي يطلقون على المكان الذي توجد فيه اسم » تمولغة« . وتقع » تمولغة« في الضفة اليسرى للنهر، وترى في مقابلها بالجهة اليمنى بقايا بنايات رومانية في موضوع يسميه العرب وادي الطاغية.

ويبدو أن سهل الشلف كان طريق الجيش الروماني. فيه كان يمر الطريق الرئيسي الرابط بين موريتانيا ودلس عبر مليانة. ولا أظن أن الإنسان سيخطئ إذا بحث عن الطريق الواصل بين قالمة ومليانة دلس عبر « مينة »، الذي ذكر في خريطة أنطونين، على امتداد مجرى الشلف في هذه الناحية.

وحين نطبق ما جاء في خريطة الطرق نجد أن وادي الطاغية هو مدينة تيغافا المذكورة عند أنطونين، وتغافي المذكورة عند بلينيوس. فالخريطة

تحدد المسافة بين تيغافا مونيسبيوم (ولا ينبغي الخلط بينها وبين تيغافا كسترا) ومليانة بخمسين علامة. وبما أن وادي الطاغية يبعد عن مليانة بحوالي 70 كم أو حوالي عشرة أميال ألمانية، فإنه يوافق ما جاء في خريطة الطرق تماما فالمعروف أن خمس علامات من علامات الطريق تساوي 7 كم على التقريب.

ومن غير المحتمل أن تيغافا التي ذكرها بطليموس هي تيغافا التي وردت في خريطة الطرق، لأن الأولى تقع في الدرجة الثالثة شرق مليانة (وهي مليانة عند بطليموس) في حين أنها تقع على بعد ثلاثين دقيقة، في الغرب منها. غير أن بطليموس يذكر » فيغي« الواقعة غرب مليانة على بعد خمس وثلاثين دقيقة، ولعل هذا الاسم تصحيف لاسم تيغافا.

وقد ذكر غيسينيوس أن تيغافا كلمة فينيقية في الأصل وتعني » بيت بعل« وكانت تيغافا في عهد موريتانيا المسيحية مقاما لأسقف، وقد جاء ذكرها على هذا الأساس. (أنظر، موتشلي، إفريقيا المسيحية، بربكسي (1816) وقد نسيت أسماء ثلاثة من أساقفها.)

كان الشلف ضحلا في هذا الموضوع، ولذلك كان في السهل على أن اجتازه بحصاني لمشاهدة آثار الطاغية في الجهة المقابلة. وكانت هذه الآثار عظيمة بالفعل، تدل على أن تيغافا القديمة لم تكن أقل أهمية من غيرها. وكان الرصيف المبني على النهر من حجارة مربعة لا يزال كما هو تقريبا، ولم يكن من الصعب التعرف على المقبرة. أما القناة الرومانية فقد بقيت على أحسن حال، ولا تزال إلى يومنا هذا تجلب المياه من عين سلطان الواقعة شرقا على بعد ميل واحد.

والغريب أن العرب يسمون هذه القناة قصر بنت السلطان. وهذا الاسم معبر إلى أبعد حد، بحيث إنه لابد أن يكون، مثل الكثير من أسماء الأماكن

العربية، موضوعا لأسطورة. وليست بنت السلطان، التي تسكن القصر، سوى عين، ولكن ألا نجد الخيال الشرقي ينظم غرر الشعر في العيون والآثار، التي يعتبرها الشرقي في أي مكان حل أثمن شيء وأحبه إلى نفسه ؟ فهل نعجب إذا أن رفع العرب عينا إلى مقام سلطانه أو بالعكس، حولوا سلطانه إلى عين ؟ وإذا أضفنا إليها الآن أميرا طريدا، ابن ملك حضري، أو شيطان جبل « دوي » يحرر بنت السلطان الأسيرة في القصر الكبير ويتزوجها، فإن الأسطورة تكون كاملة.

بعد أن ابتعدنا عن الفندق بأربع أو خمس ساعات وصلنا إلى مخيم قبيلة أولاد قيصر حيث قضينا ليلتنا. وكان هذا المبيت أيضا غير متوقع، لأن المكتب العربي في مليانة لم يخبرنا بذلك حتى نستعد له. فقد كان المفروض في برنامج رحلتنا أن نصل إلى الأصنام بعد يومين وألا نقضي الليل إلا مرة واحدة عند بني يحي. غير أننا تأخرنا منذ البداية بسبب سلوك اليهودي، وتغيرت محطاتنا كلها. ولم يهتم رفاقي طبعا بما نتج عن ذلك من متاعب بصفتهم عربا، أما بالنسبة لأوروبي شقي مثلي، فلم يكن الأمر كذلك، إذ كان يهمه أن يعرف هل سيقضي ليلته فوق الأرض الصلبة يصارع فيها الحشرات حتى الصباح أم لا.

ولابد أن تكون قبيلة أولاد قصير، حسب ما يبدو لأول وهلة، أقفر بكثير من قبيلة بني راشد فقد كان من المؤكد ألا أتناول طعام العشاء لو أني لم آخذ حذري وأشتري من معمر في وادي روينة شيئا من اللحم المملح وزجاجة من الخمر. وعندما بدأت أتناول طعامي بين البدو في « خيمة الضيوف » العامة، وأبرد عطشي، بالمواد الغذائية الأوروبية، شاهدت بسرور ما أثارته هذه المواد الغذائية بين المسلمين من ضجة. فقد كان اللحم لحم أقذر الحيوانات وهو الخنزير، كانت الخمر شيئا مرعبا بالنسبة للمسلمين. وكانت نتيجة اشمئزازهم من أكل لحم الخنزير الكافرأن أيا منهم لم يرد

النوم بجانبي، وهو أمر سررت له، لأن الفراش لم يضق بي على الأقل ولو أنه لم يكن مريحا!

وبدأنا رحلتنا في الخامسة صباحا وأخذنا طريقنا مثل اليوم السابق على امتداد الوادي، وقد أراني مرافقي مكان الحادثة التي وقعت في الشلف، وهي حادثة غرق بدوي في هذا الوادي القليل المياه. وكانت ضفاف الشلف على الدوام محاطة بالأحراش القصيرة، فكنت أبحث عبثا عن شجرة، بل عن نبات آخر غير نبات الصبار الشائك. ومع ذلك فإن لهذه المنطقة جمالها. فقد كانت فخامة الأفق في الجنوب الممتع كالذهب وروعة الألوان المختلفة المتناسقة تخلع حتى على الصحراء نفسها سحرا لا يقاوم.

فهذه السماء الزرقاء الغامقة، التي تتخللها هنا وهناك سحابة وردية راعشة، وهذا الضباب البنفسجي، الذي يتصاعد من سهل الشلف صباحا وينساب في الأفق، كالثياب الرافلة، أشباحا كبيرة لا يكاد يتصورها الوهم والسهل الغني بالقمح، الذي يتخذ لونا ذهبيا تحت أشعة الشمس، ولونا أصفر باهتا تحت ظلال الجبال، التي تؤطر الوادي، حينا ورماديا آخر ثم أخضر حسب شدة الظل وقوته، فيغير لونه كالحرباء مائة مرة في لحظة واحدة وعمود الرمال، التي أثارتها الرياح الجنوبية، وقد التهب تحت أشعة الشمس بمثابة لسان تين مشتعل، يهدد الحقول بالدمار، في حين تبدو المنطقة كلها من خلال قناعها في ضوء جديد رائع، كأنها قد غمست في فوهة بركان مشتعل وراحت بذرات حارة من نويات الأرض السائلة الملتهبة، وهذه السحب التي تغطي الشمس للحظات، فتبدو الطبيعة في ضوء يصب عليها من قبة معتمة قليلا : كل هذه الصور كانت تكون منظرا واحد لأحد لروعته. فكان التنوع في الألوان والثراء في الأصباغ، التي لا يحلم بها الشمال، كان يعوض السهل الجنوبي، الذي يبدو رتيبا، عن الحدائق الاروبية المنسقة التي تنقصه.

الفصل الثامن

الأصنام

المدينة الفرنسية الجيدة. - نادي الضباط. - مونشها وزن إفريقي. - آثار الأصنام الرومانية. - آراء أثرية خاطئة. - ديار برنارد. - كاستروم تينغيتي. الفسيفساء. - الفروسية.البدويات. - الراقصات. - الباش آغا المفرنس. - الفتاة البدوية.

لا يزال سهل الشلف كله تقريبا بأيدي العرب. وحقول القمح الخصيبة تساهم كلها في ثراء الأهالي، ولكنه طبعا ثراء ميت، ذلك أن المال الذي يبيعون به قمحهم، يدخر أو يخبأ بحيث لا يستثمر مطلقا. وقبائل الضفة اليسرى خاضعة لباش آغويه جندل التي تنقسم بدورها إلى آغاوية بني زقزوق والونشريس. ويقع على الضفة اليمنى أغاوية براز المعتبرة، وهذه القبيلة من أكبر قبائل هذا القسم من إفريقيا، وكان لها في الماضي نفوذ كبير. وتتفرع هذه الأغويات إلى عدد كبير من القبائل المتفرقة منها بنو عبد الآن وأولاد قيصر، وخيامها على الطريق الرابط بين وادي روينة والأصنام. وقد شاء طالع سعدي ألا أكون في حاجة إلى ضيافة هؤلاء الناس، لأني وصلت إلى مدينة الأصنام الفرنسية الجديدة في منتصف نهار اليوم الثالث من بداية رحلتنا.

ومدينة الأصنام لا تمثل، خلافا لأغلب الأماكن الجزائرية الأخرى، مدينة عربية ما، كانت تقع هنا في السابق. فقد بناها الفرنسيون في موقع محطة رومانية قديمة، وتحتوي الآن على حوالي أثنتى عشرة دارا من بينها ثكنة تشبه القصر. أما بقية البيوت فلم تكن سوى بنايات خشبية حقيرة. ومع ذلك فإن لهذه المدينة الصغيرة ساحتها العامة وحديقتها، وطرقها العريضة المشجرة على ضفة الشلف، وأشجارها هي الوحيدة في السهل،

ولها فنادقها ومقاهيها، ودكاكينها، ومسرحها الصغير أيضا، باختصار جميع مرافق المدينة الفرنسية الحديثة. وكان منظر سكانها رتيبا إلى حد كبير، لأنها كانت كلها تقريبا لكتيبتين من المشاة، فكان الإنسان يرى سروالا مدنيا واحدا بين عشرة سراويل عسكرية حمراء.

وفي فندق أوروبا، الذي نزلت فيه لم ألتق إلا بالضباط، أما في مقهى أوروبا فلم أر سوى المئات من الجنود البسطاء. وكان منظر المقهى غريبا، فلا يرى المرء فيه على اتساعه غير هذه الكائنات المرتدية للبزة العسكرية. فمنظر الواحد منهم شبيه بمنظر الآخر، وأمامه نفس الكأس التي يشرب منها غيره وكل واحد منهم يتعاطى الأبسنت، اجل لقد خيل إلي أن لهم جميعا ملامح واحدة. وقد بدا عليهم كلهم أنهم يفكرون في شيئين، وهما الخبز والأبسنت ثم الأبسنت والخبز!

واستطعت بواسطة ضباط المكتب العربي أن ادخل إلى نادي الضباط، الذي يقوم هنا مقام المقهى، فتعرفت على ضباط غريبي الأطوار. فقد كان يبدو أن من عادة هؤلاء السادة أن يحدثوا السائح الأجنبي الذي قاده الفضول أو الرغبة في الصيد إلى الأصنام، عن بطولة أهاليها الذين يتقلدون السيوف، ويرووا له اغرب قصص الصيد، وهكذا رويت لي قصص جنونية من بنات الخيال، لم يسبق لي أن رأيت من أتى بمثلها من الناس الذين يجدون في روايتهم ويحتمون على مستمعيهم أن يكونوا جادين أيضا. وقد امتاز في هذا ضابط ضخم الجثة، أحمر الأنف، أشقر الشارب، وفاق غيره في تباهيه وادعاءاته. ومما رواه لي مونشهاوزن[1] الإفريقي هذا أنه تصدى ذات مرة لثلاثمائة من البدو المهاجمين بمفرده وقتل قسما كبيرا منهم وقطع مرة أخرى على ظهر جمل مسافة 80 مرحلة، أي حوالي 290 كم في أربع عشرة ساعة، وكانت الأسود الجائعة تطارده، قتل منها سنة

(1) بارون الماني (1720–1775) اشتهر بقصصه المختلفة. (المترجم).

وغنم جلودها وعندما لاحظت قائلا لابد أنه كان يتمتع بقدر كبير من رشاقة القد في ذلك الحين، روى لي مونشهاوزن الإفريقي هذا أنه كان في السابق رشيق القامة، ولكنه سمن بعد أن طلى جسده بشحم كلية فهدة، كان قد قتلها، ومنذ ذلك الحين أصبح لا يستطيع أن يحول دون تزايد ضخامته إلا بواسطة تعاطي الأبسنت. وكان يبدو عليه أنه يعرف سلفا كيف يتعاطاه. وقد انتشر هذا المشروب بين أفراد الجيش الفرنسي في إفريقيا انتشارا هائلا. ففي إمكان الإنسان أن يرى، في أية ساعة من ساعات النهار، الضباط والجنود يتعاطون هذا المشروب الأخضر المر في مختلف المقاهي. وقد قال الأطباء إن الإكثار من الأبسنت مضر ولكنهم لن يستطيعوا أبدا القضاء عليه في الجزائر. إن شعار الجيش الفرنسي في إفريقيا هو الأبسنت ثم الأبسنت ويقلده في ذلك المدني بل حتى العربي حين يريد أن يعصي أوامره.

إذا كان مسلمو إفريقيا قد أظهروا قليلا من الفطنة في اختيار مواقع مدنهم فإن الرومان، سادة البلاد في القديم قد برهنوا على ذكائهم قبلهم. فلم يكن في الإمكان أن تغيب عن أذهانهم، وهم سادة العالم، صلاحية موقع كموقع الأصنام الحديثة. إن هذا المكان الذي يحتل مركز أخصب سهول الجزائر عند ملتقى الوادين، وادي الشلف ووادي تيغون،الذي يصب فيه، قد كانت له أهمية في العهود القديمة، كما تدل على ذلك هذه الآثار الكثيرة التي تعود إلى العصر الروماني. وبما أن العرب لم يستقروا في هذا الموضع فيما بعد فقد سلم الكثير من بقايا البنايات، ولم يستعمل في البناء، مما جعل الأصنام أغنى بالآثار من بعض المدن التي كانت لها أهمية في الزمن القديم.

ولكن ما هو اسم الأصنام الروماني ؟ إن هناك نقشا على قبر الأسقف ريباراتوس، الذي ينظر المؤرخون الفاشلون إلى عهده على انه عهد اجتماع

زعماء الكنيسة سنة 411 بقرطاجنة، حاول البعض أن يستدل منه على أن الأصنام هي سولفسار القديمة وأن ريباراتوس المذكور، الذي حضر اجتماع قرطجنة هو أسقف سولفسار.

وقد دافع عن هذا الرأي » ديبيش« ، أسقف الجزائر المعزول، إلا أن البحث لم يلبث أن أثبت خطأ هذا الرأي. فقد جاء في خريطة أنطونين أن سوفلسار تقع شرق مليانة على بعد 18 ميلا رومانية، وتقع الأصنام على بعد 60 ميلا غرب المدينة المذكورة. خطأ صغير مقداره ثمانون ميلا يضاف إلى ذلك أن الدليل الزمني العسكري قوي جدا فنقش القبر فوق لوحة فسيفساء الأصنام الشهيرة يحدد وفاة الأسقف ريباراتوس بسنة 436. فلو كان هذا التاريخ ميلاديا الم يكن من الطبيعي أن يعنى إذا أن الأسقف، الذي حضر اجتماع 411 بقرطاجنة، قد عاش حتى سنة 436 ؟ غير أن ديبش الطيب لم ينتبه إلى الحرفين أ.ب (أنوبروفينسي)سنة المقاطعة)، لا التاريخ الميلادي، والمعروف أن هذا التاريخ يبدأ بالسنة التي ضمت فيها موريتانيا إلى الإمبراطورية الرمانية، أي سنة أربعين بعد المسيح. وعلى هذا الأساس فإن وفاة ريباراتوس كانت في سنة 476 بعد المسيح. وهذا سوف يجعل العمر الذي عاشه الأسقف المذكور، إذا اعتبرنا أن العمر المتوسط للوصول إلى منصب الأسقف يتراوح بين الثلاثين والأربعين، فوق المائة سنة، إلا أن أغلب الأساقفة يصلون إلى هذا المنصب في سنة الخمسين وما فوقها. ويضاف على هذا أن سوفسار القديمة تمثلها عمورة الواقعة شرق مليانة.

وهناك من يعتقد حديثا بأن الأصنام هي على التأكيد ستيلوم تنغيتانوم التي وردت في خريطة أنطونين، إلا أن هذا الرأي لم تؤيده حتى الآن ادلة أثرية أخرى غير ما استمد من مقدار المسافة المحددة فوق لوحة المحطة.

وقبل مدة قصيرة اكتشفت في مكان غير بعيد عن الأصنام بين هذه المدينة وقرية المعمرين التي أنشئت سنة 1848 وتدعى بونتيبا (أم الدروع) وهي قرب ما يسمى بديار بيرنارد، آثار مدينة رومانية هامة. وموقع هذه الآثار يتفق مع موقع الأصنام الحديثة مثلما يتفق مع موقع كاستروم تينغتي. وهناك سبب آخر يحملني على ألا أبحث عن كستروم تبنغتي في الأصنام. فالنقش الذي عثر عليه في الأصنام سنة 1856 يتحدث عن تدمير هذه المدينة من طرف فيسقا (والمرجح أنه ثائر موريتاني) وعن إعادة بناء هذا المكان المهدم واتخاذه مستعمرة من طرف القيصر باليريانوس في السنة الثانية من حكمه (55 ق.م) إن الأسمين، مدينة ومستعمرة، يدلان على غير ما تدل عليه كلمة قلعة. فنحن نعرف أن لفظ كاستروم وكاستيلوم لا يطلق إلا على الحصن. ويغلب على الظن أن الذي هدم المدينة لم يتجرأ على تدمير الحصن الذي بجانبها. وهل من المحتمل أيضا أن يتمكن جلف مثل فيسقا، وهو قائد ثورة لا قيمة له، لان التاريخ لا يتحدث عنه في مكان آخر من أن يستولي على قلعة رومانية بسهولة ؟ إن ديار بيرنار تشير إذن كما يستدل على ذلك مما سبق، في أغلب الظن إلى موقع كاستيلوم تنغيتانوم وتشير الأصنام إلى مستعمرة نجهل أسمها. ومما يؤكد هذاأيضا أن النقوش التي عثر عليها في الأصنام تعود كلها إلى عصور القياصرة المسيحيين، وترجع تبعا لذلك إلى تاريخ أحدث من تاريخ 255، ولو كانت قلعة رومانية، وإن تم تدميرها بقوة، لتركت لنا الكثير من الآثار التي تعود إلى العصر الذهبي لرومة، وهو عصر ما قبل المسيحية. والحقيقة أنه لم يعثر حتى الآن في ديار برنارد إلا على الآثار المسيحية تقريبا غير أن الحفريات التي جرت هناك لا تزال جديدة جدا، ومن هنا نستطيع أن نستنتج مما اكتشف حتى هذه اللحظة خلوها من النقوش التي تعود إلى العصر الوثني.

لقد أطلق العرب على المكان الذي بنيت فيه (أورليانقل) اسم الأصنام بسبب تراكم الأنقاض القديمة، التي تحتوي على تماثيل إنسانية أو حيوانية، تبدو وثنية، مع ان أصولها كلها مسيحية.

وتتمثل حلية الأصنام الرئيسية في الفسيفساء السليمة التي كانت قديما تغطي أرض كنيسة مسيحية. وتوجد اليوم في مكانها الأصلي بالخلاء، والميدان الذي سمي بأسمها » ميدان الفسيفساء« . ومن بين النقوش الخمسة الموجودة فوقها نقش لقبر الأسقف ريباراتوس المذكور سابقا ثم نقشان لقسين من قساوسة الكنيسة. أما النقشان الباقيان فيحتويان على حروف كتبت بصورة مختلفة، من مضامينها كلمات سانكتا اكليزيا (الكنيسة المقدسة) والقس ساتورنينوس.

وقد بني المستشفى العسكري الحديث في موضعها واستعملت في بنائه بعض حجارة كنيستين أخريين. وعثر في كنيسة رابعة على نقوش تمجد بطرس وبولس.

وبما أني قد انتهيت بسرعة من مشاهدة آثار الأصنام فقد قمت برحلةمع قس فرنسي، يتميز عن رفاقه الأغنياء بمعرفته الأثرية، إلى ديار برنارد السابقة الذكر لمشاهدة آثار كاستيلوم تينغتانوم.

وكانت الآثار متراصة فوق بعضها بعضا بحيث تكون منها تل يشبه جبل تيستاتشو الذي نشأ عن الردم في مدينة رومة العالمية. وقد عثرت في مكان قريب من تلك الأنقاض على قبر عائلي جميل يعود إلى العصر المسيحي وكان خارجة نصف الدائري يحتوي على فسيفساء، تتضمن صورة أسد. وقد أدعى الآثريون الفرنسيون أنه شعار عائلي واعتبروا وجود دليلا على أن الرومان قد استعملوا الشعارات في عصور القياصرةالمتأخرة. وكان الكثير من النقوش خاصا بالأسر الأهلية المدفونة هنا. ويعود أحدثها

على سنة 475 ميلادية، وهذا يدل في نظري على أن كاستروم تينغيتي لم تعمر طويلا بعد احتلال الفندال للبلاد.

وقد نبنهني مرافقي العالم هنا إلى برهان جديد على مطابقة ديار برنارد لكاستروم تينغيتي : لقد ذكرت كاستروم تينغيتي في تاريخ ثورة فيرموس. وكان تيدوريوس، مساعد القيصر، الذي خرج عام 471 لمحاربةالمازيسيين والموزونين حلفاء فيرموس،قد اقام فيها قبل أن ينتقل إلى جبل أنكورايوس، الذي اعتصم به ذلك الثائر. ولا شك أن جبل أنكورايوس هو الجبل الذي يدعى اليوم جبل الونشريس. والواقع أنه كان في الإمكان فتح طريق عسكري مستقيم تقريبا بين ديار برنارد وجبل الونشريس.

وتقع كاستيلوم تينغيتي حسب أنطونين أغوسطي على بعد 72 معلما من مليانة، وتبعد الأصنام حسب القياسات الحديثة عن مليانة بـ98 ك م. غير انه في إمكاننا أن نستخلص الـ 72 معلما أو 100 ك م.إذا نحن لم نبحث عن كاستيلوم تينغيتي في الأصنام، وإنما نبحث عنها في ديار برنارد. أما بطليموس فإنه لم يذكر كاسيتيلوم تينغيتانوم.

ويبدو أن لفظة تينغيتي من نفس الأصل الذي ترجع إليه كلمة تينغين (طنجة). فقد ذكر غيرينيوس أن هذه اللفظة مأخوذة من اسم الإلهة الفينيقية ثانث.

ومن الأدلة أيضا، فيما يبدو لي، على أن الأصنام لم تكن كاستيلوم تينغيتي أن كاستيلوم لم تكن أسقفية. فهي على الأقل لم تذكر بهذه الصفة أبدا. أما المدينة، التي أقيمت فوقها الأصنام الحديثة، فالظاهر أنها كانت مقاما للأسقف كما يتضح من النقوش التي عثر عليها هناك ولكن كيف كان اسم هذا الأسقف ؟ إن أمره لا يزال غامضا تماما. ومع لك فإني أود أن أعرض هذا الرأي.وهو أننا نجد في قائمة أسقفيات موريتانيا

القيصرية اسم أسقفية أخرى مجهولة لدينا حتى الآن، وهي أسقفية بونكاريا. عن بطليموس يذكر بونوبورا الوقعة قرب فاغي (تيغافا، وتدعى اليوم وادي الطاغية) وموقعها الجغرافي يتفق مع موقع الأصنام الحديثة. وليس من المستحيل أن تكون بونوبورا هي بونكاريا. ونحن لا نعرف طبعا عن هذا المكان شيئا كثيرا باسمه هذا أو ذاك. فقد حفظ لنا التاريخ اسم أسقفين من أساقفة بونكاريا.

لقد أتيح لي خلال إقامتي بالأصنام أن احضر حفلة رائعة، أقامها البدو في حقل واسع، يقع غرب أبواب المدينة بمناسبة تنصيب الباش آغا لقبيلة جندل وقد استمرت الاحتفالات لمدة ثمانية أيام. وكانت قد ضربت خيام للعرب وأقيمت منصة خشبية للمشاهدين الأروبيين.

وكانت ألعاب الفروسية الشهيرة أبرز عروض هذه الاحتفالات، فرأيتها لأول مرة منذ إقامتي في الجزائر في أوج عظمتها. وألعاب الفروسية هي سباق الخيل لا بمعناه المعروف، لأنه ليس له هدف ينتهي عنده. فالفرسان يطلقون النار أثناء انطلاقهم السريع، بدون نظام، وهم يصرخون بشكل مرعب، ثم يحشون بنادقهم من جديد، ويصرخون مرة أخرى، ويطلقون النار ثانية وهكذا إلى أن ينال العياء من الفارس وجواده ويعتريها الدوار، فيوشك أن يقع كلاهما، وهو على التقريب نفس ما شاهدته سابقا في الشرق، وألعاب الفروسية هذه تسمى هناك « الجريد » بدل الاسم الإسباني « فانتازيا » المنتشر هنا. وألعاب الفروسية الجزائرية يعرفها اليوم كل باريسي من ميدان السباق حيث يقوم بها الأصلاء من بدو الجزائر، والألعاب التي قدمت هنا لم تكن في جوهرها تختلف عن ألعاب ميدان السباق، إلا أن عدد الفرسان كان اكبر بكثير،وكانت الفوضى أعظم والجياد أشجع وكان الفرسان في حركاتهم أكثر جنونا، والبرانيس اشد اهتراء، والسروج أكثر تمزقا والناس أوسخ، باختصار كان كل شيء ذا طابع مميز أصيل.



وكان قد حضر عدد من شيوخ المنطقة للمشاركة في ألعاب الفروسية فوق جياد جميلة أصيلة، وكانت سروج مطرزة بالذهب، أما البدو فقد امتطوا أحصنة عادية، فهي صغيرة الحجم، قبيحة المنظر ولكنها تمتاز بصمودها، وكانت لهم سروج متينة ولو أنها وسخة.

وجلس الجنرال والضباط الكبار في خيمة مزركشة بالمنصة، وقد دعيت أنا أيضا لأشاهد فيها السباق والرقص الذي عقبه. فبعد انتهاء الألعاب الأولى بدأت فتيات بدويات سافرات كما هي العادة يرقصن رقصات بطيئة تتخللها حركات جسمية رتيبة.

كان أغلبهن لا يستحق المشاهدة إلا أن هناك ثلاثا أو أربعا منهن كانت لهن تلك الحيوية التي لا نجدها إلا عند العربيات اليافعات. فقد كن ببشرتهن السمراء، وخدودهن الناعمة المليئة من غير إسراف، التي تضيئها مسحة ذهبية موردة، وعيونهن السود التي تطرف في حيوية فتكاد تنبعث النار منها، وبشعورهن السوداء المتماوجة كن، وهن طفلات الخيام الهوائية، يمثلن في نظري أنموذجا للمرأة، بالغ الفتنة، سريع الزوال، إن امرأة من هذه النوع، صورة كهذه من النار والظلام، لا تستطيع أن تحتفظ بجمالها إلا للحظة. فالرغبة الحادة، التي هي ما يتميز به نموذجا، لا بد أن تقضي على نعومتها وتناسق ملامحها بسرعة، وقد قضت عليها بالفعل. ذلك أن زميلاتهن قد بدأت الغضون، رغم شبابهن، تعتلي وجوههن فذبلن وهزلت أجسادهن. فالفتاة البدوية تهزل كلما تقدم بها السن في حين أن الحضرية كثيرا ما تتضخم مع تقدم سنها. الفتاة البدوية جميلة للحظة واحدة فقط، وهي في هذه اللحظة جديرة بأن تكون عروسا لأبناء الآلهة. كان في إمكان كل واحدة من هؤلاء النساء المتغضنات، اللواتي رأيتهن أمامي، أن تقول لنفسها : لقد كنت ذات يوم جوهرة جنسي كله، كنت

كذلك للحظة واحدة، ولعلي قد نلت في تلك اللحظة من الإعجاب ما لا يناله نساء الأرض مجتمعات ».

وبعد الرقص بدأ السباق من جديد وعادت طلقات البنادق تدوي، فانفجرت إحداها وجرحت بدويا جرحا خطيرا، وكثيرا ما يحدث هذا ولذلك لا يحظى بأي اهتمام.

وحمل الجريح جانبا، وبدا الرقص ثانية. فاستحوذت فتاة جميلة شابة على أنظار المشاهدين. وجاء باش آغا جندل الذي أقيمت الحفلة تكريما له إلى خيمتنا فسأله الجندال عن اسم الفتاة. وما كان البدوي الحقيقي ليجيب على سؤال كهذا إلا بالخنجر. ولكن الباش آغا الجديد كان من مخلوقات الفرنسيين التي مستها الثقافة العربية أو إذا شئنا الفساد الأوروبي ولذلك أجاب في أدب : إن اسمها فاطمة وأنها من قبيلته. وعندئذ أساء الجنرال إلى التقاليد العربية.

فقد طلب من الباش آغا أن ينادي الفتاة الجميلة. وكانت هذه الإهانة في عرف الكرامة الإسلامية موجبة للقتل. ولكن الباش آغا ابتسم ونادى الفتاة. فلم أستطع أن أتمالك نفسي من الدهشة، فقد كنت أعرف أن العربي الذي يقوم بعمل كهذا يعتبر في نظر أبناء قومه « قوادا »، وأنه ليس هناك كلمة أبلغ في الشتيمة من هذه، غير أن الباش آغا لم يكن مسلما صالحا. فقد حكم عليه السلمون الحقيقيون بأنه حرامي. « أو سامط » أو مكروه. وهناك مثل جزائري يقول إن الفرنسيين لا يختارون رجلا شيخا لقبيلة إلا إذا اجتمعت فيه هذه الصفات الثلاث!

وأقبلت فاطمة الجميلة تلبية لنداء الباش آغا، وكانت تتحرك بصورة طبيعية ومن غير كلفة كأنها قد قضت حياتها مع الجنرالات أو الباش أغوات. ومن هي هذه الشخصيات بالنسبة لها ؟ ليست هي بصفتها فتاة

سماوية الجمال أكثر قيمة منهم بكثير، وهي طبعا سماوية الجمال للحظة فقط، تظل كذلك بقدر ما يزهر فوق وجنتيها سحر الشباب، ليزول بالسرعة التي ظهر بها. ومع هذا فليس هناك قلب لا يخفق لها ويتمناها. وقد خطرت للجنرال خاطرة تافهةوهي أن يقدم لها كأسا من الأبسنت!

فقبلتها (قلما تكون الراقصات مسلمات ورعات.) رشفت منها رشفة برشاقة، ولطافة ونعومة،جديرة برحيق سماوي ولم تشرب إلا الشيء القليل، فالغريزة تعلم ابنة حواء الحقيقة ألا تفعل ما لا يليق بها. وأن الرشفات الكبيرة تخلع على الثغر منظرا قبيحا جدا. ثم وضعت الكأس في مكانها، وابتسمت ابتسامة ما كنت أتصورها ممكنة. لقد أرسل هذا الفم، الذي ظننت انه لم يغمس إلا بالنار وحرارة الشفق، ابتسامة لطيفة، وأية ابتسامة! بعدها أصبحت الابتسامات الأخرى تبدو لي، وهذا شيء اعرفه تماما، فوق أفواه البشر لمدة طويلة عبارة عن تكشيرة!

الفصل التاسع

تنس

قرطينة. – السفر بالعربة. – منطقة جرداء. – الهضبة الخصيبة. – جزيرة العشق. – خرافة عربية. – تنسان. – المدينة الرومانية. – المقبرة. – المدينة العربية. – لعنة الشاعر الدرويش. – أسوار تنس القديمة.

إن الميناء الذي يصل الأصنام بالعالم المتحضر، هو كرطينة أو قرطينة القديمة، التي سكنها القرطاجنيون قديما، ولعلها أنشئت في عهد سابق لعهدهم، وتدعى اليوم تنس ومقطع قرط الذي نجده في أسماء المدن القديمة، مثل قرطاجو، وقرطة، وقرطيلي، وقرطيغا، وقرطالياس وغيرها، يعني، كما يؤكد لنا علماء اللغات السامية، المدينة باللغة الفينيقية. ويرى بعض العلماء على العكس من هذا أن مقطع طيني من كلمة ليبية قديمة . ولكن على أي أساس ؟ هذا ما سيبينه لنا علماء اللغات البربرية، وربما يتم ذلك على يد النقيب هانوتو مؤلف قواعد اللغة القبائلية والطوارقية أما غسينيوس فقد اعتبر قرطينة، أو قرطين، كما يمكن أن تكون في اللغة الفينيقية، مثنى قرط (المدينة.) وعلى هذا كانت تدعى قرطين (المدينتين). فهل وجدت في القديم إذن تنسان كما هو الأمر اليوم ؟

لقد حددت خريطة أنطونيني آغوسطين المسافة بين قرطينة والقيصرية بسبعين معلما. والمسافة على الخط المستقيم بين شرشال وتنس هي 85 كم فقط في حين أن 70 معلما تعني 98 كم. ينقصنا هنا إذن 13 كم أو 9 معالم ونصف. إلا أننا في إمكاننا أن نحصل على 9 معالم ونصف إذا أخذنا بعين الاعتبار منعرجات الطريق الروماني الذي يمر على امتداد هذا الساحل الجبلي.

ويذكر بطليموس أن القيصرية تقع على الخط 2,30 شرقي قرطينة، غير أن الفرق في الطول الجغرافي بين شرشال وتنس لا يزيد عن 50 درجة. إذن فإن بطليموس كان سيوقعنا في الخطأ لو لم تكن لدينا خريطة أنطونيني التي نستدل بها. وبطليموس على العموم كثيرا ما يخطئ في قياساته المستقيمة.

ولا شك أن قرطينة كانت في العصر الروماني مدينة مهمة على صغرها. والواقع أن الإنسان يتعجب عندما يقرأ في كتاب بلينيوس[1] أن قرطينة كانت مقر الفرقة الثانية مثلما كانت لامبيزيس مقر الفرقة الثالثة. فهناك فرق، وأي فرق، بين لاميزيس الواسعة الغنية بآثارها وبين تنس التي لم تكن مساحتها، كما هو واضح اليوم، تزيد عن مساحة المدينة الفرنسية الحديثة الصغيرة، التي بنيت فوق مدينة الفرقة الثانية تماما.

قطعت المسافة بين الأصنام وتنس وتقدر بحوالي 55كم، بعربة متداعية، تقوم بهذه السفرة يوميا، فوق طريق معبد إلى حد ما في ظرف 5-6 ساعات وكان الطريق في البداية يمر بحقول القمح الكثيرة بسهل الشلف، ثم بدا يصعد منطقة جبلية جرداء، لا أثر للإنسان بها، ولا وجود لشجرة على امتداد البصر، ولا يسمع بها الإعواء بنات آوى من حين لآخر، وكانت الضباع تجوس بها.

وتحد من عزلة هذه المنطقة الجرداء، في منتصف الطريق بين الأصنام وتنس تقريبا، قريتان من قرى المعمرين، هما النخلات الثلاث والنخلات الخمس، وإحداهما قرية من الأخرى، وكثير من ديار هذه المراكز الشعبية، التي أنشئت بأمر من الحكومة، خالية وكانت البساتين التي جعلت أماها بصفة رسمية غير مغروسة والأرض تنتظر من يصلحها ويبدو أنها ستنتظر طويلا.

(1) غايوس كيكيليوس (حوالي 113-61)، من رجال الدولة الرومانية، ترك رسائل سياسية وثقافية (المترجم).

وينقسم سكان هذه المنطقة من الأهالي، الذين شاركوا في ثورة بومعزة إلى قيادتين، قيادة بني ميمة وبني حجة، وتحتوي الأولى على سبع قبائل والثانية على أربع ن ولكل منها شيخها.

وكان الطريق، الذي كان حتى تلك اللحظة يمر بالتلال المتعرجة، قد بدأ ينحدر نحو سهل عال يسقيه وادي علالة الذي ينبع من جبال الظهرة، فيضاعف من جمال منظره، خاصة وأننا كنا قد مررنا بمنطقة جرداء وهذا السهل خصيب ومعمور إلى حد ما. ولأول مرة منذ البليدة شاهدت أشجار التين والزيتون واللوز، وكذلك عناقيد العنب النحيلة الرشيقة التي تلتف بسيقان أشجارها في حب مثلما هو الأمر في إيطاليا السعيدة. إلا أن هذه الأشجار كلها كان موسمها قد انتهى فيما عدا شجر الأرجوان الذي كان لا يزال متحفظا بأزهارها الزرقاء البنفسجية، التي كانت ترف حول الأغصان كالطيور المزركشة.

والأرض في هذه المنطقة المباركة تحتوي، زيادة على الأشجار البرية وأشجار الفواكه، على كنز آخر وهو معادن النحاس، التي يعيش من مدخولها القسم الأكبر من أهالي تنس القريبة.

وعلى بعد حوالي سبعة كيلومترات منها وقفت بنا العربة في القرية الفرنسية الصغيرة افونتنوتب وهي منطقة خصبة ومسكن عمال المعادن المذكورة الكثيرين. وقد أسس هذا المركز بمقتضى المرسوم الوزاري الصادر في 17 نوفمبر 1855، وهو يتمتع، بالنسبة لقرى المعمرين في إفريقيا بازدهار غير عادي، وعدد سكانها 450 نسمة، ثلثاهم طبعا من سكان الجبال، وهذا العدد مرتفع نسبيا.

ومن هنا بدأ الطريق ينحدر، وشيئا فشيئا انبسط أمامنا سطح البحر الأبيض المتوسط الرائع بزرقته الغامقة، الذي يحتضن رأس تنس بصخوره

الكثيرة الناتئة في الجانب الشرقي، وكانت غلالة شفافة من الضباب تحوم في تلك اللحظة بجانب هذا الرأس الجبلي، فتبدو في أشعة الشمس فضية اللون، وتحتها يزرع الظل ألوانا بنفسجية. وقد رفعت على جانبي الجبل جزيرتان صغيرتان رؤوسهما الصخرية منطقة من أمواج البحر المالحة، وفي الغرب منه جزائر الحمام، وفي الشرق جزائر أطلق عليها اسم شاعري هو جزائر العشاق. ويغلب على الظن أن هذا الاسم الشاعري مرتبط في الأصل بحكاية حب مؤثرة والأساطير الأهلية تتحدث بالفعل عن عاشقين أشقاهما الحب، فأنهيا حياتهما جوعا فوق صخور هذه الجزيرة الجرداء.

تقول الأساطير إن ابنة احد ملوك تلمسان قد شغفت براع بسيط، وكان من المستحيل عليها أن تحظى بموافقة أبيها على الزواج من حبيبها. ولذاك قررا الفرار ولم يكن لهما في البلاد كلها مكان ينجوان فيه من غضب السلطان إلا إذا وصلا إلى الجزيرة، فعندئذ يكونان في مأمن، لأن تلمسان لم تكن لها سفن ولكن، كيف يصلان إلى الجزيرة ؟ لم يكن بالضفة كلها مركب واحد. فتوسل الحبيبان في يأسهما إلى أسماك البحر. وإذا بدلفين يقدم لهما ظهره ويحملهما إلى جزيرة العشق. وعاشا هناك يوما سعيدا، ولكن عذاب الجوع أقلق راحتهما في السماء، ولم يكن بالجزيرة أثر للنباتات. وكان في وسعهما أن يعيشا من صيد الأسماك، غير أن الدلفين كان قد اخذ عليهما عهدا ألا يمسا إخوانه من الأسماك كلها بسوء، وكانا قد أوشكا على الموت جوعا، عندما جاءت إليهما حمامة، طاهرة عفيفة، طائرة من جزيرة الحمام، وقالت لهما : «إذاأقسمتما لي، أيها الحبيبان، بأن تحافظا على عفافكما فإني أعدكما بأن أحمل لكما طعامكما يوميا».

فأقسم الحبيبان، وكانت الحمامة تحمل إليهما كل صباح ثمار الأرض. إلا أن الشيطان أغواهما ذات يوم فنقضا عهدهما، فانقطعت عنهما

الحمامة، وبقيا بدون طعام. فناما هناك متعانقين بضعة أيام إلى أن فقدا قواهما، فمات الحبيبان ،تركا الجزيرة العشاق اسمها.

وعندما نزلنا نحو سطح البحر لمحنا تحتنا شريطا فضيا رفيعا، وبالقرب منه كوم الأسوار الرومانية. إنها بيوت تنس البيضاء وجدرانها الرمادية، المدينة المزدوجة، فقد افترق هنا العنصر الأهلي والغربي، الشرق والغرب، وانعزل كل منهما عزلة تامة، بحيث إن كل حي يكون مدينة بذاتها. أما الحي الأهلي ن الذي يعلن عن نفسه بمنارته وبيوته الرمادية المتشابكة قبل الوصول إلى أسوار المدينة، بمسافة فيحمل اسم تنس القديمة. وأما تنس الفرنسية الجديدة فتنتصب فوق أنقاض تنس الحقيقة القديمة، قرطينة القرطاجنية الرومانية، وتقيم الدليل على أن الفرنسيين يحاولون أن يتتبعوا آثار حكام العالم القدماء، ولذلك فإن العرب لا يطلقون على مضطهدهم الحديث اسم الرومي عبثا!

وبعد حين أنزلتني العربة أمام فندق البريد بتنس، حيث يستطيع المسافر كما هو الأمر في كل مدينة جزائرية، أن يتمتع على الأقل بأسباب الراحة الضرورية التي وفرتها له المدينة الحديثة. ولكن الخدمات، التي تقدمها الفنادق الجزائرية، وهي فوضوية إلى حد ما، سيئة طبعا. فقد كانت هناك مثلا عجوز إسبانية تقوم مقام الخدم الغائبين، ولم تكن تعرف اللغة الفرنسية ولو أن عدم معرفتها لم يبرز بصورة واضحة، لأنها كانت صماء فكانت تجيب على سؤال يوجه إليها بلازمة : نعم نعم نعم (تكررها خمس مرات بطلاقة كبيرة). هذا كل ما كانت تعرفه من لغة بلاد الغال.

تقع تنس الحديثة على البحر فوق سهل عال، ارتفاعه 150 قدما يبدو منعزلا من جوانبه الأربعة. وجدران هذا المرتفع تكاد تكون عمودية فالجدار الشمالي ينحدر إلى البحر، والشرقي نحو السهل والغربي نحو هوة مليئة بأشجار الدفلى. أما في الجنوب فإن هناك طريقا كالسد يربط بين مدينة التل

وبين الأماكن الأخرى ويمتد من هناك على الجبل المعتم الذي تقبع عند سفحه المدينة العربية. وقد بنيت بعض أجزاء المدينة الحديثة التي يبلغ سكانها 1600، ثلثهم من الإسبان، وحامية من 500 جندي من أكواخ خشبية. والكنيسة نفسها عبارة عن بناية من ألواح. إلا أن هناك بنايات أروبية حجرية ترتفع سويا، ولو أنها للأسف من النوع المعروف الشبيه بالثكنات، الذي أصبح الآن بدعة في الجزائر. ولم يخطر بعد ببال أي فرنسي أن يقلد، في البنايات الجديدة، أسلوب البيوت العربية الجميلة التي بنيت في الجزائر بشكل يجعلها مناسبة للمناخ وغير معرضة لخطر الزلازل.

وقد ساهم بئر رماني قديم، أعيد حفره، في تزويد تنس الفرنسية بالمياه. فيما عدا ذلك فإن الآثار الرومانية في جملتها قليلة الأهمية إذا قيست بمدينة لامبيزيس، وقد كانت كخلاهما مقرا لفرقة رومانية. كان المفروض أن تكون آثار تنس هامة أيضا، غير أن لوحة الفسيفساء الواسعة التي عثر عليها حديثا هي أهم آثار قرطينة القديمة.

وليس هناك من شك في أن تنس الفرنسية الجديدة تنطبق على الرغم من أن الآثار التي عثر عليها ها هنا قليلة نسبيا، على المدينة الرومانية القديمة. فنحن نعرف من جهة أن قرطينة الرومانية كانت تقع فوق سهل عال منحدر من جميع جوانبه مثل تنس الحديثة، وأن موقع مدينة الفرقة كما جاء في خريطة أنطونين ووصف بلينيوس لها ينطبقان من جهة أخرى على هذه النقطة الساحلية. ثم إن النقشين اللذين عثر عليهما هنا، ويوجدان الآن بباريس، يؤكدان في النهاية حسب التفسير المعتبر عموما، الذي قدمه لهما ليون رنيير، أن قرطينة هي التي كانت تقع هنا وليست يوليا القيصرية كما ادعى مانير.

وأمام باب المدينة الغربي وجدتني فجأة في مقابلة دار الهوة الأجرد الذي كان يبدو أنه يمثل موضع المقبرة فقد لاحظت في هذا الجدار

الصخرى عددا من الغرف المربعة المحفورة بصورة منتظمة، يمكن أن نستدل من العظام البشرية، التي اكتشفت فيها على أنها كانت قبورا بكل تاكيد. ولا تدع التوابيت الكثيرةالتي عثر عليها في مغارات المقبرة أيضا، وأغلبها يعود إلى العصر المسيحي، مجالا للشك في موقع المقبرة، وهذا الجدار الصخري يكون جانبا من جوانب الهضبة الأربعة، التي كانت تقع فوقها قرطينة. ومن المؤكد أنها كانت فوقها بيوت، وهكذا كان بعض أهالي المدينة الرومانية، يسكنون فوق الغرف الصخرية. ولعل مساكن جنود الفرقة كانت فوق قبورهم الأبدية ومضاجعهم فوق مضاجعهم السرمدية. هكذا كان العصر المسيحي الأول، الذي تكاد القبور تعود كلها إليه، يحب أن يقيم بين الزمن والخلود وحدة غامضة. ويستنتج من القبور التي عثر عليها ها هنا، إن قرطينة كانت محدودة الاتساع، ومع ذلك فمن المحتمل أن عدد سكانها كان كبيرا بالنسبة لمساحتها.

والقطع النقدية التي عثر عليها في تنس تعود كلها تقريبا إلى عصر قسطنطين. ومن المؤسف لأنه لم يفعل شيء هنا بعين المكان لحفظ الآثار القديمة. ويحتوي متحف الجزائر بالمقابل على أربعة نقوش كانت قد اكتشفت هنا، وضعت لتخليد ذكرى نظار المدينة. وأحدها يتحدث عن الدفاع عن المدينة ضد هجوم قام به الباقاطيون (من المحتمل أنهم من قبيلة نوميدية)، وقد قاد هذا الدفاع مولسينيوس بن ماركس القيريطي. وكانت قرطينة في العصر المسيحي أسقفية، أشتهرت باسم إبيسكوباطوس قرطينيتانوس. وقد حفظ لنا التاريخ أسماء خمسة من قساوتها. وكان الأسقف الدوناتي روغاتوس القرطيني مؤسس طائفة خاصة،وكان لا يزال على قيد الحياة أيام شباب القديس أغوسطين. وكان فيكتور أسقف قرطينة في عهد كيزيش، وقد اشتهر بكتابه في الرد على الأريوسية فبرهن به على شجاعته الأدبية.

ويغلب على الظن أن قرطينة قد دمرت أيام الفتح العربي بحيث لم تقوم لها بعد قائمة، أو على الأقل لم يرد لها ذكر منذ ذلك الحين.

وتقع تنس القديمة، وهي المدينة العربية، على بعد حوالي ثلاثة آلاف قدم من ساحل البحر جنوب تنس الفرنسية، التي لم تبن فوق أنقاض تنس الحقيقية القديمة إلا في سنة 1843 . ولعل المدينة العربية الحديثة تمثل موضع لاقيط التي ذكرها بطليموس،وجميع سكانها الذين يبلغ عددهم 1200 من الأهالي. وكانت تنس القديمة في العصور الوسطى مركزا تجاريا نشيطا. فقد كانت قبائل الظهرة تبادل جلود حيواناتها، وصوف قطعانها، وتين أراضيها الجبلية، الذي اشتهر في ذلك الحين باسم تين مجانة، وعسلها وشمعها ببضائع الصناعة الأروبية، التي يعرضها عليهاتجار بيزا وجنوة والبندقية.

وبعد سقوط دولة بني زيان، الذين امتدت رقعة حكمهم من تلمسان وشملت تنس، وقعت هذه المدينة في قبضة القبيلة العربية الصميمة أولاد محال فأسست بها مملكة صغيرة مستقلة، كانت تشمل المدن المجاورة، مازونة، ومستغانم ومازغران والأراضي الواقعة بينها.وعاشت هذه الدولة الصغيرة حتى سنة 1517، وهي السنة التي أخضعها فيها عروج لحكمه، الذي كان يبتلع كل شيء.

ولسكان تنس سمعة سيئة بين أبناء قبيلتهم منذ القديم. فهم يصفونهم بالخبث والجشع والنهب. وهم مصيبون في الصفة الأخيرة، فقد كانوا في العصور الوسطى قراصنة مرهوبي الجانب.

وكان احمد بن يوسف قد ساهم أكثر من غيره في الإساءة إلى سمعة التنسيين حين خصمهم بهذه اللعنة القوية، حيث قال عنهم الشاهر الدرويش.

تنس مبنية على نحس (إشارة إلى معادن النحاس في المنطقة).

ماؤها دم

هواؤها سم

أبناؤها تعس

وبناتها أتعس[1]

ونحن نرى أن الشاعر الدرويش قوي ألهمة إذا كان الأمر يتعلق بالشتم والسباب.

إن تجارة تنس القديمة قد غطت عليها اليوم تجارة المدينة الفرنسية الجديدة، مع أن هذه قليلة الأهمية. فأصبحت مدينة تنس تشبه أميرة سقطت منذ مدة، وأهين شرفها، وتلوثت، وتقدمت بها السن. لقد أصبح منظر عاصمة بني محال القديمة حزينا هو منظر الانقاض والأوساخ والفوضى، قلما يعتر المرء على مثله في مكان معمور. كان السكان جالسين في ثيابهم المهلهلة الملونة (الثياب المهلهلة ملونة دائما!) أمام بيوتهم المتداعية، على وجوههم مسحة من جمال رغم الفقر الذي يعيشون فيه، وقد اختروا على فقرهم هذا مهنة راقية مريحة، وهي ألا يفعلوا شيئا!

أما القبائل التي تسكن في المنطقة المجاورة لتنس فإنها قد احتفظت بنشاطها التجاري القديم إلى حد ما. فأولاد يونس، الذين تنتصب خيامهم على بعد 15 ك م جنوب غربي تنس، لا يزالون على اليوم يبيعون العسل الفاخر مثلما كانوا في القرون الوسطى، ذلك العسل الذي كان يصدر من إفريقيا، ويصنعون الجلود أيضا كما كان الأمر أيام ازدهار تجارتهم مع الجمهوريات الإيطالية.

(1) وردت هذه الأبيات في رحلة شو كما يلي :

تنس مبنية على الدنس

ماها دم

هواها سم

واحمد بن يوسف ما يبيت ثم .

الكتـــاب الثالث

ولايـة وهـران

الفصــل الأول

مازونــة

ماي في شمال إفريقيا. - السفر من الأصنام إلى مازونة. - فعلة الأسير اليهودي البائس. - المبيت عند قائد قبيلة صبيح. - جبال الظهرة. - مازونة. - الضابط لوقا. - زوجته العربية. - أحمد قبيلة بني رياح. - شلال مازونة.

عدت من تنس إلى الأصنام، فأغراني فندق أوروبي مريح نسبيا بالبقاء بضعة أيام، فقد كانت أمامي سفرة تستغرق ثلاثة أيام لن أعثر خلالها على قرية أروبية. إن رجلا أروبيا مسكينا مثلي يحتاج قبل القيام برحلة افريقية أو بعدها إلى كثير من الراحة لما فيها من تعب. كان شهر ماي قد دخل في ذلك الأثناء، وهو مناسب للقيام بالرحلات مع أن بعض أيامه حارة جدا.

كانت الحقول لا تزال محتفظة بنظرتها، التي جادت عليها بها الأمطار الموسمية ولم تحرقها السموم بعد. كانت الأزهار لما تزل متفتحة، فاللبلاب الفضي يعرض أزهاره الحمراء البديعية، والسوسن ينشر براعمه الصفراء الزاهية على ضفة الجدول وحي العالم الأحمر وغيره تتشابك أغصانه فوق الأرض بشكل غريب دون أن تكون في حاجة إلى الماء لتخرج ما بقى من براعمها، والصبار يزهو بأزهاره الذهبية، والباهرة الأمريكية تعلو بسقيانها الكثيرة التي تنطلق خلال أسبوع واحد في الفضاء الذهبي، وأشجار الدفلى والرمان تتزين بأزهارها الحر. فصل رائع لم يكن في وسعي أن أختار أحسن منه ولذلك لم تلبث خطاي أن أخذت طريقها في هذه المرة في اتجاه مازونة هو نفس الطريق الذي سيقودني إلى مستغانم ووهران.

لقد أمرت في هذه المرة، حيث لا أعتمد في طعامي على الدجاجة العجوز والحامضة التي تدعى خبزا بأن يحمل أحد البغال بالمواد الغذائية،

دون أن أنسى عصير العنب الخالص، غير أن العطاء، كما يحدث غالبا في الحياة، يقدم لمن توفر له الرزق، أي أن الإنسان يجد كفايته حين لا تكون به حاجة إلى شيء.

وهكذا صادفنا خلال هذه الرحلة أفضل أشكال الكرم، ومن ثم لم يكن ما أخذناه معنا من مواد غذائية ضروريا مطلقا، ما عدا الخمر، فإنه لم يكن منها بد.

وكان الأسير اليهودي البائس مرة أخرى عضوا في قافلتي الصغيرة، وكان عليه أن يواصل سفرته إلى المغرب تحت ركلات المؤمنين، وكان يبدو أن ذلك مقدر له.

في صباح اليوم الأول كان سهل الشلف لا يزال يحيط بما بحقوله الغنية التي لا ظل فيها. وكانت جيادنا هذه المرة تسير على الضفة اليمنى بحذاء الوادي شيئا فشيئا ونقترب من جبال الظهرة الواقعة في الشمال الشرقي.

واستقبلتنا على اليسار قبة سيدي عبد القادر الجيلالي الذي يحتل وليا مكانة مرموقة في الجزائر. وكان بغالي، وهو مسلم صالح، قد اغتنم هذه الفرصة فحي الولي قائلا بصوت أحن: «صباح الخير يا سيدي عبد القادر!»

وأضحينا في وادي ورك، وهو واد صغير يصب في الشلف، فوجدنا أنفسنا في منطقة أولاد فارس التابعة لأغوية الأصنام. وعند الظهيرةاسترحنا قرب قبيلة صبيح بعد أن عبرنا وادي غزيدة الذي جفت مياهه.

وفي هذا المكان وقعت حادثة تمنيت معها لو أن اليهودي انفصل عن قافلتنا فقد كان الجو حارا وكنا، أنا وجماعتي، نشعر بعطش شديد، ولم تكن بمجرى الوادي الذي استرحنا قربه قطرة من الماء. فسألت مرافقي عما

إذا كانت هناك عين قريبة يعرفها احدهم. وعندئذ أكد لي شاب انه يعرف عينا وأعلن أنه على استعداد لجلب الماء لنا منها. كانت العين بعيدة جدا فلم يعد إلا بعد أن مضى من الوقت حوالي ساعة. وكم كان سرورنا عظيما عندما رأيناه مقبلا وبيده جرة من الماء الثمين، فانتعشت نفوسنا العطشى، لأننا سنبل شفاهنا الجافة بالسائل العذب. يا لها من غبطة وبهجة! ولكن كم كانت دهشتنا بالغة عندما رأينا اليهودي القذر الذي كان يمشي حافيا وكانت رجلاه سوداوين، يندفع فجاة نحو ذلك الشاب ويأخذ الجرة من يده ويدخل فيها قدميه اللتين تشمئز منهما النفس، قبل أن يفكر احد في منعه من ذلك ويشرع في غسلهما ولم يكن الوقت يسمح بجلب الماء مرة أخرى. وهكذا تحتم علي أن أخفف من عطشي بتعاطي الخمر القوية صرفة دون أن أشفي غلتي منها، أما العرب الذين يعافون الخرم، فقد ثاروا على ما فعله اليهودي وشتموه، وقرروافي النهاية أن يشربوا غم ما لحق الماء من وساخة قدمي اليهودي، وكانت عملية تألمت لها أعصاب معدتي. وراح اليهودي القذر يفتخر بأنه انتقم من حراسه بصورة فظيعة.

وقضينا الليل في قرية من قرى قبيلة صبيح، فاحتفى بنا قائدها سيدي احمد كما كانت تقتضي أوامر المكتب العربي، وأكرمنا حسب التقاليد العربية. وكان برج القائد يقع فوق ربوة يتراءى منها منظر شاسع بديع. وقضيت في شرفة البرج، وأنا ملتف في برنوسي، حوالي ساعة، أمتع نفسي بهذا المنظر الطبيعي، قبل أن يعد لنا المضيف العشاء. فشاهدت من هذه الشرفة مشهدا من أجمل مشاهد غروب الشمس التي تقدمها الطبيعة في الجزائر. كانت قمة الونشريس المغطاة بالثلج تلتمع بلونها الفضي المشرب بحمرة الشفق في الجنوب الغربي، كأنها حمرة جبال الألب بسويسرا. وقد قبعت في سفحة صخور الجبال المتوسطة السوداء، وكأنها هرم جبار يحرس كنز سنابل الشلف الذهبية وكانت الشمس الغاربة تخلع على

جدران هذه الصخور بحرا من الألوان المختلفة، التي يناقض بعضها بعضا، ومع ذلك تكوّن وحدة متناسقة. أما صفحة المجبل الكلسية التي كانت تضيئها أشعة الشمس في ذلك الحين، فكان لونها برتقاليا، وقد انتشر تحتها مزيج من الألوان المشربة بالحمرة القاتمة. وكانت الغابات التي انصبت فوق المنحدرات، تبدو مع انصباب أشعة الشمس فوقها ذات ألوان ذهبية غامضة. أما المهاوي وبطون الصخور فقد اتخذت لونا غامقا، فلا هو ازرق ولا هو أسود، ولكن بعض جوانبها كانت تبدو في لون ذهبي ناعم.

كان المنظر كله، عند تأمله بصورة سطحية، يشكل بحرا من الألوان الزرقاء والبنفسجية، تخالطها صفرة ناعمة. وكان شريط الشلف الفضي يتلوى من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وقد تخللت جنباته أشعةالشمس الغاربة، تلك الكرة النارية، وكان جبل دوي يرتفع في الجنوب على مسافة بعيدة، وقد تلفع بضباب رمادي أشبه ما يكون بصورة غامضةعن أيامنا الماضية، لا تعتلي سطح ذاكرتنا إلا في نواح معينة. أما في الشمال فكان يمتد متن جبل الظهرة الأسود الذي كان فيما مضى معقلا رهيبا لثورة بومعزة ويتلوى لمسافة بعيدة. فجعلته التواءاته هذه يشبه تنينا جبارا ينحدر نحو البحر الأبيض المتوسط في تعرجات وانحناءات كبيرة.

وأخرجني من هذه التأملات الممتعة صوت الصبائحي القوي الذي جاء إلي ليخبرني بأن ضيفه القائد في انتظاري. وتناول القائد، وهو شيخ مهيب يرتدي ثيابا بيضاء فاخرة، طعام العشاء معي ومع الصبائحي. يعني أننا جلسنا فوق الزربية حول قصعة خشبية، وتناولنا منها الطعام بالأيدي كما جرت العادة العربية. وكان العشاء يتكون من «الكسكسي» الذي هو ضروري بالنسبة لعرب المغرب، ويعتبر الأكلة الرئيسية، التي تزاحم عندهم أي طعام آخر أو تتضمنه. إن الكسكسي وعاء لكل غذاء سواء كان مرغوبا فيه أو غير مرغوب. وأساس الكسكسي ومقوماته كرات صغيرة لا تحصى

مصنوعة من دقيق القمح، والضيافة الحقة تتطلب دائما دقيق القمح. وقد اندهشت عندما قرأت في رحلة بورتن[1] إلى مكة والمدينة أن هذا الرحالة الشهير اعتبر الكسكسي ذرة. والذرة هي بالذات ذلك النوع من الحبوب الذي لا يصنع منه الكسكسي ابدا. وذلك لسبب بسيط وهو أن الذرة لا توجد بالمغرب كله اللهم إلا ما غرسه الأوروبيون حديثا. وبرغم هذا فإن المغاربة هم الذين قدموا الكسكسي لبورتن والكسكسى، وهومن نوع العجين الإيطالي، يكوم على شكل برج ويوضح فيه السمن والزبدة أو الحساء، ثم يسقى بالمرق ثانية. ويوضع فوق الكومة عادة البصل أولا ثم الفلفل وأنواع البهارات المختلفة والخضر أحيانا، ولا يخلو من اللحم أبدا، ويكون مصاحبا له بصورة رئيسية. وقد تكون هذه الملحقات من الخضر وغيرها قليلة أو كثيرة متنوعة حسب استطاعة المضيف. وكثيرا ما يصب اللبن أو الرائب فوق كومة الكسكسي. ويكلل ذلك كله عند الأغنياء بالزبيب وبالتين وشرائح البطيخ. ولم ينقص في هذه المرة أي مقوم من مقومات الكسكسي الذي كان لذيذا جدا رغم هذا المزيج الغريب.وقد شكرت ربي على أن مادة تلحق بالكسكسي أيضا في بعض الأحيان، لم توجد فيه، وأعني بذلك العسل الذي يشمئز الأروبي من وجود في اللحم وفي الحساء. كان لحم الخروف والدجاج متوفرا في هذا العشاء. وقد تولى القائد بنفسه بعد أن غسل يديه تقسيم الدجاج، وقدم لنا بيده أحسن القطع.

لقد أتاحت لي حادثة غريبة أن ازداد معرفة بالتقاليد العربية. فعندما كنا نحن الثلاثة جالسين حول الكسكسي، وبينما ابتعد عنا الآخرون في احترام كبير، دخل علينا فجأة شحاذ رث الثياب، واتجه إلى مضيفنا

(1) رحالة انجليزي شهير (1841- 1890) قام برحلات إلى الحجاز وإفريقيا الوسطى والشرقية واكتشف بحيرة تنجنيقا. (المترجم)

وجلس على جانبه دون أن ينبس ببنت شفة ومد يده الوسخة في نهم نحو قطع الدجاج التي وضعها القائد أمامنا فلم ينهره سيدي احمد. وبعد ان كاد الشحاذ يأتي على اللحم الذي كان أمام القائد مد أصابعه القذرة إلى القصعة التي كانت أمامنا، وتناول لقمة كبيرة من الكسكسي.

فانتابت الحيرة سيدي احمد ولكنه لم يجرؤ على تنبيه ضيفه الشحاذ إلى سلوكه المشين أو يوقفه عند حده. ومع ذلك فقد شعر بأن جليسا من هذا النوع لا يمكن أن يرتاح إليه الأوروبي ولهذا التفت إلينا وهز كتفيه، وقال معتذرا، وهو يشير إلى الشحاذ: «درويش. مهبول مرابط.» وبذلك قال كل شيء!

كان الشحاذ مجنونا أو اعتبر كذلك، وكل مجنون ولي بالنسبة للمسلمين! ولا بد أن يغض الإنسان الطرف عن ولي من هذا النوع ففي استطاعته أن يأتي من الأعمال المشينة، وهو يفعل ذلك فعلا، دون أن يستنكرها أحد منه، وكثيرا ما يختفي خلف لباس الجنون والقداسة ماكر خبيث. كان هذا الولي النموذج عاري الرأس، وكان شعره طويلا، وقد التف حول مفرقة العريض كأنه تاج أسود. أما وجهه فكان ينم عن الصحة والعافية وعن الوساخة أيضا. وكان في عينيه تعبير وفح، وكان يبدو عليه انه على علم بالأمتياز الذي يوفره له جنونه وقداسته في قلوب هذه القبائل المؤمنة بالخرافات والأوهام! لا شيء أروع من دور مجنون من هذا النوع. فالكل يحترمونه وفي وسعه أن يفعل ما يشا ولا يعتبر مجرما ولو ارتكب جريمة قتل، الكل يطمعونه ويتملقونه ويرهبونه. إنه أمير حقيقي بين هؤلاء الناس المؤمنين بالأوهام والخرافات.

وبعد أن انتهينا من الأكل جاء دور الخدم، خدم القائد وخدمنا، وفي النهاية دور اليهودي البائس الذي بدا عليه أنه لم يستطب الطعام العربي فاستعاض عنه بالخبز والبصل النيئ. وبعد الطعام قدمت لنا القهوة في

الفناجين الصغيرة المعروفة. وقد أفضت بنا جلستنا الهادئة بين الأكل والشرب إلى تجاذب أطراف الحديث، فتركت للقائد عمدا شرف إدارة الجلسة. وكان يعرف الثائر والبطل الشهير بومعزة، وكان له ما يرويه لنا عنه. وقد سألته عما إذا كانت المعزة التي رافقته، والتي تسمى باسمها، قد قامت بأي دور في القداسة الوهمية التي يخلعها عليه البدو. فأكد لي سيدي أحمد هذا وضرب لي مثلا على ذلك بالأبطال من الثوار جميعهم، الذين وجد بينهم من ترافقه دابة ومن ترافقه قطة، ومن ترافقه غزالة! كان مضيفي قد أصبح بعد أن اخمد الفرنسيون الثورة فرنسيا صالحا. أما قبل ذلك فقد كان متهما بتواطئه مع بومعزة. لقد كان طبعا حذرا في حديثه كله عن علاقته ببومعزة وكان رسميا يسب بكلمات لم يكن يحسن اختيارها دائما، هذا الذي تسلطن يوما واحدا، غير أن عينيه، اللتين لم ينل الكبر من بريقها، كانتا تنمان عما يحس به من ألم أثناء هذا الكذب الرسمي. لكم كان بوده أن يرسل جميع الفرنسيين إلى ذلك الماء الساخن الذي وعد القرآن به الكفار بعد حياتهم اللعينة، ليستحموا فيه أبدا!

لقد نمت في غرفة ضيوف القائد، واضطجعت فوق الزربية واستعملت كيس أغراضي وسادة، دون أن اخلع ثيابي، إذ من العبث أن يبحث الإنسان عن السرير حتى عند أثرياء البدو. فالعربي، كما سبق أن ذكرت، ينام في ثيابه في المكان الذي كان جالسا فيه بمحض الصدفة في المساء، وثيابه الفضفاضة تسمح بالنوم فيها دون إزعاج. أما بالنسبة للأوروبي الذي يرتدي ثيابا ضيقة، فإن ذلك مزعج للغاية، غير أن مبيتي عند سيدي أحمد كان فخما، إذا قورن بالليالي التي قضيتها سابقا في مخيمات البدو، مهما بدا غير مريح بالنسبة للأوروبي ، فقد كانت لي هنا على الأقل زربية نظيفة عوضا عن تلك الحصيرة القذرة التي نمت فوقها. ثم إن البيت كان في الإمكان غلقه ولم يكن كتلك الخيمة المفتوحة أبدا

والمعرضة لقسوة التغيرات الجوية. يضاف إلى ذلك أني سررت لكون عددنا في غرفة الضيوف لم يتجاوز أربعة أشخاص، وهم الصبائحي وثلاثة من السفر الدراويش الأولياء،ذوي البرانيس المرقعة المهترئة، الذين يفوزون طبعا بمكان الصدارة لما لهم من قداسة الطبع. أما الآخرون بما فيهم الأسير اليهودي البائس فقد ناموا في الحظيرة. لقد كانت لسيدي احمد حظيرة بالفعل. فخامة خرافية بالنسبة لشيخ من شيوخ البدو، فماشية العرب تبقى عادة في الهواء الطلق ليلا.

وفي الصباح التالي شعرت بيبوسة في أعضائي، فقد جعلتني صلابة الفراش فوق الزربية الخفيفة أحس بالأرض بقوة، غير أني استطعت أن أنام قليلا على الأقل، واستيقظت في الخامسة صباحا وكانت الشمس قد أشرقت في غلالة وردية من الضباب، فغسلت عيني أمام محياها في العين الفضية وألححت على رفاقي في مواصلتي الرحلة بسرعة.

وقادنا اليوم الثاني من مغادرتنا للأصنام عبر منطقة خصيبة من مناطق سهل الشلف، كانت مناظرها رتيبة. وعندما تركناها خلف ظهورنا، بدأت خطانا تتجه نحو مهاوي جبال الظهرة الصخرية. والظهرة عبارة عن سلسلةجبال منحدرة ذات منظر شاعري، تمتد من سواحل تنس إلى مصب الشلف.

كانت هذه الجبال معقل ثورة بومعزة الشهيرة، الذي تغلب عليه في النهاية بيليسير،الدوق مالكوف الحالي. والمعروف أن هذه الحرب قد انتهت بمأساة مريعة وهي إحراق أو خنق الآلاف من البدو بواسطة الدخان، كانوا قد التجأوا إلى مغادرة فريشيح في جبال الظهرة. وعاصمة جبال الظهرة هي مازونة التي يتراوح سكانها بين الألفين والثلاثة آلاف، وهي مدينة عربية خالصة وكنا قد وصلنا في المساء. وكانت مازونة الأولى من هذا النوع الذي رأيته في الجزائر والذي احتفظ بطابعه العربي ولم يشوه

بعد تناسقه الشرقي أي بناء أروبي. لقد كان أسلوب العمارة في هذه المدينة الداخلية طبعا أبسط وأفقر بكثيرمن الحي العربي في مدينة الجزائر إلا أنها في جوهرها من نفس النمط.

ودخلناها من الباب الجنوبي الذي سلمنا إلى شوارعها الضيقة التي جلس فيها سكانها الملتفون في البرانيس أمام أبواب بيوتهم المربعة، وأقبلوا ينظرون إلينا في فضول. وقد وجدوا تسلية في الأسير اليهودي البائس، الذي كان يقلص عضلات وجهه بقصد إثارة الرحمة والشفقة. وكان كثير من بيوت مازونة ذات الطابق الواحد، التي تغطيها السطوح، مبنيا من الحجر، وذلك يعني بالنسبة لمدينة تقع في داخل البلاد درجة عالية من العمران. فالإنسان لا يعثر عادة في داخل البلاد إلا على البيوت المبنية من الآجر. وكان الدهان الأبيض يخلع على هذه البيوت منظرا لطيفا ضاحكا.

ولم يكن يوجد في مازونة كلها عند وصولي إليها سوى أروبي واحد هو الملازم لوقا رئيس المكتب العربي، الذي أتاح لي أن أتفيأ ظل سقفه وحباني من لطف كرمه ما سوف يظل نقطة بيضاء في ذكرياتي عن رحلتي الإفريقية. وكان موقع مازونة فوق منحدر جبال الظهرة في منتهى الروعة مما جعلها تبرز كل مالها من أصالة. وكانت نواحيها جميلة وشيقة إلى درجة إني وافقت بسهولة على ما أشار به على مضيفي الكريم من قضاء إجازة يوم عنده. ولم يكن الملازم الثاني لوقا يحسن اللغة الدارجة فقط وإنما كان له أيضا المام بآداب اللغة العربية، أي لغة القرآن، وهذا شيء نادر جدا عند الضباط الفرنسيين. كان له إطلاع واسع على العادات والتقاليد العربية، ولعل زواجه من فتاة عربية كان له النصيب الأوفر في اطلاعه هذا. وكانت زوجته، وهي ابنة شيخ الظهرة، فتاة جميلة سمراء، يقتعد جبينها وشم حفيف، لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، ومع ذلك كانت

صورة للأنوثة المكتملة. ولم تكن تسمح لها حيويتها وفضولها الصبياني بالانعزال طبقا للتقاليد العربية، ولذلك كثيرا ما كان حضورها يزيد من جمال مجالسنا.

إن مثل هذا النوع من زواج الضباط الفرنسيين من الفتيات العربيات لم يكن شيئا غير عادي. وكانت عقود الزواج تتم أما القاضي، ومن هنا لم يكن إلزام للفرنسي مطلقا حسب قوانين نابوليون فإذا أراد الفرنسي أن يتزوج من عربية فعليه أن يدفع الصداق إلى أبويها مثلما يفعل ذلك الخطيب العربي، وكثيرا ما يقع الاختيار على الفرنسي لأنه يدفع مهرا أكبر مما يدفعه غيره! والصداق الذي يدفعه الخطيب لوالدي خطيبته يتراوح بين المائة والثلاثمائة فرنك، وقلما يزيد عن ذلك. وكان موضوع الصداق يشكل أحب المواضيع بالنسبة للبدو الذين اتصلت بهم، فكان كل واحد منهم يتحدث عن الصداق الذي دفعه للحصول على زوجته، ولا تتمثل قيمة الصداق في جمال المرأة بقدر ما تتمثل في نفوذ الأبوين ومكانتهما الاجتماعية. فالعربي، الذي ينتمي إلى الطبقة الراقية، يأخذ في مقابل ابنتة ثمنا أرفع مما يأخذه الرجل الوضيع. وما أكثر ما يكون تزويج بناته موردا طيبا بالنسبة له! وقد حدثت عن شيخ، كان له من زوجاته وجواريه الكثيرات ثلاثين بنتا، فاستطاع بمهارته في تزويج بناته ان يدخر خلال سنوات معينة ثلاثة آلاف فرنك. وغالبا ما سئلت أثناء معاشرتي للبدو عن الثمن الذي دفعته من اجل الحصول على زوجتي، نصفي الثاني. فهؤلاء الناس الطيبون يعتقدون أنه لابد أن يكون كل رجل متزوجا ما داموا هم كلهم متزوجين! وكانت عقود الزواج الأروبية لغزا بالنسبة لهم وكانوا يعتبرون ما تحمله المرأة أحيانا إلى بيت زوجها من مال غير مفهوم بقدر ما هو غير طبيعي.

ولأذكر بهذه المناسبة أن البدو هم الذين يبيعون بناتهم، وليس حضر مدينة الجزائر المتمدنين. حقا إن الخطيب عندهم يقدم دائما لخطيبته ثمنا، ولكن هذا الثمن يستعمل من طرف الأبوين في شراء ما يحتاج إليه العروسين الشابين، وغالبا ما يتفق أقارب المرأة في سبيل تلك المقتنيات أكثر مما دفعه الخطيب. فالحضري يقوم بعملية خاسرة حين يزوج ابنته، ولكن هذه العملية نفسها مربحة بالنسبة لعربي من داخل البلاد. والحضري يحتقر البدوي لهذا السبب ويحلوا له أن يصفه بأنه حمار!

لقد أكرمني الضابط لوقا على الطريقة الفرنسية تماما، وذلك على الرغم من أن زوجته عربية. فأتاح لي أن أريح ليلا أعضائي المتعبة في فراش أروبي حقيقي، أعد لي راحة، علمني الحرمان أن أقدرها حق قدرها. وبعد العشاء قادني مضيفي الكريم إلى ساحة السوق، حيث استقبلتنا شخصيات المدينة أمام القهوة العربية في احترام بالغ. وكان علينا أن نتصدر المكان ونتناول ثلاثة فناجين صغيرة من القهوة كما جرت العادة، وقد جلس حولنا المفتي والقائد والقاضي وعدد من شيوخ الناحية. وكان رجال المدينة يرتدون اللباس العربي الذي يتكون من الحذاء الواسع، والغليلة المطرزة بالحرير، والبدعيتين والحزام المطرز، ويضعون فوق ظهورهم حائكا شفافا، يتدلى فوق الأرض. فكان هذا الزي الفخم يخلع على هذه الشخصيات، التي تميزت ملامحها بالتناسق والنبل، مثل كل الذين ينحدرون من أصل عربي خالص، منظرا يتسم بالهيبة والهدوء والوقار. أما بقية الحاضرين فكانوا يرتدون البرانيس البدوية الخشنة التي قلما تكون غير مهلهلة.

وتقع مازونة في مكان بعيد جدا عن طريق الجيش، ولذلك لا يعرفها الكثير من فرنسي الجزائر. ولكنها تتمتع بشهرة كبيرة عند الأهالي فقد أنشئت في العصر الوسيط، وكانت مثل المدن المجاورة، بيد القبيلة البربرية القوية مغراوة خلال عدة قرون وكثير من سكانها الذين يتكلمون العربية

اليوم، يفخرون بانحدارهم منها. وكانت فيما بعد وحتى ابتداء الحكم التركي، الذي ابتلع كل شيء، جزءا من مملكة تنس تحت إمرة القبيلة العربية النبيلة التي تحمل اسم محال.

وكانت مازونة منذ القديم بلد العلوم الإسلامية، ونالت زاويتها شهرة كبيرة، ولذلك لا يسميها عرب الغرب إلا باسم «مدينة العلماء» وكان الطالب «الذي قرأ الكتب في مازونة» يتمتع بمكانة لا يتطرق إليه الشك في أي مكان حل به.

وقد أصبح ذلك المسجد، الذي اشتهر بعلمائه، والذي كانت بصحنه مدرسة قرآنية عامرة متهدما الآن إلى حد ما، وهو أمر يؤسف له. ويبدو أنه لم يكن له بصفته بناية اعتبار كبير. وعلى الرغم من ذلك فقد رأيت فوق أنقاضه مرابطا وقورا، لعله آخر «علماء مازونة» يفسر القرآن المنزل لعدد صغير من الطلاب المهلهلي الثياب، الذين التفوا حوله. لقد بدت لي في هذه الحياة الفكرية فوق الأنقاض، الشعلة المقدسة من الحكمة، التي عاشت بعد المسجد، الذي كان لها سابقا مأوى حصينا، صورة ذهن لا يزال متوقدا ولكن غشاءه قد ابتلى بانتشار الداء فيه.

والظاهر أن احمد بن يوسف كانت له فكرة سيئة عن مازونة، فقد طاب له أن يتنبأ بمصير نينوي، فقد دعا عليها هذا الدرويش البائس بقوله:

مازونة، يا مدينة التحول!
سيهجرك سكانك، وستأتي النار
على منازلك، بل على كل شيء فيك،
حتى الأرض التي تقفين فوقها.

ولم يحدث حتى الآن إلا جزء مما تنبأ به الشاعر، فقد دمر ما يزيد عن نصف المدينة خلال حرب الظهرة، ولكن بما أن للإنسان الحرية في تفسير

كل نبوءة، فلعل في استطاعته أن يعتبر مازونة اسما للمنطقة كلها،ثم يجعل للنار، التي دعى بها الشاعر على سكانها، علاقة بالإحراق المريع الذي ألحق بالقبيلة العربية في مغارة فريشيح القريبة من مازونة، فاسودت الأرض نفسها بالدخان،، وهو ما يلائم صورة حرق الأرض في دعوة أحمد بن يوسف. وبذلك يكون قد تنبأ بمأساة الظهرة! ومع ذلك فإنه لم يخطر ببال أحد أن يجعل منه وليا، في حين أن كثيرا من الدراويش الذين لا يستطيعون أن يتنبؤا بميلاد بصلة يتمتعون بهذه المكانة المحترمة!

وفي سنة 1844 أصبحت مازونة لمدة قصيرة، عاصمة الثائر الشهير بومعزة الذي أعلن نفسه سلطانا فيها. وكان أصل بومعزة، وأسمه الحقيقي محمد بن عبد الله، من المغرب، وكان ينتمي إلى الطريقة المنتشرة في المغرب كله المعروفة بإخوان مولاي الطيب. وكان مؤسس هذه الطريقة القوية، وهو المرابط مولاي الطيب، الذي يحتل مكانة مرموقة في قلوب العرب، قد تنبأ في مطلع هذا القرن بنبؤته الشهيرة، وهي أن الأتراك سيطردون من الجزائر من قبل أمة مسيحية وأن المنتصرين سيطردون بدورهم من قبل أمير عربي وبما أن الجزء الأول من هذه النبؤة قد تحقق، فإن الثاني قد أصبح أكثر قابلية للتصديق. ومنذ أن ظهرت هذه النبؤة، التي آمن بها البدو والبسطاء، ولأنها تنبئهم بشيء، كانوا كلهم يتمنونه من كل قلوبهم، أخذ الكثير منهم ينتحلون شخصية ذلك الأمير الذي تنبأ به مولاي الطيب.وغالبا ما يدعون، وهم الخادعون المخدوعون، أنهم أنفسهم ذلك البطل الموعود. وقد اعتبر بومعزة لمدة طويلة ذلك المنقذ المنتظر فحاول في بداية الأمر أن يقنع القبائل العربية والبربرية القاطنة بجبال الظهرة والونشريس مستغلا إيمانها بالخرافات، عن طريق أوهامه الدينية، برسالته السماوية، ثم دعاهم بخطبه الحماسية إلى الثورة التحريرية ضد أعدائهم الفرنسيين، فتم له ما أراد على أحسن وجه. فقد تبنت قبيلة الشرفاء (وكل فردمن أفرادها

يدعى أن له بالرسول العربي نسبا) بومعزة الذي بقى مغربيا أجنبيا حتى ذلك الحين، وناصرت دعوته بنشاط كبير، فانضم إليه ثمانية وستون قائدا من القواد الثمانين الذين عينتهم الحكومة الفرنسية لثقتها في ولائهم لسياستها الظالمة. إلا أن حكم بومعزة لم يقدر له أن يعيش طويلا.

لقد تغلب عليه سانت أرنو، الذي أصبح مارشالا فيما بعد، في ربيع سنة 1845. وفرق جموعه المضطربة الصفوف في سهل الشلف. والغريب أن هذا المتفنن في استغلال إيمان جماعته بالأوهام استطاع ان يحول هزيمته إلى انتصار في نظر أتباعه إذ آمنوابما حدثهم به، وصدقوه. وقويت شوكته إلى أن أصبح القيام بحملة ضده أمرا ضروريا. فخرجت إليه ثلاثمائة طوابير، يقودها سانت أرنو، وبيليسيير، ولامورسيير، وطاردت القبائل الثائرة، التي تراجعت أمام قوة هذه الطوابير، حتى مهاوي الظهرة. فخضعت جميع القبائل الثائرة لكثرة القوات الفرنسية، وبذلك انتهت ثورة بومعزة. ولم تبق منها سوى قبيلة واحدة، وهي قبيلة بني رامة، رفضت الخضوع والتنازل عن حريتها فسار بيليسييرخلفها. وقد عجز السلاح وفن الإقناع عن إخضاع هذه القبيلة العنيدة، ونجحت في ذلك أفظع القوى الطبيعية، وهي النار. وكانت السكينة التي أرغمها هذا العنصر الرهيب على بني رامة، أبدية، هي سكينة المقبرة بأتم معنى الكلمة. فقد حرقت هذه القبيلة البطلة في مغارات فريشيح. فأنهت هذه المأساة المريعة الحرب ضد بومعزة، الذي وقع هو نفسه بعد مدة قليلة في أيدي المنتصرين، ليعيش ابتداء من ذلك الحين حياته المملة في السجون بفرنسا.

وفي اليوم الذي تلا وصولي إلى مازونة قام مضيفي الكريم برحلة معي إلى مغارات الصخور المذكورة فريشيح، الواقعة في جبال الظهرة، مسرح تلك الحادثة المروعة أيام الثورة. وتقع هذه المغارات في منطقة صخرية منعزلة، من الصعب جدا الوصول إليها. وكنا قد وصلنا إليها بعد ثلاث

ساعات أو أربع، قطعنا خلالها فوق مطايانا طريقا صاعدة طورا بين مرتفعات الصخور المنحدرة بجبال الظهرة،وهابطة طورا آخر عبر مجاري الوديان الجافة، فبلغنا جدار صخرية عظيمة، كأنها قصر سحري تقيم فيه قوى جهنمية، ينتصب بكل جلالته السوداء. ولم تكن حول الصخور نبتة واحدة، باستثناء ما يرى هناك وهناك من خرشف بري، ينشر أوراقه البيضاء على شكل نجوم أو خلع شجري، يمتد فوق الأرض بفروعه الخضراء وأغصانه البيضاء وفي حاشية القصر الصخري السفلي لاحظنا شقوقا لا تزال مسودة من أثر الدخان الذي غمرها قبل مدة : إنها مدخل مغارات فريشيح الشهيرة.

كان قد التجأ إلى هذه المغارات الواسعة بعد إخضاع الظهرة بضعة آلاف من العرب، قبيلة بني رامة كلها بنسائها وأطفالها وحيواناتها الداجنة وقد الحقوا من مخبئهم أضرار بالغة بالفرنسيين، فتكبدت كتائب كاملةعند مرورها بهذه المغارات خسائر فادحة كأن أيادي غير منظورة ألحقتها بها. وكان عدد الموتى قد ارتفع كثيرا، عندما قرر الجنرال بيليسيير اللجوء إلى تلك الوسيلة الفظيعة اليائسة، وهي إشعال النار حول المغارات. ولعله كان يظن أن الدخان سيرغمهم في النهاية على الخروج من مخابئهم.

غير أن الأمر للأسف كان يتعلق بإصرار قبيلة تأبى الضيم، وتفضل الموت على الاستسلام للكلاب المسيحية الحقيرة! فما أن أمر بيليسيير بإشعال النار في الأخشاب والأعشاب حول الفتحات حتى امتد دخانها الكثيف الخانق إلى داخل هذه المغارة التي اتخذتها القبيلة كلها بأسرها وممتلكاتها مقاما لها. وما أسرع ما قام الدخان الخانق والنار المهلكة بما عليهما من واجب، فتعالت بسرعة أصوات الحيوانات الصاخبة، وتأوهات الرجال المكتومة وصراخ الأطفال المحتضرين. وكانت تنطلق من داخل المغارة بين الحين والآخر طلقة نارية : لعل أحد أولئك الذين خكم عليهم

بالموت قد قرر أن ينهي حياته بيده أو بيد أحد أصدقائه. ثم بدأالهدوء يعم شيئا فشيئا، فسمع صهيل جواد نبيل، وغرغرة لعنة،تفتحت عنها شفاه بطل محتضر، ثم انتهى كل شيء. وساد صمت كصمت الموتى مغارات فريشيح.

لقد كان المشهد الذي تراءى في صباح اليوم التالي للمهندسين، الذين دخلوا المغارة بأمر من بيليسيير، في منتهى الفظاعة: كان هناك في مدخل المغارة ثوران لم يحترقا تماما، وقد ربط العرب رأسيهما ببرانيسهم، ولعلهم فعلوا ذلك حتى يحولوا بين الحيوانين، الذين تسببت النار في سعرهما، وبين إلحاق الأذى بهم. وإلى جانبهما جثة امرأة، يبدو أن الموت استعجلتها وهي تحاول أن تحمي طفلها من حنق ثور ثالث. فقد كانت لا تزال ممسكة بقرني الثور. وكانت هنا أجسام، شوهتها نزعات الموت بصورة مريعة، وقد انبعثت من أفواهها خيوط من الدماء السود، وهناك جثة شيخ القبيلة المهيب لاشك أن جواده وقع عليه فقتله، فقد وجدت جثته تحت جثة الجواد. وداهم الموت حبيبين، وهما متعانقان، فاتخذا صورة من صور الدعة والشاعرية وسط هذا المشهد المريع. وقد احتفظت ملامح الموتى بمظاهر الرعب والفزع والآلام التي يعجز الوصف عنها، حيث طبعها الموت فوقها بقوة. وهناك فتاة شقية، انطبع فوق جبينها حافر جواد عربي مسعور، فقد كانت مضطجعة بجانب الجواد، الذي تسبب في قتلها حين كان يحتضر ويلوح بأقدامه فيما حوله، وهي نصف محترقة. وقد عثر على جثة عجوز في أعمق زوايا المغارة، كانت تبدو وكأنها تقرب جرة الماء من فمها. ولم تكن ذراعاها قد سقطتا لأنها كانت قد أسندت مرفقيها إلى ناتيئ من الصخرة ففاجأها الموت وهي تحاول أن تطفيء عطشها الذي سببه اللهيب والدخان. كانت الأرض المسودة من الدخان تحتضن والرجال، النساء والخرفان، الأطفال والمعاز، والأسلحة والألبسة، وكلها محترقة ملفوحة، أو

استحالت رمادا. هكذا انتهت قبيلة بني رامة فقد لفظت أنفاسها الجريئة في هذه المغارات المخيفة، وهي تعاني عذابا أليما يعجز القلم عن وصفه.

يا بني رامة! هكذا أرادت
نفس قبيلتكم الجريئة
أن تختار الفردوس مثوى
لها في هذه الأرض [1]

وقد استحوذ الرعب والفزع على كثير من الغالبين المحاربين، الذين كانوا يسخرون عادة من العواطف الرقيقة، حيال هذا المشهد الفظيع. ولا شك أن الجنود الشبان لم يكونوا يتصورون أن مآل الحرب الرهيبة يمكن أن يصل إلى هذا الموت المريع.

والمعروف أن حرق قبيلة بني رامة قد أثار آنئذ لدى المجالس الفرنسية المتحررة عاصفة من السخط على الدوق مالكوف الحلي، غير أن ليبليسييرفي الجيش الكثير من المدافعين عنه. ومع ذلك فمهما حاول المرء أن يجد المبررات لعمله هذا فإن فريشيح ستبقى نقطة سوداء في تاريخ هذا القائد وحولياته.

وقادتنا رحلة أخرى إلى شلال جميل يتكون من مياه واد صغير من وديان الشلف الجانبية، وينصب في منخفض خصب. وتسقط المياه الصافية من فوق الصخور الجرداء وتنحدر بقوة نحو رياض تغمرها النباتات الناضرة.

لكم يملأ نفسي منظرك، أيها الشلال!،
عندما ينصب تيارك الفضي
ويفيض في المنخفض الضيق
ويواصل سيله في إشراق

(1) ديوان اصراف الحجاج للمؤلف.

ها أنتذا تخلق فردوسا هنا
في هذا القفر الذي يبدو حولك
هشا مفتقرا إلى البراعم والزهور،
قلما يحني أغصانه.
أما فيما حولك فإن الزهور تنمو،
والخصوبة تنصب فوق شاطئيك
والرمان يلتمع بلونه الناري
من بن الأوراق الفاغمة
وأغصان الريحان الخضر
تعرض أزهارها الفضية،
وورود الدفلى تداعب
كالحور أنسام المساء العليلة.
والصبار يغري في المنخفض المزهر
أشعة الشمس الذهبية
والمقر يرتفع على حافة الصخور
ويمد رؤوسه كأشجار في الفضاء.
وجذع النخلة يرفع، وقد
أستفزة لهيب الجنوب، رأسه
عاليا نحو السماء[1]

(1) ديوان اصراف الحجاج للمؤلف. وفي كتابي « دراسات ادبية مقارنة » ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1991 ن صورة شلال مازونة (المترجم)

الفصل الثاني

مستغانم

مغادرة مازونة. - هروب الأسير اليهودي. - المبيت عند قبيلة الشرفاء. - الشلف. - سينالف بطليموس القديمة. - ثلاث قرى فرنسية. - الإنكشاري العجوز نادلا. - نظام حز الرؤوس. - الوصول على مستغانم. - رئيس المكتب العربي الجلف. - الأتراك. - كلتاديا. - هجاء أحمد بن يوسف لمستغانم.

عندما حلت ساعة الرحيل في اليوم الثالث من وصولي إلى مازونة، وجهزت الخيول وحملت البغال، واستعد مرافقي العرب للسفر، اتضح أن الشقي اليهودي، الذي كان الصبائحي مكلفا بحراسته، قد اختفى. وكان الصبائحي قد سلم هذا الجاسوس المغربي أثناء إقامتنا في مازونة إلى القائد لحراسته فوضعه القائد في المطمورة وحبسه فيها، وكلف حرسه من البدو المهلهلي الثياب بتشديد الحراسة عليه. ولم يلاحظ هروبه إلا في صبيحة اليوم الذي كنا سنواصل رحلتنا فيه. أما كيف تم له الفرار فلم يعلم ذلك احد. ولكن هذا لم يمنع القائد من ضرب حارسه على قدميه. وقد أشيع أن اليهودي السافل القذر كان معه شيء من النقود، فرشا الحارس بمبلغ مغر بالنسبة له وهو عشرة فرنكات. ويكاد يكون كل واحد من الأهالي مستعدا لتحمل الضرب نظير الحصول على عشرة فرنكات! لقد احتمل الحارس الضربات واحتفظ بالمال.

لقد سرني أن نواصل رحلتنا دون رفقة اليهودي الحقير. وبعد ساعات تركنا، ونحن ننحدر فوق المهاوي الصخرية، جبال الظهرة خلفنا، فوجدنا أنفسنا مرةأخرى في سهل الشلف الغني بالسنابل. وتعدينا حقول السنابل الذهبية فوصلنا أولا إلى منطقة قبيلة بني زنتيس، وبعد ذلك بلغنا منطقة بني زروال. وكانت المنطقة التي سرنا فيها اليوم كله جميلة، ولكن جمالها كان رتيبا.

كان مبيتنا في مخيم قبيلة الشرفاء، فضمتنا في الليل خيمة الضيوف الشاغرة أبدا. والشرفاء (الشرفة) جمع شريف، وهذه الكلمة تعني الانحدار من سلالة النبي. لقد كانت هناك قبيلة كاملة تفخر بانتسابها المباشر إلى محمد (عليه السلام) بواسطة لالا فاطمة، ابنته الوحيدة. ومثل هذه القبائل توجد لدى العرب والبربر معا. وبما أن زواج رئيس قبيلة من شريفة، أعني سليلة النبي، يكفي ليحمل الأبناء والأحفاد (لقب شريف) بدون استثناء، فإن تزايد سلالة النبي واضح في نهاية الأمر. ومع ذلك يبدو لي أن عدد الشرفاء كبير جدا. ولهذا تراني أميل إلى الأعتقاد بأن الغرور هو الذي يدفعهم إلى اتخاذ لقب لا يمنح إلا عن تقدم الولادة. لقد كان مأوانا الليلي عند الشرفاء بائسا وشبيها بما تقدم وصفه عند الحديث عن بني راشد.

نهضت في الساعة الرابعة صباحا، وكانت أعضائي كلها تؤلمني من اثر صلابة الفراش، وطلبت من مرافقي أن يستعدوا بسرعة ففعلوا دون تراخ. فالبدوي يحب السفر المبكر، ولا يعرف مطلقا النوم إلى الضحى. ثم أنه لا يجد عناء في أرتداء ثيابه، لأنه لا يخلع ثيابه أبدا. وبما أن العربي لا يتناول فطوره أيضا، وإنما يتغذى عند الظهيرة، فقد كان في وسع قافلتي أن تبدأ الرحلة بعد النهوض بخمس دقائق. واقتربنا الآن من شاطئ الشف، وكنا قد وصلنا أخيرا إلى نهاية منخفضة الطويل، حيث يصب مياهه المصفرة هنا في أمواج البحر الأبيض الصافية الزرقاء. وقطعنا هذا الوادي فوق جسر، يبعد عن مصبه بحوالي نصف ميل، ويعتلي النهر الذي يتسع هنا قليلا. وتوجد بهذا المكان منذ سنة 1852 قرية صغيرة، تحتوي على حوالي عشرين بيتا وكوخا خشبيا.

ولعلها، إذ أورد بطليموس أنها كانت تقع عند هذا الجسر الذي يعود إلى العصر الروماني. فقد ذكر بطليموس العرض الجغرافي لبوشامبري 32,40

والطول الجغرافي 16,50 درجة، ويقع مصب نهر شينافال (ولعله الشلف) بخط العرض 33 وخط الطول 16,40 . ويعتقد البعض أن بوشامبري هي سوكوبار التي ذكرها بلينيوس.

ومن الجزائر أن تكون لبوشامبري، التي ذكرها بطليموس، وسوكوبار، التي ذكرها بلينيوس، علاقة بسوكوردا، التي وردت في تاريخ الكنيسة. فقد ذكرت أسقفية بهذا الاسم في موريتانيا القيصرية.

وقد ذكر البكري وابن حوقل في العصر الوسيط مدينة تدعى « الشلف » . ومن الممكن أن تكون المدينة العربية قد بنيت فوق أنقاض المحطةالرومانية (بوشامبري) التي لا تبعد كثيرا عن مصب نهر الشلف.

ويبدو أن الشلف نفسه كان معروفا عند القدماء باسم سينالف أو شينافال فقد ذهب إلى هذا عدد من الأثريين المعروفين مثل شو[1] ، وما نير وبيربروجير حديثا. أما دافيزاك[2] فقد نبه إلى أن بطليموس يحدد موقع شينالف قرب يوليا القيصرية. وحاول بيليسيير، مؤلف « الحوليات الجزائرية »، أن يبرهن حديثا على أن هذا النهر هو وادي تفرت الذي يقع قرب عاصمة موريتانيا القديمة. ولكن بطليموس، وهو الجغرافي الوحيد في العصور القديمة، الذي ذكر شينالوف، سطحي في الإراثة الإفريقية، لا يهتم خاصة بالدقة في مقاييس العرض والطول الجغرافيين، ولذلك فإن المرء ليميل، رغم ما ذكر عن قرب النهر من يوليا القيصرية، إلى أخذ المؤلف بجريرته، أعني الأهميةالتي جعلها لهذا النهر فذكره دون غيره من أنهار موريتانيا، ويذهب إلى أن نهر الشلف هو شينالف الذي ذكره هذا الجغرافي الاسكندري.

(1) Shaw . Teavels in barbery and lerant. Oxford 1738.
(2) D'Avezac , Esquisse générale de l'Afrique, Paris , 1844.

ويرجع غيزينيوس قراءتي اسم الشلف القديم إلى أصول فينيقية، فيشتق كلمة شينالف من « شين ألف » وتعني « زينة الثور » . أماشينافال فيعيدها العالم العبري الكبير إلى كلمة « شين هابعل »، وتعني « فضل بعل » .

وبالمناسبة، لقد أعتقد جغرافيو القرن الماضي أن الشلف هو نهر قرطينوس الذي ذكره بطليموس، غير أن الاسكندري يذكر موقع قرطينوس على بعد 15 درجة غرب قرطينة، في حين أن الشلف يقع على 1,20 غرب تنس.

وعند جسر الشلف بدأ طريقنا يصعد، فتسلقنا منحدرا حادا، بجانبه شعبة يتخللها جدول، وتعمرها أدغال وأشجار مزهرة، ذات منظر لطيف. وكانت بها أشجار بديعة، أوراقها عبلة شبه مستديرة تطل منها أزهار رائعة، وتفتحت في جدران الصخور البليلة، وقد انتصبت على حافة الجدول أشجار الحصيل بأغصانها الخضراء المشربة بالسواد وأوراقهاالمجزأة، وأزهارها البنفسجية وأشواكها الطويلة الصفراء.

وتوجد فوق هذه الشعبة آثار قلعة تركية، مما يدل على أن هذه النقطة الإستراتيجية كانت لها أهميتها أيام حكم الأتراك. وبعد ساعة بلغنا قرية فرنسية فوق ربوة، وهي قرية سوق الميتوح، لا يسكنها غير الباريسيين، الذين هاجروا إليها عندما انتشرت الأفكار الاشتراكية سنة 1848 و1849، لينشئوا قرية نموذجية، ولكنهم لم ينشئوا سوى نموذج للفوضى. إن الباريسيين مشهورون في جميع أنحاء العالم بأنهم، إن هم ابتعدوا عن جو مدينة نهر السين الاصطناعي، يصبحون أكثر الناس فوضوية، وقد عملوا ما في استطاعتهم ليبرهنوا ها هنا على تلك السمعة التي يتمتعون بها على الأقل!

ومررنا بعد ذلك بمركز المعمرين، عين تادلس، الواقع على بعد نصف ميل. وكان قد أنشيء بأمر من الحكومة سنة 1848 ثم وسع سنة 1856. ويبلغ عدد سكان هذه القرية حوالي 400 نسمة، وكانت تبدو غنية نسبيا،

فأغلب القرى الفرنسية في الجزائر تعيش في حالة تعسة. فكان منظر البيوت ألطف، وكانت للشوارع أرصفة، وبالقرية كنيسة جديدة وعين عامة، ونافورة في ساحة السوق، كل ذلك جعل لهذه القرية طابعا أروبيا.

وتبعد تونين عن تادلس بحوالي اثني عشر كم، وكنا قد وصلنا إليها بعد أن مررنا بمنطقة مجاهر، وهي تابعة لأغوية تحمل نفس الاسم، واسترحنا ظهرا في قهوة عربية تقع في منتصف الطريق بين تادلس وتونين . وكان صاحب هذه القهوة انشكاريا سابقا، تتراوح سنة بين الخمسين والستين، ولد في أزمير فكان بذلك تركيا أصيلا. ورغم انه قد أقام في الجزائر أكثر من ثلاثين سنة، فإنه لم يكن يبدو عليه أنه تعرب على الإطلاق. وقد فرح كثيرا عندما تبادلت معه كلمات بلغته القومية المحبوبة. ومع أن معرفتي للغة التركية كانت للأسف ناقصة، فقد أثارت إعجاب مرافقي العرب، ذلك أن الأتراك، وكل ما يتعلق بهم، لا يزالون يفرضون على هذه الطوائف، التي خضعت لهم سابقا نوعا من الاحترام، يصل إلى حد الخوف. ولم يستطيعوا في الوقت نفسه أن يتخلصوامن تعاطفهم مع العثمانيين باعتبارهم إخوانا لهم في الدين. إن هذا الجندي القديم، الذي يمارس الآن أكثر الأعمال أمنا وهدوءا، لم يكن يفكر في حياته الماضية الصاخبة دون أن يمتعه ذكرها. ولم يكن في وسعه إلا أن يخبرني بأنه كان ماهرا في أسلحة أخرى غير مطحنة البن، وانه كان يحز بذل قوالب السكر رؤوس العديد من المسيحيين.وقد تولى لمدة سنة كاملة إدارة منصب الجلادين أيام باي قسنطينة الأخير، فأتيح له فرص كثيرة أن يرضي نزواته الهدامة بطريقة مشروعة. وكان حز الرؤوس ملائما لطبيعة أمثاله من أصحاب النزاعات الشاذة. وكان لهذا الجلاد القديم مظهر مناسب لمهنته السابقة، وهو مظهر الطيور الكاسرة، وله بالإضافة إلى ذلك شارب كشارب النمر، ورغم تقدمه في السن فقد كانت عيناه السوداوان ترسلان شررا رهيبا. وقد انتقد هذا

العبقري، الذي لا يجد اليوم من يفهمه، إدارة القضاء الفرنسي افالإنسان في نظره لا يستطيع مع هذه المعاملة الإنسانية تجاه الأهالي أن ينشيء حكما إلا من ذلك النوع الذي يتطلب دائما وجود قوات متفوقة من الجيش!وكان يرى أن الفرنسيين لن يكونوا في حاجة إلى ربع القوات الموجودة حاليا في الجزائر، لو أنهم قرروا تقليد نظام الاضطهاد التركي. فالوسيلة الوحيدة للنجاح في إخضاع الأهالي هي حز الرؤوس بنشاط، والإكثار من عمليات الشنق، والضرب اليومي بالفلقة.أما السجن، وهو العقاب الوحيد تقريبا بالنسبة لأغلب الجرائم، فهو في نظره ليس عقابا يتأثر منه العربي، بل بالعكس. فهو يفرح به أحيانا، لأن معيشته فيه أحسن من معيشته في البيت. ولم يكن القهواجي (صاحب المقهى) التركي العجوز منفردا بهذا الرأي، فقد كان يشاركه فيه تقريبا جميع الأتراك وأغلب رؤساء القبائل العربية وقد جاء في النصيحة التي قدمها حسين داي، بعد ضياع عرشه مباشرة، للمارشال بورمون أن الجزائر لا يمكن حكمها إلا عن طريق الإرهاب!

وتونين، التي كنا قد وصلنا إليها، قرية صغيرة تعود إلى سنة 1848، وكان سكانها أيضا من أصحاب الحرف الباريسيين، دفعتهم الحاجة أو الأحلام الاشتراكية إلى الاشتغال بالفلاحة. ولكن أوضاعهم لم تكن تختلف عن أوضاع مواطنيهم في سوق الميتوح. وبعد أن تركنا تونين وصلنا بعد ساعة إلى قرية «المسرحين» الفرنسية، التي أسست بأمر من وزارة الدفاع في سنة 1846، وكان المقصود من إنشائها، كما يدل اسمها على ذلك، ان تكون مسكنا للجنود الذين سرحوا من الجيش. غير أن عدد كبير منهم لم يرتض الإقامة في هذه المستعمرةالتي أنشأتها الحكومة، ومن ثم لم يتحقق الغرض الأول من إنشائها فاستقر بها منذ ذلك الحين عدد من المعمرين المدنيين. وسرعان ما رغب هؤلاء عن اسم قريتهم الذي يذكرهم بالخبز الأسود فقدموا حديثا عريضة إلى وزارةالدفاع يطلبون فيها تغيير اسم القرية، فوافقت على

ذلك،واختار الوزير اسم أحد رفاقه المقربين إلى القصر الملكي تعلقا له، وهو مسايف مغارات فريشيح الدوق مالكوف المتوج بالغاز، ومنذ ذلك الحين أصبحت قرية المعمرين الصغيرة تدعى بيليسيير.

وظهرت لنا الآن مستغانم، وكان منظر المدينة البيضاء الواقعة فوق ربوة مستديرة إلى ما، تبعد حوالي ألف خطوة عن البحر، يبدو من الطرق لطيفا جدا. وكان إلى جانبها فوق تل صغير معسكر الفرسان بخيامة البيضاء وقسم من فرقة الأتراك. ودخلنا المدينة الصغيرة قبل غروب الشمس بساعة فمضيت رأسا إلى المكتب العربي وقدمت إلى رئيسه التوصية التي زودني بها القائد مسالينيك فينيلون. وينبغي أن أذكر في طالح هذا الرئيس أنه لم يقم بما كان يجب عليه القيام بن نحوي. إني لم أكن طبعا انتظر أن أجد عند شخص ما اللطف الذي وجدته عند الضابط لوقا. غير أن ضباط المكتب العربي كانوا حتى تلك اللحظة مؤدبين معي، وإن لم يكونوا لطفاء، على الأقل. وقد شذ عنهم رئيس المكتب العربي في مستغانم شذوذا كريها. فلم أره مرة واحدةخلال الأسبوع الذي أقمته في مستغانم. وبما أنه كان الشخص الوحيد الذي أحمل إليه في هذه المدينة توصية، فقد شعرت بقلة أدبه بصورة مضاعفة.

ومستغانم، وتدعى بالعربية مشتى غانم، مدينة ساحلية، ولكن مرساها لا يقدم للسفن الحماية الكافية. وسكانها من العرب والأوربيين على حد سواء، وعددهم ثلاثة آلاف نسمة وتتكون بناياتها الرئيسية من كنيسة مسيحية وأخرى بروتستانية، ومسجد وفنادق مختلفة وكثير من الثكنات، وحمام عربي ضروري.

لقد بدت لي مستغانم في عمومها، وأنا بداخلها، مدينة حزينة مملة والسبب في نفور السواح من مستغانم هو بصورة خاصة كثرة الجنود بها. فقد كان فيها، أيام إقامتي، زيادة عن ألف جندي من المشاة، فرقةمن

الفرسان، وأخرى من فرق المدفعية وكتيبتان كاملتان من الفرقة التركية. واسم هذه الفرقة الرسمي هو الترايور الأهلي، ولكنها لا تعرف إلا باسم «بوركوس»، وهو الاسم الذي اشتهرت به في إيطاليا وفرنسا، وقد كونت على شكل فرقة الزواف، إلا أن جنودها في الأغلب من الأهالي على اختلاف ألوانهم وقبائلهم ولغاتهم فهم في الغالب شبان نشطون، من بينهم عرب بيض البشرة كالأوروبيين، وآخرون سمر من أبناء التل الأطلسي أو التل الصحراوي، ومن بينهم أبناء المولدين والسود. ويبدو أن الأخيرين كان لهم النصيب الأكبر في رخص لالتحاق بهذه الفرقة، ويتضح ذلك إذا علمنا أن الزنوج يكونون أحط الطبقات الشعبية، في الجزائر فلا يلتحق بفرقة التوركوس إلا أسافل الناس. أما الحضرى والبدوى فإنهما لا يرتديان البزة العسكرية الفرنسية اختياريا إلا إذا وصلا إلى درجة كبيرة من الانحطاط. إن فرقة التوركوس تتكون من المتطوعين. وكانوا في الماضي يتقاضون راتبا كبيرا، حوالي فرنك في اليوم، ولكنهم لا يتقاضون الآن أكثر من 5 سنتيمات.

ويوجد بينهم أيضا كثير من الأوروبيين من جميع البلدان، وأغلبهم كذلك من الأوغاد ومن بينهم ممن رأيت الألمان والطليان. والالتحاق بهذه الفرقة الأجنبية مباح لجميع الشعوب على شريطة أن يتسمى كل من يلتحق بها باسم عربي بصفة رسمية! وقد كان بهذه الفرقة مثلا صيدلي من ساكسن بألمانيا، لست أدري كيف وصل إلى الجزائر، برتبة رقيب، استعار لنفسه اسم مصطفى. وقد شكا لي من قلة نظافة زملائه، وسوء أخلاقهم، وعدم احترامهم للغير، وخبثهم. وكان من الصعب، أيام إقامتي بمستغانم، الدخول إلى الحمام العربي الجميل، الذي تزينه البواكي وتحيط به الأقواس، لأن جنود التركوس كانوا يشغلونه باستمرار تقريبا ويفعلون به ما يطيب لهم.

هناك من يعتقد أن مستغانم كانت مستعمرة رومانية تدعى كلتاديا وتتألف من عدة قرى متفرقة. واسم كلتاديا هذه في تاريخ الكنيسة هو كلتاديا. ويغلب على ظن مورتشيلي[1] أنها هي قرطيليس التي ورد ذكرها في خريطة أنطونيني، غير أن قرطيليس كانت تقع شرق قرطينة، ومستغانم تقع غرب تنس وهذه الأخيرة هي قرطينة. وقد طرد أسقف كلتادريافيكتور مع كثير من زملائه من قبل هينريق عام 484.

ويتحدث ليو الإفريقي[2] عن مستعمرة أنشأها الجرمانيون هنا، ولعله أراد أن يطلق هاذا الاسم على الفندال. ولكن أبناء عمومتنا الجرمانيين كانوا يصلحون للتخريب أكثر مما يصلحون للبناء، ولذلك لا يعثر المرء على أثر لهذه المستعمرة. أما العرب فيدعون، رغما عن أنف الأثريين وعن كلتاديا التي ذكروها، ورغما عن أنف ليو ومستعمرته الفندالية، أن مستغانم لم تأسس إلا في القرن الثاني عشر. فقد روي لنا ابن خلدون[3] أن المدينة كانت في القرن الرابع عشر بيد قبيلة مغراوة البربرية التي تربعت شيئا فشيئا واعترفت بسلطان ملك تلمسان وفي القرن الخامس عشر جعل احمد العبد، شيخ قبيلة محال العربية، الذي استولى على ممتلكات مغراوة، من مستغانم مدينة حصينة بعد أن كانت قليلة الأهمية نسبيا وازدهرت فيها الحركة الصناعية والتجارية بفضل العديد من المهاجرين الأندلسيين. ثم استولى عليها عروج أكبر الأخوين، سنة 1518 فحكمها الأتراك منذ ذلك الحين بطغيانهم المعهود، ويروى أن هؤلاء الحكام الماهرين في السلب والنهب قد كانت لهم إيرادات كبيرة من مستغانم. وفي سنة 1792 هاجر قسم كبير من سكانها إلى وهران، التي أخذت من الاسبان آنئذ لآخر مرة، وذلك لتزويدها بنواة من المسلمين الصالحين.

(1) MORCILLI – Africa chisalina , Brixiae Bettoni, 1816.

(2) هو الحسن بن محمد الزياتي الوزان ، توفي عام 1552م

(3) Ibn Khaldoun . – Histoire des Berbères , traduite par le Baron de Slane, Paris, 1857-1962.

وكانت مستغانم قد اعترفت بالاحتلال الفرنسي في سنة 1830، إلا أنها ظلت لمدة طويلة تحت حكم باي من الأهالي. وأصبحت من أملاك فرنسا بمقتضى معاهدة تافنة، إلا أنها كثير ما تعرضت برا لمحاصرة جيش الأمير ومنذ سنة 1841 وهي في حوزة الإدارة المدنية الراهنة.

كان أحمد بن يوسف، الشاعر القومي الجزائري، الذي سبق ذكره مرارا، كارها لتقاليد أهل مستغانم. فهو يأخذ عليهم خاصة النهم الذي اختبره بنفسه فيما يقال، ولم يكن هذا الاختيار في صالحه. فعندما سافر الشريد الشاعر مرة أخرى إلى مستغانم نزل ضيفا على رجل غني،وحينما أراد الجلوس إلى مائدة الطعام، حضر عدد كبير من الضيوف من أهلالمدينة دون أن يكونوا مدعوين على ذلك، بحيث كان يبدو كما لو أن رائحة الطعام قد جذبت مستغانم كلها، وذلك أمر لم يرتح له الدرويش الجائع. وبما أنه لا يجوز للعربي أن يرد ضيفا، ولو كان غير مرغوب فيه ومتطفلا، فقد كان لابد من دعوة أولئك لتناول الطعام. ويبدو أنهم انتهوا من الكسكسي بسرعة كبيرة، بحيث لم يبق لشاعر ما يكفي لشعبه. فصاح أحمد بن يوسف في غضب، زاد الجوع من حدته :

مستغانم يا مدينة الشرهين
عندما يتصاعد بخار القصع فيك،
لا تسمع في الشوارع كلها إلا قعقعة
فكوك الذين يرغبون في
المشاركة في تناول الطعام!
يا أهل مستغانم، أنتم خنازير نهمه.
أهل مستغانم أنتم كلاب شرهة

ها نحن نرى مرة أخرى أن الشاعر لا تنقصه الصراحة إذا كان الأمر يتعلق بالشتم والسباب!

الفصـــل الثالث

مازغـــران والمقطـــع

مستنقعات. - مازغران. - دفاع «الزفير» اليائس عن القلعة. - المعمرون البروسيون. - حياتهم البائسة وصمودهم. - مستنقعات المقطع. - معركة الأمير الرئيسية في المقطع. - الجنرال تريزيل. - عبد القادر في أوج قوته. - زيارتي لعبد القادر في بروسه ودمشق.

انتهت رحلتي على ظهر الجياد في مستغانم مؤقتا. فقد اعتمدت في مواصلة رحلتي على عربة تصل هذه المدينة بوهران بصورة منتظمة. وكانت المنطقة، التي قطعتها بنا هذه العربة المتعثرة فوق طريق سيء، مستنقعات في أغلب أجزائها، مسطحة وغير جميلة. ولم تتمتع العين بغير البحر الذي ظل قريبا منا باستمرار. والحقيقة أن هذا السهل القليل الجاذبية يكتسب أهمية كبيرة بالنسبة للرحالة المطلع على تاريخ الثلاثين سنة الأخيرة، فقد وقعت فيه أشهر المعارك مع الأمير عبد القادر.

وكان أول مكان تلقانا في هذه المنطقة الجديرة بالاعتبار هو مازغران القريبة من البحر، التي ترجع إلى عهد قديم وأعيد بناؤها حديثا. فقد ترك الفرنسيون في القلعة الموجودة هنا عند احتلالها للمرة الأولى سنة 1839 حامية تتراوح بين مائة وعشرين ومائة وثلاثين جنديا. إن دفاع هذا العدد القليل من الجنود عن القلعة ضد جيش عربي، يفوقهم في العدد بكثير، قد خلد في تاريخ الحروب الفرنسية الحديثة. ففي 13 ديسمبر سنة 1839 نقض الأمير عبد القادر معاهدة التافنة[1] ومن بين ما قام به آنئذ هو هجومه على قلعة مازغران الصغيرة التي لم تكن بها حامية كافية. والعرب يدعون طبعا أن حاكم وهران كان قد نقض المعاهدة بدخوله إلى منطقة معسكر.

(1) المعروف أن الأمير عبد القادر لم ينقض المعاهدة، وأن القواد الفرنسيين هم الذين أرغموه على استئناف الحرب، أنظر تحفة الزائر، ص 355 و365. (المترجم)

وكيفما كان الأمر فقد كانت نتيجة ذلك الحصار الذي ضربه مصطفى بن التهامي، خليفة الأمير، على مازغران من الرابع إلى السابع يناير سنة 1840، فتحتم عليها أن تقاومه وتصمد في وجهه على قلة حاميتها. وكان عدم سقوطها أعجوبة مضاعفة: أعجوبة شجاعة حاميتها وأعجوبة سماجة العرب. فلم يكن عدد أفراد الحامية يتجاوز 123 جنديا، عندما قنبل مصطفى الحصن الصغير لمدة 96 ساعة وهاجمه خلالها أربع مرات. لقد دافع الجنود ما أمكنهم الدفاع، وكادوا يفعلون المستحيل، إلا أن الضعف الإنساني تغلب عليهم سريعا، ولم يتغلب عليهم من كان يحاصرهم. ذلك أنهم افتقدوا المواد الغذائية وأعوزتهم أكثر من ذلك الذخيرة كان الحصن قد أحدثت به ثقوب كثيرة، ولكن الجنود استطاعوا حتى تلك اللحظة أن يصدوا هجومات العرب، وكان المفروض أن يستسلموا في النهاية. حقا لقد صمدوا، ودافعوا ما استطاعوا على الحصن الذي أصبح أنقاضا، إذ لم يبق عندئذ منه شيء، ولكنهم في اللحظة الأخيرة كانوا قد قربوا من النهاية، حين جاءهم المدد. فقد وصلت لمساعدتهم كتيبة من حامية مستغانم. والغريب أن هذا المدد لم يصل قبل ذلك الحين فمستغانم لا تبعد عن مازغران إلا بحوالي 8 كيلومترات. وعندما اقتربت الكتيبة شاهدت من بعيد أن الحصن قد تهدم أكثره، وانتهت طلقات مدافعه، واختفى العلم المثلث الألوان من فوق أسواره. وكانت فرق الإنقاذ قد استعدت للدخول إلى بيت الموتى، عندما تناهت هتافات البهجة المكتومة إلى مسامعها. وكانت هتفات الحامية، التي أوشك الجوع أن يقضي عليها، دون أن تستسلم. وبما أن العرب تراجعوا عند مشاهدة فرق الإنقاذ فقد فتحت الأبواب وأسرع رجال الحامية إلى استقبال رفقائهم. وفي وسع الإنسان أن يتصور مدى الغبطة التي ارتسمت على وجوه أفراد الحامية حينما استقبلوا منقذيهم، والجوع يكاد يقتلهم.

وقد أقيم هنا تمثال كتبت عليه أسماء أولئك الأبطال الذين سقطوا هنا وحدث لهم ما حدث لأبطال بني مراد، ولو أن أولئك كانوا أحسن حالا من هؤلاء. ومن مميزات هذه الحامية الصغيرة أنها كانت تنتمي إلى كتائب سيئة السمعة هي كتائب «الزفير» أو الرياح الغربية. وفي هذا دليل آخر على صحة ما قاله قائد عبيد الأرض سبيرغ من أن الأخساء هم عادة أفضل الجنود.

ويطلق الفرنسيون على المنطقة المحيطة بمازغران اسم «ماسة ولاية وهران» وذلك لخصوبتها وكثرة المياه وقنوات الري بها.

انطلقت بنا العربة المتداعية من جديد وسارت عبر سهل مليء بالمستنقعات، فوصلنا بعد ساعتين إلى مستعمرة ستيديا التي تم إنشاؤها على يد البروسيين الألمان. وكان هؤلاء التعساء قد انخدعوا بكلام وكيل الحكومة الفرنسية لشؤون الهجرة، فعدلوا سنة 1846 عن مشروع هجرتهم إلى أمريكا، وقرروا التوجه بدلا عن ذلك إلى هذا السهل الجزائري الذي تكتنفه المستنقعات، فعاشوا في ظروف سيئة لمدة طويلة وقد رفضت الحكومة الفرنسية، التي أغرتهم بالهجرة إلى الجزائر، أن تقدم لهم أي نوع من المعاشات مع أنها لم تبخل بذلك على أسافل البارسيين الذين هاجروا إلى الجزائر سنة 1848 . لقد حتم على مواطنينا في السنوات الأولى أن يكسبوا قوتهم عن طريق جمع الحطب وتطهير الحقول من الحشائش الضارة.

وقدم ديفال في كتابه «موجز الجزائر الوصفي» ما يلي : لقد كان البرويسيون لمدة طويلة مضطرين لقضاء الليل كله في تطهير الحقل من الأعشاب والأدغال وإصلاح الأراضي. أما في النهار فقد كان الإنسان يرى هؤلاء، الذين أرهقهم حر المناخ وتعب العمل، يتحاملون على أنفسهم في اتجاه مستغانم ليبيعوا حطب الأدغال التي قطعوا أصولها، وهي مورد حياتهم الوحيد».

وبهذه الطريقة كان مواطنونا المساكين يكسبون خمسة عشرة سنتيما، وهذا المبلغ هو أقل ما يحتاجه الأروبي في الجزائر لسد حاجياته اليومية.

إلا أن أوضاع برويسيي ستيديا قد تحسنت اليوم وذلك بفضل نشاطهم وجدهم وصمودهم الألماني. ومستعمرة ستيديا الآن من أغنى القرى الجزائرية وتعتبر من القرى القليلة التي لم يتلق مؤسسوها معاونة من الحكومة. وتتخذ المنطقة خلف ستيديا منظر المستنقع بصورة أكثر اجل لقد وجدنا أنفسنا بعد لحظات وسط مستنقع يخترقه الطريق على شكل سد ويتكون المستنقع الرئيسي من تجمع مياه وادي هبرة ووادي سيق. ومن هذا المستنقع ينصب وادي المقطع بعد مسافة قصيرة في البحر الأبيض المتوسط.

لقد شهدت هذه المنطقة الحزينة، التي تغمرها المياه، عام 1835 أهم انتصار على الفرنسيين أحرزه الأمر عبد القادر. وذلك أن الجنرال تريزيل، الذي خرق، فيما يقوله العرب، بنود المعاهدة القائمة، وقام بحملة لنهب قبائل وادي سيق، كان قدهاجمه في 26 جوان 1835 القائد الأمير عبد القادر في مستنقعات المقطع، عندما كان تريزيل عائدا من تلك الحملة، وهي ليست عملا بطوليا على أية حال. كانت فرقة المدفعية الفرنسية، وعربات النقل، وكذلك قطعان الماشية التي سلبت من العرب تتقدم بطء في المستنقع، الذي يصعب اختراقه، إذ لم تكن الطرق قد عبدت في ذلك الحين، فكانت الأراضي الرخوة البليلةتشكل حواجز صعبة بالنسبة للفرسان ولعربات النقل على حد سواء عند كل خطوة. وغالبا ما كان الركب يتوقف، فبتوقف الطابور كله، ويعجز عن الحركة. فاغتنم الأمير عبد القادر مثل هذه اللحظة لمهاجمة الفرنسيين، فلم يحاولوا الصمود في وجهه. فقد استولى الرعب على مؤخرة الجيش الفرنسي وهم الجنود بالفرار، فأعاقهم عن ذلك جنود المقدمة والمدافع والعربات والماشية ومنعتهم الأرض الرخوة من السير، فتحول الفرار إلى خطى بطيئة نحو القبر. لقد هجم العرب، الذين أحنقتهم على الفرنسيين حملة النهب التي قام بها تريزيل،

على هذه الفرقة المتجمدة إلى حد ما، والسيوف بأيديهم، وبدأت المذبحة العامة فقتل الكثير من الفرنسيين ولم يقع في الأسر إلا القليل منهم. فوجد تريزيل نفسه، عندما رأى فرار بعض جنوده وتخاذل بعضهم الآخر مضطرا إلى إخلاء ميدان المعركة للعرب. فترك مدافعه، وعربات ذخيرته، وعربات النقل وكل ما استولى عليه في غزوته، فسقط ذلك كله في يد الأمير عبد القادر، وانهزم إلى مستغانم، وقد تبعه المنتصرون حتى أبواب هذه المدينة.

وقد أدعى الفرنسيون نفاقا أن خسائرهم في هذه المعركة كانت ضئيلة، غير أني تأكدت عن طريق مصادر موثوق بها، أنها بلغت عدة آلاف.

وكانت لهذه الهزيمة عواقب وخيمة بالنسبة للجنرال المهزوم. حقا لقد حاول أن ينسب أسباب الكارثة إلى عدد من الضباط، فأتهمهم بأنه عصوا أوامره أثناء المعركة، مما أدى إلى هذه الهزيمة، ورفع أمرهم إلى وزارة الدفاع، وبما أن بعض المتهمين توجهوا إلى الوزير مباشرة ليبينوا له حقيقة ما حدث، فقد استعمل نفوذه لمعاقبتهم على عصيانهم لأوامره. وكانت نتيجة هذا العمل المشين أن الشعب ازداد كرها لهذا الجنرال الذي لحقت به هزيمة المقطع وتمنى له الفشل وخيمة الأمل، فلم يلبث ان تخلى عن القيادة.

كانت سنة 1835 على الإطراق تمثل أوج قوة الأمير عبد القادر، فلم يبلغ نفوذه إلى هذه الدرجة لا قبلها ولا بعدها. فقد دخلت في طاعته آنذاك ولاية وهران، باستثناء ثلاث مدن ساحلية، وأقسام كبيرةمن ولاية الجزائر. وكان قد أفتك مدينتي مليانة والمدية من يد درقاوة، وهي طائفة دينية، وهزم رئيسهم الحاج موسى. واستطاع أن يرسل خليفته حتى إلى بلاد القبائل التي كان من الصعب دخولها في ذلك الحين، ولو أن قوة خليفته كانت اسمية فقط. فنرى قوة الأمير ابتداء من هذه السنة 1839 في أوجها لا تكاد تتغير، ثم ينالها الضعف بصورة مستمرة.

ولم ينس الأمير عبد القادر، كما تأكدت من ذلك بنفسي مرتين الانتصار الذي أحرزهفي المقطع. فعندما زرته سنة 1854 في بروسة وقبل سنتين في دمشق كنت في كل مرة أدير الحديث عمدا حول حياته الحربية. وما أن ذكرت اسم المقطع حتى ارتسم المرح على وجه الرجل العجوز الطيب، والتمتع عيناه السوداوان في حماس. ولم يفهم في المرة الأولى طبعا ما إذا كان حديثي عن ذلك يتضمن الصداقة أو العداء. إلا انه سرعان ما أدرك تعاطي معه، فأجاب على سؤالي الذي ألقيته عليه بسذاجة مقصودة، وهو إن كان لا يزال يذكر المقطع؟

فقال : « أعتقد أن الجنرال تريزيل سيذكره أحسن مني ».

وقد سرني في زيارتي الثانية أيضا حديث الأمير عن نفوره من الفرنسيين بصراحة تامة وبدون نفاق. ومما جلب انتباهي إلى ذلك بصورة أكثر أن الأمير من الحكومة الفرنسية معاشا بمائة ألف فرنك،وهي ثروة لم يملك عشرها أيام أوج قوته. ولكن ما قيمة الثروات إلى جانب حرية رئيس عربي، وإلى جانب حكمه لمليونين من العرب؟.

لقد أصبح الأمير الآن مواطنا مسالما من مواطني دمشق، تضخمت جثته. وكم حاولت عبثا أن اعثر على تعبير حربي في ملامحه. حتى اللباس الشامي،وهو يتكون من القفطان المزركش، لم يكن ملائما له. لقد بدا فيه أشبه بتاجر غني من تجار السوق. أما البرنوس العربي الذي كان يرتديه سابقا، وهو لا يقل اهتراء ورثاثة عن برانيس البدو الآخرين، فقد تخلى عنه يوم أن تخلى عن حياته الحربية. ومع ذلك فإنه لم يكن قد وصل بعد إلى الحد الذي يجعلني فيه أعتقد أنه يحب الفرنسيين، فهو لا يحتفظ بذكرى طيبة إلا للملك نابوليون الذي أعاد إليه حريته النسبية فقد قال لي باللغة العربية « السلطان أبو ليون راجل الفرنسيس لخرين الكل كلاب! ».

محتويات الكتاب

الكتاب الثالث : ولاية وهران

هاينريش فون مالتسان

ثلاث سنوات
في شمال غربي إفريقيا

DREI JAHRE IM NORDWESTEN VON AFRIKA

الجزء الثاني

ترجمة وتقديم: د. أبو العيد دودو

الطبعة الأولى - 1979
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر

مقدمـــة

يواصل مالتسان في هذا الجزء وصفه للمناطق التي زارها في الجزائر خلال خمسينات القرن الماضي. ويبدأ رحلته هنا في مدينة أرزيو، ويمر بعدد من القرى الصغيرة وهو في طريقه إلى وهران، ثم تلمسان ومعسكر،وبها تنتهي رحلته في الغرب الجزائري. ويعود منها إلى وهران فالجزائر ليبدأ من جديد رحلة ثانية، ولكنه يتجه في هذه المرة إلى المناطق الشرقية.

وتمثلت المرحلة الأولى من رحلته في زيارة المناطق الساحلية، التي لها صلة بالتاريخ الروماني القديم بصورة خاصة، فتوقف عند العديد من الآثار القديمة إلى أن انتهى به المطاف إلى مدينة بجاية. ولم يكتف بما شاهده في هذا الجانب، فقرر أن يزور وادي الساحل والمناطق الجبلية، وعن يتوجه بعد ذلك إلى سور الغزلان أو أوزيا القديمة لمشاهدة آثارهاالجبلية، يعود مرة ثانية إلى بجاية، ليسافر منها إلى سكيكدة بالباخرة، الجديدة، ومنها يسرع إلى أطلال عنابة القديمة.

وهنا يترك المناطق الساحلية ويتوغل في داخل البلاد، فيزور غالمة وسوق أهراس وتبسة حيث تنتهي رحلته بالنسبة لهذا الجزء. ويجدر بنا أن نذكر بهذا الصدد أن مالتسان كان يسافر على ظهور الجياد، ولم يركب السفينة إلا مرتين كما ذكرت سابقا.وكان يرافقه في رحلته أحيانا بعض السواح من محبي الآثار القديمة، ويصاحبه دائما بعض المواطنين بصورة رسمية، أو غير رسمية. ففي الحالة الأولى كان نحيا يفرض عليه المكتب العربي صبائحي، ويحصي حركاته ويراقب تنقلاته.

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ أن مالتسان أروبي، ولذالك فهو يقف بالضرورة إلى جانب الفرنسيين، ولكن الحقيقة غير ذلك، إذ أنه لا يني يوجه إليهم النقد اللاذع مرة، والسخرية المرة مرة أخرى، مثلما فعل الجزء

الأول من هذا الكتاب، فيأخذ عليهم هنا احتقارهم للجزائريين، ويقدم لنا صورة لهذا الاحتقار، تجسمت في طباخ فرنسي، اعتبره الرحالة الألماني نموذجا لأبناء طبقة فرنسية جاهلة، يكثر عدد أفرادها في الجزائر، وتتميز بكراهيتها للأهالي بصفة مطلقة. وقد لاحظ مالتسان أن الفرنسيين يزدادون كرها للجزائريين كلما ضعف مستواهم الفكري. ويروي قصة طريفة (ص 23) يتبين منها سبب كره هذا الطباخ الفرنسي المتأنق للجزائريين. فقد تراهن مع جماعة من معارفه بأنه قادر على مخادعة أي مسلم، وحمله على تناول لحم الخنزير دون أن يدري. واختار لذلك بدويا وقدم له في الفندق الذي يعمل فيه عظام دجاجة ملبسة بلحم الخنزير، ولكن الرجل أكل ما شاء وترك الدجاجة المزعومة جانبا، فسقط في يد الطباخ، وسخر منه مراهنوه. غيرأنه لم ييأس وأصر على كسب الرهان.

فدعاه إلى الفندق مرة أخرى. ووضع أمامه شريحة من لحم الخنزير دون مواربة، ووعده بأن يعطيه قطعة نقدية من ذوات الخمسة فرنكات أن هو أكلها أمام الآخرين وأتاح له أن يكسب الرهان. واكل الرجل شريحةاللحم، وأخذ النقود وخرج، ففرح الطباخ بهذه النتيجة التي توصل إليها، ولكن الواقع أن الرجل، الذي استغفله الطباخ، كان قد حمل معه قطعة من لحم البقر واستبدلها بشريحة لحم الخنزير دون أن ينتبه إليه احد وهو يخرجها من قلنسونته ليضع الأخرى مكانها. وما أن وصل إلى الشارع حتى توقف و نادى المتراهنين وطلب منهم أن يأتوا إلى النافذة، ولما وصلوا إليها قال لهم: » لقد أردتم في المرة السابقة أن تخدعوني بدجاجة مزيفة، لم تكن سوى لحم خنزير، ولكنكم لم توفقوا في ذلك. أما الآن، فقد خدعتكم أنا بلحم خنزير مزيف، إذ أنه كان لحم بقر، وأخذت نقودكم. خذوا إذن لحمكم الدنس، فهو نجس كأرواحكم، وقرف كأجسامكم« . ولهذا السبب كان الطباخ الفرنسي، وهو الظالم، يكره الجزائريين!

ولا يتسامح مالتسان مع أي شخص، من أي جنس كان، يحتقر الأهالي، فقد انتقد مواطنا له، كان ينظر إلى الجزائريين نظرة الفرنسيين إليهم، ويقول عنه إن جهله بعاداتهم وتقاليدهم يساوي غروره واعتزازه بتفوقه عليهم بصفته أروبيا، ومن ثم أهانهم إهانة كبيرة حين عرض عليهم أن يتناولوا معه لحم الخنزير، وقد جعلتهم هذه الإهانة ينصرفون عنه بسرعة، كما جعلته هو يقول: « حمدا لله! لقد تخلصنا الآن من (البدو)! » ويعلق مالتسان على هذه الحادثة بقوله (ص 68): « أما أنا فلم أفرح لذلك. فقد كان من الأنسب لي أن أتخلص منه، من زميلي في الرحلة بدل أن أتخلص من « البدو » الذين يحتقرهم. كنت قد لاحظت أن غباء هذا الإنسان ووقاحته سيبعدان أهل البلاد عني، مع أن هدفي كان يتمثل في أن أكثر من الاتصال بهم قدر الأماكن». وشعر مالتسان بنوع من التشفي حين عرف أن « البدو » انتقموا منه حين رافقوه في رحلة صيد، وذلك بأن قادوه إلى منطقة موحلة أضاع فيها بندقية وفردة من حذائه، لأنه لم يتوقف عن شتمهم أثناء الطريق. وتمنى في النهاية أن يقيه الله من أمثاله.

ويسخر مالتسان من « الأمة العظمى » أكثر من مرة، ويصف الفرنسيين أكثر من مرة أيضابأنهم طغاة، وبأنهم غاليون غاصبون وفندال محدثون، ويورد دائما عبارة « أكثر أمم الأرض تمدنا » بين حاصرتين، وهو يرد بذلك على الفرنسيين الذين يحتقرون الأجانب بصورة عامة والألمان بصورة خاصة، ويطلقون عليهم اسم « البهائم الألمانية والرؤوس المربعة » إلى جانب وصفهم بالهمجية وقلة النضج.

وكما انتقد مالتسان الفرنسيين وسخر منهم، انتقد كذلك أعمال الأسبان وفضائعهم في وهران، وسخر من الكاردينال خيمينيس، فقال عنه (ص 31). وحضر اكبر فقهاء السيحيين، وهذا هو الاسم الذي أطلقه العرب على خيمينيس، وهذا هو الاسم الذي أطلقه العرب على خيمينيس،

وبعد أن استولى على القلعة والمدينة، لم يعرف أي عمل يتطلب سرعة التنفيذ غير اتخاذ تدابير تدل على عنصريته وتعصبه، فقد حول الجامعين الرئيسيين إلى كنيستين، وأنشأ ديرين لتنصير المسلمين، ونصب مفتشا لمتابعة الزنادقة. ولم يتورع الأسبان المتدينون، هؤلاء المسيحيون الطيبون... عن نهب المدينة وذبح الآلاف من حضرها. «ويشيد المؤلف بمعاملة الحضر الحسنة للاسباني الوحيد الذي بقي في وهران بعد استعادتها من الأسبان، وعاش فيها إلى أن احتلها الفرنسيون بعد ذلك بسنوات عديدة. ولا شك أن كلاما من هذا النوع لا يمكن أن نقرأه في أي نص من النصوص الفرنسية التي تعود إلى الفترة التي وضع فيها مالتسان كتابة هذا، بل قد لا نجده حتى في النصوص التي كتبت بعد ذلك بفترة طويلة،ولا سيما في كتابات السواح، الذين قال هو نفسه عنهم (ص 67) إنهم يتصلون بالفرنسيين فقط ويأخذون عنهم أخبارا مزيفة ومعلومات مشوهة.

ويحدثنا مالتسان في هذا الجزء عن بعض أبطالنا، الذين لا نعرف عنهم إلا القليل، أو نعرف عنهم أشياء لا تخلو من الدين ومن التزييف والتضليل .فقد روي لنا (ص95) قصة لالاثريا، البطلة الشابة، التي تحدث إرادة أبيها، وأبت عليه استسلامه للطغاة، واتهمته بالجبن، وانفصلت عنه، وراحت تثير الشباب ضد فرنسا، وتدعوهم إلى مناهضتها، فكانت تزرع بذور الثورة ضد المستعمر في أي مكان محلت فيه. ويحدثنا أيضا كيف أن المكتب العربي، المتجسس الخالد على الأهالي، على حد تعبيره، وضع جائزة لمن يأتيه بجثتها، غير أن البطلة لم تقتل، وإنما وقعت أسيرة في أيدي الأعداء إثر وشاية قام بها شاب، هام بها حبا وطلب يدها، ولكنها أعرضت عنه وفضلت عليه حرية بلادها. وكان مالتسان قد التقى بها وهي في طريقها إلى المعتقل، وشاهد بعينه تبجيل الشعب لها وانحناءه نحو يمناها المقيدة ليضع عليها قبلة إعزاز وإكبار.

وكما روى لنا مالتسان في الجزء الأول قصة ابي معزة، يروي لنا هنا أيضا قصة أبي بغلة نقلا عن احد المواطنين، وهو شيخ قبيلة مليكش، الذي حدثه عن البطل وحياته ونظاله ضد الغاصبين، مفندا بذلك الكثير مما حاكه الفرنسيون حوله من اكاذيب واوهام. وقد ذكر مالتسان أنه تأكد بنفسه فيما بعد من صحة ما رواه له شيخ القبيلة. وكان ابو بغلة قد شكل فرقة منظمة، وراح يغزو بعض مناطق وادي الساحل التي خضعت للفرنسيين، وكان إتباعه يزدادون يوما بعد آخر، ولم يتخلف اي منهم عن الإسهام في معركة التحرير على قدر طاقته، ولكنه هزم مرتين،وتخلى عنه أنصاره، ولما عجز عن مقاومة الفرنسيين ن بدأ يقوم بحملات على القبائل التي تخلت عنه إلى أن لقي حتفه في حملة منها، فانتهت بذلك ثورته.

وينقل لنا مالتسان كلمة قالها شيخ القبيلة، يصف فيها حياة المواطنين أيام الغزو الاستعماري، يقول الشيخ (ص 155).

«لقد مرت بنا أوقات كنا خلالها في حاجة على جميع الموادالغذائية، بحيث إننا كثرا ما كنا نشتري قطعة الخبز، التي لا نزيد ثمنها اليوم عن سنتمين، بخمسة فرنكات. وأصبح الدقيق، نتيجة للحملات الفرنسية التي كانت تدمر محاصيلنا الزراعية، شديد الغلاء إلى درجة أن عددا كبيرا من الناس التجأوا إلى وسيلة يائسة، وهي أنهم صاروا يضعون التبن المدقوق في عجين الخبز للإكثار من كمية، لا ليشبعوا وإنما ليخادعوا الجوع على الأقل...» فهذه صورة حية عن الظروف التي خلقها المستعمر في البلاد.

ويتأسف مالتسان لما قامت به فرنسا من طمس المعالم الدينية وتحويل لضريح سيدي أبي مدين بتلمسان هذه الكلمات (ص 65) : ودخلت هذا مساجدها الثلاثة الرئيسية سوى مسجد واحد للأسف، فقد حول مسجد الأمير الجميل، الذي كان يؤدي فيه صلاته، ويدعى العين البيضاء،

حول إلى مستودع للتجهيزات العسكرية، بينما حول الآخر إلى كنيسة كاثولوليكية».

ولم يصدر عن مالتسان ما يدل على استخفافه بأي مظهر من المظاهر الدينية في الجزائر، وهو ما قد نجده عند غيره بكثرة، فكتب عن زيارته لضريح سيدي أبى مدين بتلمسان هذه الكلمات (ص 65): ودخلت هذا الضريح عبر باب قديم يشبه باب الحمراء، يقودني حارسه. وكان فيه قبر المرابطة، الذي يغطيه رداء من الحرير الأخضر، وكان الشيوخ المصلون يؤدون صلاتهم حوله، بينما ترتفع أصوات عميقة، تسبح بحمد الله وتصلي على رسوله. وقد أثر في نفسي هذا المشهد، فأقمت فيه مدة طويلة، فقد أدهشتني قوة هذه العبادة الجليلة رغم وسائلها البسيطة، بل لعلها تستمد جلالها وسموها من هذه البساطة بالذات!».

ويبدو أن مثل هذه الآراء هي التي فتحت له قلوب المواطنين، وقد أشار إلى ذلك هو نفسه عند حديثه عن تاجر تلمساني رافقه من وهران إلى تلمسان، وزاره في الفندق الذي نزل فيه، حيث قال عنه (ص63): «وقد سررت بزيارة سيدي الموهوب، فهي شرف حظيت به دون الكثير من الأروبيين، فأهالي تلمسان، وخاصة الطبقة الراقية منهم، ينفرون عادة من الاتصال بالأجانب. والظاهر أن بعض آرائي في الدين الإسلامي قد نالت إعجاب هذا العجوز الطيب، ولذلك جاء يدعوني لحضور حفلة عائلية عربية، وهي حفلة ختان أحد أحفاده».

وعندما ينتقد مالتسان الجزائريين، فإنه ينتقدهم إما لان سلوكهم لا يتناسب مع التعاليم الإسلامية الحنيفية، التي كانت له معرفة كبيرة بها، وإما لأنهم تجردوا من الروح الوطنية ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الطغاة. وقد سبق له أن حدثنا في الجزء الأول عن أغا جندل وأظهر جوانب من مسالكه وتصرفاته. أما في هذا الجزء فيحدثنا عن سيدي محمد السعيد،

الذي يعرف عادة بابن علي الشريف، فقد زاره بقصره في أقبو مع زملائه في الرحلة، وقضى عنده ساعات، وشاهده مرة أخرى وهو يتنافس مع آغا بني عباس في التبرع بالمال في حفلة ختان. واستغل مالتسانهذه الفرصة لتأمل ابن علي الشريف ومحاولة قراءة ما تنم عنه ملامحه الظاهرة، وقدم لنا في النهاية صورة واضحة تعبر عن شكله ونفسيته من خلال وجهة نظره الخاصة، كما قدم لنا صورة واضحة تعبر عن شكله ونفسيته من خلال وجهة نظرة الخاصة، كما قدم لنا صورة أيضا عن ابنه ومنافسته لضابطفرنسي في التمتع بأطايب مائدة الطعام.

***

ويمتعنا مالتسان بالإضافة إلى ذلك بعدد من الأساطير الشعبية المحلية، لعل بعضنا يجهل الكثير منها، مثل أسطورة سيدي تمغوث، وأسطورة لالا خديجة، وأسطورة غابة أبي مدين شمال ذراع الميزان، وغيرها من الأساطير الجميلة. وأكثرها متعة ولا شك أسطورة صخرية العرب (ص 233). وهي أسطورة تتحدث عن قرصان، سكن مغارة صخرية بعد أن زين داخلها بالسجاجيد الذهبية والزرابي الكشميرية، واتخذ بها عددا من الجواري والمخطيات الأجنبيات. وذات يوم رست سفينته بشاطئ يسكنه المسلمون، فرأى ابنة السلطان تتنزه مع خطيبها في حديقة بديعة بساحل البحر، فوقع في حبها منذ الوهلة الأولى، وخطفها وأخذها معه إلى المغارة الصخرية، ولكنه لم يستطع إرغامها على حبه. وحين عجزت عن قاومته، طلبت من الجن، تلك الأرواح الوفية، على حد وصف المؤلف لها، التي لم تتخل في ألف ليلة وليلة أبدا عن مساعدة فتاة مهددة في حياتها أو في شرفها، فبادرت إلى انقاد هذه الفتاة المهددة أيضا، فهدمت قصر القرصان الفاخر، الذي ادخر فيه الملايين من الأموال المسروقة، وأعادت الأميرة، التي كان حبه لها لا يخلو من خطر على حياتها، إلى أبيها وحبيبها الشرعي،

وهو بدوره ابن ملك، وحررت جميع الجواري. أما القرصان الفظيع فقد رفعته عاليا، ثم قذفت به إلى أعماق الهامية. ويصف مالتسان هذه الأسطورة البديعة بأنها تصلح لأن تكون موضوعا لقصة تسودها عدالة شعرية رهيبة.

***

ويبدي مالتسان في أكثر من مناسبة ملاحظة عن بعض الجزائريين، وينتقد حياتهم الاجتماعية، ويقرن ذلك دائما بأحداث شاهدها وعاشهابنفسه، ففي حديثة عن موسم الحصاد، وهو في طريقه إلى مدينة معسكر، يسجل ما يلي (ص 68): «وكانت عملية حصاد القمح في شهر يونية قد أمدت هذا الهضبة العالية المملة عادة بشيء من الحياة، فكنا نرىفي جميع الجهات نساء عربيات سافرات، اغلبهن للأسف مترهلات قبل الأوان، يقطعن السنابل الذهبية بالمناجل. وكان الرجال يحصدون أيضا من حين لآخر هنا وهناك إلا أن اغلبهم كانوا ينظرون إلى جواريهم الطبيعيات باحتقار كبير. ذلك أن هؤلاء المحاربين يرون أن العمل من واجب أدنى المخلوقات في نظرهم من واجب الحمير والعبيد والنساء!».

وفي بعض الأحيان ينقل لنا مالتسان صورة عن شخصيات جزائرية، نالت إعجابه لمشابهتها في هواية من هواياته، فنوه بها وأشاد بذكرها، مثل شخصية سيدي بن هنده، الذي يشبه صديقه الحاج احمد بالجزائر العاصمة، كما أشار إلى ذلك هو بنفسه، في حبه للرحلات والمغامرات والطواف بكثير من البلدان. فقال عنه (ص 264) : «كان قد جلس معنا في بيت الضيافة عربي، كان لباسه الجيد يختلف عن ألبسة مواطنيه التقليدية الرثة، وتعرفنا عليه بعد حين، فوجدنا فيه محدثا بارعا، لم يبخل علينا بحديثه عن العادات والتقاليد بصورة مسهبة، وقلما يعثر المرء على أمثاله ممن يتحدثون كثيرا في الجزائر.. كان سيدي ابن هنده قد

طاف بالشرق كله وزار أروبا أيضا، وكان يقوم برحلاته مع القوافل على طريق البر.. ومن ثم كانت رحلاته شيقة، لأنه كان يعاشر البدو والعرب من سكان الخيام في أغلب الأحيان، وحياة هؤلاء وأساليب معيشتهم لا تزال مجهولة نسبيا لدى الأوروبيين. فلم يتح أبدا لأي أرويي أن يقضي فترة طويلة يتعرف خلالها على الحياة في الخيام... إن بعض الحكايات التي رواها لنا بن هندة تلقي بعض الضوء على تقاليد البدو»، ولا بد لي من أن أورد هنا إحدى هذه الحكايات..

وبهذه الطرقة، فيما يبدو، يتوصل مالتسان إلى معرفة العديد من أساطيرنا وعاداتنا وتقاليدنا،في مختلف الجهات، التي زارها وأقام فيها فترات قد تطول أو تقصر.

***

وكتاب مالتسان هذا مليء، إلى جانب ذلك كله، بمعلومات تاريخية وسياسية واجتماعية وطبيعية غزيرة، فما من قرية يمر بها، ما من مدينة يحل بها إلا ويقدم وصفا لها، ويسرد نبذة عن تاريخها منذ نشأتها حتى الفترة التي زارها فيها، ويتحدث عنها حديث العارف المطلع على ما كتب عنها قديما وحديثا، وقد لا تكون هذه المعلومات، التي يذكرها، مهمة في نظر البعض منا، غير أن المهم في نظري يتمثل في تجاربه الشخصية، وملاحظاته الخاصة في بلادنا، وقد لا نتفق معه في بعض آرائه فينا، إلا أن علينا أن نأخذها على أنها وجهة نظر أجنبية، من حق أي منا أن يناقشها، وقد يرفضها لأنه لا يريد أن يعترف بها مع نفسه، وعلينا ألا ننسى أثناء ذلك أن مالتسان يتحدث عن ظروف وأوضاع معينة في فترة تاريخية معينة، يفصلنا عنها أكثر من قرن من الزمان.

ولم يبق لي إلا أن أقدم شكري الخاص للزملاء والأصدقاء الذين ساعدوني على ترجمة النصوص اللاتينية التي لم أتمكن من ترجمة بعضها

بنفسي، وعلى تصحيح بعض الأسماء العربية المحرفة، واعتذر هنا عما يكون قد بقي في الكتاب من تحريف، لم اعجز عن تصحيحه وحدي وإنما عجز عن ذلك أيضا من أتيح لي أن اتصل بهم من المناطق العديدة. والله ولي التوفيق.

الجزائر : ابن عكنون 28-11-1976.

الفصل الرابع

آرزيو القديمة - آثار أرزيناريا - نقوش فينيقية - أرزيـو مرسى الآلهة - قرية المعمرين البروسيين - البروسيون المتوحشون - سانت كلود - فارس المعلقة - منظر وهران - السور.

حملتنا العربة المتداعية، ويطلق عليها اسم الحافلة العامة،من المقطع إلى قرية المعمرين سانت لو (بطيوة)، الواقعة فوق تل صغير على بعد أربعة كيلو مترات من شاطئ البحر، ولا شك أن المكان الذي يبعد عنها بحوالي خمسمائة خطوة، ويطلق عليه العرب المقيمون به اسم بطيوة، بينما يسميه الفرنسيون أرزيو القديمة، كان قد بني فوق أنقاض مدينة قديمة كانت لها أهميتها في العهود الغابرة، فالآثار القديمة، التي يعثر المرء عليها يوميا تقريبا، تنم على الأقل عن أهمية المدينة الرومية التي أقيمت هنا في الماضي البعيد.

ويبدو أن أغلب المؤرخين القدامى متفقون على أن المدينة الرومانية أرزيناريا أو أرسينا كانت تقع هنا، فقد ذكر بلينيوس[1]، وهو يطلق عليها اسم ارزناريا اللاتينية،إنها تبعد عن البحر بثلاثة آلاف خطوة، ولكن عالما أثريا محدثا، وهو فرنسي يحمل اسما ارلانديا، أ. ماك كارثي، يرى رأيا آخر، فهو يبحث، اعتمادا على خريطة انطونيني، الذي تعد قياساته للأراضي الواقعة غرب يوليا القيصرية غير دقيقة، عن أرزيناريا القديمة شرقي الشلف في الموضع الذي ترتفع فيه قبة المرابط سيدي أبي رأس قرب رأس مغراوة، ويدعي أن أرزيو تقع في مكان المرسى الكبير،ويشاطره في هذا الرأي الأخير ليون ريني، ولم يجد هذان العالمان أي تفسير لأرزيوالقديمة التي تبعد عن البحر بثلاثة آلاف خطوة.

(1) انظر : Plinius secundus historia Naturalis. Lib. V.

ومما لا شك فيه أن اسم أرزيناريا من أصل فينيقي. فكلمة أرزين فيما يقال تعني في لغة قرطاجنة شجر الصمغ. وتوجد بالفعل في هذه المنطقة الساحلية أشجار كثيرة من أشجار الصنوبر المحتوية على الصمغ، فلعلها هي أشجار الصمغ التي كانت للفينيقيين والقرطاجنيين.

والآثار الكثيرة التي يعثر عليها المرء في أرزيو القديمة، وهي تعود إلى ما قبل العصر الروماني، تدل على أن مستوطنة كانت تقع هنا قبل دخول الرومان، وتعود إلى العصر الفينيقي، بل ربما تعود إلى العصر الليبي. فمن بين ما عثر عليه في أرزيو القديمة صنم من المرجح أنه بربري، يشبه إلى حد ما (عمون) المصري أو «عمون رع» فرأسه يحتوي على قرني كبش، و بهما يتميز هذا الإله، فاستنتج العلماء من ذلك انه قد يكون غرسيل إله الليبيين، وهو ابن عمون، الذي كان الملك النوميدي يورباس يفخر بانحداره منه، ذلك أن غرسيل وصف بما وصف به عمون. فقد كان معظما إلى حد كبير في كل من نوميديا وموريطانيا. قال كوريبوس[1] Corippus في كتابه يوهانيس 109/2 : كان غرزيل قائد جرنا الجسورة وراهبها.

ويقول أيضا:

«هؤلاء يقدس ونغرزيل، وأولئك يعبدونك أنت يا صاحب القرون!»

وتوجد في متحف أرزيو القديمة، كما توجد في متحف الجزائر، نقوش فينيقية، عثر عليها ها هنا، وتوجد كذلك نقيشات كثيرة من نفس الأصل، وتكاد تكون كلها متشابهة، أي أنها تمثل شخصا رافعا يديه نحو السماء. والمعروف أن الفينيقية تترجم بواسطة العبرية.

وهناك في إفريقيا نوعان من النقوش الفينيقية : نقوش كتب بالحروف الفينيقية وأخرى كتبت بالحروف النوميدية. وقد كان البعض يظن منذ مدة

(1) اسقف إفريقي عاش في القرن السادس الميلادي ايام حكم القيصر جوستنيان (م).

أن هذه الأخيرة قد كتب بلغة أخرى. أما الآن فإن علماء العبرية متفقون تقريبا على أن النقوش النوميدية لا قيمة لها بالنسبة إلى النقوش الفينيقية التي كتبت بحروف أخرى، ويمكن ترجمتها أيضابواسطة العبرية، وهذا طبعا بعد أن تحول حروفها إلى حروف عبرية.

والحروف الفينيقية ليست مربعات جامدة كالعبرية، إلا أن بعض حروفها يمثل النموذج العبري. والنموذج النوميدي يختلف عنه، فقد بدا لي أغلظ وأثقل من الحرف الفينيقي، وتم العثور، زيادة علىالنقوش الفينيقية والنوميدية، في أفريقيا على النقوش أخرى كثيرة، كتبت بصورة مختلفة تماما،ويطلق عليها اسم النقوش الليبية. وهي لم تكتب أيضا بلغة أخرىغير الحروف الفينيقية والنوميدية فحسب، وإنما كتبت أيضا بلغة أخرى تعتبر أم القبائلية الحديثة ولا علاقة لها باللغة العبرية...

واغتنمت فرصة توقف العربة للحظات، فذهبت لمشاهدة بقايا مدرج ومسرح ومعبد، أطلق عليه اسم معبد نبتون بناء على النقوش التي عثر عليها هنا. وكانت آثار هذا المعبد، الذي يدل على مدى أهمية أرزيناريا قديما، لا تزال بادية للعيان، وهنا وهناك كانت ترتفع فوق الأرض أسوار رومانية مبنية من الآجر.

ويوجد بأرزيو متحف أقيم في بناية رومانية الأصل، لم يتطلب إعدادها لهذا الغرض سوى أعمال خارجية. وقد شاهدت فيه نقيشات كثيرة فوق توابيت، وكانت تمثل كلها تقريبا شكل رجل، يمسك بيده تاجا، ولاحظت كذلك أشياء قليلة ذات طابع جنسي، من ذلك الصورالمختلفة لأنواع الإحليل، التي يبدو أنها كانت تعلق فوق الأبواب كما هو الأمر في مدينة بومبيي في إيطاليا، إلا أنه من الخطأ الكبيرأن نحمل هذه الأشياء معنى فاحشا. فلم تكن تعني بالنسبة للقدامىسوى نوع من الطلاسم يحفظ الدار التي يوضع فوقها من العين الشريرة.

وتقدر خريطة أنطونين المسافة بين أرزيناريا وقرطينة بـ 18 معلما فقط، غير أن المسافة بين آرزيو القديمة وبين تنس، التي يعتقد أنها قرطينة القديمة، تقدر بحوالي 125 كلم أو حوالي 83 معلما. أي أن الفرق هو 65 معلما، وهذا وضع سيئ للغاية، ولا يمكن التخفيف من حدته إلا إلى حد ما، وذلك حين نأخذ برأي ماك كارثي وننقل أرزيناريا إلى سيدي بوراس بشرق الشلف، فهناك زيادة تقدر بحوالي 80 أو 58 معلما. ولن يبقى لنا عندئذ إلا أن نفترض أن خريطة الطرق تتضمن تقديرات خاطئة.

ومع ذلك فإن تقديرات خريطة الطرق صحيحة فيما يتعلق بمسافات الجهة الغربية. فقد قدرت المسافة بين أرزيناريا وسيق (مصب التافنة) بـ 216 معلما. وتقدر المسافة بين أرزيو القديمة والتافنة حين تتبع جميع منحنيات الساحل بـ 300 كلم على الأقل، أي بما يعادل 215 معلما وبناء على هذا فإن أرزيو القديمة هي أرزناريا حتى بالنسبة لخريطة الطرق.

وهناك رأي آخر يؤكد وجهة النظر القائلة بأن أرزيو القديمة هي أرزيناريا، وهو رأي بطليوس، فقد ذكر هذا أن المسافة الشرقية بين سيق و أرزيناريا 10.15 وبين أرزيناريا وقرطينة 40 درجة. وكلاهمايتفق تقريبا مع الطول الجغرافي الحقيقي الذي ورد في الخرائط الحديثة بالنسبة للنقط الثلاث : التافنة،أرزيو القديمة وتنس.

وكانت أرزيناريا في القرن الخامس أسقفية، تعرف باسم أرزيناريوس بيكوباتوس وحضر أسقفها فيلو اجتماع زعماء الكنيسة الذي عقد في قرطاجنة عام 484 بدعوة من هونريك.

وتبلغ المسافة بين أرزيو القديمة وأرزيو الحديثة التي تقع على شاطئ لبحر وتحتوي على ميناء كبير فخم في مأمن من العواصف، حوالي 9 كلم. ووصلنا عند منتصف المسافة إلى قرية المعمرين الصغيرة المدعوة باسم

دامسم Damesme، (عين البايه) التي أنشئت عام 1851، وقد كرس سكانها حياتهم لتربية الخنازير نكاية كل مسلم. ومن المرجح أن أرزيو الحديثة تقع في موضع مرسى الآلهة الذي تحدث عنه كل من سترابون وبطليموس. وهناك طريق روماني، هو طريق فيكتوريا، يؤدي إلى معسكر الحديثة. إلا أن الأثري الشهير ليون ريني يرى أن أرزيو هي بورتوس ماغنوس، وهذا في الوقت الذي اتفق فيه الباحثون القدامى على أن بورتوس ماغنوس هي المرسى الكبير الواقع قرب وهران.

لم يستقر الفرنسيون في أرزيو إلا في سنة 1846، ويبلغ عدد سكانها اليوم ألف أروبي، نصفهم من الأسبان. ويكون هؤلاء الأسبان القسم الأكبر من السكان الأروبيين في ولاية وهران بصورة عامة. وكانت أرزيو قبل أن يستولى عليها الفرنسيون قرية حقيرة. كان قاضيها، وهو بن الطاهر[1]، المعلم القديم للأمير عبد القادر قد استسلم للفرنسيين سنة 1831 من تلقاء نفسه، إلا انه قدر له أن يعاقبه تلميذه القديم عقابا شديدا. فبعد أن ألقي عليه القبض وحمل إلى مدينة معسكر، عاصمة عبد القادر، أمر الأمير بخنق هذا الشيخ الجليل.

ولم تنتعش تحت حكم الفرنسيين الحركة التجارية التي عرفها مرسى الآلهة في العهود القديمة، ذلك أن جارتيها وهران ومستغانم تعتبرانهامنافسة خطيرة، ومن ثم لم تستطع الوصول إلى أي نوع من الازدهار رغم مينائها الجيد.

ومن بين البنايات الأروبية في أرزيو توجد بناية أطلق عليها اسم « فندق الوصاية »، وهو أحسن فندق في نظر الأروبيين طبعا، إلا أنه كان في وضع

(1) في الأصل : بن بهونة، انظر قصته مع الامير في كتاب حياة الأمير عبد القادر، تاليف شارل هنري تشرشل، ترجمة د. ابو القاسم سعد الله ، الدار التونسية للنشر ، 1974، ص 65 وما بعدها.

يرثى له،وقد حكم علي أن أقضي ليلتي فيه، غير أن الليالي التي قضيتها في الخيام العربية كانت قد علمتني كيف أتحمل آلام المدينة الصغيرة.

وفي اليوم التالي وصلت بنا العربة بعد رحلة استغرقت ساعة إلى سانت ليوني (بوفاطيس) وهي قرية أسسها البروسيون أيضا. وقد كانت حالة هؤلاء التعساء سيئة للغاية أيضا مثل حالة سكان ستيديا. إلا أنهم استطاعوا بدورهم، بفضل صمودهم الجرماني، أن يصلوا إلى الوضع المتميز الذي يعيشون فيه اليوم.ورغم هذه المكانة المعتبرة التي وصل إليها هؤلاء المعمرون الألمان شيئا فشيئا، فإنهم لم يتمكنوا على الأقل من التغلب على الأحكام المسبقة، التي يواجه بها الفرنسيون الأجانب بصورة عامة والألمان بصورة خاصة،إذ يسمون هؤلاء «البهائم الألمانية، الرؤوس المربعة». وقد وجه مراسل قبل سنوات قليلة تقريرا سميا على وزارة الجزائر، التي لم يعد لها اليوم وجود، عبر فيه عن إعجابه بأن عدد الجرائم قليل نسبيا في المستعمرات الألمانية، حيث كتب هذا البيروقراطي الفرنسي : «من الملاحظ أن العقوبات على الجرائم أو المخالفات قليلة نسبيا في ستيديا وسانت ليوني، فسكان هاتين القريتين، وهو كلهم بروسيون تقريبا، يتسمون بالخلق الحميد والسلوك القويم». وعبارة «كلهم بروسيون تقريبا» تشير إلى الأوصاف الهمجية والوحشية التي تخلعها «أكثر أمم الأرض تمدنا» على بقية الشعوب الأخرى، وخاصة الألمان ومن بينهم البروسيون. ويشبه هذا، ولكن بصورةأوضح، ما ذكره أحد المحامين الفرنسيين قبل فترة قليلة، أثناء دفاعه في محاكم الجزائر عن مجرم ألماني، فقد قال في دفاعه :

«إن هذا الرجل في الحقيقة لا يكاد يكون رشيدا، فقد نشأ في مدينة من مدن الشمال، تدعى مانهايم، ولم ير فيها غير الأمثلة السيئة التي قدمها أمامه مواطنوه الهمج».. إلى آخره.

والواقع أن العديد من الفرنسيين ينظرون إلينا نحن الألمان، فيما يتعلق بالحضارة، كما لو أننا لا نزال نعيش في عصر قوطينا غايزريك[1].

وتركت العربة سانت ليوني، وسارت بنا عبر أراض خصبة، استغل بعضها، وتناثر فيها العديد من قرى المعمرين. والواقع أن عملية استغلال الأراضي قد نجحت في منطقة وهران أكثر مما نجحت في أية منطقة أخرى من مناطق الجزائر. ألا يعود السبب في ذلك إلى أن هناك زيادة على ممثلي «أكثر أمم الأرض تمدنا»، عددا كبيرا من أبناء الأمم الأخرى، مثل الأندلسيين والسويسريين والألزاسيين وحتى من الروسيين الهمج، قد استوطن هذه المنطقة وكان أكثر صلاحية إلى حد كبير لاستغلال الأراضي وتعميرها.

وكانت ميفسور، وهي مستعمرة أنشأت سنة 1848، أول ماوقعت عليه أنظارنا، ثم وصلنا إلى قرية سان كلود (قديل) المهمة، التي أنشأت بمرسوم وزاري عام 1846، ويتراوح عدد سكانها فيما بين 7 و 8 آلاف نسمة، من بينهم عدد كبير من الأجانب، يعود إليهم الفضل الأكبر في تطورها وازدهارها. وقد بنيت بصورة منتظمة ومناسبة إلى حد ما، فالدور كلها خاضعة لنسق واحد،لها طابق واحد وحديقة صغيرة، وبهذه القرية الصغيرة مسرح، تظهر فوق منصته من وقت لآخر مغنية رديئة إلى حد رهيب، مرسلة من «المقهى المغني» بوهران، وتدهش المعمرين المرحين بصوتها الأحن الصارخ.

في هذه القرية أخذت العربة، التي لم تكن تحتوي حتى تلك اللحظة إلا على مخلوقات متواضعة، مسافرا جديدا حسن الهندام أنيقة، بدأ يضحك جيراني، وهم قسيسان وقابلة، بنكته الغزيرة، وسرعان ما عرفنا أن هذه الشخصية ليست سوى طباخ فندق سان كلود، الذي عزل من

---

(1) ملك قوطي (428 – 477) هاجم إفريقيا سنة 421 وأسس الإمبراطورية الفندالية في قرطاجنة وحارب رومة إلى ان استولى عليها سنة 455. (م).

منصبه، عبقري فذ، لم يكن العالم جديرا به! كان نورمانديا، واعتقد انه كان أيضا غاسكونيا إلى حد ما، وهما صفتان، اشتقتا من اسمي المقاطعة، وتساويان عند الفرنسيين صفة غشاش وكذاب وشخصية مونشهاوزن[1] إلا أن هذا الفارس المدعي كانت له على الأقل صفة مسيلة، وهي انه كان يعرف تقريبا جميع سكان قرى المعمرين الكثيرةالتي مررنا بها، ويروى عنهم بعض الحكايات.

وكان هذا الشاب الأنيق، رغم تصنعه مثل جميع الطباخين الفرنسيين تقريبا، نموذجا لأبناء تلك الطبقة الفرنسية الجاهلة الفظة، التي يكثر عدد أفرادها للأسف هنا في الجزائر. ومن بين ما تتميز به هذه الطبقة احتقارها للأهالي إلى حد كبير، سواء أكانوا حضرا أم بدوا، عربا أم قبائل، ميزابيين أم بسكريين فهم بالنسبة إليها ليسوا أكثر من خنازير بدوية. وكنت دائما ألاحظ في الجزائر ما يلي: إن الفرنسيين يزدادون كرها للعرب كلما ضعف مستواهم الفكري. كان هذا الطباخ يشمئز من أبناء الجزائريين بصورة مضحكة، وكان يدعي أن لديه ما يبرر كرهه للعرب. فقد خدعه احدهم بطريقة صعب عليه أن ينساها مع انه كان هو الظالم فروى لنا ظلم البدوي المزعوم له. فقد تراهن هذا الطباخ على أنه سيحمل عربيا أو ارتشاء على تناول لحم الخنزير الذي يحرمه القرآن كما هو معروف. ولكي يكسب الرهان دعا احد سكان قرية مجاورة إلى فندق سان كلود. وهناك قدم له طعاما من جملته دجاجة محمرة، كانت في الواقع دجاجة مزيفة، إذ أنها كانت في واقع الأمر عظام دجاج ملبسا بلحم الخنزير بطريقة فنية.

وكان الطباخ يتصور أن العربي لن ينتبه إلى هذه الخديعة، فالدجاج يحل له أكله،إلا أنه أخطأ في هذه النقطة الأخيرة. فالعرب يحل لهم

(1) Munchhau sen بارون الماني (1720-1775) اشتهر بقصصه المختلفة. (المترجم).

حقا أكل الدجاج، غير أنهم لا يأكلون ما يذبحه الكفار. وهكذا أكل العربي كل ما قدمه له باستثناء الدجاجة. فسقط في يد الطباخ وسخر منه أولئك الذين تراهن معهم ما طابت لهم السخرية. ومع ذلك لم يستسلم، ودعا العربي مرة أخرى إلى سان كلود، ووضع أمامه لحم الخنزير المحمر دون مواربة، ووضع تحت الطبق قطعة نقدية من ذوات الخمسة فرنكات، وعده بإعطائه إياها، إن هو أكل لحم الخنزير أمام مراهنيه، مكافأة له والظاهر أن البدوي الذكي انتظر شيئا من هذا النوع، فتزود في النهاية بقطعة من لحم البقر، أخفاها في قلنسوته، وعرف، وقد كان فيما بدا عليه ماهرا في استعمال يديه في الجيوب، كيف يغير لحم الخنزير من فوق طبقه، ويخفيه في قلنسوته، وراح بعد ذلك يأكل لحم البقر، الذي كان المتراهنون يظنونه لحم الخنزير. واعتقد الطباخ أنه قد كسب الرهان. وقام البدوي بعد أن انتهى من تناول طعامه وأخفى النقود في جيبه وانصرف. لقد أحب هذا المسلم السني أن يكسب المال، ولكنه لم يكن يود أن يقال عنه لقد أكل لحم الخنزير، ولذلك توقف عندما وصل إلى الشارع وطلب من المتراهنين أن يأتوا إلى النافذة وحين لبوا نداءه، أخرج لحم الخنزير من قلنسوته، ورمى بها نحو الواقفين في النافذة وقال:

«لقد أردتم في المرة السابقة أن تخدعوني بدجاجة مزيفة، لم تكن سوى لحم خنزير، ولكنكم، لم توفقوا في ذلك. أما الآن فقد خدعتكم أنا بلحم خنزير مزيف، إذ أنه كان لحم بقر، وأخذت نقودكم. إذن، خذوا لحمكم المحمر الدنس، فهو نجس كأرواحكم مقرف كأجسامكم!».

وما كاد البدوي ينتهي من كلماته هذه حتى جرى بعيدا عنهم، ولم يره الطباخ منذ تلك اللحظة، غير أن الطباخ خدع عدة مرات، وسخر الناس منه أكثر مما سخروا منه في المرة الأولى. وكان يستحق ما حدث له. والواقع أنه لا بد أن يكون المرء فظا حتى يستجيد اللعب بالقوانين المقدسة

والتراهن عليها كما وقع في الرهان المذكور. وكان هذا الظلم الكبير هو كل ما ينسبه ابن الأمة العظمى إلى العرب، وقد كرههم من أجله!

كانت قرية كليبر، (سيدي بن يبقى)، التي مرت بها عربتنا المتداعية، مستعمرة أنشئت في منطقة مناسبة بصورة خاصة، هكذا بدت لنا! فالسكان الذين أغرتهم الحكومة بالمجيء إليها لم يستطيعوا العثور على بئر كامل المنطقة، مما جعلها تتخذ بعد حين اسم » مستعمرة العطش« وقد روى لنا رفيق الطريق، الطباخ، أن سكان مستعمرة كليبر، وأغلبهم باريسيون، ومن السهل أن يتصوروا المرء من أي نوع هم، قد اتخذوا من قلة الماء عذرا لشرب الابسنث (وما أكثر انتشاره في الجزائر!) صرفا، فصار العرب الساكنون حولهم يقلدونهم في ذلك قدر المستطاع، رغم أن معاشرتهم للمعمرين لا تزال تتسم بالحيطة والحذر.

وبعد حين استقبلتنا أركول (بير الجير)، وهي مستعمرة أخرى صغيرة، وتقع في منطقة قريبة نسبيا من مدينة وهران، وكانت هذه القرية قد أنشئت في بداية فبراير 1848، وذلك على مرسوم وزاري، وكانت لهذا آخر منشأة ملكية يولية في الجزائر، إذ سقط الملك والوزارة في نفس الشهر. وسكانها يعانون أيضا من قلة الماء.

ويسكن قرية فلوروس (حسيان الطوال) التي أنشئت في نفس الوقت الذي أنشئت فيه أركول، 300 نسمة، وتحيط بها ثلاث قرى أخرى صغيرة، تدعى حاسي بن عقبة، وحاسي عامر، وحاسي بونيف، وقد بنيت كلها بفضل سنة الثورة ولا بد أن تكون فرنسا، كما نرى قد تعبت من أوروبا في تلك السنة بصورة خاصة.

كان السهل الخصب، الذي يمر عبره طريقنا، ينتهي في اتجاه البحر عند جبل السبع. وهذا الجبل هو مرتفع الشاطئ الوحيد، الذي استبدبنظرات

الملاحين على امتداد الشاطئ الساحلي بين رأس فيرا ووهران. وجبل السبع يساعد خيال السائح على التعرف في أشكاله المتميزة الشامخة على صورة جبارة للسبع القوي، الذي اتخذ الجبل منه اسمه والحقيقة أن العرب أطلقوا عليه اسم جبل السبع، لأن شكله يشبه سبعا رابضا. أما الأسبان فقد أطلقوا عليه اسم «جبل القديس أوغستين». ولعل هؤلاء الكاثوليكيين المتدينين قد أرادوا بذلك أن يشيروا إلى أن مكانة أسقف عنابة القديم بين القديسين هي مكانة السبع بين الحيوانات.

وبعدئذ طالعنا منظر البحر الفاخر الذي تحتل فيه وهران، ثاني مدينة في الجزائر،نقطة متميزة، فمدينة وهران تتيح للعين أن تنعم عن بعد بمنظر أصيل نظرا لما لموقعها من غرابة وندرة. إلا أن السائح يندهش في أغلب الأحيان لما لا يتوقع وجوده في الجزائر، أعني كتل التحصينات الأروبية القديمة، التي كانت تحيط بالمدينة الإسبانية من كل جهاتها وتعلو فوقها كانت هذه الكتل الحجرية تبدو وكأنها تريد أن تسحق بحجمها الجبار المدينة التي تبدو صغيرة بالنسبة إليها، أو تريد أن تلقي بالجدران الصخرية المنحدرة إلى أعماق البحر. فليس هناك مدينة جزائرية يظهر عليها طابع العصور الوسطى كما يظهر الآن على هذه التحصينات القشتالية الجبارة، هذه المدينة التي فتحها خمينيس قديما.

كانت هناك سحابة وردية تهتز في السماء حين بدأت العربة تصعد التل المنخفض القريب من المدينة، ولاحت أمام أنظارنا كتل وهران الحجرية القديمة المغبرة فوق سطح البحر الأبيض المتوسط الغامق الزرقة. كانت تلك السحابة الصغيرة المذهبة تحوم في الفضاء، وكان يبدو عليها وكأنها تسخر في عليائها الأثيرية من تلك الأعمال البشرية التي تقبع تحتها بكل ما لها من ثقل وضخامة.

الفصـــل الخامس

وهـــــــران

فتح الاسبان لوهران - الكاردينال خيمينيس - تعصبه - وحشية الاسبان - استرجاع المسلمين لوهران - يهود وهران - ثراؤهم وغرورهم - المدن الثلاث - شارع فيتولا كاديويكا الجميل - اسم وهران القديم - المرسى الكبير - بورتوس ماغنوس.

إن وهران، عاصمة الولاية التي تحمل نفس الاسم، يمكنها، بالنظر لطبيعة مبانيها، أن تكون في أروبا، دون أن يلاحظ المرء أية غرابة عليها. فليس هناك في الجزائر كلها مدينة فقدت طابعها العربي مثلما فقدته مدينة وهران. وقد يقال طبعا إنها لم يكن لها أبدا هذا الطابع بصفة تامة، حيث بقيت بأيدي الإسبان حتى نهاية القرن الماضي، وبذلك فهي لم تبق تحت حكم داي أكثر من ثلاثين سنة.

ولا تزال بقايا التحصينات الكثيرة والقلعة الإسبانية التي تعود إلى القرون الوسطى تذكرنا بعصر ذلك الراهب الفرانسيكاني النادر، الكاردينال خيمنيس، الذي ضم وهران عام 1509 لأول مرة إلى التاج القشتالي، بعد أن فتح المرسى الكبير، ميناء وهران، بأمر منه قبل ذلك بأربع سنوات على يد الدون رايموندو القرطبي، وتم احتلاله وكان هذا الوزير المسن، رغم المعارضة التي لقيها من طرف مجلس الوزراء، ورغم أن إسبانيا كلها تقريبا استخفت بمشاركة الراهب الهرم في ثوب الكاردينال ن قد أصر على أن يقود الحملة بنفسه ضد وهران ووصل لهذا الغرض إلى المرسى الكبير القريب من المدينة. وبدأ يعد العدة لمحاصة وهران وغزوها.

أجل! وحين طلع نهار اليوم المحدد للهجوم، تقدم الجيش، دون أن يتسلح بغير الصليب،ذلك السلاح الذي يعتبر أقوى أسلحة الأرض كلها، وأراد أن يبدأ الهجوم بهذه الصورة، غير أن الضباط الاسبان وجدوا أن

بقاءه في المقدمة مع رهبانه يعيق القوات المسلحة أكثر مما يساعدها على أداء مهمتها. ولم يستطع قائد الجيش البارون نافروا أن يقنع ذلك الراهب الشيخ، الذي ثارت حميته للحرب فجأة، بالعودة إلى المرسى الكبير وإشغال نفسه بالأناشيد الدينية ريثما يتم فتح وهران، لم يستطع أن يقنعه إلا بمشقة. وقد استسلمت المدينة دون مقاومة تذكر ولا يمكننا أن نفهم لماذا سقطت وهران بسرعة إلا إذا أرجعنا ذلك إلى الخيانة.

والواقع أن الكاردينال خيمنيس، رغم ثقته في فعالية الصليب الذي كان يحمله، لم يستهن بفعالية الرشوة أيضا، إذا حاول أن يكسب يهوديا من سكان المدينة إلى صفة عن طريق المال، فوعده اليهودي بأن يسلم للإسبان قلعة مهمة تحمي مدخل المدينة، ووفى بوعده وقد سميت تلك القلعة باسمه حيث أطلق عليها العرب اسم «برج اليهودي»... بينما يسميها الفرنسيون «قلعة لامونا».

وكان قائد القصبة العربي قد رفض أن يسلم نفسه لغير الكاردينال نفسه، ولذلك أرسل نافروا سفينة إلى المرسى الكبير بسرعة لتحمله إليه.

وحضر اكبر فقهاء المسيحيين، وهذا هو الاسم الذي أطلقه العرب على خيمنيس،وبعد أن استولى على القلعة والمدينة، لم يعرف أي عمل يستدعي سرعة التنفيذ غير اتخاذ تدابير تدل على عنصريته وتعصبه. فقد حول الجامعين الرئيسيين إلى كنيستين، وانشأ ديرين لتنصير المسلمين ونصب مفتشا لمتابعة اليهود والزنادقة. ولم يتورع الإسبان المتدينون، هؤلاء المسيحيون الطيبون، الذين نشأوا بين مراسيم إعدام الملحدين حرقا، عن نهب المدينة، وعن ذبح الآلاف من حضرها.

ورغم همجية الاسبان وعنصرية الوزير المسيحي الهرم، فقد استطاع الحكام الأوائل، الذين حكموا المدينة المحتلة، أن يكسبوا ود بعض القبائل

عن طريق المعاملة الحسنة والتدابير السديدة، وعقدوا حلفا معها، وأطلقوا عليها اسم «حضر السلام Moros de la paz»، وقد بقي هؤلاء الحلفاء مخلصين لأسبانيا إلى أن طردهم الأتراك إلى داخل البلاد. واستطاع أولئك الحكام فوق ذلك أن يدفعوا ملوك تلمسان إلى الاعتراف بسيادة قشتالة.

غير أن قوة أتراك الجزائر المتزايدة سرعان ما بدأت تزاحم النفوذ الأسباني في المغرب. وأخذت الحكومة القشتالية تضعف شيئا فشيئا، ولم تستطع في النهاية المحافظة على وهران إلا بمشقة. ومع ذلك دام الاحتلال الأسباني الأول لوهران قرنين من الزمان. وإلى تلك الفترة تعود هذه التحصينات الضخمة، التي كلفت الأسبان أموالا طائلة. وقد قدرت تكاليفها، لو بنيت في أيامنا هذه، بحوالي أربعين مليون فرنك.

وقد عرفت وهران في الفترة الأولى للإحتلال الأسباني ازدهارا لم تطل مدته. فالكتب التاريخية تحدثنا أن كبار إسبانيا وجنوب إيطالياكانوا يلتقون في وهران شتاء. فكانت حياة البذخ والترف واللهو تسيطر على المدينة. ومن هنا أطلق عليها الأسبان اسم «القصر الصغير La corte chica» وعندما وقعت حرب الوصايا الأسبانية سنة 1708 وعمت الفوضى البلاد، استرجع المسلمون وهران، ولكن البارون Montemar احتلها عام 1732، فألحقت مرة أخرى بالتاج القشتالي. وفي سنة 1790 وقع زلزال بوهران فتهدمت كلها تقريبا، وبقيت تلك التحصينات الجبارة وحدها شامخة. ثم قدر لحكومة كارلو الرابع الخير الساذج وربيبه العاجز، أمير السلام، أن تفقد، لضعفها، هذه المدينة الساحلية سنة 1794 بصفة نهائية.

وترك الأسبان المدينة طوعا عندما احتلها المسلمون، ولم يبق فيها سوى إسباني واحد، وهو ساعاتي، أبي أن يترك مسقط رأسه. وقد عامله الحضر معاملة حسنة، وحين احتل الفرنسيون وهران سنة 1830 وجدوه لا يزال على قيد الحياة وفي حالة جيدة. وكان هذا الاسباني هو الأوروبي

والمسيحي الوحيد، الذي عاش في هذه البلاد بصفته احد رعايا الحكومة التركية في أيام داي الجزائر الأخير، بل ربما في أيام السيادة الإنكشارية التي دامت ثلاثمائة سنة.

ولم يستوطن العرب وهران بصورة حقيقية أبدا، فباستثناء المسجد والحمام العربي لا يوجد فيها شيء يدل على امتلاكهم الثاني لها، الذي دام أكثر من ثلاثين سنة. وهم يكونون الآن أقلية بين السكان. فأغلب سكان وهران من الأروبيين والأهالي من اليهود. وتكاد التجارة تكون محصورة في أيدي اليهود، وأصل القسم الأكبر منهم من المغرب، وكان أجدادهم من يهود إسبانيا الذين طردهم منها فيليب الثاني، واحتفظوا بلغتهم الإسبانية ومأثوراتهم وتقاليدهم. وعدم استقرار الملكية تحت السيادة المغربية هو الذي دفع الكثير منهم إلى الهجرة إلى وهران.

وهناك من بين يهود وهران من يتمتع بقسط من جمال الجسم وتناسق الملامح، وقد لفت انتباهي ذلك لأن يهود المغرب، الذين يفصلهم عنهم في الغالب جيل واحد، قبيحو المنظر إلى درجة رهيبة. ويهوديات وهران جميلات مثل يهوديات المغرب، على العكس من يهوديات الجزائر اللواتي يتميزن بالقبح. ونظرا إلى أن يهود وهران أغنى بكثير من يهود الجزائر،ونظرا إلى أنهم بالإضافة إلى ذلك لا يتعرضون هنا لملاحظات الحضر المهينة، لانعدام هؤلاء فإن هذا الوضع قد سمح لليهود بالمبالغة في التأنق في جميع المناسبات.

لقد رأيت اليهود يلتمعون وسط جميع الألوان، مرتدين أغلى الثياب، مستعرضين نوعا من البذ ج، يصفه المرء عندنا في ألمانيا بأنه « شرقي » مع أن مثله لا يكاد يوجد في الشرق، موطن التمزق والرثاثة والوساخة! وهكذا فإن اليهودي لا يخلو من الغرور رغم سيطرة الروح التجارية عليه.

وتقوم الحادثة التالية، التي قد لا يكون لها مثيل في البلدان الأخرى، على مدى حب اليهود للظهور. فقد حدث قبل مدة قصيرة أمر غريب وهو أن فرنسيين مسيحيين تزوجا يهوديتين وتهودا، ولعلهما فعلا ذلك لكي تسهل علهما المعاملات التجارية مع اليهود الإسبانيين المغاربة المتعصبين!

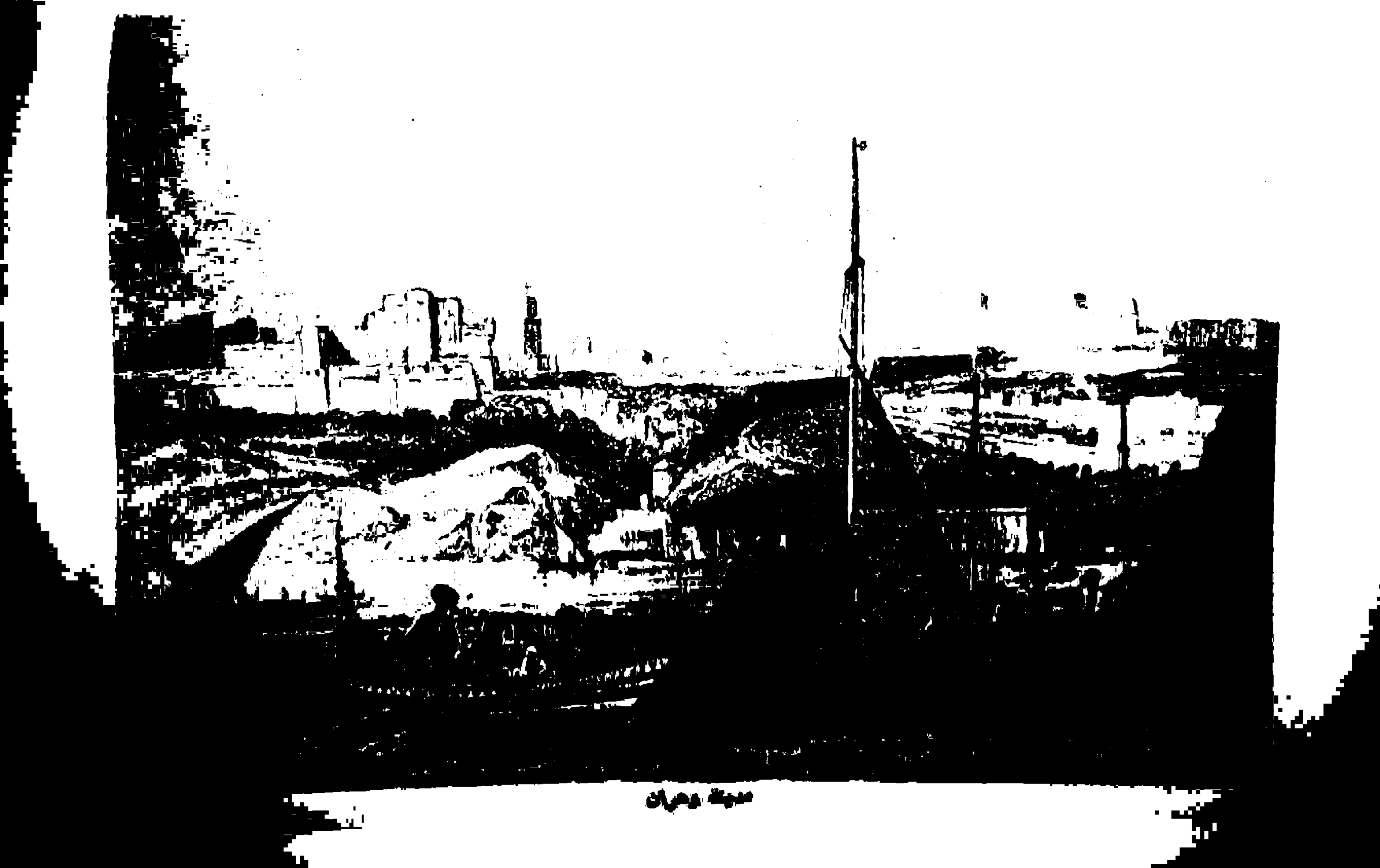
وليس في معاشرة يهود وهران ما يزعج، فقد وجدتهم لطفاء كرماء، إلا أن لهم هوسا غريبا خبرته بنفسي، فهم يتصورون أن بعض الأروبيين، اللذين يتصلون بهم،يهود مرتدون أو يهود أصلا يخفون حقيقتهم. وذلك ما حدث لي شخصيا. فقد ذكرت لهم ذات يوم في أثناء الحديث أني أعرف العبرية كما أعرف اللغات الشرقية الأخرى،فاعتبروني منذ تلك اللحظة واحدا منهم، ولم أستطع إقناعهم بغير ذلك. واخبروني أن كثيرا من يهود أروبا يتنصلون من يهوديتهم حين يسافرون حتى يتجنبوا الإهانات التي توجه إليهم في كثير من البلدان، وعلى هذا لا بد أن أكون واحد منهم، وإلا فإني، ما كنت لأتعلم العبرية. وقد يكونون على حق في هذا. فالمرء لا يعثر على مسيحي واحد من بين مليون فرنسي تعلم العبرية. فإذا استثنينا العدد القليل من العلماء الذين يعرفون الفينيقية في فرنسا، فإنه في اعتقادي من الصعب العثور على شخص غير يهودي يحسن قراءة العبرية والترجمة عنها.

وقعت لي في وهران حادثة مقلقة، فقد سرقت فيها، ولكني لم أسرق بالطريقة العادية التي يقرها القانون، حيث يسرق السائح يوميا من طرف صاحب المحل، ومن طرف الدليل، ومن طرف كل إنسان يتعامل معه ماليا بمقدار عشر مرات وإنما سرقت بطريقة واضحة ملموسة. وأصبحت ضحية لأول نوع من أنواع السرقة،تعتبر بقية الطرق فروعا له. وقد تمت سرقتي بصورة في منتهى الوضوح.

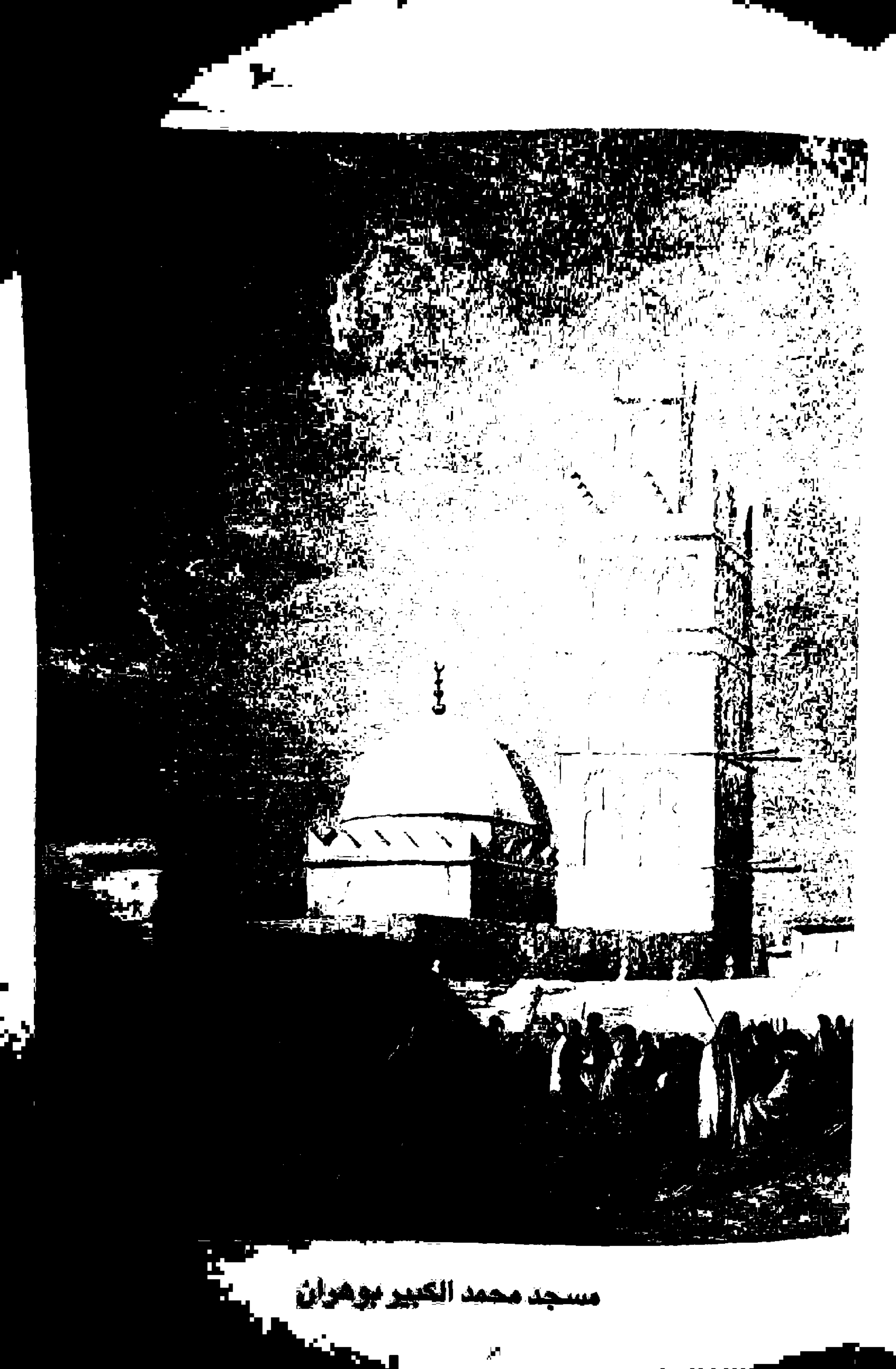
كنت قد ذهبت إلى الحمام، ونسيت ويا له من ذنب، ذنب كبير ارتكبته! mea culpa, mea maxima culpa ـ أن أقدم محفظة نقودي وبقية أشيائي الثمينة، كما جرت العادة، إلى مراقب الحمام. فعندما عدت من الحمام إلى قاعة اللبس،وجدت جيوبي قد أفرغت وقلبت، فاختفت ساعاتي ونقودي، واختفت كذلك أقفالي المذهبة. وقد وجدت من أتهم، ولكن متهمي لم يكن أيا من العرب الحاضرين،وإنما كان شخصا ذا وجه ماكر، يرتدي بزة «الأمةالعظمى» العسكرية. ذلك أن هذا الشخص كان قد اختفى عندما عدت من غرفة الحمام، بينما كان العرب، الذين كانوا موجودين فيه قبل ذلك، لا يزاولون كلهم نائمين متلففين في برنس لحمام.

ولكي أتأكد من ذلك، أرسلت بسرعة خادما إلى المكتب العربي، وطلبت من خادم الحمام أن يمنع الزبائن، الذين كانوا هناك أثناء السرقة التي وقعت لي، من الخروج إلى أن يعود الخادم. وبعد ساعة من زمان قدم شرطي من طرف المكتب العربي وفتش جميع الحاضرين، ولكنه لم يعثر على شيء. فكان السارق، تماما مثلما ظننت، هو ذلك الجندي الفرنسي الذي اختفى. وكنت أعرف رقم كتيبته، فكتبت أوصافه، وذهبت بها إلى ضابط المكتب. فقد كان يظن أن الجندي قد هرب إلى المنطقة العسكرية التابعة للمكتب. وأكد لي الضابط أنه سيستعيد نقودي. ولكني انتظرت حتى الآن عبثا، وسوف أنتظر أيضا مدى الحياة دون جدوى!

موقع وهران غير منتظم، والمدينة تتكون في الواقع من مدن صغيرة متعددة، تفصل بينها هوة عميقة إلى حد ما، يسيل عبرها وادي الرهي. ولا شك أن المدينة الأسبانية القديمة التي أعيد بناؤها اليوم، من أجمل أقسام المدينة. ففيها بناية البحرية والمستشفى العسكري والكنيسة الرئيسية، وهي إسبانية في الأصل. أما القسم الفرنسي الأعلى من المدينة فيحتوي على الثكنة وبعض البنايات العامة، ويحتوي كذلك على أحسن



مدينة وهران



مسجد محمد الكبير بوهران

الفنادق والمقاهي. ويقع حي الأهالي من اليهود ومن عرب المدينة، الذين يسكنون وهران، قرب هذا القسم الأخير من المدينة. وهو حي قذر قبيح، إلا أن شارعه الرئيسي قد يكون أكثر شوارع المدينة حركة ونشاطا.

وهناك منتزه يبتدئ من القسم الأعلى للمدينة ويمر بالتل الشرقي، ويقدم للنظر منظرا جميلا للبحر يبدو عن بعد. ولهذا المنتزه شارع عريض مشجر بني قبل سنوات قليلة، ومع ذلك نمت أشجاره وأصبحت ذات ظلال وارفة. وقد لا تكون هناك شجرة واحدة من أشجار المنطقة المعتدلة تنمو بالشكل الذي نمت به أشجار هذا المنتزه. وهذه الأشجار من نوع اللكية، التي أطلق عليها الإسبان لظلها الوارف اسم ذات الظل الجميل. وتتخلل أوراقها الكبيرة، التي تشبه أوراق أشجار الكرز، عروق حمراء وردية اللون. براعمها عبارة عن عناقيد طويلة متكاثفة وموزعة في أعداد ضخمة بين الأوراق. ويعد هذا المنتزه المورق من أجمل منتزهات الجزائر، التي يقل مثلها حتى في العاصمة نفسها.

من هذا المنتزه يرى المرء قسما من البحر الأبيض المتوسط، تحيط بأعلاه صخور شامخة، يتكون منها المرسى الكبير، الذي عرف الرومان أهميته فأطلقوا عليه اسم Portus Magnus أما في الناحية الغربية من وادي الرهي فيظهر جبل مرجاج، الذي يبلغ ارتفاعه ألف قدم، وفوق قمته قلعة قلعة تحمل نفس الاسم وتعود إلى القرون الوسطى. وتوجد فوق الجبل نفسه وفي نفس العلو قلعة « سان غريفوريو » القشتالية أيضا. ويحيط بالمدينة الأسبانية الحصينة من كل جهة عدد من الحصون مثل القلعة الجديدة، والقلعة القديمة، وقلعة « سافنا انوربيا » و« سانتو فيليبه »، وكل منها صالح لحماية مدينة متوسطة العجم. وبهذه الحصون الشامخة فوق البحر تتخذ المدينة منظرا في منتهى الروعة.

وقد يكون من الصعب أن يصدق المرء أن وهران رغم أهميتها هذه لا يسكنها إلا 21.000 نسمة، منهم 4700 من الفرنسيين، وحوالي 8000 من الإسبان، و 1000 من ذوي الجنسيات الأروبية المختلفة، و 7000 من الأهالي، أغلبهم من اليهود.

وليس في وهران ونواحيها، إذا استثنينا المنتزه المذكور، نباتات كثيرة. فالتلال والجبال لا تكاد تعرف الأشجار. أما المنحدرات التي تحد التلال الصخرية، التي تقع المدينة فوقها، فتوجد بها نباتات وأشجار كثيرة فاخرة، كالصبار والباهرة والرومان والدفلى الشامخة، كما توجد هنا وهناك أشجار النخيل التي يندر وجودها في التل.

ولم يتفق العلماء بعد على اسم وهران القديم، فمنهم من يرى أنها هي Unica colonia الرومانية، ومنهم، أمثال Pelissier و DAvezac من يزعم، وقد يكون على جانب كبير من الصواب، أن وهران تحتل مكان Quiza municipium التي جاءت في خريطة الطرق. وهذا الرأي الأخير يرجحه بطليموس الذي يسمى وهران Viza colonia، فهو يذكر أن Viza تقع على مسافة 10,20درجة شرق Siga (مصب التافنة). ووهران تقع طبعا على بعد 40 درجة فقط شرقي مصب التافنة). غير أن تقديرات بطليموس فيما يخص قسا من إفريقيا، وهو ما يدعى اليوم باسم الجزائر، يجب أن تخضع للنقصان. فإذا نحن قسنا درجات المدن، التي لم يعد هناك اليوم شك في موقعها، وذلك حسب المسافات المذكورة عند بطليموس، فسوف نجد فوق خرائطنا أن خط الطول المضعف عند بطليموس ليس في الحقيقة سوى خط بسيط واحد. وقد وصلت إلى هذه النتيجة بعد مقارنة خطوط الطول عند بطليموس بخطوط الطول الحقيقة. وهذا خاص بالجزائر طبعا، فتطبيق مثل هذه المقارنة على البلدان الأخرى سيؤدي إلى نتائج مختلفة فيما يخص خطوط الطول الحقيقية وخطوط الطول عند العام الاسكندري.

أما إذا اكتفى المرء بنصف خطوط الطول التي ذكرها بطليموس فإن فيزا Viza تقع في المكان الذي تقع فيه وهران.

ومع ذلك فإن بيربروجير يعتقد أن وهران مدينة عربية. وكيفما كان الأمر فإنه لا ينبغي لنا أن نبحث عن Quiza القديمة في مكان بعيد، فقد أطلق عليها بلينيوس[1] Plimius اسم مدينة الغرباء.

ومما لا شك فيه أن Quiza أنطونين، وViza بطليموس هي أيضا Guidia التي وردت في تاريخ الكنيسة. فقد ذكر التاريخ أسقفين من مدينة Guidia.

وقعت وهران في أيدي الفرنسيين سنة 1830 وأصبحت ملكا لهم منذ ذلك الحين. وليس للمدينة نفسها ميناء مأمون، ولذلك فميناؤها هو المرسى الكبير الذي يبعد عنها بحوالي 8 كلم. وهو جدير بالزيارة، فالمرء يتجه إليه عبر منعرجات تتخلل ما بين الساحل المرتفعات الجبلية والصخور المغطاة بالنباتات في بعض جوانبها. وتتولى القلعة الأسبانية القديمة «برج اليهودي» حماية هذا الطريق. وفي منتصف الطريق يمر المرء بباب صخري، وهو نفق طبيعي يفضي في الجانب الآخر إلى مدينة المرسى الكبير الصغيرة الجميلة.

وميناء وهران هذا يحي نسبيا عددا كبيرا من السفن، لأن وهران تعتبر المدينة التجارية الثانية في الجزائر.

وكان العالم الأثري الانجليزي الدكتور شو قد عرف قبل أكثر من مائة سنة أن المرسى الكبير هو Portus Magnus الروماني. واسمه العربي اليوم هو ترجمة للاسم الروماني القديم. وقد تحدث Plinius عن مدينة رومانية صغيرة، توجد في شبه الجزيرة الواقعة شمالي المرسى الكبير. ويعتقد Mannert أن المرسى الكبير هو Sinus Laturus الذي ذكره Mela.

---

(1) عالم طبيعي روماني، عاش في اقرن الاول الميلادي، ووضع موسوعة عن التاريخ الطبيعي دلت على كثرة اطلاعه وتنوع معارفه (م).

وقد تحدث ابن حوقل في القرون الوسطى عن حصانة المرسى الكبير، وتأكد ثناؤه منذ ذلك الحين كل التأكيد. هناك فقط ريح برية، تأتي من الجنوب، ويطلق عليها الأسبان اسم الريح الترابية، ولعلها هي ريح السموم المعروفة اليوم، ويقال إنها تغدو خطيرة على السفن إذا هي هبت قوية بصورة خاصة.

الفصل السادس

عين تموشنت، حجر الروم

السفر من وهران إلى تلمسان - السبخة - عين تموشنت - تيميسي كولونيا - منظر فوق عنق تيزة - حجر الروم - الحمراء - منظر تلمسان الأول من جبل بن مليح - ميدان معركة الزقاق - منظر تلمسان عن قرب.

يمكن أن ينم السفر من وهران إلى مدينة تلمسان، التي ازدهرت واشتهرت في القرون الوسطى، بواسطة العربة، ولكني فضلت أن أقوم بهذه الرحلة على ظهر الحصان، لأن السفر بهذه الطريقة يسمح للسائح بمشاهدة النقاط المهمة البعيدة عن الطريق، وهي ليست قليلة فوق هذا الطريق الروماني. وقد ذكر الإدريسي في كتابه. «نزهة المشتاق» (ترجم تحت عنوان Géographia Nubienenis، ونشر في باريس عام 1719) أن وهران تبعد عن تلمسان بمرحلتين كبيرتين أو صغيرتين. وقد وجدتها كذلك. وبدأت رحلتي، بعد أن زودني المكتب العربي بحصان وبغل يحمل أمتعتي، وصبائحي لمرافقتي، في مطلع شهر جوان، وأخذت طريقي نحو عاصمة المغرب القديمة. وكما كان محتما أن يرافقني صبائحي، رافقني كذلك عدد من العرب في أسمالهم البالية، فالملاك يرافق بغله الذي أجره، لأنه لا يريد أن يغيب عن نظرة لحظة واحدة، فهو ثمين بالنسبة له ولو كان حيوانا هزيلا. وانظم إلينا أيضا تاجر من حضر مدينة تلمسان. وكان هذا التاجر، وهو مواطن مثقف إلى حد ما، يركب بغلة الذي اشتراه من وهران. وكان يتبعه أيضا عدد من العرب في أسمالهم البالية، لم أتوصل إلى معرفة صلته بهم.

وسارت القافلة الصغيرة في صبيحة اليوم الأول نحو الجنوب الغربي من مدينة وهران عبر سهل خصب تتخلله قرى المعمرين الأروبيين الكثيرة.

وبلغنا حوالي العاشرة قرية ميسرغين الواقعة على وادي بريدية قرب السبخة، ويسميها الأسبان Rio Saldo ويبلغ عدد سكانها 1300 نسمة، ويقدر طول هذه السبخة بحوالي 28 كلم، وهي تمتد في اتجاه الشرق ابتداء من ميسرغين. ويجف القسم الأكبر منها في فصل الصيف، وليس بها الآن سوى كمية قليلة من الماء مع أن فصل الصيف لم يكد يبدأ.

وقد شاهدت على ضفاف هذه السبخة مجموعة كبيرة من الطيور الغريبة، لم يسبق لي أن رأيت في الجزائر تجمعها بمثل هذا العدد الضخم، وهي الجبارى الصغيرة، التي كانت تطير صارخة فوق السبخة. وكانت تقوم على ضفة السبخة نباتات الشوك الأحمرالباهتة اللون.ونباتات السبخة تكتسي، على غرار نباتات البحيرات المالحة، التي رأيتها فيما بعد في الجزائر، رداء رماديا نتيجة للأبخرة المتصاعدة مع الملح.أما نباتات القصب والحلفاء فكانت معدومة هنا تماما. ومع ذلك فهناك على مسافة من ضفة البحيرة أدغال الأريليات الخضراء ذات البراعم الملونة الجميلة. وكانت المنطقة التي تحيط بالسبخة منبسطة باستثناء جبل الغامرة الأبيض الملتمع، ويسميه الأسبان مونته سانتو Monte Santo ويستخرج منه الملح، وموقعه جنوب ميسرغين.

وفي أيام الإدريسي كانت هناك مدينة بهذه الناحية، أطلق عليها هذا الجغرافي العربي الصقلي اسم قصر ابن سنان، ويبدو أنها اختفت بعدئذ من ضفاف البحيرة المالحة.

وعلى بعد حوالي نصف ميل من ميسرغين استقبلتنا قرية بوتليليس، وهي مستعمرة أروبية، يبلغ عدد سكانها 500 نسمة، وراحت تحيينا من السهل الهادىء بجميزها الجميل.

وكان آخر مكان مررنا به على ضفة السبخة يحمل اسم سيدي البارودي، وينتهي عنده غربا سهل مليته الواسع الخصب، الذي يمتد جنوب البحيرة،

وبهذا السهل توجد حول البحيرة مساكن أولى القبائل العربية التي تحالفت مع الفرنسيين وهي الدوائر والزمالة وعانت من القبائل الأخرى أثناء حربها مع الأمير عبد القادر، بسبب تعلقها بالكفار وإخلاصها لهم.

وكثيرا ما كانت هذه القبائل، الدوائر والزمالة، سببا في تجدد الحرب بين الأمير عبد القادر وبين فرنسا،لأن الأمير كان يدعى أن هذه القبائل خاضعة له بمقتضى الاتفاقيات التي تم التوقيع عليها، وهو ما لم يتم الاعتراف له به لا من طرف حاكم وهران ولا من طرف القبائل المذكورة ويعود السبب في كره الدوائر والزمالة للأمير عبد القادر إلى أنهم ينحدرون جزئيا من أصل تركي أو كرغلي. وهكذا لم يكن الأتراك وحلفائهم يريدون أن يعرفوا شيئا عن الأمير.

كان أتراك الجزائر، والكراغلة، بل حتى حضر العاصمة الأصلاء والمثقفون، يحتقرون الأمير ورعاياه ويصفونهم بالقسوة والهمجية. وكثيرا ما كان أصدقائي من حضر الجزائر يقولون، حين أحدثهم عن الأمير: «عبد القادر كان سلطان الحمير، ماشي سلطان بني آدم». وعندما يسأل المرء الجزائريين من سكان العاصمة أي نوع من الحكم يفضلون الحكم التركي أو الحكم الفرنسي أو حكم عبد القادر، فإنهم يجيبون جوابا قاطعا، وهو أنهم يفضلون على أية حال الحكم الفرنسي على حكم الأمير ورعاياه الغلاظ، ولكنهم لا يعدولون بحكم الأتراك حكما آخر. فالأمير لم يكن له أصدقاء في عاصمة الجزائر. أما في دمشق فيطلق عليه الآن، لأنه غني ولأن الأغنياء كلهم في الشرق يتملقون بصورة مضحكة، اسم «سلطان الجزائر» حقا، لقد احتج بعض الجزائريين، الذين التقيت بهم في الجزائر عند الحاج أحمد، على استعمال هذا اللقب بعضب واتخذت ملامحهم شكلا غريبا!

وتبعد عين تموشنت عن سيدي البارودي بحوالي 28 كم وعن وهران بما يناهز 70 كم، ومع أن هذه المسافة كانت بعيدة إلى حد ما بالنسبة للخيول الإفريقية العربية،فقد استطعنا أن نقطعها في يوم واحد، لان ظروف الرحلة كانت أحسن بصورة استثنائية، وقد بذل العرب الراجلون أقصى جهدهم أيضا. وكنا نرى على جانبي الطريق أكواخ قبيلة بني راشد المنتصبة بين أشواك السهل وأحراشه.

وكانت عين تموشنت، التي وصلناها في المساء، مستعمرة أروبية، يتراوح عدد سكانها فيما بين 700 و 800، وتتجمع حولها على مسافات قصيرة أو بعيدة قبائل أولاد جبار وأولاد تموشن وأولاد زاير. وتقع كما برهن على ذلك O.Mac Carthyفي مكان Timici Colonia الرومانية التي وصفها Plinius بأنها بلدية يسكنها اللاتينيون، ورغم ما يبدو من أن Timici Colonia كانت لها أهميتها، فلم يتم العثور حتى الآن إلا على آثار قديمة قليلة.

وذكر غيسينيوس Gesenius أن اسم Timici فينيقي، وهو مشتق من «بيت ايمك»، وبعني بيت الوهدة.

وذكرت Timici في القرن الخامس بصفتها أسقفية، وقد حدثنا التاريخ عن اثنين من أساقفتها.

وقد شاهدت شرقي القرية الحالية بقايا أسوار رومانية، أعتقد أنها بقايا مقبرة من المقابر، وأهم ما عثر عليه في عين تموشنت الرسم الذي اكتشفه ديفرني Duverney عام 1840 والذي يمثل موت كيلوباترا،وتبدو الملكة المصرية الجميلة فيه وهي بصدد تقريب الحية السامة من صدرها، وهناك عبد يمسك أمامها برأس حبيبها ماركوس أنطونيوس، وكأن إظهار موته بهذه الصورة هو الذي حمل الملكة المقهورة على الانتحار. وينتصب

تمثال ماركوس أنطونيوس النصفي في كوة أمام الملكة المتهاوية. وقد حمل المكتشف هذا الرسم، وهو في حالة جيدة، إلى وهران، حيث وضع أيام إقامتي بهذه المدينة في أحد الممرات بالقلعة، لأن وهران ليس لها للأسف متحف. وعثر أيضا على رسم آخر في عين تموشنت، يمثل مشهدا من مشاهد إله الخمر، باخوس، ولكنه لسوء الحظ فقد نتيجة لجهل المعمرين الفرنسيين، أو حطم من طرف الفندال المحدثين بما لهم من عبث ومجون!

وغادرنا في صبيحة اليوم التالي عين تموشنت،وكان في نيتنا أن نصل في اليوم نفسه إلى تلمسان، إلا أننا لم نتمكن من ذلك، كان الطريق يصعد بنا إلى أن بلغنا جبلا يصل ارتفاعه إلى ألفي قدم، وهو ممر تيزه، الذي بنيت فوقه عام 1855 قرية المعمرين الصغيرةعين خيال، ومن فوقه يستطيع القادم من وهران أن يكتشف آفاقا جديدة للثروة. فقد كان سهل وادي يسر الخصب يمتد تحت سفحة، وكان في إمكاننا أن نتتبع مجرى الوادي حتى مصبه تقريبا في وادي التافنة الأكبر منه. أما في الجنوب فكان ترتفع جبل بن مليح، الذي حجب عنا منظر تلمسان، ولكنه لم يحرمنا من منظر الوهاد على الجانبين، وخلفه ترتفع في علو اكبر قمم الجبال الصخرية الشامخة التي تقع جنوب تلمسان، وهي جبل السطار، وارتفاعه 4000 قدم، وجبل العساس، وارتفاعه 5000 قدم، ثم جبل بني عباس، وهو أكثرها ارتفاعا. وهذه الجبال الجميلة الشهباء الواقعة بين المغرب القديمة والصحراء تبدو وكأنها تحرس الطريق المؤدي إلى الصحراء وإلى بلاد السودان الصفراء.

ونزلنا بعد ذلك إلى سهل وادي يسر الخصب، وهو يحمل اسم مجونة. وكان المنجل العربي يحصد في ذلك الوقت سنابل القمح الذهبية. كانت هناك مئات من الفتيات السمر، يطفن بالحقول الجميلة وبأيديهم مناجل بشكل الهلال، والمنجل في الوقت نفسه رمز لعقيدتهن فيحنين جانب

القاطع، ويجمعن بحركة مناسبة السنابل المثقلة بالحبوب في حياكهن البيضاء : كان المنظر أغنية شرقية رائعة، لا يمكن أن ننعم بها إلا في وقت الحصاد، فالأعمال الأخرى التي تتم في الحقل بعيدة عن أن تقدم لنا مثل هذه الصورة الجميلة.

وهنا انفصلت عن مرافقي التاجر العربي سيدي الموهوب، الذي دعاني، عندما ودعني، إلى زيارته عند وصولي إلى تلمسان وهذه ليست نعمة نادرة بالنسبة لأروبي، وإذاك ابتعدت عن الطريق وواصلت رحلتي على امتداد الوادي الفضي لأشاهد حجر الروم الذي يبعد عن تلمسان بمسافة عشرين كم تقريبا. وكانت ضفاف وادي يسر تحتوي على نباتات جميلة. فأحراش عصلة الشرق تعرض براعمها الناعمة الفاخرة،وإلى جانبها ينتصب السولع المشجر بسيقانه العالية وبأوراقه الخضراء التي تزينها أزهار حمراء كبيرة، وفي جهة أخرى ينمو في ظل أشجار الصنوبر القطلب الشائع، الذي تشبه ثماره الحمراء البارزة فوق أوراقه القاتمة التوت الأرضي الكبير الحجم، إلا أنها بعيدة عن أن يكون لها طعمه. وكان هناك جيش من الطيور الغريبة يجتاز سماء الحقول الضاحكة، منها طيور أبي بليق.

وحجر الروم، كما برهن على ذلك ماك كارثي Mac Carthy في أعماله الممتازة عن ولاية تلمسان، هو مكان المستعمرة الرومانية القديمة Ad Rubras (الحمراء)[1].

ولا شك أن الاسم القديم مشتق من الأرض الحمراء الغالبة على هذه المنطقة، ولا يزال الأهالي إلى يومنا هذا يطلقون على السهل القريب منها اسم الساقية الحمراء.

ويعتقد ماك كارثي أن الحمراء المذكورة في خريطة الطرق هي أرينا Arena أو Arina التي جاء ذكرها عند بطليموس وفي كتاب تاريخ الكنيسة.

---

(1) حرفيا : إلى الحمراء.

فقد تقدم أسقف أرينا الكاثوليكي أمام مؤتمر زعماء الكنيسة، الذي عقد بقرطاجنة سنة 411، دون منافس دوناتي، وهتف حين قرئ اسمه : هاأنذا، والوحدة تسود أسقفيتي[1] ولم يستطع قول هذا في مجمع زعماء الكنيسة إلا القليل من الأساقفة الكاثوليكيين. فقد كان هناك عادة دوناتيون دون أن يكون لهم في أسقفياتهم منافس كاثوليكي.

ولم يبق إلا القليل من آثار الحمراء، وعلى العكس من ذلك يستطيع المرء أن يتعرف على بقايا مدينة المعسكر الرومانية Castra Stativa وكانت هذه المدينة، كما يدل الاسم على ذلك، مقر فرقة عسكرية من الفصيلة الثانية حسب ما تدل عليه النقوش التي عثر عليها هاهنا. وتوجد في متحف تلمسان لوحة أهداها إلى ديانا من طرف قائد الكتيبة المذكورة.

وقد عثر في حجر الروم كذلك على نقوش يستدل فيها على أن كتيبة تتكون من الأهالي، هي الميمنة والميسرة المجاورة Ala Finitima كانت تقيم في الحمراء بصورة دائمة. وكانت مدينة المعسكر واضحة المعالم لوجود حجارة في الناحية الغربية والجنوبية والشرقية. أما الناحية الشمالية، التي يبدو شكلها الأصلي منحرفا عن خطها المستقيم، فكانت أقل تحديدا.

وكان قد انتصب فوق بقايا أسوار هذه المدينة العسكرية الرومانية جيش من النباتات، منها الظهرية، التي تسبل أوراقها الخضراء،والصبار، والخلود، والحيون بأغصانها المتشابكة، ومنها كذلك أنواع أخرى، من بينها الخيزقة المشجرة التي رأيتها تنتصب في أسفل سور روماني، كانت كلها تنشر ببراعمها الأرجوانية بحرا من الألوان حول سيقانها النحيلة.

ووادي يسر، الذي تقع عليه مدينة الحمراء، هو أيسارس Isaris الروماني.

(1) Praesto sum, unitas est apud me

وبعد أن تركنا حجر الروم وعدنا إلى الطرق الرئيسي، انحرفنا عنه مرة أخرى عند جسر يسر، واتجهنا إلى قبة المرابط العربي بن عبد اللي، الذي عثرت قربه على آثار رومانية في حالة جيدة.

وليس من المستبعد أن تكون هذه الآثار هي بقايا استاسيليسيس Astacilicicis التي ذكر بطليموس أنها تقع قرب أرينا Arina ولا بد أن موقع غالمة الموريطانية (وهي غير غالمة النوميدية) كان قريبامن هنا. وعندما يبدأ طريق من أهم الطرق الرومانية، وهو يؤدي إلى روسوكوروم Rusukurum ، وتعتبر الحمراء محطته الأولى. وقد ذكر بطليموس أيضا اسم غالمة، ولكن اسمها بختفي فيما بعد نهائيا. لقد اضطرتنا هذه الجولات القصيرة إلى تأخير مواصلة رحلتنا إلى اليوم التالي.

وبعد أن قضينا ليلتنا في بون دي يسر (بن سكران) على الطريقة الأروبية، واصلنا رحلتنا عند مطلع الشمس عبر أغاليك غسل.

وبدأ طريقنا في الصعود مرة أخرى، فوصلنا قمة جبل بن مليح ،الذي يبلغ ارتفاعه 2800 قدم، ومنها أتيح لنا لأول مرة أن نرى تمسان ومنطقتها الجميلة. وتقع تلمسان فوق هضبة، تعلوها جبال عظيمة قائمة جنوبا وغربا، وبذلك تسيطر هذه المدينة العربية القديمة، التي تعود إلى العصور الوسطى، على السهول الخصيبة لوديان الزقاق، ويسر والتافنة، وتستحق لموقعها المناسب اسم باب الغرب الذي أطلقه عليها العرب في القديم. إن هذه المدينة، التي كانت قديما عاصمة للقسم الأكبر من المغرب، قد بدت لنا مدينة أثرية منقرضة، عبر عنها تاريخها بوضوح. كانت تنام هنا، هي ملكة الغرب الإفريقي الأبية، تحيط بها الأنقاض. وكانت أوراق اللبلاب اليابس تتوج بروجها المشقوقة، بينما تحمل دائرة جدرانها ألف جرح ناغر.

وكان وسطها يبدو قاحلا مقفرا، إذ كانت الأنقاض تقبع فيه، في حين ترتفع قربها، كضحكات شيطانية ساخرة من مدينة حكام المسلمين



مدينة وهران



عين بوهران



الشهريين، ثكنة الغاليين الغاصبين. كانت تلمسان تشبه ملكة غريقة. حقا لقد كانت تبدو متربعة على العرش، إلا أن أعمدة عرشها كان نصف محطة، وكانت تبدو حية رزق، غير ان ينابيع حياتها كانت قد نضبت.

بعد أن نزلنا جبل بن مليح، استقبلنا سهل الزقاق، الذي ينافس منطقة يسر في خصوبتها وإزدهارها، وتقع على ضفته قرية المعمرين نيغرييه Négrierالتي يبلغ عدد سكانها 120 نسمة. وقرب الزقاق، على بعد ميل واحد من القرية المذكورة، يوجد ميدان المعركة التي أحرز فيها الفرنسيون أهم انتصار على الأمير عبد القادر، حيث هزمه الماريشال بوجو، وذلك بعد عام من معركة المقطع، التي ألحق بهم الأمير فيها هزيمة مماثلة.

ومررنا بالمستعمرتين الأروبيتين الصفصاف الأعلى والبرية، اللتين كان عدد سكانهما غير ذي أهمية، ووصلنا في اليوم الثالث من خروجنا من وهران إلى تلمسان،عاصمة المملكة القديمة التي كانت تدعى بنفس الاسم. فمنها حكم بنو زيان الإقليم الممتد من مدينة الجزائر إلى حدود المغرب وحدود الصحراء بواحاتها المليئة بأشجار النخيل. وتقع مدينة تلمسان مثل القدس وقسنطينة وأثينا وغيرها من مدن الملوك المنتهية في منطقة صخرية منعزلة، إنها لمثل آخر جديد على مدى اختلاف عواصم العصور القديمة، بل حتى العصور الوسطى، من حيث موقعها الطبيعي عن عواصم عصرنا الحديث.

إن منظر تلمسان لم يخل من عظمة رغم ما بها من أنقاض. فقد كانت هناك الأسوار الضخمة التي بناها المنصور قرب المنصورة، وقلعة المشور الحصينة، التي كانت تبدو وكأنها تريد أن تحطم كل البنايات المنخفضة، ثم منارة أجادير الرفيعة، وقباب المساجد البيضاء، ويوجد هنا وهناك قصر حضري، لم تمتد إليه يد البلى. كل ذلك يكون صورة شرقية أصيلة، تبدو الثكنات الفرنسية إلى جانبها نشازا كريها!

الفصل السابع

تلمسان

آثار تلمسان - بوماريا أو منيارا - مجد تلمسان أيام بني زيان - استيلاء عروج على المدينة - موقع تلمسان - أقسام المدينة الثلاثة - أجادير -المنصورة - دعوة سيدي الموهوب لي لحضور حفلة عربية - الختان العربي - ضريح سيدي بومدين - داخله - تهدم القرية.

إن أهمية تلمسان الحديثة قليلة جدا، إذا نحن قارناها بالعهود التي ازدهرت فيها مدينة السلاطين القديمة واعتبرت تاج المغرب في العصور الوسطى. كانت تلمسان حتى بداية الحكم التركي عاصمة لمملكة قوية، وليس هناك في الجزائر الحالية مدينة تستطيع أن تنافسها في ذلك، بل لعل تونس وفاس ومراكش هي المدن الوحيدة في المغرب التي يمكنها أن تقف إلى جانبها. ومن الطبيعي أن عظمة باب الغرب لم تعرف إلا في أيام الحكم العربي، ومن الخطأ أن يجعل لها المرء أية أهمية في العصور القديمة، على غرار ما فعله مثلا دانفيل DAnville الذي اعتقد أنها هي المحطة الرومانية القصر[1] Ad Régias وذلك اعتمادا على تسمية الحضر لها باسم المدينة الملكية.

ويرى شو فيها لانيغيرا Lanigera المذكورة في خريطة الطرق أو لاغنارا Lagnara التي جاء ذكرها عند بطليموس. أما مانيرت Mannert فيعتقد أنها واسباريا Vasbaria التي تحدث عنهاالجغرافيون اليونانيون، بينما ينظر إليها بيلسيير على أنها Timici Colonia وقد سبق لنا أن ذكرنا أنه ينبغي لنا أن نبحث عنها في عين تموشنت. أما ماك كارثي Mac carthy الذي قصر دراساته الأثرية على ولاية تلمسان، فيرى أن تلمسان هي منيارا

(1) في الاصل : إلى القصر.

Mniara التي ذكرها بطليموس. والحقيقة أن النقوش التي عثر عليها هنا وفي مدينة لالا مغنية تؤيد هذا الرأي،إذا كان اسم بوماريا Pomaria الذي ورد في النقوش المذكورة، مطابقا لاسم منيارا الذي ورد عند الجغرافي الاسكندري.

ويبدو أن اللوحة التي قدمها محافظ «الحامية الغورديانية للاستثمارات الفلاحية» إلى الإله النوميدي أوليسغا Aulisvaكذلك النقوش التي توجد على قبر طفل من أطفال ضابط الحامية المذكورة، والأولى توجد في متحف تلمسان، والثانية ضمن منارة أجادير، تدل على أن اسم بوماريا هو اسم المدينة الواقعة هاهنا. ومعلم الطريق الروماني، الذي يعود إلى أيام هيليوغبال Héliogabal والذي اكتشف في لالا مغنية،وهي سير Syr القديمة، يشير إلىالمسافة بين المدينتين بصورة تؤكد أن موقع بوماريا في مكان تلمسان الحالية. ويحاول أبي بارجي Abbé Barges التوفيق بين رأي بيليسييروماك كارثي، فيرى أن Timici و Colonia و Mniara و Pomaria كلها أسماء مختلفة لمدينة واحدة. ذلك أن Pomaria، التي تحولت عند بطليموس إلى منيارا، ليست سوى اسم آخر، أطلقه الرومان على هذه المستعمرة الواقعة في منطقة خصبة، على غرار ما يقع اليوم لبعض المدن الإيطالية التي اتخذت أسماءها من أوصاف لها، مثل ميلانو الكبيرة، وروما الخالدة وفينيسيا الجميلة وغيرها. ولكن ما هو مآل هذه الفرضية إذا نحن قرأنا في بطليموس أن Timici و Mniara مدينتان مختلفتان ؟ إن المرء ليستطيع طبعا أن يفترض أن بطليموس الاسكندري مخطئ ، وهو كثيرا ما يخطئ بالفعل.

و كيفما كان الأمر فإن تلمسان كانت مستعمرة رومانية قليلة الأهمية نسبيا. ولا شك أن «الحامية الغورديانية للاستثمارات الفلاحية»كانت تتألف من كتيبة أهلية. فلم يتم حتى الآن العثور على آثار تدل وجود كتيبة

عسكرية رومانية. وهذا الوضع يجعل منيارا، بصفتها مدينة عسكرية على الأقل، دون الحمراء منزلة، فقد كانت هذه تضم الكتيبتين معا،الأهلية هي اليمنة والميسرة المجاورة، والكتيبة الرومانية. والظاهر أن الحمراء كانت أقل أهمية من سيقا Siga عاصمة المملكة المصليصية القديمة، ثم عاصمة موريطانيا القيصرية المتأخرة، ومن مدينة لملوك يوليا القيصرية،ومن قرطينة مدينة الفرقةالأجنبية. وهكذا نرى أن المدينة الرومانية التي سبقت تلمسان كانت من الدرجة الثالثة.

لقد ذكرت أسقفية بوماريا في تاريخ الكنيسة، ولا شك أنها مطابقة لبوماريا التي ورد ذكرها في النقوش وفي كتاب بطليموس. وذكر اسم لونغينوس Longinus، أسقف بوماريا، تحت رقم 43 في قائمة الأساقفة الذين حضروا مؤتمر زعماء الكنيسة الذي عقد عام 484 بمدينة قرطاجنة.

لم تصبح تلمسان مدينة عظيمة مهمة إلا في العصر الوسيط، وكانت في بدايته تدعى جدة، فاستحقت اسم المدينة الملكية. فقد جعلها أدارسة فاس في القرن التاسع عاصمة من عواصمهم. ويدعى العرب أن يوسف بن تاشفين، أول ملوك المرابطين، هو الذي أطلق عليها هذا الاسم، حين جعلها هدفا لاحدى حملاته، ويرى فالزير ايسترهازي Walsir Esterhazy أن كلمة تلمسان تعني «الهدف» بلغة الشلحة.

كانت تلمسان بيد قبيلة زناتة البربرية منذ القديم، ولم يخرجها الملوك المغاربة منها،طالما كانت السلطة العليا لهم وحدهم.

وفي سنة 1240 استقل بها يغمراسين، وهو من قبيلة زنانة، وأسس مملكة بني زيان، التي سيطرت على قسم كبير من المغرب خلال ثلاثة قرون، وشملت مملكته جزائر اليوم كلها تقريبا وقسما صغيرا من المغرب. وكانت تلمسان، فيما ذكر البكري، تحتوي على 16.000 دار مسكونة، مما

يدل على أن عدد سكانها، وهو عدد مهم بالنسبة لمدينة جزائرية، يقارب 100.000 ألف نسمة. وتلمسان القديمة كانت تحتل أربعة أضعاف المساحة التي تحتلها اليوم. وما أسرع ما أصبح الترف والبذخ والجاه في مدينة الملوك من بني زيان مثلا يضرب في المغرب كله.

ولم يرد هؤلاء الملوك أن يبنوا قصورهم الفاخرة على غرار قصر الحمراء فقط،وإنما أرادوا أيضا أن تكون البنايات العامة في فخامة قصورهم. فكانت زاوية تلمسان تفوق في أهميتها وفخامتها وغزارة علم مدرسيها كل مراكز التعليم المشابهة في المغرب. وكان لأسرة بني زيان مثل جميع الأسر الملكية، مؤرخوها وقد وصلنا كتاب أحد هؤلاء المؤرخين، وتعتبر مصدرا من المصادر الأساسية في تاريخ الجزائر. وهذا المؤرخ هو محمد التنسي[1] الذي حدثنا في كتابه «شرف بني زيان» عن تاريخ هذه الأسرة، والوصف الذي أورده للحفلات التي كان يقيمها هؤلاء الملوك المحبون للضيافة والبذخ، يقدم لنا فكرة عن فخامة بني زيان القديمة، التي انتهت للأسف منذ مدة طويلة. فمن جملة ما ذكره محمد التنسي عن ذلك قوله[2]:

«وكان (أبو موسى الثاني) يقوم بحق ليلة مولده صلى الله عليه وسلم، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم. يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة فيما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وشمع كالأسطوانات. وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون وبيدهم مباخير ومرشات، ينال كل منهم حظه.

(1) محمد بن عبد الله (799هـ)، مؤلف «نظم الدر والعقيان في دولة آل زيان»، وقد استمد المؤلف منه العنوان الذي ذكره.

(2) يبدو ان المؤلف نقل النص الذي أورده عن الترجمة الفرنسية، فاختصره وقدم فيها واخر، وكان غير دقيق في الترجمة، ولذلك فضلت العودة إلى نص التنسي نفسه. مخطوطة برلين ورقة 52 ب.

وخزانة المنكانة (الساعة) ذات تماثيل من لجين محكمة الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجدار الأيكة صعدا، وبصدرها أبواب موجفة بعدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان مجفآن أطول من الأولى وأعرض وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيرة في الفلك، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج. فينتفض من البابين الكبيرين عقابان بقي كل واحد منهما صنجة صفراء يليقها إلى طست من الصفر مجوف بواسطة ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرقى وينهش الأرقم احد الفرخين فيصفر له أبوه فهناك يفتح باب الساعة الذاهبة وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء بيمناها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة. والمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم. ثم يأتي آخر الليل بموائد كالهلال قدورا والرياض نورا، قد اشتملت عن أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين، وتلذ بسماع أساميها الآذان، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغرثان والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلى هناك صلاة الصبح».

نرى من هذا أن بذخ العرب وترفهم أيام مجدهم وعزهم كان يشمل العامة أيضا ولم يكن مقصورا على الحريم، عكس ما أصبح عليه الأمر أيام تدهور قوتهم!

وكانت سياسة بني زيان تجاه الأروبيين أكثر تسامحا من سياسة الحكام المتأخرين،ففي ذلك الحين كان تجار جنوة والبندقية يترددون على تلمسان في حرية تامة كما لو أنهم كانوا في مدينة إيطالية، وأكثر من هذا كانوا يرسلون قوافلهم إلى الواحات بالصحراء التي تبعد حدودها الشالية عن

تلمسان بخمسين كم. وكانت بها أيضا كنيسة مسيحية وخانة للقوافل خاصة بالمسيحيين. وكان هذا في جميع مناطق الغرب، إذا أن هذه البلدان كانت حتى مطلع القرن السادس عشر مفتوحة للأروبيين، فعرفت الحركة التجارية ازدهارا كبيرا، ولكن ما أن بدأ الحكم التركي حتى أقام التعصب الديني والسياسي سورا صينيا محكما حول الجزائر، ولو أنه سورا أخلاقا. ولذلك ظلت الجزائر كتابا مغلقا بالنسبة إلينا نحن الأروبيين حتى بداية الحكم الفرنسي،ولا يزال المغرب كذلك إلى يومنا هذا.

لقد انتهى حكم بني زيان كما تنتهي الأشياء الجميلة فوق هذه الأرض. فقد استولى عليها عروج، منشئ الحكم التركي في الجزائر، عام 1518 عن طريق الخيانة. فكما استنجد به حاكم الجزائر العربي الأخير، استنجد به كذلك حاكم تلمسان أبو زيان، ليعينه على عم له. فجاء عروج، وخلع العم عن منصبه، وجعل من أبي زيان حاكما مستبدا. إلا أن عروج سرعان ما عزف عن دور الحماية كما عزف عنه في الجزائر. فأمر بخنق الحاكم وأبناه السبعة بعمائمهم، ثم طلب من أتباعه أن يحملوا إليه جميع من بقى من أسرة بني زيان، فتم له ما أراد، ولم ينج منه غير زياني واحد،التجأ إلى الأسبان، وطلب إعانتهم فأعانوه.

واستطاع عروج أن يتخلص قبل وصول الأسبان من جميع الزيانيين الذين كانوا في قبضته، وقد فعل ذلك بطريقة فظيعة فقد ذكر مارمول Marmol أنه أغرقهم في مستنقع وحضر العملية بنفسه ليتمتع بمنظرهم وهو يلفظون أنفاسهم الأخيرة. إلا أن الأسبان لم يلبثوا أن هجموا على القرصان الرهيب وهزموه، ثم قتلوه عند فراره. ومنذ ذلك الحين صار بنوزيان عملاء لأسبانيا طورا، وللجزائر طورا آخر، إلى أن تولى صالح رايس باشوية الجزائر، فأمر الكتيبة التركية، التي كان حاكم تلمسان قد طلبها لحمايته، بطرد آخر بني زيان، مولاى الحسن، الذي فر عندئذ إلى

الأسبان في وهران، ومات فيها، وقد تنصر ابنه وتسمى باسم دون كارلوس وعاش في أسبانيا حياة غامضة. كانت نهاية أبناء هذه الأسرة العظيمة نهاية مؤلمة، إذ قدر لهم أن يعيشوا بعد انتهاء مجدها وفخارها! والانقراض النهائي هو اقل ما يصيب الأشراف الذين انتهى حكمهم إلى الأبد.

وبعدئذ بدأت تلمسان تتدهور بسرعة، فقد منع باشوات الجزائر المسيحيين من زيارة مدينة تلمسان، وهكذا ماتت الحركة التجارية دفعة واحدة. وبقيت تلمسان بيد الأتراك دون منازع إلى أن ضمت إلى الممتلكات الفرنسية عام 1842 بصفة نهائية.

وتقع تلمسان فوق هضبة على ارتفاع 2175 قدما فوق سطح البحر في سفح جبل لالا ستي، وهو جبل صخري يتفرع عن جبل ترني العظيم. ويتكون سكان مدينة الملوك اليوم من 3000 من الأروبيين و 15.000 من الأهالي، وكان شكل المدينة القديمة، الذي يمكن تتبع آثاره بسهولة، عبارة عن مربع منتظم تقريبا، يحيط به سور عربي قديم. غير أن مدينة تمسان الحالية لا تحتل الربع من المساحة التي يحيط بها هذا السور. وهناك سور جديد بني عام 1845، يحيط بالمدينة الحديثة الضيقة.

وقد أقيمت تلمسان الحالية فوق أنقاض، بعضها تركي، وبعضها عربي، وبعضها روماني. وكلما أبعد ردم العصور الماضية، وأزيح التراب عن بقايا الأسوار القديمة السميكة، عثر المرء عن المياه التي تجمعت تحت أسس الدور في تلمسان كلها، وجعلت جوها رطبا غير صحي. وبالإضافة إلى ذلك كله فإن المدينة تتخللها قنوات المياه. وأكبرها تمر عبر مقبرة عربية، وكم استاء الفرنسيون لذلك عندما اكتشفوها، لأن ماءها قد لا يكون صالحا للشرب.

وتتكون تلمسان من أحياء ثلاثة : الحي الأول هو حي الكراغلة الذي يحتل القسم الجنوبي من المدينة، ويبلغ عد الكراغلة، أحفاد الأتراك، حوالي

3500 نفر. وفي هذا الحي توجد قلعة المشور القديمة، وهي عبارة عن مربع، يبلغ طولها 800 قدم، وعرضها 520 قدما، ولها أسوار مسننة، يبلغ ارتفاعها أربعين قدما، وبابان وعدة كوى. هناك برجان مستديران في الجهة الأمامية باتجاه المدينة، يجعلان منظرها مهيبا، كانت هذه القلعة، التي أصبحت اليوم ثكنات ومكاتب عسكرية فرنسية، يمثل قديما قصر بني زيان الفخم. ولم يبق له اليوم طبعا ما يدل على جماله المعماري القديم، وقلعة المشور تشبه حمراء غرناطة وقصبة الجزائر، فهي مدينة صغيرة، تحتوي زيادة على مسجدها الجميل على ستين دارا. وحي الكراغلة أكثر أحياء المدينة أحياء المدينة علوا وأنسبها صحة.

أما الحي الثاني، وهو مركز المدينة، فيسكنه الأروبيون واليهود، وتوجد فيه أغلب المنشآت الفرنسية من فنادق ومقاه، ودار البلدية، والكنيسة، باختصار كل البنايات التي تتطلبها الحضارة الحديثة. وأبعد أقسام هذا الحي عن الصحة هو القسم الذي لا يسكنه غير اليهود تقريبا، ويزيد عددهم في تمسان عن ألفي يهودي.

والحي الثالث هو الحي الذي يسكنه العرب والحضر، وقد أطلق عليه اسم قبيلة مغربية. ذلك أن أفراد الحضر يذهبون إلى تلمسان بحثا عن العمل، ويقومون فيها بالدور الذي يقوم به البسكريون في الجزائر العاصمة، أي أنهم يقومون بجميع الأعمال الشاقة، ويقرب عددهم هنا من أربعة آلاف.

وتكاد منازل تلمسان كلها تكون ذات طابق واحد، ولأغلبها شرف تغطي الشارع وتوفر للسكان صيفا برودة منعشة. وتعود بناية الجامع الكبير إلى فترة، كان فيها الحس الفني العربي يقترب من الفساد، إلا أنها لا تزال تحمل آثار العهد الزاهر. وتنصب في وسط الجامع غابة من الأعمدة المرمية، تربط بينها أقواس واسعة، وتصطف بصورة متناسقة.

وتقع اجادير الآن، وهي قسم من تلمسان في الأصل، خارج أبوابها. وقد شاهدت فيها منارة قديمة جميلة، يوجد بحائطها النقش الذي تحدثت عنه سابقا، وهو النقش الذي خص به الإله النوميدي أوليسفا.

وتوجد مدينة المنصورة القديمة على مسافة ربع ميل غرب أبواب المدينة، ويشكل سورها، ويبلغ ارتفاعه 24 قدما، وتعلوه بروج مسننة، ارتفاعها تسعون قدما، مربعا قائم الزوايا، طوله 2700 وعرضه 2100 قدم، ورغم عظمة هذا السور فإن المنصورة لم تكن أبدا مدينة حقيقية، وإنما كانت حصنا لملك فاس الشهير يوسف المنصور، الذي حاصر تلمسان عدة سنوات ابتداء من سنة 1302، كما حاصر اليونان مدينة طروادة قديما، وحاصر الإسبان غرناطة عام 1492، وبنى في هذا المكان حصنا شبيها بالمدينة، ويروى أن عبدا من عبيد بني زيان،كانوا قد عاقبوه على جرم ارتكبه ثم فر منهم، هو الذي حرض المنصور على محاصرة تلمسان. فقد حدث هذا العبد السلطان المنصور عن ثروات ملوك تلمسان وأبهتهم بشكل جذاب، أثار غيرته، فقرر أن يخضع المدينة لسيطرته! ولكنه رغم قوته لم يستطع أخذها، فعاد عن باب المغرب خائبا بعد حصار دام عدة سنوات.

وشاهدت في المنصورة أثرا غريبا : منارة ذات شكل معماري رفيع، بقي شطر منها سليما حتى قمته، بينما أنهد الشطر الآخر وصار أنقاضا فوق الأرض. ولأخذ فكرة عن هذه المنارة التي قد تكون فريدة من نوعها، ينبغي أن يتصور المرء برجا كنسيًا شطر شطرين، ثم هدم شطر منه. وقد أصبح السلم الحلزوني، الذي يصعد منه المؤذن ليؤذن للصلاة مكشوفا لنظرات السائح العادي. ذلك أن الرياح والأمطار قد عبثت بهذا الحرم القديم، الذي تبدو عظمته الساقطة صورة طبق الأصل لسقوط الإسلام!

وفوجئت في الفندق الذي نزلت فيه بتلمسان بزيارة زميلي في الرحلة الذي رافقني من وهران حتى جسر يسر، وهو التاجر الحضري سيدي

الموهوب. وقد سررت بزيارته كثيرا، فهي شرف حظيت به دون الكثير من الأروبيين. فأهالي تلمسان، وخاصة الطبقة الراقية منهم،ينفرون عادة من الاتصال بالأروبيين. ويبدو أن بعض آرائي في الدين الإسلامي قد نالت إعجاب هذا العجوز لطيب، ولذلك جاء يدعوني لحضور حفلة عائلية عربية، وهي حفلة ختان احد أحفاده.

وجاء الموهوب في الأمسية المحددة لأخذي من الفندق، فذهبنا إلى حي المشور،الذي يوجد به منزل صهره، وهو كرغلي. وكانت بالمنزل شرفة جميلة، تحيط بها نبتة فاخرة، هي نبتة الجهنمية الطويلة. ولا يستطيع أن يتصور المتعة التي وفرها لي منظرها إلا من عرف أوراقها البنفسجية الرائعة، التي ينبثق منها العديد من البراعم والأزهار الصفراء البديعية. ومضينا عبر هذه الشرفة إلى فناء حضري جميل،كان قد أعد للحفلة. فحفلات الحضر تقع كلها تقريبا في وسط الدار. وكان المدعوون قد جلس أغلبهم فوق الحصائر بشكل مربع، والأنغام الموسيقية تتصاعد من القيثارة والرباب والدفوف المتنوعة.

وقد لاحظت بعد حين أن هناك شخصية أيضا، جلست بين الحضور، تتمثل في مدير الحفلة. أما الضيوف الكبار فلم يجلسوا في الفناء، وإنما جلسوا في غرف صغيرة تشبه الكوى، ملاصقة للفناء. ورغم إلحاح الموهوب علي في الدخول إلى إحدى الغرف فقد فضلت البقاء في الفناء وفيه شاهدت أولا رقص زنجية سمينة شابة. وكانت هذه الجميلة السوداء تتحرك، وهي تهز خصرها في إيقاع، كما تتحرك الحضريات في الجزائر أثناء رقصة التبيتة. وبما أنها لم تكن جذابة، فقد بدا لي رقصها وحركاتها الجنسية تافها. وبعد ذلك شاهدت رقصة قام بها شابان، وأغرب ما فيهما أنهما كانا يقلدان حركات النساء واهتزازاتهن.وكان رقصهما أيضا

يشبه تمام رقص الحضريات. ويغدو الشبه اتم عندما يتأمل المرء في النهاية حماسهما الجنوني.

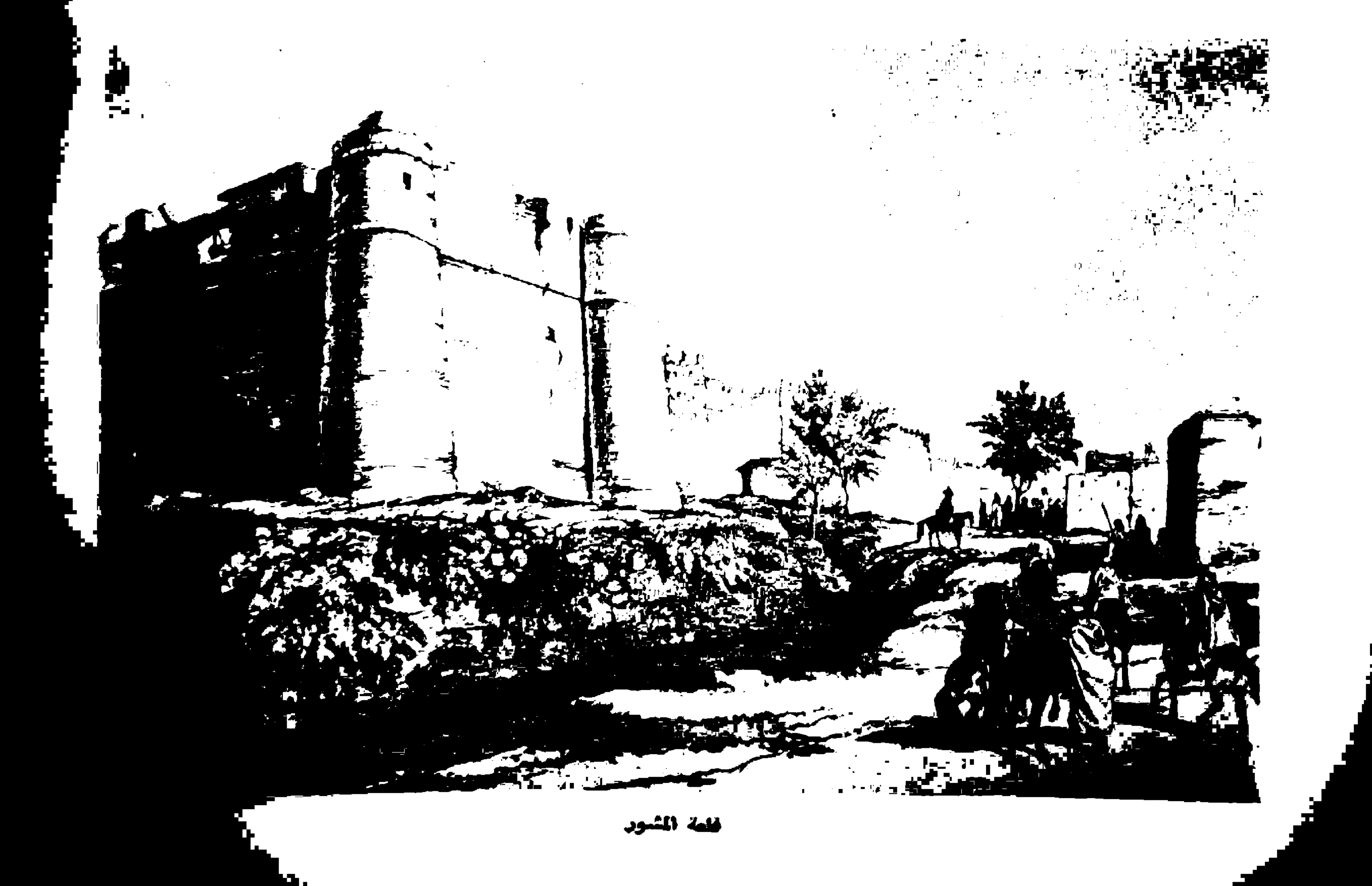
وبعد الرقص أتى الغناء. بمعنى أن عجوزا يقرب من الستين اخذ يلقي خطبة بصوت أخن، يمثل الغناء! ولكن الأمر كما سبق أن ذكرت، فالمرء لا يستطيع أن يتمتع بالموسيقى العربية إلا إذا عود أذنه على سماعها لفترة طويلة.

وعقب هذه التسليات شيء أهم، هو تقديم الهدايا التي أحضرها المدعوون للصبي المسلم المراد ختنه. وقد تولى مدير الحفلة استلام هذه الهدايا، وكانت كلها عبارة عن مال،ويتكون من قطعة نقدية، وبعد كل هدية كان يذكر اسم صاحب الهدية والمبلغ الذي قدمه بالصورة التالية : «فلان قدم المبلغ لفلاني. بارك الله فيه» وكانت هذه الكلمات متبوعة على الدوام بزغردة النساء اللواتي تجمعن فوق شرفة الفناء، تلك الزغردة المعروفة عند الحضريات، وتتمثل في صراخ حاد يشبه شقشقة آلاف الطيور مجتمعة. وبعد أن استمر تقديم الهدايا وزغردة النساء فترة من الزمن، بدأت عملية الختان نفسها. وكان الصبي البالغ من العمر عشر سنوات يرتعد ويصرخ بصورة فظيعة. واستعمل الحلاق، الذي قام بالعملية، موسى الحلاقة. وكان هذا المنظر رهيبا مقرفا. وصرخ الطفل بشكل خاص وبكى بكاء شديدا عندما صب العرق فوق الجرح لإيقاف الدم.

وفي تلمسان أمكنني القيام بجولة جميلة في قرية سيدي بومدين الصغيرة، حيث يوجد قبر هذا الولي داخل مسجد جميل، ودخلت هذا الضريح عبر باب قديم يشبه باب الحمراء، يقودني حارسه. وكان هناك قبر المرابط الذي يغطيه رداء من الحرير الأخضر، وكان الشيوخ المصلون يؤدون صلاتهم حوله، بينما ترتفع أصوات عميقة تسبح بحمد الله ويصلي على رسوله. وقد اثر في نفسي هذا المشهد، فأقمت فيه مدة

طويلة، فقد أدهشتني قوة هذه العبادة الجليلة رغم وسائلها البسيطة، بل لعلها تستمد جلالها وسموها من هذه البساطة بالذات!.

وخرجت بعد ذلك من هذا الضريح، ضريح الهدوء والنظام والسلام، فماذا رأيت في الخارج ؟كومة من الأنقاض الحقيرة لمساكن بشرية : بيوت متداعية، وأكواخ تركت لعبث الدهر. كانت أنقاض القرية تحف بعتبة الضريح. ولم ينج من الخراب غير ضريح الولي. كانت قد نشأت قرية حول قبته في العصور الوسطى، وشاهد الولي نشوءها وازدهارها وسقوطها، ويراها الآن أنقاضا أمامه، ولم يعش بعد سقوطها غير ضريحه. وهكذا يعيش الهدوء الفكري لشخصية عظيمة بعد أن تزول صراعات الناس وتنتهي مطامحهم وتعاساتهم.



قلعة المشور



الفصل الثامن

معسكر

زميل الرحلة المفروض - المبيت عند أولاد ميمون - رحلة مرتجلة - سيدي بلعباس - مغامرة زميل الرحلة في الصيد - مسقط رأس عبد القادر - معسكر - الجامع الكبير - فيكتوريا كولونيا - مستشرق شاب - سد وادي سيق قرب سان دينس - الرجوع إلى وهران - رسالة أورياس.

يقع الطريق المؤدي من تلمسان إلى معسكر بعيدا، أبعد من تلمسان نفسها، عن الطريق الذي يسلكه السواح العاديون. فأغلب هؤلاء المغرورين لا يزورون سوى عدد من المدن الكبيرة في هذه البلاد وواحة ما من واحات الصحراء، تبدو لهم زياراتها ضرورية. وبذلك تنتهي مهمتهم في الجزائر، دون أن يروا أهالي البلاد، لأنهم لا يهمونهم. ثم إنهم لا يعرفون العربية، وهو أمر لا أهمية له عندهم إطلاقا. وهم يعاشرون عوض ذلك الفرنسيين ويتلقون عنهم أخبارا في منتهى الزيف، ومعومات في منتهى التشويه عن البلاد وأهلها. وقد شاء سوء طالعي أن يصل إلى تلمسان شخص من هذا النوع، سائح بالمعنى السيئ للكلمة. وبما أنه كان ألمانيا (وقاني الله من أمثاله من أبناء بلادي في الخارج!)، فلم يجد ضابط المكتب العربي عملا أفضل من أن يجعله مرافقا لي في رحلتي، ففرضه علي، وترك تلمسان ثلاثتنا، الصبائحي واناوالشخص المذكور.

وسرنا مخلفين إلى يسارنا جبل بن مليح، وبلغنا بعد ثلاث ساعات وادي الحلو الصغير، فحطينا على ضفته براحة قصيرة. وكانت عملية حصاد القمح في أواسط شهر يونية قد أمدت هذه الهضبةالعالية المملة عادة بشيء من الحياة. فكنا نرى في جميع الجهات نساء عربيات سافرات، أغلبهن للأسف مترهلات قبل الأوان، يقطعن السنابل الذهبية بالمناجل. وكان الرجال يحصدون أيضا من حين لآخر هنا وهناك. إلا أن أغلبهم

كانوا ينظرون، وقد تدثروا ببرانسهم المهترئة في جمود، إلى جواريهم الطبيعيات باحتقار كبير. ذلك أن هؤلاء المحاربين يرون أن العمل من واجب أدنى المخلوقات في نظرهم من واجب الحمير، والعبيد والنساء!

وقد شاءت الصدف أن تكون هناك خيام عربية قرب الموضع الذي استرحنا فيه. وسرعان ما تجمع الأعراب حولنا. فالأروبي في هذه المنطقة لم يغد بعد كائنا مبتذلا عكس ما هو عليه الأمر في الطرق الكبيرة، وأخذ زميلي في الرحلة، الذي كان جهله بلغة الأهالي وعاداتهم يساوي غروره واعتزازه بتفوقه عليهم بصفته أروبيا، ينظر إليهم بنفس الاحتقار الذي ينظر به إليهم الفرنسيون الجهلاء، ودفعه تهاونه واحتقاره للتقاليد الإسلامية إلى أن يقدم لأعرابي قطعة من لحم الخنزير الجاف. وكان عمله هذا إهانة كبيرة لهم. فالمعروف أن السجق يصنع من لحم الخنزير (باستثناء البروفنسالي الذي يصنع فيما يقال من لحم البغل)، ولذلك أثار منظره دهشة الأعراب واشمئزازهم، فابتعدوا عنا بسرعة. فقال زميلي في الرحلة:

ـ حمد الله! لقد تخلصنا من «البدو»!

أما أنا فلم أفرح لذلك، فقد كان من الأنسب لي ألا أتخلص من «البدو» الذين يحتقرهم. كنت قد لاحظت بألم أن غباء هذا الإنسان ووقاحته سيبعدان أهل البلاد عني، مع أن هدفي كان يتمثل في أن أكثر من الاتصال بهم قدر الإمكان.

وتركنا وادي الحلو وخرجنا من حقول القمح وسرنا عبر منطقة تكاد تخلو من الأشجار والنباتات، فلم نلاحظ إلا من وقت لآخر نباتات الخرشف البري بأوراقها الخضراء الفاتحة التي تتخللها عروق بيضاء.

وقضينا الليلة الأولى في طريقنا إلى معسكر في خيام قبيلة أولاد ميمون عند سيدي عبد الله، ونزلنا في خيمة الضيافة أيضا، إلا انه كان

علينا، وهو أمر لم أرغ له، أن تنام فوق الأرض التي كانت لحسن حظنا جافة، وذلك لعدم وجود سجادة أو حصيرة. وقدم لنا عشاء قليل،يتكون من الكسرة واللبن. وجلس معنا قائد القبيلة، وهو شيخ بائس المظهر، يرتدي برنسا وسخا، وحاول أن يتبل عشانا القليل بحديثه الطلي.

كان القائد قد رجع في ذلك الحين من الجزائر، حيث تلقى من الحاكم برنس تنصيبه قائدا، ولكنه لم يرتد هذا البرنس، وإنما احتفظ به، وبرانس التنصيب سوداء،مصنوعة من الصوف السميكة. وهذا البرنس هو العلامة على أن لابسه هو شيخ القبيلة المعترف به من طرف الحكومة. فلا يشعر شيخ أو قائد أو أغا أو خليفة أنه قد ثبت في منصبه إلا إذا استلم برنس التنصيب من يد أحد الموظفين الفرنسيين.

وهذا تقليد قديم عند قبائل أفريقيا الشمالية، فقد روى بروكوبيوس[1] Prokopius أن زعماء القبائل القديمة كانوا، ولو أنهم لم يكونوا في الواقع مستقلين عن رومة أو بزنطة، يستلمون برانس التنصيب من الوالي، وكانت رومة الماكرة تقرن توزيع البرانس بمنح شارات، تغري الزعماء بقيمتها المادية. فقد كانت تعرف بخل القبائل النوميدية فاستغلت ذلك لصالحها. وكانت هذه الشارات عبارة عن صولجان فضي وتاج مذهب، ورداء أبيض ثمين، وثوب مطرز بالذهب، ونعل مطرز بالذهب أيضا. وفي إمكان المرء أن يتصور أنه لم يوجد من بين هؤلاء الزعماء البخلاء من لم ينتهز الفرصة للحصول على أشياء جميلة من هذا النوع! وقد احتفظ الفندال بهذا التقليد الروماني دون تغيير، وتبعهم في ذلك البزنطيون. أما العرب والأتراك فلم يكونوا يقدمون في ذلك غير البرنس الأسود، وقد قلدهم في ذلك الفرنسيون، فـ «الأمة العظمى» لم تقلد بعد الشعب الملكي في

(1) مؤرخ بزنطي عاش في القرن السادس الميلادي، وكان معاصرا لجوستنيان. (م).

كرمه. فبرانس التنصيب تكاد تكون أشياء تافهة، والنياشين، التي تقدم في بعض الأحيان، لشيوخ الأعراب، أكثر تفاهة منها.

ومرت بي في الليلة تجربة مقلقة للغاية، وأني لأجرؤ على القول، رغم أن بعض القراء، قد يبتسم شفقة علي، بأني أعتبر تلك الليلة أسوأ ليلة قضيتها في حياتي، فقد عانيت عناء شديدا من لسع تلك الحيوانات الصغيرة وعضها، وأعني البراغيث، صديقات ميفيستوفيلس، التي تحرص صيفا على الإقامة في خيام العرب وبرانيسهم. فلم أستطع النوم أكثر من نصف ساعة، استيقظت بعده كالمحموم، فقد أخرجتني هذه الحشرات عن صبري. ولم استطع احتمالها مدة طويلة، فقررت أن أنهض في الحين وأوقظ مرافقي من العرب لمواصلة الرحلة مع أن الوقت كان لا يزال باكرا. وأخذت أنادي لمدة طويلة : محمد، قدور، علي، ولكن محمد وقدور وعلي، أعني الصبائحي والبغالين، كانوا من خدام مورفيوس[1] ومن ثم بقي صياحي ودفعي لهم بدون فائدة!

ولجأت أخيرا إلى وسيلة أخرى، نجحت فيها، فقد صببت فوق رؤوس هؤلاء المسلمين السنين شيئا من الخمر الكريهة بالنسبة إليهم. فاستيقظوا من سباتهم كما لو أني صببت فوقهم الماء، بل أكثر من ذلك فقد جعلهم تدفق المشروب الكريه فوقهم يستيقظون في فزع وبصورة كاملة. وعندئذ كان عليهم بمقتضى التعاليم الإسلامية أن يتطهروا لإزالة رائحة المشروب الملعون،وساعد هذا أيضا على يقظتهم التامة!

كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحا، والنهار لا يطلع هنا في شهر جوان إلا بعد الرابعة، ولحسن حظي وجدتهم لا يحملون ساعات معهم، وكانوا عاجزين عن الاستدلال على الوقت بعلامات أخرى مثل مسير

(1) إله الحلم في الأساطير اليونانية (م).

لقمر، وموقع الكواكب. ولذلك سهل علي أن أقنعهم بقرب طلوع النهار وبمواصلة الرحلة.

وكان هناك بعد زميلي في الرحلة. وينبغي لي أن أعترف أني تمنيت في أعماقي أن يمتنع عن مواصلة السفر حتى أتخلص من مرافقته لي إلى مدينة معسكر. إلا انه كان يبدو أن البراغيث، التي جعل لها فاوست غوته سمعة كبيرة، قد لسعته وعضته هو الآخر، وجعلته يستعد لمواصلة الرحلة بأقصى سرعة، وكان ذلك مفاجأة غير سارة بالنسبة لي. ولم يكن من السهل من جهة أخرى أن نفترق، لأننا كان يرافقنا صبائحي واحد ومع هذا كنت على استعداد لأن أتنازل له عن حصتي في الصبائحي لأتخلص من رفقته. غير أن الله قدر لي شيئا آخر، وبعد أن سار العرب ثلاث ساعات لاحت تباشير الصباح الأولى، فلاحظوا عندئذ أنني خدعتهم إلا أن النوم لا يعني الشيء الكثير بالنسبة إليهم، فهم يستطيعون أن يناموا في أي وقت شاءوا، ومن هنا اعتبروا القضية كلها في النهاية مجرد دعابة!

ومررنا بقبة المرابط سيدي خالد، ثم سرنا عبر وادي مكرة، وتناولنا فطورنا في قرية سيدي لحسن، بعد سير متعب في منطقة موحلة بلغنا سيدي بلعباس عند الظهيرة، وهي مدينة فرنسية، عدد سكانها 3500 نسمة، من بينهم 1200 من الإسبان و 300 من الألمان، ويعود إليهم الفضل في ازدهارها.

ومدينة سيدي بلعباس بالقياس إلى عدد سكانها مدينة عسكرية لا يشبهها أي مكان آخر في الجزائر،فحاميتها لا تقل عن 5000 رجل ن فهي تزيد عن سكانها المدنيين بمقدار الثلث. وتقع هذه المدينة الأوربية البناء وسط غابة من أشجار الزيتون والفواكه جعلتها تبدو وسط هذه المنطقة الموحلة بمثابة واحة مزدهرة. وكان موقعها وسط مستنقع مجفف غير

صحي للغاية، ولا يزال إلى اليوم غير صحي رغم تخفيف بعض الأوحال المحيطة بها.

وتجتذب هذه المستنقعات، التي تعمرها طيور كثيرة، جمعا كبيرا من الصيادين من وهران وتلمسان. وترتفع في الشمال بين سيدي بلعباس ووهران سلسلة جبلية، وأعلى قمة فيها تتمثل في جبل تاسالة، الذي يبلغ ارتفاعه 3000 قدم، ويتمتع بسمعة تضارع سمعة بعض جبال أروبا، مثل جبل بيلاتوس قرب لوتسيرن بسويسرا. وأهالي سيدي بلعباس يقولون عن جبل تاسالة ما يقوله السويسريون عن جبلهم :

السحب فوق تسالة
تعني الطقس الجميل

غير أن الطقس الجميل لا يعني شروق الشمس، فهو هنا غير مرغوب فيه في أغلب الأحيان، وإنما يعني نزول المطر بعد انقطاع طويل، جعل الناس يرغبون في نزوله. إذن فالتكهنات الجوية لهذين الجبلين مختلفة، إلا أن ذلك لا يمنع الناس من تصديقها.

وفي سيدي بلعباس أصر زميلي في الرحلة على قضاء بضع ساعات في الصيد، وكم حاولنا إقناعه بأن الفصل ليس موسم صيد، ولكنه أصر على ذلك. واخذ معه لهذا الغرض ثلاثة من الأعراب، كان على واحد منهم أن يحمل عنه بندقيته. أما الآخران فكانا دليلين ومطاردين ويبدو أنه لم يوفق في صيده، فقد انتهى على أية حال بصورة مضحكة ومبكية في آن واحد. فالصياد الجسور لم يعد في المساء دون صيد فحسب، وإنما عاد أيضا دون بندقيته، والغريب انه رجع فوق ذلك بجزمة واحدة. كانت البندقية قد وقعت في مستنقع وغرقت، دون أن يتمكن احد من إخراجها منه. أما

الجزمة فقد غرقت مع صاحبها في الوحل، ولم يستطع إنقاذ نفسه إلا بالتخلي عن فردة منها. وقد توقعت أن يكون العرب هم السبب فيما حل بنمرود الفاشل. ولم أعرف حقيقة الأمر إلا في معسكر. فبعد أن ودعني زميلي في الرحلة، أخبرني الصبائحي بأن هذا الصياد الدعي أخذ أثناء فترة الصيد الأولى كلها يشتم البدو بشكل شنيع ويصفهم بالجنازير، فانتقموا منه وقادوه إلى منطقة كثيرة الوحل، فتورط فيها وسقطت منه بندقية بفعل الخوف الذي اعتراه، وقد سره أن ينجو بفقدان فردة من جزمته!.

وفي اليوم الثالث من مغادرتنا لتلمسان استرحنا في الوقت الظهيرة عند قبة سيدي عبد القادر الجيلالي، الذي تتوفر هذه المنطقة على العديد من قببه. والمعروف أن سيدي عبد القادر الجيلالي كان حامي الأمير الشهير، الذي بدأنا عندئذ نقترب من منطقته التي تجل عبد القادر الجيلالي غاية الإجلال، وهو ليس وليا محليا فقط، بل إن العالم الإسلامي كله يقدسه. ويعتبره مسلمو الهند الشرقية حامي وطنهم. وهكذا كان يجمع بنفس الإجلال بين المغرب، حيث ينتشر تقديسه إلى حد بعيد، وإمبراطورية المغول القديمة والشرق الإسلامي الأقصى والمغرب الإسلامي الأقصى. وكان الولي قد ظهر للأمير الشاب لأول مرة في بغداد، وذلك في صورة زنجي، يحمل بيده قفة مملوءة بالبرتقال.

وسأل الأمير الزنجي الذي ظهر له :

- لمن هذا البرتقال ؟

فأجابه :

- أنه لعبد القادر بن محي الدين سلطان العرب[1].

وتكرر ظهوره ثلاث مرات، وكان يطرح عليه في كل مرة نفس السؤال، وتكون نفس الإجابة، وشهد على وقوع هذه الحادثة والد الأمير

(1) ما ذكره مالتسان هنا يختلف عما ذكره تشرشل، أنظر كتابه السابق، ص 46.

وعدد من العرب، الذين شاهدوا الوالي في صورة زنجي أيضا. قد حدث هذا سنة 1828، وبعد أربع سنوات أصبح عبد القادر أمير المؤمنين، ولم يتم ذلك دون تدخل جديد من طرف الولي. وصار طبعا أمير البدو فقط، أي العرب والمعربين من أهالي البلاد. أما القبائل وأغلب سكان المدن فلم يعترفوا به.

وبلغنا في المساء قرية المعمرين عين الصفصيف الواقعة في منطقة خصبة، حيث كان في انتظارنا فراش أوروبي.

وفي اليوم الرابع من خروجنا من تلمسان،وصلنا إلى المنطقة التي تقيم فيها قبيلة الحشم، تلك القبيلة التي قويت بها شوكة الأمير عبد القادر. وبلغنا عند الظهيرة حمام بوحنيفية[1]، وكان قديما حمام عربيا، وهو اليوم مستعمرة أروبية، يقال إن مسقط رأس الأمير الشهير يقع قربه، وبما أنه لم يولد في منزل، وإنما ولد في خيمة بدوية، غالبا ما يتغير موقعها كل سنة، فإن تحديد مسقط رأسه تقريبي فقط، فنحن لا نعرف سوى أنه رأى النور قرب زاوية القيطنة في وادي الحمام[2]. أما السنة التي ولد فيها سلطان العرب فهي غير معروفة على التحديد، فليس من عادة القبائل البدوية المحافظة على تواريخ الميلاد. ويفترض عادة أن الأمير ولد فيما بين 1805 و1806 ومن ثم فعمره اليوم يتراوح بين 56 و57 سنة[3]. واسمه الكامل هو الحاج عبد القادر ولد محي الدين بن قادة ولد مختار.

وكان ظهور الأمير سنة 1832 عندما قضى على حامية معسكر التركية، واحتل هذه المدينة واتخذها منذ ذلك الحين عاصمة له. وكانت القبائل،

(1) في الأصل: بن حنيفية.

(2) أنظر تشرشل، المرجع السابق ص 39.

(3) ذكر تشرشل (المرجع السابق) أنه ولد سنة 1807، وينبغي الإشارة إلى ان كتابه ظهر بعد ظهور كتاب مالتسان بحوالي أربع سنوات.

التي التفت حوله آنئذ وظلت فيما بعد نواة قوته، هي قبيلة الحشم المذكورة آنفا، ثم قبيلتا البرمجية والغرابة. وقد هاجر قسم من هذه القبائل بعد سقوط الأمير إلى المغرب، ولكن القسم الأكبر لا يزال يقيم إلى اليوم في موطن الأمير حول معسكر.

وفي مساء اليوم الرابع وصلنا إلى مدينة معسكر التي تبعد عن تلمسان بحوالي مائة وخمسين كيلومترا. وهذا يعني أننا كنا نقطع يوميا حوالي خمسة وثلاثين كيلومترا في اليوم الواحد. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة البطيئة التي يتم بها السفر على ظهور الجياد في هذه البلاد (أعني أن الجياد تسير ولا تخب أبدا لأنها عاجزة عن ذلك نظرا لسوء التغذية) فإن سيرنا كان يستغرق يوميا قرابة عشر ساعات، وهي ما يستطيعه المرء هنا في اليوم الواحد.

ومنظر معسكر عن بعد يثير في النفس انطباعا قويا، فهي محاطة بأسوار تعلوها أشجار وترتفع فرقها ثمانية مواقع بارزة وخمسة بروج ولها خمسة أبواب، وتقع فوق صخرتين، يشق طريقه بينهما وادي تودمان بمياهه الفضية. ولكن داخلها لا يناسب، مثل الكثير من المدن الشرقية، خارجها الفخم.

وتشكل ثلاثة شوارع فرنسية جديدة، ببناياتها الفرنسية الحديثة، حيث المدينة الذي يسكنه 2000 من الأروبيين. أما الخمسة أو الستة آلاف عربي الذين بقوا في المدينة، فيسكنون حيا، أصبحت منازله اليوم عبارة عن أنقاض. ولم يبق من مساجدها الثلاثة الرئيسية سوى مسجد واحد للأسف. فقد حول مسجد الأمير الجميل، الذي كان يؤدي فيه صلاته، ويدعى العين البيضاء، إلى مستودع للتجهيزات العسكرية، بينما حول الآخر إلى كنيسة كاثولوليكية.

ومدينة معسكر الحالية حديثة نسبيا، فقد بناها الأتراك في القرن الماضي، وتعاقب على حكمها منذ ذلك الحين عدد من بايات الأتراك تحت سلطة الجزائر،قل منهم من مات ميتة طبيعية. وصارت عاصمة الأمير ابتداء من سنة 1832. ووقعت سنة 1834 في يد الفرنسيين لفترة قصيرة، ولم يتم احتلالها نهائيا من طرف الفرنسيين إلا في 30 ماي 1841، فضمت إلى بقية الممتلكات الفرنسية.

ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة الحصينة، التي يبلغ عدد أفراد حاميتها 1200 رجل، تحيا حياة ضنكة، فهي معرضة لدرجات الحرارة الشديدة، إذا تجتاحها في الشتاء، بسبب موقعها، برودة قاسية، وترهقها في الصيف حرارة رهيبة، وخاصة عندما تهب الرياح الصحراوية، وهي معرضة لها بشكل خاص، مما يجعل الإقامة بهاصعبة للغاية. ويمتاز الفندق الفرنسي الذي نزلت فيه، وهو فندق من الدرجة الأولى، بما لحقه من إهمال!

وتحتل مدينة معسكر، فيما يذهب إليه أغلب الأثريين، مكان المدينة الرومانية القديمة فيكتوريا. ولم أستطع أن أكتشف هنا أي أثر. ويعتبر بطليموس الجغرافي الوحيد الذي ذكر فيكتوريا. ومن المرجح أن المدينة قد هدمها الثوار من أهالي البلاد عند سقوط الإمبراطورية الرومانية، قاسمها لم يرد ذكر فيما بعد. ولم يكن في مدينة معسكر ما يستحق المشاهدة.

وذلك. ما جعلني لا أطيل الإقامة في عاصمة الأمير القديمة. فبعد أن أقمت فيها يومين قررت أن أعود إلى وهران. وقد ساعدني الحظ هنا، فتخلصت من زميلي في الرحلة. فلم يكن هناك ما يجمع بيننا ويشد أحدنا إلى الآخر إطلاقا، فكان من الصعب علينا أن نتآنس، لا سيما واني كنت مضطرا إلى مرافقته في رحلة من هذا النوع، وانضم إلى عوضه شاب

انجليزي، كان يمتاز عن مواطني كل الامتياز. فقد كان شابا، قدم إلى الجزائر ليتعلم اللغة العربية، وكان قد تقدم في دراستها وأصبح يتكلمها بطلاقة، وكانت لهجته خشنة نوعا ما، ولكن نطقه كان ممتازا. وسرعان ما وجدت حلا للغز. فزميلي الجديد في الرحلة لم يكن انجليزيا، وإنما كان اسكوتلنديا، وذلك ما سهل عليه النطق بالحروف العربية بصورة سليمة[1].

وسرنا في اليوم الأول من رحلتنا من معسكر إلى وهران عبر أغاليك بني شفران، التي تنتسب إليهم قبائل بني مستر وبني حاسي بن عيسى وأولاد سعيد، وبلغنا وادي الحمام، فعبرناه عند القرية المسماة باسمه.

ووصلنا في المساء إلى السيق، التي أطلق عليها حديثا اسم سان دينس، وهي محطة عسكرية، تقع في منطقة خصبة مزروعة، وقد شاء حظي أن انزل عند ضابط لطيف من ضباط المكتب العربي، أبدى هو الآخر إعجابه بسلامة العربية التي يتكلمها زميلي في الرحلة، والسيق واد جبلي جارف، يشق مجراه عبر سهل سيق، وكان من عادته سابقا أن يغرق المنطقة كلها في مواسم الأمطار ويتلف المزروعات، بينما تنضب مياهه في شهور الصيف. وبعد أن احتلها الفرنسيون أقاموا على بعد نصف ميل من القرية سورا من حجارة مربعة في مجرى النهر، ارتفاعه ثلاثون وطوله مائة وثلاثون قدما، يحفظ المياه خارج أوقات الفيضانات، ويوزع الفائض منها في قنوات صغيرة، تسقى مساحة تقدر بحوالي ثلاثين كيلومترا مربعا. وعند ارتفاع مياه النهر تفتح أهوسة القنوات كلها، وبهذه الطريقة أمكن تجنب الفيضانات.

وهكذا استطاعت الحضارة أن تجعل مياه النهر نافعة للمنطقة بعد ان كانت مضرة بها.

---

(1) حذفت هنا حوالي صفحة ونصف يتحدث المؤلف فيها عن مخارج الحروف العربية.

وفي اليوم الثاني من رحلتنا من معسكر مررنا بميدان معارك سيق والهبرة، حيث الحق الفرنسيون بالأمير عبد القادر سنة 1835 هزيمة منكرة، وذلك بعد انتصاره الحاسم في معركة المقطع.

وبلغنا في المساء الكرمة، وهي معسكر شجرة التين سابقا، وقد سميت باسم شجرة تين كبيرة توجد هنا. وفي هذا المكان تلقى الأمير في 27 ماي سنة 1833 هزيمة الحقها به الجنرال دي ميشال. وفي السادس عشر من شهر يونية عام 1835 عقد الجنرال تريزيل في الكرمة معاهدة مع قبائل الدوائر والزمالة المعادية للأمير، فصارت موالية لفرنسا بصورة دائمة. والكرمة مستعمرة مزدهرة إلى حد ما، يسكنها 400 من الأروبيين، من بينهم عدد كبير من الأسبان وبعض الألمان.

وبلغنا في اليوم الثالث من مغادرتنا لمعسكر مستعمرة السانية، التي تبعد عن الكرمة بحوالي خمسة عشر كيلو مترا، وقد أنشئت سنة 1844، وعدد سكانها خمسة أو ستة آلاف، أغلبهم من الإسبان. ورغم أن هذه المنطقة تعاني من قلة الأمطار، فقد استطاع سكانها أن ينشئوا عددا من بساتين الخضراوات، تسقى من الناعورة. وتبعد السانية عن وهران بحوالي سبعة كيلو مترات، وصلت وهران في فترة ما قبل الظهيرة، فأتيح لي أن أحييها للمرة الثانية خلال شهر واحد.

كانت جيوب زميلي في الرحلة مليئة برسائل التوصية المرسلة إلى مختلف السلطات في داخل البلاد. وكان من بينها توصيات كثيرة، لم يتمكن من تسليمها على أصحابها، لأننا لم نمر بالأماكن التي يوجدون بها. وبعد وصولنا إلى وهران أخذنا نتسلى بفتح تلك الرسائل، وهو فضول نال عقابه فيما يخص الإنجليزي على الأقل. فقد أدهشنا أن نجد رسالة من هذه الرسائل المزعومة كانت معاكسة للتوصية. كانت هذه الرسالة مكتوبة من طرف ضابط المكتب العربي في معسكر، ومحتواها هو ما يلي تقريبا:

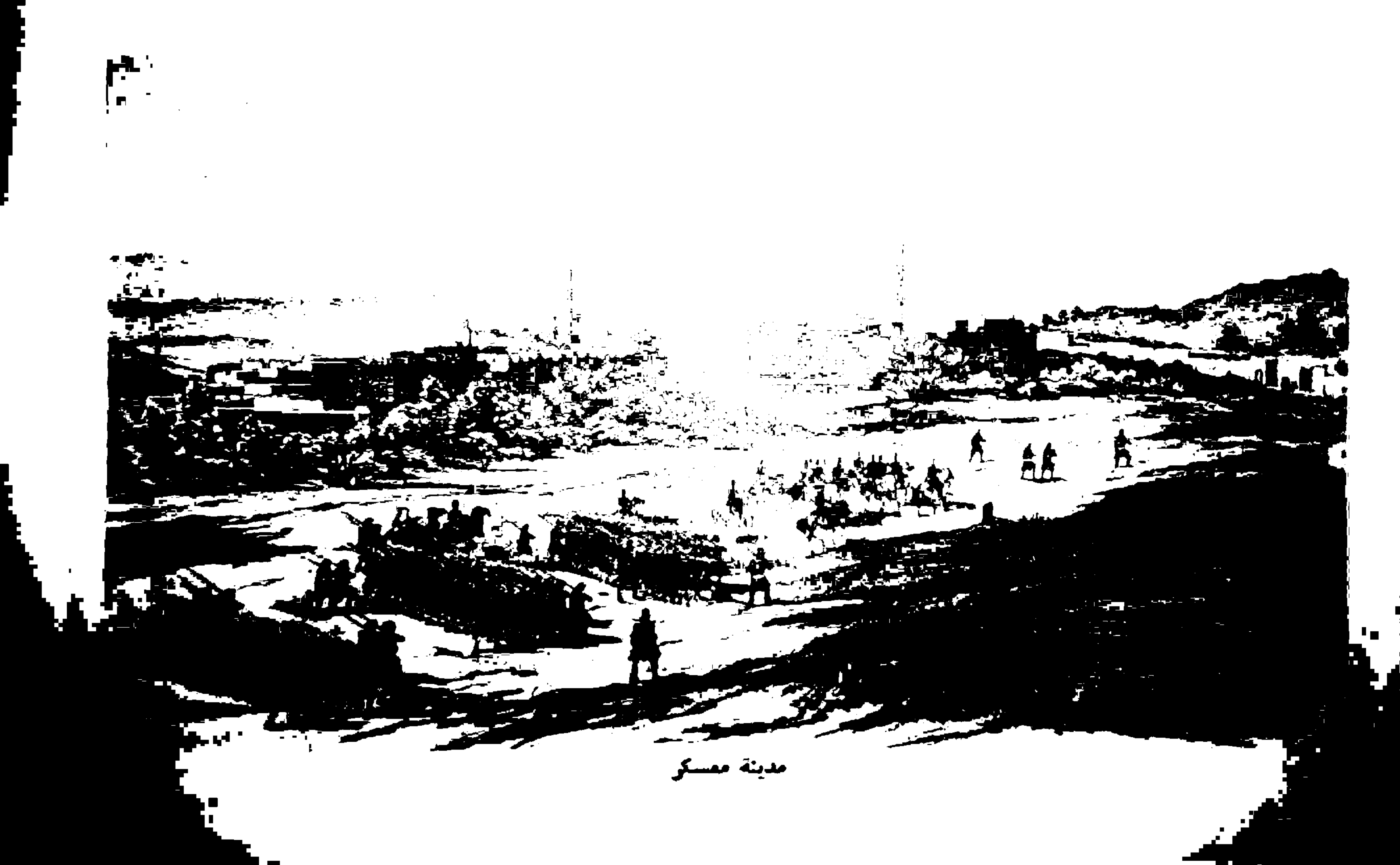
»صديقي العزيز! ها هو الجنرال يوسف يرسل إلي مرة أخرى إنجليزيا تافها! لست أدري ماذا يريد ساكن الجزر هذا أن يفعل في جزائرنا. يا له من وقح! إن أمثاله عذاب بالنسبة إلينا نحن ضباط المكتب العربي. لقد طلب مني هذا الإنجليزي أن أوصيك به، وأنا أفعل هذا لأني لا أستطيع أن أرفض طلبه، إلا أني بعيد عن أطلب منك أن تحسن إليه إحسانا كبيرا. وإذا طلب منك بغالا أو أحصنة، فابحث له قدر الإمكان عن أصعبها وأسوئها سيراً. فالمرء لا يستطيع أن يتخلص من سكان الجزر هؤلاء إلا بقليل من سوء المعاملة. . .إلخ«

وكان صديقي قد حمل معه هذه الرسالة، التي تكاد تشبه رسالة أورياس (التي طلب فيها الملك داود من احد قواده أن يقتل أورياس على شاكلة صحيفة المتلمس.م) مدة ثلاثة أو أربعة أيام، وحافظ عليها كما يحافظ على حبة عينه، وكأنها طلسم ثمين.

وفي وهران حظينا بزيارة شخصية عربية بهية مضحكة، أطلقت على نفسها اسم سيدي على الكبير. كان سيدي على الكبير يرتدي بدلة حمراء مطرزة بالذهب. وكانت عمامته من النوع الذي يطلق عليه العرب اسم »الياسمين« . وعمامة الياسمين هذه تبدو كأنها مذهبة، أي أن لها زهورا ذهبية فوق أرضية بيضاء، غير أن الزهور تشغل مساحة أكبر من المساحة التي يشغلها البياض. والواقع أن سيدي علي الكبير لم يكن شخصية راقية، فقد كان يعيش من إعطاء دروس في اللغةالعربية. وقد درس عليه صديقي، إلا أن سيدي علي الكبير لم يكن عالما، إذ كان يجهل القرآن كما يجهل النحو، ومع ذلك فقد كانت له فضيلة تميزه عن المعلمين الآخرين. فقد كان يبذل جهده مع تلامذته. وبطبيعة الحال لم يكن في وسع المرء ان يتعلم منه غير الحديث والنطق. إلا انه كان من المناسب جدا العثور على معلم يهتم بالنطق الاهتمام الذي يستحقه.

كان علي الكبير في تلك الفترة يشغل منصب مترجم، لأنه كان واحدا من الخضر القلائل الذين يحسنون الفرنسية قراءة وكتابة. ومن المؤسف أن صفاته لم تكن كلها جيدة مثل مهارته في التعليم، إذ انه كان مسلما سيئا، والمسلم السيئ من الناحية الأخلاقية أسوأ من الوثني. فعلي يحب تعاطي الشراب، وإذا بدأ العربي الشرب مرة،فقد اخذ سلك طريق الفسق والمجون. وكان يحب، إلى جانب الشراب، القمار. فهناك عدد كبير من الفرنسيين واليهود والمسلمين الخبثاء يمارسون لعبة القمار بشكل قوي، والحكومة تسمح بذلك، وهكذا استولت على علي الكبير نزواته، فلم تدع له الوقت للاهتمام بزوجته، ولم يبق له من المال ما يشترى به الخبز لهذه السيدة المحترمة. وقد وصل به الأمر في النهاية إلى أن رفعت زوجته شكوى ضده لدى القاضي.

ولم يكن لزيارته لنا من سبب سوى أن يطلب منا أن نأخذه معنا إلى الجزائر، أي أن ندفع له أجرة السفر، وذلك ما فعلنا، فقد كان بصفته مستعرباً ثمينا بالنسبة لنا. وبعد إقامة في هران استغرقت أياما وتكررت عدة مرات رجعنا إلى عاصمة الجزائر.



مدينة معسكر

منظر عام لمعسكر



PROVINCE D'ORAN. — Caravansérail de Sfisifa, situé sur les bords des Chott, (dans l'état où l'ont laissé les Arabes).

سفيزف بنواحي وهران

الفصـــل الأول

دلـــس

الركوب من الجزائر إلى دلس - الحراش - لاراسوطا - كاب ماتيفو - روسغونيا - مرسى الدجاج - القرصان القديم - جنات - منظر طبيعي حول دلس - روزوكورم - آثار.

يمكن الآن قطع المسافة بين الجزائر ودلس، التي تقع على الساحل شرقا على بعد حوالي 95 كيلو متر في ظرف اثنتي عشرة ساعة بواسطة عرب الجياد، أما في السابق فكان السفر إليها مقرونا بصعوبات كبيرة. ومع ذلك فقد سخرت من وسيلة المواصلات هذه، لأن الطريق لا يمر على شط البحر، فقد بدا لي أن الطريق على امتداد الشاطئ أجمل بكثير، إذا أنه يمر بمنطقة غنية بالآثار القديمة، وكان بإمكان جيادي أن تسير بلا انقطاع في اتجاه الطريق الروماني القديم.

تركت ذات صباح جميل من أيام شهر سبتمبر مدينة الدايات، وبرفقتي صبائحي، وذلك لأبدأ رحلتي في الشرق الجزائري من الجزائر إلى بجاية عن طريق دلس.

وقادنا الطريق أولا عبر المنطقة الشرقية القريبة من مدينة الجزائر، التي سبق للقارئ أن عرفها، والتي تغطي مساحة داراتها وبساتينها الجميلة سبعة كيلومترات. ثم أفضى بنا إلى سهل، قسم منه مزروع، ولكن القسم الأكبر منه تغطية النباتات البرية، وهو جزء من متيجة التي تمتد هنا حتى ساحل البحر. واجتزنا الحراش (حوش القنطرة) عند مصب وادي الحراش، وقد أخذ الحراش (حوش القنطرة) اسمه من قلعة كبيرة مربعة شبيهة بخان القوافل تعود إلى العهد التركي، وتكونت قربه الآن قرية فرنسية. وتعيش هذه القرية، نظرا لقلة الحقول بها وذلك راجع لعجز سكانها وكسلهم، من استغلال الجزائريين المغرمين بالملذات، الذين يأتون هنا مدعين الصيد. فهم

يخرجون إلى الصيد في أيام الآحاد، دون أن يكون لهم في الغالب إلمام كاف بالرمي، ولكنهم بفضلون قضاء القسم الأكبر من يومهم في مقاهي الحراش ومطامعه، ويعودون في الليل سكارى إلى الجزائر في عربات متداعية.

وبعد ذلك مررنا بفور دي لو (البرج البحري) الذي بناه الفرنسيون حديثا. وتركنا عن يميننا على مقربة منه قرية من أهم قرى المعمرين في الجزائر، وتدعى لارسوطا، ولعل سبب ازدهارها يعود إلى أن منشئيها كانوا كلهم تقريبا من الأسبان وليسوا من الفرنسيين. وكان قد استقر في هذا المكان بعد الاحتلال بفترة قصيرة أمير بولوني، يدعى «مير»، فقدت له الحكومة أراضي كبيرة. ولكن البولونيين، الذين يشابهون الفرنسيين في أشياء كثيرة، يشبهونهم أيضا في أنهم معمرون رديئون مثلهم،والأمير «مير» فقدمت لنا الدليل على ذلك، عوض أن يهتم باستصلاح الأراضي التي قدمت له، راح يقضي أوقاته في معاشرة خليلاته، وتعاطي المشروبات، والصيد، والحفلات وما أشبه ذلك من الأباطيل الأروبية. وسرعان ما أدت به هذه الحياة، التي لم تكن تتناسب مع إمكانياته، إلى الإفلاس، فترك المعمر الكبير أماكن بطالته النشيطة وقد لحق به الخزي والعار[1]. إن هذه الأراضي، التي لم تكن تقدم للأمير البولوني ما يكفي لإطعامه وحده، تغذي اليوم مجموعة نشطة من الاسبان، يتراوح عدد أفرادها بين 500 و600، وكانت الحكومة قد وزعتها عليهم بعد المصيبة التي حلت بالأمير البولوني.

وعبرنا على مقربة من لارسوطا وادي الخميس، وهو واد قليل المياه تصب في البحر على مسافة قريبة. وبلغنا عند الظهيرة كاب ماتيفو، ويسمى بالعربية رأس تامندفوس، ويبعد عن الجزائر بحوالي ثلاثين كيلومترًا، وهو

(1) ذكر موريتس فاغنر (رحلات في ولاية الجزائر 1/170) ان الامير اوميرسكي البولوني افلس في مطلع سنة 1837.

يشكل أقصى نقطة شرقية في ميناء الجزائر. وقرب هذا الرأس توجد ثلاث قرى صغيرة هي عين طاية،وعين البيضاء، وماتيفو. واغلب سكانها من الأسبان النشطين أيضا.

وفي رأس تامندفوس، وهو ولا شك روسفون الفينيقي والقرطاجني، كانت توجد في العصر الروماني مستعمرة روسغونيا (ويسميها بطليموس رونسطونيون)، ولا تزال آثارها ترى بوضوح قرب الرأس[1]. ويشتق غيسينوس اسم روسغونيا من الكلمة الفينيقية روس غونة، ويقال أنها تعني رأس الزاوية (غانيا اليونانية).

ويقدر بطليموس المسافة بين ايكوسيوم (الجزائر) وروسفونيا (ماتيفو) بثلاثين معلما، وهذا كثير جدا حتى إذا اختصرنا درجات الطول عند بطليموس بمقدار الثلث. فالجغرافي الإسكندري يقدرمسافة العالم الذي يعرفه، أي ذلك القسم من الأرض الذي تشكل جزيرة فيرو تقريبا نقطته الغربية،بينما يجب البحث عن نقطته الشرقية في شرق الهند، بـ 180 درجة ولكن قياس هذا القسم من الكرة الأرضية لا يزيد في الحقيقة عن 120 درجة. وعلى هذا فإن متوسط درجة الطول عند بطليموس يساوي 40 معلما حسب القياسات الحديثة. إذن فـ 30 معلما عند بطليموس تساوي اليوم 20 معلما. أما في موريطانيا القيصرية وفي نوميديا فيجب علينا أن نعد معدل درجات الطول عند بطليموس أقل من ذلك. ويقدر بطليموس درجات الطول فيما يخص جزائر اليوم، أي الأرض الممتدة بين وادي ملوية وطبرقة بـ 20درجة. فملوية (وهو الحد الجغرافي الغربي للجزائر) يقع حسب الجغرافي الإسكندري عند خط الطول 11,10 وتقع طبرقة (الحد

---

(1) يقول فاغنر (المرجع السابق 1/ 182) إن العرب يسمون روسفونيا « البلاد انتاع طاكيوس » ويقال ان هذه المدينة قد بناها روماني يدعى طاسيوس.

الشرقي للجزائر) عند خط الطول 31,15، وهذا يساوي امتدادا يقدر طوله بـ 20,5 درجة. غير أن خط الطول بالنسبة للجزائر لا يتجاوز في الحقيقة 11 درجة. ولهذا يجب علينا لكي نصل إلى نتائج صحيحة فيما يخص الجزائر أن نختصر خطوط الطول التي يذكرها بطليموس إلى النصف تقريبا. فإذا اختصرنا إذن الثلاثين معلما، وهي المسافة بين الجزائر وماتيفو كما يقدرها بطليموس خطأ، يبقى لدينا خمسة عشر معلما، وهي المسافة الحقيقية.

لقد شاهدت في تامندفوس عددا من القباب في حالة جيدة، وبقايا عيون حارة قديمة وفسيفساء سليمة إلى حد ما. وكانت هناك أسس بيوت رومانية واضحة، واستطلعت أن أتعرف في الأخير منها في الناحية الشرقية على مكان الفناء والدهليز. ورأيت كذلك فنادق كثيرة تشبه الحصون، لم تتم معرفة أصلها بعد.

ولا بد أن يكون الميناء الممتاز، الذي منحته الطبيعة لكاب ماتيفو، قد جعل للمدينة التي كانت تقع هنا قديما، أهمية كبيرة، لم يصل إليها يوكوسيوم، سابقة الجزائر الحالية، في وقت من الأوقات.

ولدينا عدد من النقوش الخاصة بروسغونيا. فقد ذكر في أحدها، ويوجد بمتحف فيرونا، شخص يدعى غ. غارغيليوس «عضو المجلس الاستشاري لمستعمرتي أوزيا و روسغونيا» وكانت أوزيا مدينة واقعة في داخل البلاد، وهي مدينة أومال (سور الغزلان) الحالية، واتصال أوزيا المباشر بروسغونيا لا بيو كوسيوم القريبة منها جدا يدل على ما كان لروسغونيا من أهمية في ذلك الحين وعلى قلة أهمية أم مدينة الجزائر. ومن الواضح أن روسغونيا، وجميع قرى الجزائر تقريبا، كانت أسقفية. فقد تحدث التاريخ عن أسقفين من أساقفةروسغونيا.

وقد بني القسم الأكبر من الجزائر العربية بحجارة روسغونيا، ذلك أن بقايا يوكوسيوم القديمة لم تكن تكفي لبناء نصفها. ولهذا يجد المرء في

البيوت القديمة بمدينة الجزائر نقوش روسغونيا إلى جانب نقوش يوكوسيوم. لقد وجد المسلمون الكسالى أن نقل الحجارة الرومانية من ماتيفو أروح لهم من أن يهيئوها بأنفسهم. ورغم هذا النهب الفندالي، الذي استمر عدة قرون، فإن آثار روسغونيا لا تزال كبيرة نسبيا.

وكان ميناء رأس تامندفوس لا يزال سليما في عهد الإدريسي. فقد تحدث هذا الجغرافي الصقلي العربي عن مدينة تامندفوس، روسغونيا القديمةالتي تهدم نصفها، وذكر أن قسما منها كان لا يزال في عصره معمورا. و روسغونيا اليوم عبارة عن كومة من الأنقاض، وميناؤها مهمل وغير مستعمل.

وواصلنا رحلتنا فوق ظهر الجياد فمررنا شرق ماتيفو بعين، أطلق عليها اسم خاص، هو «اشرب واهرب». ويرجع بعض الناس أصل هذا الاسم الغريب إلى طبيعة هذه المنطقة، التي تسلط الحمى على من يقيم فيها، بينما يرجعها بعضهم الآخر إلى الخطر الذي كان يلحق المقيم بها من طرف قرصان البحر.

وكانت توجد في هذا الموقع، الذي يشرف على الطريق الساحلي، في أيام بطليموس قلعة رومانية، تدعى روسيكيبار. والظاهر أن الاسم الروماني فينيقي الأصل. فبعبارة «روس ها خبر» يعني الرأس الكبير. ومن هذا المثل نرى التشابه الموجود بين العربية والفينيقية بكل وضوح. فالخلاف لا يوجد، زيادة على حرفي التعريف (ها و أل) إلا في الحركات، ولكن من يعرف اللغات الشعبية السامية يدرك مدى تنوع الحركات في هذه اللغات.

وخريطة الطرق لأنطونيني تطلق على هذا المكان اسم «روسو بيكار Rusublicar» و Notitia Numidiae اسم روسو بيكارس Rusubicaris وكانت هذه المدينة الرومانية الصغيرة أسقفية أيضا عام 484 ميلادية.

ويمتد الساحل من كاب ماتيفو إلى مرسى الدجاج في منبسط خال من المرتفعات. ووصلنا في المساء إلى الموضع الأخير، ويوجد به، كما تشير إلى ذلك الكلمة العربية، مرسى، ولكن هذا المرسى صغير جدا بحيث أطلق عليه اسم مرسى الدجاج. وقد أراد بعض العلماء نقل سيسي مونيسيبيوم Cisi Muicipium التي وردت في خريطة الطرق، ولكنني اعتقد مع بربروجير أنه يجب علينا البحث عنها في النقطة الساحلية جنات الواقعة في الشرق على بعد ثلاثين كيلومترا. ولعل مودونغا Modunga التي ورد ذكرها عند بطليموس تقد هنا.

وسألني الصبائحي عندما شاهدنا مرسى الدجاج خاليا أمامنا:

ـ أين تريد أن تقضي ليلتك ؟

فقلت :

ـ أين، اجل، أين ؟ إنه لمن الصعب علي أن أجيب على ذلك.

لم يكن من الممكن العثور على بيت في مرسى الدجاج، فقد كان المكان عبارة عن منطقة جرداء يحدها البحر على امتداد النظر.

والتقت إلى الجندي العربي وسألته :

ـ وأنت ؟

كنت أعرف أن هؤلاء الجنود رغم ما يبدو عليهم من غباء، لديهم في بعض الأحيان مقترحات عملية، وهكذا أجابني :

ـ أنا ؟ سأبيت في الكوخ الذي تراه هناك تحت.

ـ في الكوخ ؟ أين هو هذا الكوخ ؟ إنني لا أرى كوخا على الإطلاق.

ـ أنظر إلى تلك الزاوية في البحر بين الصخر الناتئ ومنبسط رمل الشاطئ.

- ذاك ؟ إنه عبارة عن كومة من الأغصان.

- كلا! إنه كوخ. فأنا أعرفه. حاول أن تذهب معي إليه، فقد تعثر على مبيت.

فنزلنا إلى الكوخ. ولم أكن طبعا قد شاهدت مسكنا من هذا النوع. كنت قد عرفت حتى تلك اللحظة أكواخ البدو المتداعية. أما الكوخ فقد كان كوخ الصيادين. وكان ضيقا وواطئا جدا وقريبا من البحر بحيث إن الأمواج كانت تبلل عتبته في كل لحظة. كانت الأغصان مربوطة بعضها ببعض فقط، فلو سقطت الأمطار لحملتها إلى البحر بكل تأكيد. فكان علينا أن تقضي ليلتنا في كوخ كهذا، وكنا مسرورين لأنه سمح لنا أن نبيت فيه نظير مبلغ طفيف من المال. وجلس الصبائحي في إحدى الزوايا، وأكل حوتا مجففا كان عند الصيادين، ثم نام فأخرجت جميع قمصاني وألبستي من رداء النوم وجعلت منها ما يشبه الفراش، ولكني لم أستطع النوم لمدة طويلة، فرحت أتأمل الصيادين عوض ذلك، وكان عدهم حوالي ستة، فأعجبني واحد منهم. كان شيخا في حوالي الستين من عمره، ذا ملامح حربية حقيقية، تناقض عمله الهادئ تماما.

وبدأت أخاطبه :

- من لمؤكد أنك لم تقض حياتك كلها في الصيد.

فأجاب :

- كلا! كنت أعمل في القيرا Gurrra.

وكلمة القيرا (وتعنى الحرب في اللغة الفرنجية) هي التعبير الجميل المستعمل في القرصنة.

وسألته :

- وهل قتلت كثيرا من النصارى ؟

فالتمعت عيناه بشكل مخيف، كما لو أنهما تريدان أن تقولا : «أجل كثيرا جدا». ولكن فمه نطق بعكس ذلك. فقال إنه لم يقتل أحدا قط، فقط كان يسلم جميع النصارى في سوق العبيد لحساب لباشا. وكان ذلك مجرد نفاق. وهذه هي طبيعة جميع القرصان الذين تعرفت عليهم في الجزائر، فلا احد منهم يود أن يتحدث عن مغامراته، ولا يذكرون شيئا خاصة فيما يتعلق بالسبايا، كما لو أنهن كن لا يزلن إلى اليوم يافعات وجميلات ومن محظيات الباشا!

وفي الصباح تركت الكوخ البائس، وبلغنا في الحادية عشرة من اليوم الثاني من رحلتنا من الجزائر، جنات، ويقال أن جنات، وهي مرسى جنة المذكورة عند ابن حوقل والبكري، قد أخذت اسمها، ويعني الفردوس، من سفينة أنقذت بأعجوبة في هذا الخليج بعد أن كان ابتلاع العاصفة لها مؤكدا. وهذا اشتقاق عربي وهمي، رواه لنا رحالة القرن الماضي الشهير الدكتور شو. ولأذكر بهذه المناسبة أن هذا العالم، فما يقال حديثا، لم يصف في الواقع رحلته الممتازة وصفا حقيقيا إلا عن طريق السماع، وذلك في مكتبه الهادئ بمدينة الجزائر، حيث كان قسيسا معاونا بالقنصلية الإنجليزية. وأنا أقول «يقال»، لأني لا أريد أن ألزم نفسي برأي يجعل من أب الرحالين كلهم في المغرب مشعوذا. أما الاسم الحقيقي لجنات فهو مستمد في الأصل من اسم بني جناد، وهي قبيلة كانت تسكن هذه المنطقة منذ القديم.

ومن المرجع أن سيسي مينسيبيوم التي وردت عند أنطونيين، وذكرت باسم Kisse عند بطليموس وباسم Cassite في Notitia كانت تقع في مكان جنات. وقد ذكرت على أنها أسقفية. ومات أسقفها Quodultdeus وهو في طريقه إلى قرطاجنة لحضور اجتماع آباء الكنيسة سنة 411، وثار حوله

جدال سلبي بين آباء الكنيسة الأتقياء، لأنهم اختلفوا في مذهبه. ومن المرجح انه كان دوناتيا.

وعبرنا قرب جنات وادي يسر، ويقع على حدود القبائل الكبرى، وله شهرة كبيرة عند الأهالي، ولكنه في الحقيقة قليل الأهمية إلى حد ما، فهو يكاد يكون جافا في أشهر الصيف.

وهنا اجتازنا فارسان، وكانا ضابطين فرنسيين، احدهما شاب، والآخر كهل ذو مظهر همجي. وما كادا يسبقاننا حتى قللا من سرعة جواديهما، وأخذا يسيران لفترة بنفس السرعة التي كنا نسير بها. وكانا يتحدثان، وكنت اسمع حديثهما كله تقريبا، ولكنه لم يكن يهمني كثيرا، وفجأة سمعت ما يلي : فقد ألقى الزغلول، والظاهر أنه كان قد قدم في ذلك الحين من سان أور، سؤال عويصا : «من هم القبائل ؟».

حقا. من هم ؟ سؤال بسيط! لكي يجيب المرء على ذلك ينبغي أن يعرف أصلهم. ومن يستطيع أن يحدد هوية شعب دون أن يعرف تاريخه معرفة كاملة؟ غير أن الضابط السمين لم يجد الجواب صعبا جدا. فقال: «إن القبائل عرب يتكلمون القبائلية ؟» وفي وسع المرء أن يسأل : «ما هو الأبيض؟» ويجيب بنفس الطريقة : «الأبيض اسود، له مظهر الأبيض».

ولم يكن في نية الضابط أن يقع في تناقض. فقد استعمل كلمة : «العرب» بالمعنى الذي يستعمله بها الجنود الفرنسيون، فهم يطلقون على الأهالي كلهم اسم «العرب» أو اسم «البدو» حين يتحدثون عنهم باحتقار. ولكن الزغول، لإيمانه بالحقيقة القائلة أن المعتوه يستطيع أن يسأل أكثر مما يستطيع الإجابة عليه عشرة حكماء، استمر في أسئلته قائلا : «و ها هي اللغة القبائلية؟» فأجاب الضابط على ذلك بصورة صحيحة كما فعل سابقا : «القبائلية لهجة من لهجات اللغة العربية». وقد عاش هذا الرجل عشرين سنة في الجزائر.

وبعد هذه الصورة الأروبية العادية، شاهدنا صورة أخرى جزائرية أصلية. فقد مرت بنا فجأة فرقة من الصبائحية ببرانسهم الحمراء الفضفاضة، وستراتهم المطرزة بالذهب، وجزمهم القانية. كانوا شخصيات حربية جميلة، حقا لقد كانوا في خدمة فرنسا، ولكنهم لم يرتدوا بعد البزة العسكرية المبتذلة. كانوا يقودون بينهم أسيرا، لم يكن من السهل معرفة جنسه عن بعد. وكلما اقترب الصبائحية اتضحت أكثر الظاهرة الغريبة التي كانوا يحرسونها.

عرفت فيها امرأة، فتاة قبائلية جميلة جدا، وكانت سافرة، فالقبائليات والبدويات لا يستعملن الحجاب. لماذا أسرت هذه الفتاة، ولماذا حملت مقيدة إلى الجزائر ؟ كانت هذه الشابة بطلة من بطلات الحرية، متمكنة متحمسة، عذراء أورليانس جزائرية، حرضت شعبها، الذي وضع أسلحته قبل فترة قصيرة، على الثورة ضد الطغاة الغاليين. كان اسمها لالا ثريا، وكانت ابنة زعيم قبائلي قوي،حارب الفرنسيين مدة طويلة، ثم خضع لهم في النهاية، وحنى المحارب العنيد رأسه للمنتصرين، ولكن ابنته، التي لم تبلغ بعد سنها الخامسة عشرة، رفضت أن تحني رأسها الجميل لنير العدو البغيض.

واتهمت لالا ثريا أباها بالجبن، وتركت منزله ومضت مع مجموعة من الشبان الشجعان، وراحت تحدث الناس في الجبال والوهاد عن الحرية وتثير كراهيتهم ضد فرنسا. ولعل جمالها كان له في ذلك تأثير فمها الناعم. فكانت الثورة تندلع في أي مكان حلت به. ولم يستطع المكتب العربي، ذلك المتجسس الخالد على الأهالي وحارسهم، أن يصبر على ذلك بطبيعة الحال. وما أن أخبر المكتب العربي الوالي بأمرها، حتى وضع جائزة لمن يحمل إليه الفتاة الثائرة ميتة، ولكن لالا ثريا وقعت أسيرة في أيدي أعدائها، وذلك فيما يقال، بسبب الخيانة، فقد كان هناك شاب يحبها

وأراد أن يتزوج بها، غير أنها لم تكن تريد الزواج، لأنها كانت تحب بلادها وحدها، كانت عروس الحرية الخالدة. وأصبح العاشق الشاب عدوا خائنا، وسلمها للفرنسيين.

وكان من المدهش أن يلاحظ المرء كيف أن سمعة جوديث[1] الجزائرية هذه قد أثرت على حراسها. فالصبائحية العرب، الذين كانوا يرافقونها، لم يكن يبدو عليهم أنهم يعاملونها معاملة الأسيرة، بل كانوا يعاملونها بمثابة أميرة، يسيرون في ركبها. ولعل ثريا كانت ستوضع بالجزائر في سجن لا يليق بها، وكأنها مجرمة شريرة. ولكن البطلة الشابة كانت تحتفل بانتصارها في الطريق. كانت يداها مقيدتين، ومع ذلك كانت تشبه ملكة متوجة. فقد حظيت ببيعة عظيمة قبل أن تختفي عن أنظارنا. كانت هناك جماعة، يقدر عددها بحوالي مائة، عائدة من أحد الأسواق المجاورة، فتوقفت عندما رأت المتكهنة الشابة. ونزل كل واحد من أفرادها عن حصانة أو بغله، واقترب منها، ووضع قبلة معبرة على يمناها المقيدة، وكأنه يقوم بمراسيم مقدسة. وحين انتهى الجميع من تقبيل يدها، رفعت المتكهنة يمناها محيية، واصلت سيرها مع حراسها.

بدأ الساحل منبسط يتخذ مظهرا آخر ابتداء من جنات، وأصبح جديدا باسم الأرض المرتفعة الذي خلعه عليها أبو الفداء. كانت قمم الجبال، التي تعلوها قمة جرجرة الشامخ، تحد تلك الأراضي جنوبا بينما كانت التلال البديعية الملتوية تمتد شمالا وغربا حتى البحر. وكانت هناك ثلاثة قمم، تطل في الشمال على البحر، هي قمة تدلس وجبل بوبارك ورأس جنات، تشكل مجموعة رأس جبل بني جناد. وكان جبل بوبارك

(1) بطلة ورد اسمها في كتاب العهد القديم، وفي كتاب آخر رويت قصتها، وقد أصبحت موضوعا أدبيا عالجه الكثير من الشعراء والكتاب في عصور مختلفة. (م)

أعلى هذه الجبال الثلاثة، ويشرف هنا على الساحل من جميع الجهات. أما رأس بني جناد فكان معروفا في العصورالوسطى باسم رأي بنغوت، ولكن الإسبان أفسدوه على عادتهم في إفساد الأسماء حين جعلوا منه رأس بينيغا نيتو Cap beneganeto .

وبعد أن عبرنا مياه سباو الهادئة، الذي يسميه بطليموس سربيتس Serbetis، وصلنا في مساء اليوم الثاني إلى مدينة دلس اللطيفة، التي هي روسو كورم Rusuccurum الرومانية القديمة، وكان اسمها تادلس في العصور الوسطى، ويبدو أن ميناءها الممتاز قد جعل لتجارتها أهمية كبيرة في العصور القديمة. وكان منظرها ومنظر المنطقة المحيطة بها عن بعد في منتهى الروعة. ويمتد لسان دلس الأرضي، الذي يشكل سد مينائها الطبيعي، بضيقه وطوله إلى البحر العميق الزرقة. وتتوج أعلى نقطة قبة جميلة بيضاء تتناثر حولها شواهد قبور المؤمنين. وكان هناك على ساحل البحر غربا سهل يمتد حوالي ميل، تغطيه الحدائق والمنازل الريفية، ويقدم منظرا لطيفا مناقضا لمظهر الجبل القائم. وكان جبل بني سليميرتفع في الجنوب في منطقة منخفضة نسبيا، وقمته تشبهقمة بركان مما جعلها تسبى العين عن بعد.

وتقع مدينة دلس العربية على صفحة تل بشكل مدرج، فتبدوللعين بصورة رائعة، بينما كانت المدينة الفرنسية الجديدة، التي بنيت فوق هضبة صغيرة، تلتمع قرب البحر في أضواء المساء. وكان هناك ميدان يفصل بين المدينتين، ويمثل، فيما بدا لي، الشقة الفاصلة بين كل ما هو عربي وكل ما هو فرنسي. ومع ذلك فإن المكتب العربي، الجسر الممتد لأوربة العرب، الذي لا تزال مهمته التحضيرية عسيرة جدا بطبيعية الحال، قد اتخذ مقره في هذا الميدان.

وأراني في غنى عن القول بأن دلس الجديدة كان لها بصفتها مدينة فرنسية مطعم فرنسي، أطلق عليه اسم يدل على حسن الذوق، وهو « الطاهي الفنان» ، إلا أن هذا لم يكن يمنع من أن يتناولالمرء فيه طعاما رديئا، كما جربت ذلك بنفسي.

ويستبدل من الآثار التي عثر ليها قرب مدينة دلس على أهمية المدينة الرومانية التي كانت تقع قديما هنا، وهي مدينة روسو كورم Rusuccurum القديمة فيما يعتقده العلماء المحدثون عامة. وقد أطلق الرومان هذا الاسم على المدينة الفينيقية التي كانت توجد هنا قبل إنشاء المستعمرة الرومانية، وكان أسمها الفينيقي روس كور، أي رأس الصيادين، غير أن غيسينيوس Gesenius يشتق اسم روسوكورم من روس كارث، أي رأس المدينة.

ويقدر بطليموس خط الطول لمدينة روسوكورم: 3,20 درجة شرق يوليا القيصرية، شرشال الحالية. والحقيقة أن دلس تقع شرق شرشال على مسافة لا تتجاوز 1,40. وقد سبق لي أن لاحظت سابقا أن تقديرات بطليموس فيما يخص الجزائر يجب اختصارها إلى النصف إذا أراد المرء أن يتوصل إلى الحقيقة. وتتطابق النتائج النهائية بالنسبة للمسافة التي تفصل بين روسوكورم ويوليا القيصرية مطابقة تامة.

فالمسافة بين يوليا القيصرية وروسوكورم تعد حسب خريطة الطرق 127 معلما، أي 179 كيلومترا. والقياسات الحديثة تتفق مع التقديرات القديمة فيما يخص المسافة بين شرشال ودلس اتفاقا يكاد يكون تاما.

صف بلينيوس Plinius روسوكورم بأنها مدينة، بينما تصفها خريطة الطرق بأنها مستعمرة. وكانت مدينة أحد القديسين وهو Sancta Marciana، الذي نال الشهادة في القيصرية تحت حكم ديوكليتيان Diocletian، وقد تحدث التاريخ عن ثلاثة أساقفة من أساقفة مدينةروسوكورم.

ولقد تم حديثا اكتشاف بقايا آثار قديمة هامة في تدلس، التي تقع شرقي دلس على بعد ميلين، وهذه الآثار تحمل على الظن بأنه قد يكون علينا أن نبحث هناك عن روس كور الفينيقية، التي هي روسوكورم الرومانية. ولكن ما هو الاسم الروماني الذي يبقى عندئذ لدلس؟ إني لا أستطيع الحكم على ذلك، وأتمسك، إلى أن تثبت النقوش التي عثر عليها في تدلس عكس ذلك، بالرأي الذي ذهب إليه كل من شو وبير بروجير وبالوصف المحتمل الذي ورد في خريطة الطرق من أن دلس هي روسوكورم وتدلس هي يومنيوم Yomnium وروسوكوم ذات أهمية كبيرة بالنسبة للباحث في الجغرافية القديمة. ذلك أن مصدرا لدراسته، كان قد اضطر إلى الاستغناء عنه في موريطانيا القيصرية، أعني لوحة الطرق القيمة،[1] التي تعتبر أحسن دليل والتي سترافقنا منذ الآن في طريقنا إلى المدن القديمة. وهذه اللوحة ليست مثل خريطة الطرق لأنطونين وجغرافية بطليموس مجرد سجل للأسماء، وإنما هي خريطة عجيبة طبعا، رسمت حسب طريقة التفكير القديمة، ومع ذلك فهي الخريطة الوحيدة الصالحة للاستعمال التي وصلتنا من العالم القديم.

وقد ذكر الإدريسي في كتابه الجغرافي » نزهة المشتاق في اختراق الآفاق« مكانا يدعى الأندلس، يقع على بعد ثلاثين ميلا شرقي مرسى الدجاج وسبعين ميلا غربي بجاية. ولاشك أن هذا المكان هو دلس، التي يبدو أنها كانت في القرن الثاني عشر (عاش الإدريسي حوالي 1190 في بلاط روجر الثاني ملك صقلية) تدعى الأندلس، فنشأ عن ذلك اسمها الحالي.

وتوجد بدلس آثار سور روماني، يحتل محيطا كبيرا، وقد عثر في أنقاضها سنة 1857 على تابوت روماني، يعد الآن أحد الآثار الفنية

(1) Tabula itineraria peuting Reriana . Ed Conradi Mannert, Lipsia 1824

الرئيسية في متحف الجزائر. وكان يحتوي عندما عثر عليه على نعش نحاسي، بداخله هيكل عظمي. وكان التابوت مصنوعا من الرخام، ويعود فيما يبدو إلى العصر البزنطي. وكانت واجهته الأمامية تحتوي على نقوش تصف في سبعة أقسام مشاهد من حياة طبيب روماني.

وتشكل دلس وبجاية عاصمتي القبائل الكبرى، بلاد تلك القبائل التي أبت أن تخضع خضوعا تاما للمحتلين من فينيقيين ورومان وغيرهم. ورغم قرب دلس من مدينة الجزائر فإن الفرنسيين لم يحتلوها إلا في وقت متأخر نسبيا، أي في الحملة التي قام بها المارشال بيجو سنة 1844. ويعتبر الطريق الساحلي، الذي يربط بين المدينتين، ذا أهمية كبيرة بالنسبة للسائح في الجزائر سواء من الناحية التاريخية أو من الناحية الطبيعية. وبعد استراحة قصيرة في القسم الفرنسي من مدينة دلس، التي تتألف حاميتها من 2000 رجل، مع أن سكانها لا يتجاوزون 700 من الأروبيين 1200 من الحضر، بدأت رحلتي على امتداد الحدود الشمالية لبلاد القبائل.

الفصـــــل الثاني

ساحل القبائل الكبرى

قبائل ول دلس - تيجيسيس القديمة وأسقفها سيكو ندوس - آثار يومنيوم - العشائر الخمس - ملك كوكو - قلة المصادر التاريخية عند القبائل - ضحية الاستعمار - منظر منطقة بجاية.

كانت القبائل البربرية، التي اعترفت بسيادة فرنسا بعد سقوط دلس، تتكون من بني تور أو توارقة، وبني سليلم، وبنيواقنو وفليسة. وكانت كلها تسكن منطقة الساحل القريبة من دلس، التي سأمر عبرها الآن.

ويوجد بمنطقة توارقة مكان يحمل نفس الاسم، يقال إنه تيجسيس Tigisis القديمة. ولا ينبغي الخلط بينها وبين مدينة تيجسيس الرومانية الواقعة في جنوب مدينة قسنطينة،وهي المسماة باسم تيجسيس عند ابن حوقل والبكري. ويرى بعض العلماء أن تيجسيس القريبة من قسنطينة هي المدينة التي ذكرها Prokopios وتحدث عن عمودين، أقامهما الفينيقيون فيها. ولكن بروكوبيوس فيما يبدو لي يشير إلى أن المدينة التي يتحدث عنها قرب البحر. وهو يتحدث عن العمودين الذين أقامهما الكنعانيون عندما أتوا إلى هنا فارين من اليهود. ويبدو أن هذين العمودين ليسا سوى شكل من أشكال الأعمدة العادية التي استعملها الفينيقيون في رسم الحدود وأصبحت - فيما بعد - تعرف باسم الأعمدة الهرقلية Columna Herculeae إذن فالكنعانيون عند بروكوبيوس هم الفينيقيين وكانت هذه الأعمدة تقام في أغلب الأحيان قرب البحر. ويبدو أن بروكوبيوس قد شاهد هذه الأعمدة بنفسه، لأنه كان قد رافق القائدين بيلسار Belisar[1] وسالمون Salomon في حملتهما على الجزائر. وما ذكره بروكوبيوس من

(1) القائد البزنطي الشهير الذي فتح شمال إفريقيا في النصف الأول من القرن السادس.

كثرة العيون عند الحديث عن تيجسيس ينطبق على توارقة Tuarga ولا شك أن إحدى مدينتي تيجسيس أو تيجس، كما يكتبها بطليموس، تقع قرب روسوكورم. فتيجس تقع في رأسي الجغرافي الأسكندري تحت خط العرض 32 ونصف وخط الطول 19 وعشر أرباع، بينما تقع روسوكورم تحت خط العرض 32 وثلاثة أرباع خط 20 وعشر أرباع. ومن هنا نرى أنه من المستحيل أن تكون تيجيس المذكورة عند البكري هي تيجس المذكورة عند بطليموس.

ولا نعرف عن تيجسيس طبعا سوى أنها كانت مقر الأسقف سيكوندوس السيئ السمعة الذي ترأس عام 305 اجتماع زعماء الكنيسة في قسنطينة وامتاز بتسامحه الأثيم مع القساوسة الذين سلموا الإنجيليين نتيجة لاضطهاددديوكليتيان لهم إلى الوالي الوثني. وإن المرء ليتصور أنه يصغى إلى وصف رواية هزلية عندما يقرأ كيف حاول أولئك القساوسة، الذين اتهموا بالإلحاد وأدينوا، أن يبرروا مواقفهم، وكيف اخذ سيكوندوس التيجسيسي اعتذاراتهم الواهية بعين الاعتبار، وكان يردد وباستمرار : انتقلوا إلى هذا الجانب (الذي كان قد جلس فيه القساوسة الذين نالوا البراءة.) وقد كان لسيكوندوس التيجسيسي الطيب سبب يحمله على الشعور بالندم لا لأنه سلم الإنجيليين فقط، وإنما لأنه نشر البخور أيضا حول الأوثان. ولم يكن هناك بعدئذ ما يدعو إلى العجب حين زاد عدد أنصار الدوناتيين بشكل كبير، ويعود الفضل في ذلك إلى الإساءة التي لحقت الكنيسة الكاثوليكية. ولا أريد أن أنكر أنه من الممكن أن تكون تيجسيس الأخرى، التي تقع قرب قسنطينة، هي مقر الأسقف.

وبعد أن تركنا منطقة توارقة عن يميننا، قادنا الطريق خلال عدة ساعات على سهل ساحلي خصب مزروع نسبيا وأفضى بنا إلى تادلس، حيث

استولت على اهتمامي آثار مدية رومانية، يعتقد كل من شووبيربررجير أنها مدينة يومينيوم Jomnium.

وتقدر المسافة بين يوميونوم وروسوكورم في المصادر التي وصلت إلينا تقديرا متبانيا. فيقدرها بطليموس بـ15 درجة شرقي روسوكورم، وتقدرها خريطة الطرق بـ 18، في حين تصل بها لوحة الطرق إلى 28 معلما. أما المسافة بين تادلس ودلس فتبلغ 18 كيلومترا، وهي تعادل 13 معلما. ولكن تقديرات بطليموس مطابقة تمام إذا نحن اختصرنا درجات الاسكندري إلى النصف.

ويطلق أنطونيني على يومنيوم اسم مدينة، وكانت في القرن الخامس أسقفية، وقد حضر أسقفها الدوناتي هيبوقراطوس Hypocratus اجتماع زعماء الكنيسة عام 411 بقرطاجنة دون أن يكون إلى جانبه أسقف كاثوليكي.

ولآثار يومنيوم أهمية كبيرة. وقد شاهدت رصيفا على البحر، يدل اتساعه على ما كان لهذه المدينة الرومانية القديمة من أهمية. وكانت هناك بقايا معبدين رومانيين وملعب، امتازت ببقاء أسسها سليمة. وشاهدت قربها خزان ماء قديم غير مسور، لعله حوض قديم، كان الماء ينظف فيه بواسطة المقومات الترابية، ثم يسيل منه إلى الآبار التي تقع تحته. وقد وجدت هنا سبعة آبار في حالة جيدة. وكان لأحد المعبدين، اللذين سبق ذكرهما، فناء واسع، يعمره ثلاثون عمود مضاعفا، كما يتضح ذلك من أساسه. وهناك قبور كثيرة منقوشة في صخرة تشير إلى مقبرة جومنيوم القديمة.

ويرى غيسينيوس Gesenius أن اسم يومنيوم مأخوذ أيضا من اللغة الفينيقية، فأصله من كلمة « جابنه »، التي لا يزال معناها مجهولا. وجابنه اسم لمدينة في فلسطين. هكذا كان الفينيقيون يخلعون على مستعمراتهم

أسماء الأماكن التي توجد في وطنهم فلسطين، كما تطلق اليوم أسماء الأماكن الأروبية على المدن الأمريكية، ودون أن تضاف إليها كلمة «الجديدة الضرورية».

وكانت المناظر الطبيعية جميلة فيما بين تادلس وقرية الزفون التي تقع في الشرق منها على بعد حوالي 35 كم. فقد كانت التلال المنحدرة عن سلسلة الجبال الشامخة والممتدة نحو البحر عبارة عن حقول بديعة، تحتوي على أشجار الزيتون والخروب والتين والرمان وغيرها. ومن حين لآخر كنت أرى في خضم هذا البحر الأخضر مساكن الأهالي. فهم لا يسكنون الأكواخ في هذه المنطقة على غرار الأعراب، وإنما يسكنون بيوتا مبنية بالحجارة، ويزرعون حقولهم، كيفما كان المجهود الذي يبذلونه، بخلاف البدو الذين يبحثون عن الأراضي التي تكلفهم أدنى مجهود. وهم يسكنون ويعيشون على هذا النمط منذ القديم.

وكانوا في القديم يعرفون باسم العشائر الخمس، وذلك لما كان بينهم من تآخ، وكأنهم يشبهون ما يعرفون في عصرنا باسم زواوة. ولم تكن هذه العشائر الخمس تسكن الساحل فقط، وإنما كانت تسكن الجبال أيضا. وبما أن الرومان لم يتغلغلوا في داخل البلاد أبدا، فقد كان سكان الجبال يتصلون بأخوانهم من سكان الساحل. ويمكن التعرف على أسماء بعض هذه العشائر الخمس في مسيسنة وفليسة جبلين، وتعتبر هذه الأخيرة اليوم زواوة جرجرة. وفليسة البحر تمتد مساكنها فيما بين تادلس والزفون. وتشتهر قبيلة فليسة في الجزائر كلها بصنع الأسلحة. وسيف فليسة عادة ذو مقبض خشبي منقوش.

وتتكون الزفون اليوم من بضعة أكواخ حقيرة، ويرى بيربروجير أنها تحتل كان روسوبسير الفينيقية ثم الرومانية. ويشتق غيسينيوس اسمها من التعبير الفينيقي «رأس هابزير»، أي رأس الذهب. ولعل روسوبيزيس

التي ذكرها بطليموس هي روسوبيريس RUSUBIRIS التي وردت في تاريخ الكنيسة باعتبار أنها كانت أسقفية في القرن الخامس. ولا نعرف حتى الآن شيئا عن أهمية هذه المدينة التي يصلنا غير اسمها.

كانت هذه المنطقة كلها في القرن السابع عشر خاضعة لشيخ قبائلي، تعود الإسبان اللذين كانوا على صلة به أن يخلعوا عليه لقبا فخما، هو » ملك كوكو« .وكانت كوكو قرية صغيرة، يقيم فيها هذا الملك، ولم يتوصل أحد بعد إلى معرفة موقعها. وكان يعيش في بلاط « ملك كوكو » راهب فرانسيسكاني إسباني، أرسل إلى هناك في مهمة تبشرية، ولكنه كان في الحقيقة يقوم بدور طفيلي في بلاط الملك الأهلي. ومع ذلك فقد فكر في أن يعقد تحالف بين ملك كوكو المظفر وبين الملك الكاثوليكي، وتم له ما أراد. فوعد ملك كوكو بتسليم حصن إلى الأسبان على أن يدفعوا له طبعا الثمن نقدا. غير أن باشا الجزائر سمع لسوء حظ ملك كوكو بالتحالف الذي تم بينه وبين الإسبان، فأرسل مجموعة من الإنكشاريين. استطاعت بسهولة أن تستولى على الحصن الذي وعد به الأسبان.

وكانت نتيجة ذلك أن ملك كوكو، وقد أفزعته العملية التي قام بها الإنكشاريون، بادر إلى الخضوع للباشا بعد أن كانت تبعيته له أسمية فقط. وفرض الداي على الشيخ المتملك، عقابا له على تحالفه مع الكفار، أن يسلم الإسبان إلى الأتراك، وكان من السهل على ملك كوكو أن يقوم بذلك، خاصة وأن الباشا الماكر وعده بأن يقدم له خمسين سلطانيا نظير كل رأس أسباني يتمكن أتباعه من قطعه. وهكذا حدث بعد حين أن وصلت أربع سفن إسبانية طبعا كما تم عليه الاتفاق، وعلى متنها الحامية التي ستحرص الحصن عندما يسلم إلى الإسبان، ورست في رأس الزفون، فهاجم القبائل والأتراك أفراد الحامية الأسبانية، وقتلوا اغلبهم، وكان من بينهم الراهب الدبلوماسي الكبير، فانتهت مهمته السياسية الفاشلة بانتهاء

حياته. غير أن الملك العظيم شعر بخيبة أمل كبير بعد أن أرسل رؤوس الأسبان إلى الداي وطلب منه أن يدفع إليه ثمنها، حيث انكشف أن وعود الباشا كانت كاذبة، ورغم ذلك فقد سره أن الداي اكتفى بتأنيبه على تصرفاته السياسية الجريئة.

والغريب أنه لم يبق أي شيء يدل على قوة ملك كوكو، بل إن القبائل لا يعرفون اليوم، إذا كان قد وجد قط ملك من هذا النوع، فهم على العموم لا يقيمون وزنا للروايات التاريخية، ولا يعرفون أصلهم، وهناك كثير من شيوخهم يحاولون أن يعودوا بنسبهم إلى العرب، وساعدتهم العقيدة الدينية على تبني الكثير من أحكامهم المسبقة. والغريب أن القبائل ليس لهم تصور واضح للأحداث التاريخية التي وقعت في فترة ما قبل الاحتلال الفرنسي.

وعندما يتحدثون عن الأتراك وعما فعلوه في القبائل الكبرى فليست لهم سوى فكرة غامضة عن قوة محمد باي وسلطته القديمة. فهم ينسبون كل ما هو تركي إلى محمد باي. وكيفما كان اسم داي الجزائر فهو بالنسبة إليهم محمد باي. وما من بمباشي أو قائد تركي، قاد فرقة في بلاد القبائل إلا ويدعى عندهم محمد باي. والعصر التركي كله في نظر هذه القبائل التي تنعدم عندها الذاكرة التاريخية والنقد التاريخي هو عصر محمد باي الجغرافي. ولا يعرفون كذلك شيئا عن العهد العربي والعهد الروماني.

وقضيت ليلتي بالزفون في بيت أحد المستوطنين الفرنسيين القليلين في هذه القرية الحقيرة. وكان مظهر البيت يدل على الفقر. وحملت لي امرأة عشائي، والحمى ترعد أوصالها، وكانت تدبو حزينة جدا بحيث. إني لم أجرؤ على سؤالها عن سبب حزنها. ثم بدأت المسكينة تبكي وروت لي أنها لم تستطع أن تحتفظ بطفل واحد من أطفالها الستة في هذه المنطقة الموبوءة. وقال :

- لقد مات الطفل الأخير يوم أمس، كنت أما سعيدة عندما آتيت هنا. ولكن هذه المستعمرة الموبوءة حطمت كل آمالي.

كانت ضحية أخرى من ضحايا هذه الأرض الكثيرين. وكانت المرأة من شمال فرنسا،وسكان شمال فرنسا لا يستطيعون مثل الإنجليز والألمان أن يعيشوا في مناخ جزائري دون أن يؤثر ذلك على صحتهم، بينما يسهل على سكان الجنوب والطليان والإسبان أن يتأقلموا في هذه البلاد.

وبدأت في اليوم التالي رحلتي إلى بجاية. واسترحنا في وسط الطريق عند رأس سيغلي، الذي توجد به بقايا آثار رومانية، يعتقد بيربروجير أنها آثار روسازوس Rusazus التي ذكرها بطليموس. ويصف بلينيوس plinius روسازوس بأنها مستعمرة. وفيما عدا هذا لا نعرف عنها سوى أنها كانت في القرن الخامس، مثل جميع القرى الجزائرية تقريبا، مقرا لأسقف.وقد تحدث أغوستينوس عن أسقف دوناتي من مدينة روسازوس، كان قد سلم المدينة المثائر فيروس Firmus وكان الدوناتيون الأعداء الطبيعيين للرومان المتعصبين، فقد كانوا يمثلون في الكنيسة العنصر الوطني النوميدي والموريطاني. فلا عجب أن يجد فيرموس النوميدي وغيلدون Gildon بعده أنصارا كثيرين بينهم.

وكانت روسازوس، كما يدل على ذلك اسمها، مستعمرة فينيقية. ويشتق غيسينيوس Gesinus لسمها من عبارة «روس أسيس» التي تعني الرأس الحصن. ولو كان الأمر لعرب اليوم لأطلقوا عليه اسم الرأس العزيز!

في وسط الطريق بين رأس سيغلي ورأس كوربلين الذي يشكل في الغرب أقصى نقطة من خليج بجاية، توجد في مكان غير بعيدة عن البر، جزيرة البسانيين، وهي عبارة عن صخرة طويلة مسطحة، لا تكاد ترتفع عن سطح البحر، ولها خليج صغير، كانت سفن الجنويين والبسانيين في

العصور الوسطى تحتمي به للحظات قلائل. أما الآن فإن هذه الجزيرة تشكل ملتقى للطيور البحرية.

وعندما وصلت رأس كوربلين أو كربون تراءى لي خليج بجاية بكل جماله وروعته، وهو أكثر وأهم خليج في الجزائر. لقد كان منظره بديعا. فالحقول الخضراء والمزارع الجميلة تمتد غير بعيد عن الشاطئ، وهي أخصب المناطق الساحلية. كانت مليئة بالورود والأزهار والبراعم والحشائش الخضراء، وقد امتدت فوقها ضباب شفاف، وكانت تعلوها تلالا تنتصب بها أشجار الزيتون والبرتقال والليمون تحدها أشجار الصبار والباهرة، وفوقها سلسلة جبال عالية سوداء تتوجها أشجار الزان والبلوط، وهي تنظر إلى الوهاد الضاحكة، وتمثل رزانة الرجل، بينما تمثل التلال المنخفضة الشباب وحقول السهل الأطفال الضاحكين. وفوق ذلك كله تمتد في المؤخرة قمم الجبال الشامخة، وتنظر إلى زرقة السماء في شموخ وعبوس وجرأة، وهي ذات أشكال متنوعة. فطورا يرى المرء قمة مقطوعة لها شبه بأسنان التنين، ويرى طورا آخر قمما عالية مستديرة، وإلى جانبها ترتفع قمة مقعرة تتخذ شكل بركان، و أخرى تشبه آثار قصر جبار. ويرى في الجانب الآخر قمة مدببة مسننة كأنها خنجر شيطان يدفعها نحو الفضاء.

ومن بين هذه الجبال التي ترتفع فوق خليج بجاية كانت هناك ثلاثة جبال، يراها المرء أينما وجد، وتتخذ المنظر بسبب أشكالها الواضحة طابعا متميزا، وهي جبل الريبور في الشرق. ويبلغ ارتفاعه 6000 قدم، ويبدو ظهره وكأنه مائدة جبارة، والمهاوي تحف بجوانبه. وكان يقبع في الجنوب جبل كندروة أو بني خليل، الذي خلعت عليه تربته المحتوية على الحديد رداء أسود ثقيلا. أما في الغرب فيرتفع جبل بني ميمون فوق غابات غنية بأشجار البلوط.

وتقع مدينة بجاية في سطح جبلين صخريين، جبل بني جوجة، الذي يبلغ ارتفاعه 3400 قدم وجبل البابور، الذي يبلغ ارتفاعه 5000 قدم، فوق منحدر جبل غوراية، الذي يبلغ ارتفاعه 1800 قدم، ومنازل بجاية ترفع رؤوسها وتنظر من بين الأشجار الخضراء، وكأنها تود أن تلطف من عبوس الجبال التي ترتفع فوقها. وكانت الحصون العديدة التي تعود إلى العصور الوسطى، ومنها حصن واقع فوق المدينة، وآخر قرب الساحل، وثالث في منتصف جبل غوراية، تدل بوضوح على أن هذه المدينة كان يسكنها الإسبان قديما، فالإسبان لم يكن في وسعهم أن يقوموا غير الحصون الحجرية الضخمة، وذلك ما فعلوه هنا كما فعلوا في وهران وفي جميع المناطق الساحلية التي احتلوها. وهذه الحصون تقدم الدليل الواضح على أنهم كانوا عاجزين عن حكم هذه البلاد، التي كره أهاليها الإسبان بسبب تعصبهم الديني إلى درجة أنهم لم يستطيعوا حماية أنفسهم منهم إلا بإقامة الحصون الجبارة!

الفصـــل الثالث

بجـايـــة

صالدى القديمة - السور الفندالي - غايزريك في صالداي - ازدهار بجاية في العصر الوسيط - تجارة نشيطة مع الجمهوريات الإيطالية - استيلاء الإسبان على بجاية - احتلال الأتراك لها- الفرنسيون في بجاية - مقتل القائد سالمون دى موسي - انتقام الأهالي - عناية الشيخ سعد - مسكن رديء في بجاية - نزهة فوق جبل غوراية - رفيق الرحلة الجديدة.

لا شك أن بجاية تحتل مكان المدينة الرومانية القديمة صالداي. حقا لقد اغتر بعض الأثريين بتشابه الأسماء فرآى فيها واغة أو باغة القديمة، واعتقد مانيرت Mannert أنها مدينة شوبى Chobae التي ورد ذكرها في خريطة الطرق. غير أن لين رنير Leon Renier قد برهن منذ ذلك الحين، بواسطة نقشين اكتشفا حديثا ويوجدان في متحف اللوفر، على أن رأي شو، الذي يعتبر بجاية صالداي Saldae القديمة، هو الرأي الصحيح.

وهناك آثار كثيرة، تعود إلى العصور الماضيةتدل على أن أي شعب من الشعوب، التي توالت على حكم هذه الأراضي الساحلية، لم يكن يجهل أهمية موقع هذه المدينة. وقد بقي السور الروماني، الذي لا يقل محيطه عن 7500 متر سليما في كثير من مواضعه.

وتعتبر نقوش أوفيديوس هونوراتوس Aufidus Honoratus التي يحتفظ بها الآن في متحف الجزائر، من أهم وألطف النقوش الرومانية. وترجع أهميتها إلى أنها تحتوي على تاريخين في الوقت نفسه، أي التاريخ الروماني، الذي تذكر فيه السنة مقرونة باسم القنصل، والتاريخ الموريطاني. وبواسطة هذا التاريخ المضاعف أصبح في إمكاننا أن نحدد أن سنة 40 قبل الميلاد هي البداية الحقيقية للتاريخ الموريطاني، الذي كانت معرفتنا له قبل

ذلك كاملة. وقد عثر المرء بالإضافة إلى ذلك على كثير من الآجر والطوب المجوف، الذي يحمل الكثير منه نقوشا، جعلت له أهمية، رغم أنه ليس بالشيء المهم.

وكانت صالداي قبل العصر الروماني مستعمرة فينيقية، ويعتقد غيرينيوس أن اسمها مشتق من كلمة سيرد، التي تعني الحجر الصلد. ولسوف يرضى عن هذا الاشتقاق كل من يعرف أن صالداي كانت تدعى في القديم صاردي أيضا (تساردي عند سترابو). وبناء على ذلك فإن اسمها مشتق من نفس الاسم الذي اشتق منه اسم جزيرة سردينيا، التي أسماها الفينيقيون أيضا. ولا تزال كلمة صلد إلى يومنا هذا تعني في العربية «الحجر الصلب».

ويقدر بطليموس موقع صالداي بخمس درجات شرقي يوليا القيصرية. فإذا نحن اختصرنا هذه الدرجات إلى النصف، وصلنا إلى الفرق الحقيقي في الطول بين شرشال وبجاية. وتحدد خريطة الطرق المسافةبين شرشال وبجاية بـ 218 معلما، وهي تطابق تماما 305 كيلومترات على الطريق الساحلي.

ويطلق بلينيوس على هذه المدينة، التي رفعها، في اعتقاده، القيصر أغوسطوس إلى مقام مستعمرة، اسم مستعمرة يوليا أوغوستا الصالدية.

ويخبرنا سترابو أنها كانت في العهد الأوغوسطيني تشكل الحدود بين مملكة يوبا الثاني في موريطانيا وبين المقاطعة الرومانية في نوميديا. وفيما عدا هذا فإن التاريخ لم يحدثنا كثيرا عن هذه المدينة. غير أننا نستطيع أن نستدل على أهميتها إلى حد ما إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أنها كانت ملتقى كثير من الطرق الرومانية.

وكانت صالداي في العصر المسيحي أسقفية طبعا، فقد حضر أسقفها بانشاريوس Pancharius اجتماع زعماء الكنيسة بقرطاجنة عام 484.

ومن المؤكد أن صالداي قد فقدت وشيكا الأهمية التي كانت لها في العصر الروماني، وذلك عندما بدأت القبائل النوميدية، التي لم يتم إخضاعها تماما، تظهر عداوتها للمحتلين، وتعمل على محاصرة المدينة في معظم الأوقات.

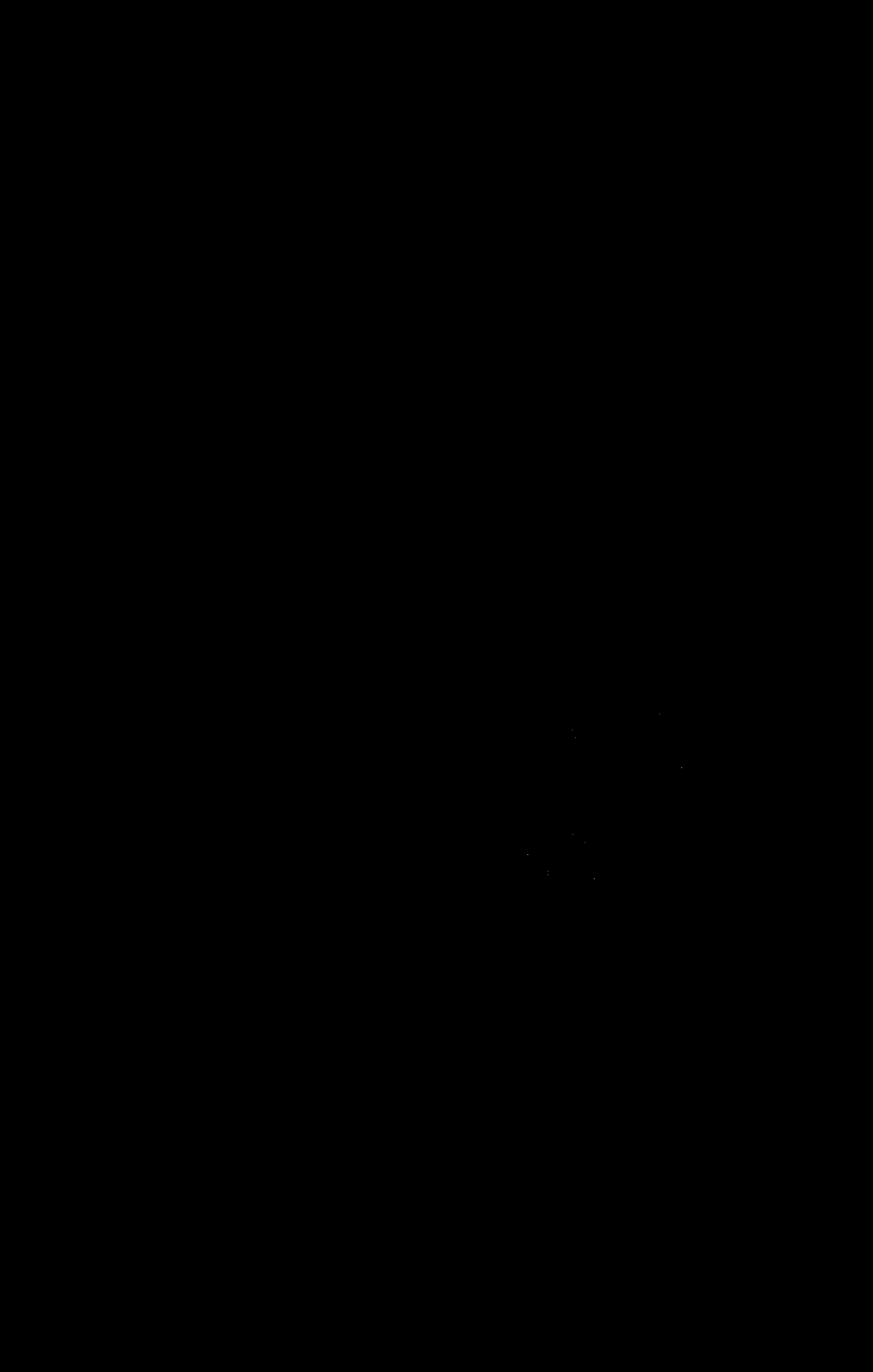
وكان الفندال قد اتخذوا صالداي عاصمة لهم قبل أن يصلوا إلى قرطاجنة، وقد حافظت المدينة على أسوارها بفضل هذا الوضع. وذلك في الوقت الذي تحطمت فيه بقية الأماكن الأخرى على يد أبناء عشيرتنا لم يفهموا السياسة حق الفهم. فقد تشرف غايرزريك الحاد النظر بأن جعل هذه المدينة، التي حبتها الطبيعة بمناظر جميلة، عاصمة له. وأمر فوق ذلك بتوسيع سور صالداي، فأصبح السور الفندالي 15.000، أي ضعف السور الروماني. ولا تزال آثاره ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا، ولعله الأثر الوحيد في إفريقيا، الذي يعود الفضل في وجوده إلى الفندال، الذين لم يكونوا يعرفون غير الهدم والتدمير. وعندما فتح غايزريك قرطاجنة، أصبحت عاصمة المملكة الجرمانية في شمال إفريقيا، ففقدت صالداي أهميتها وعادت إلى ما كانت عليه.

ولم تزدهر ثانية إلا في القرن العاشر عندما ظهرت أسرة قوية من أصل عربي، تمثلت في بني حماد الصنهاجيين، الذين أنشأوا هنا مملكة مستقلة واتخذوا من هذه المدينة، التي أطلقوا عليها اسم بجاية، مقرا لهم.وقد أثنى عليها الإدريسي، الذي زارها بعد قرنين، ثناء كبيرا. فتحدث عن تجارتها المزدهرة، وعن مينائها، وما فيه من حركة دائبة، وعن ثراء سكانها، ومهارة عمالها وخاصة في صناعة الأسلحة والجلود. ومما يدل على أهمية هذه المدينة العربية أن سكانها أحسوا بالضيق داخل السور القديم ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى إقامة سور جديد للمدينة، لا يقل محيطه عن ميل ألماني (حوالي سبعة كيلومترات).

ولا يزال قسم من هذا السور العربي، الذي كانت له بروج كثيرة، قائما إلى يومنا هذا، ويمتد من قمة جبل غوراية إلى سفحه. ولعل بجاية كانت في ذلك الحين اهم مدينة في شمال إفريقيا. وكانت للقبائل البربرية، التي لم يحاول ساسة بني حماد المحنكون إخضاعهم، ولكنهم عرفوا كيف ينشرون نفوذهم بينهم بالطرق السليمة، صلات حميمة بحكام بجاية وسكانها الذين كانوا يشترون منهم منتجات أراضيهم الخصبة.

وعندما سقطت دولة بني حماد عام 1152 على يد بد المؤمن الموحدي وضمت بجاية إلى الدولة المغربية، وبعد ان اصبحت في وقت متأخر تابعة للدولة التونسية، بقيت فيها التجارة رغم ذلك مزدهرة لفترة طويلة. ففي هذه الفترة بدأ البيسانيون ثم البندقيون او الجنويون يقيمون علاقاتهم مع بوجيا، كما كانوا يسمونها في ذلك الحين،واستطاعوا المحافظة عليها حتى بداية الاحتلال الإسباني لبجاية. وكان للبسانيين والجنويين في بجاية خانهم الخاص وحماماتهم وكنيستهم ومقبرتهم، وكانوا يترددون على هذه المدينة وينتقلون في البلاد بحرية تامة. وما ابعد الفرق بين هذه المعاملة الإنسانية للأجانب أيام الحكم العربي وبين عصبية الأتراك وهمجيتهم، الذين حرموا على الأروبيين فبما بعد دخول هذه البلاد إلا في حالات نادرة.

كان المسيحيون في أيام الحكم العربي هم الذين يميلون إلى التعصب ونقض الاتفاقيات المبرمة. فقد اختلف الجنويون سنة 1390 مع ملك بجاية في ذلك الحين السلطان أبو العباس، ملك تونس، فقاموا بحملة صليبية سخيفة على السواحل الإفريقية، وطلبوا من شارل السادس ان يعين لهم أميرا فرنسا، يتولى قيادة الحملة هو الدوق ذي بوربون. ولكن هذا القائد عجز عن قيادتها، مما جعل تلك الحملة أسخف مما كانت عليه فبعد إقامة قصيرة في مكان ساحلي غير معمور قبر المهدية، تخلت الفرقة الفرنسية،



وعلى رأسها الأمير، عن الجنويين ورجعت إلى فرنسا، فأسرع الجنويون إلى عقد الصلح مع تونس، وكانت شروط المعاهدة التي أبرموها مع أبي العباس، الذي كان قد خشي قوة الحلفاء الظاهرة، في صالحهم إلى أبعد الحدود وبعدئذ أصبحت التجارة في بجاية بأيدي الجنويين عامة.

وفي القرن الخامس عشر بدأت بجاية تفقد سمعتها عند التجار المسالمين. إذ بدأ سكانها يستسلمون للقرصنة، عدوة كل حركة تجارية. ويبدو أن الإسبان كانوا أول من عانى من قرصنة البجاويين. ولوضع حد لهذه الحالة أرسل الكاردنال خيمينيس Ximenes سنة 1510 حملة بقيادة الأمير بيدرو دي نبرو Pedro de navaro إلى بجاية، فاستولى عليهابعد مقاومة قصيرة قام بها الأمير التونسي عبد الرحمن. فكانت فرحة الكاثوليكيين كبيرة بهذا النصر. إلا أن أهالي جنوة والبندقية لم يفرحوا باحتلال بجاية من طرف أكثر الأمم المسيحية تعصبا. وذلك أن هذا الاحتلال قضى على الحركة التجارية دفعة واحدة. فقد طرد الإسبان المسلمين كلهم تقريبا، وعينوا أسقفا في المدينة التي لم يعد يسكنها غير الجنود تقريبا، وأرسلوا عددا من الرهبان مفتشا لتنصير اليهود ومطاردة الملحدين.

ولكن سلطة الكاردنال المتعصب لم تدم طويلا. فقد نشأت في إفريقياقوة جديدة،اشتدت شوكتها بسرعة. وتمثلت هذه القوة في الإنكشارية والقراصنة الأتراك، وعلى رأسهم عروج وخير الدين البربروسيين (كان كل منها يدعى بربروسا). فحاربا الحكومة الإسبانية دون هوادة، ولم يكن النجاح حليفهما في البداية دائما. ففي سنة 1512 فقد بابا عروج اكبر البربروسيين، ذراعه أمام بجاية عندما حاول فتحها. ولكن حلفاءه لم يعرفوا الراحة إلى أن تمكنوا في النهاية من طرد الإسبان من هذا الموقع الهام. فقد استسلم سنة 1555 الدون الفانسو دي برالتا Don Alfonso de beralta آخر الحكام الإسبان في بجاية، فدخلت المدينة في ملكية صالح رايس،

باشا الجزائر. ولم تظهر شجاعة الإسبان في هذه المرة، فقد كان الحاكم عاجزا حتى عن أن يفرض إدخال نصوص في وثيقة الاستسلام يستفيد منها رجال الحامية. ففي هذه المناسبة لم يسمح الأتراك بالانسحاب إلا للحاكم ولعشرين من الجنود التابعين له. أما الباقون، وعددهم يزيد عن الألف، فقد أرسلوا عبيدا إلى الجزائر ليقوموا بأعمال حكومية. ولم يتمتع بيرالتا طويلا بحياته التي اشتراها بذلة. فبعد حين اتهمه شارل الخامس بالخيانة وأمر بإعدامه في الميدان ببلد الوليد. ويقال إن هذه الحادثة المهينة بالنسبة لإسبانيا هي التي حملت شارل الخامس، بالإضافة إلى التفسير الوهمي لظهور الشهاب الكبير، على التنازل عن العرش.

وبقيت لبجاية تحت حكم الأتراك، الذين يضاهون الإسبان في تعصبهم، المنزلة الدنيا التي أوصلها إليها الكاردينال خيمينيس، بل ربما انحطت أكثر من ذلك.

وعندما احتلها الفرنسيون في 23 سبتمبر سنة 1833 كانت بجاية قد اتخذت مظهر قرية حقيرة. وبقيت المنطقة الفرنسية في هذا الجزء من الساحل محصورة في المدينة فقط، وكان فيها سادة الجزائر شبه محاصرين، إذ كانت القبائل، التي يتم إخضاعها بعد، تظهر العداوة لهم وتحاصرهم من كل جانب. وفي سنة 1836 أثارت قضية اغتيال القائد الفرنسي في بجاية سولومون دي موسي Solomon de Mussis من طرف احد شيوخ القبائل غضب فرنسا كلها. وهذه لحادثة تمثل تقاليد أهالي المنطقة إلى حد كبير، إلى درجة أنها لا تستحق أن نتحدث عنها طويلا.

إن هذه القبائل تسكن الجبال، وهناك من العلماء من يذهب إلى أن سكان الجبال يميلون إلى الأخذ بالثأر. ولم ألاحظ أنا هذا الميل إلى الثأر عند السويسريين. فمشاجراتهم في حالات السكر لا تنتهي حسب عملي بالموت أبدا. وهناك على أية حال من سكان الجبال من يميلون إلى

الثار، وهذا لا يعني أنهم كلهم متساوون في ذلك. ويحتل الكورسيكيون المكانة الأولى. فهم مخترعو مسرحيات وروايات الانتقام التي استغلها بصورة خاصة الكسندر دوماس في قصصه الرهيبة. أما القبائل فيكتفون بالانتقام الطبيعي، وانتقامهم أقل عنفا من الانتقام الكورسيكي، ولعله أقل صلاحية للمسرحيات الغنائية، إلا أنه دموي أيضا بنفس المقدار، بل إنه أكثر دموية من الانتقام الكورسيكي الذي جعلت له الروايات أهمية كبيرة، لأن لها مجالا كبيرا، فهي لا تشمل القرابة الحقيقية فقط، وإنما تشمل أيضا الرابطة، التي تعتبر عند الأمم الأخرى مجرد صداقة، ولكنها تتمتع عند هذه القبائل بكل حقوق القرابة الحقيقية.

فالقبائل يخضعون، على غرار بعض القبائل الهندية في أمريكا، للعادة القديمة، وهي أن محاربين يتآخيان، ولا تنتهي إخوتهما إلابموتهما معاذلك أن الواجبات الأخوية لا تنتهي بموت أحدهما. فالرابطة التي بينهما تحتم على الواحد منها أن يسهر على حياة الآخر، وإذا سقط أحدهما رغم الحراسة الأخوية ضحية عدو ما، فإن على الآخر أن ينتقم له. ويطلق على المتآخين اسم العناية. وكل واحد منهما يسمي الآخر العناية. ولا يمكن أن تنشأ بينهما عداوة أبدا، وأعداء الواحد منهما هم أعداء الآخر.وحتى إذا مات أحدهما فإن الآخر لا يتخلى عن واجباته نحوه سواء ما يتعلق منها بالدعاء له فوق قبره أو بالاهتمام بأهله أو بالانتقام لموته.

وقد حدث آنئذ أن شيخا من شيوخ القبائل المجاورة لمدينة بجاية، وهو الشيخ سعد ،شيخ قبيلة بني تازمالت، واسمه الكامل محمد أومزيان ولد أوعمر، كانت له عناية مع مرابط عجوز مسكين، كان قد ارتكب في تلك الفترة، التي كانت فيها القبائل لا تزال معاديةللفرنسيين، خطأ باقترابه من مركز أمامي فرنسي، فأسر واتهم بالجوسسة واعدم. وقبل أن يدفنوه حدث أن يهوديا شابا، كان يتاجر بالأبقار مع القبائل القريبة من بجاية

ويعرف جميع أفرادها تقريبا، رآه ملقى على الرمل. وفجأة لاحظ الجنود الفرنسيون القريبون منه أن اليهودي شحب لونه وأخذ يرتعد. فسأله ذو شارب أبيض بصوت جاف:

- مالك ترتعد، أيها البهودي ؟

ونظر اليهودي الشاب أمامه تائه البصر، وقال عبر شفتيه المرتعدتين:

- إنه العناية!

فقال العريف ذو اللحية البيضاء:

- ماذا تقول ؟ العناية ؟ أي حيوان هذا.. العناية ؟ أكان هذا البدوي عناية؟ لا شك أن العناية ليست تجارة رابحة. فقد كان مهلهل الثياب عندما ألقينا القبض عليه.

هكذا كان يسخر ذو الشارب الأبيض، وكان من المستحيل إفهام هذا المحارب، الذي أبيض شعره في الحرب، أن المرابط العجوز أكبر قيمة من البدوي العادي. لقد كان الفرنسيون يحتقرون الأهالي إلى أبعد الحدود، وهذا ما جعلهم لا يهتمون بدراسة عاداتهم وتقاليدهم أدنى اهتمام. ولذلك كانوا يجهلون كلهم طبعا، مثل العريف، صفة القداسة التي كان العجوز يتمتع بها بموجب العرف بصورة مضاعفة، فهو مرابط من جهة وعناية الشيخ سعد من جهة أخرى. فلو كانوا يعرفون ذلك لما أثاروا بهذه الفعلة العديمة الجدوى الصادرة عن محاربين أجلاف غضب شيخ قبيلة قوي.

فعندما سمع الشيخ سعد بموت عنايته، أقسم أن ينتقم من القتلة. وبما أنه لم يستطع العثور على الجنود، الذين اعتقلوا المرابط وقتلوه، واحدا واحدا، وكان يعتبرهم إلى ذلك مجرد آلات عمياء وأقل من أن يحظوا باهتمامه، فقد قرر أن ينتقم بنفسه من حاكم بجاية. ذلك أنه افترض أن القائد هو الذي أعطى أمرا برمي شخصية مهمة مثل عنايته بالرصاص.

ولم يكن القائد العسكري الفرنسي يعلم بطبيعة الحال شيئا عن الحكم الذي نفذ في المرابط، لأنه تم بناء على أمر عام، طبق في هذه الحالة دون أن يكون المرء في حاجة إلى إعلام القائد بذلك. ولم يستطع محمد أومزيان أن يحقق رغبته في الانتقام لموت عنايته في الحال، لأن الفرنسيين كانوا في ذلك الحين قد تحصنوا خلف أسوار بجاية واكتفوا بالدفاع. فانتظر إلى أن يتم اشتباك خارج الأسوار، غير أن هذا الاشتباك لم يتم رغم أنه تحدى الفرنسيين أكثر من مرة، فقد أمر الفرنسيون في تلك السنة بألا يقوموا بأية عملية عسكرية في بلاد القبائل.

فتألم الشيخ سعد لذلك، لأنه لم يستطع الانتقام لموت عنايته! ومن لم ينتقم لعنايته ضاع شرفه في نظر القبائل واعتبر جبانا. ولم يستطع طبعا رجال قبيلته أن يطعنوا فيه علنا، غير أن القبائل الأخرى لم تكن تتردد لحظة واحدة في شتمه كلما التقت به، كانت تقول:

- انظروا إلى الجبان! إنه لم ينتقم لعنايته!

فكان ألم الشيخ سعد يشتد، ونما في جوانحه حب الانتقام أكثر فأكثر. وكان من العسير عليه أن يهاجم القائد العسكري في معركة علنية. وعندئذ قرر في يأسه أن يغدر به. لذلك اظهر محمد أومزيان فجأة رغبته في الصلح نفاقا، ودعا القائد العسكري سولومون دي موسي إليه ليجري معه حديثا وديا حول عقد اتفاقية معه[1].

وحضر المدعو في اليوم المحدد إلى معسكر الشيخ سعد وكله ثقة، ولم يرافقه غير الترجمان وبضعة ضباط. فذهبوا كلهم ضحية غدر الشيخ سعد، الذي انتقم منهم لموت عنايته. فاغتاظ الفرنسيون لتلك الفعلة الشنعاء، إلا أنهم كانوا في غنى عنها لو أنهم لم يحتقروا عادات الأهالي

(1) وقعت هذه الحادثة، فيما ذكره فاغنر (1/223) سنة 1836، وكان اخو امزيان وليد او رابح قد مات في العام السابق، وكانت له قبل موته اتصالات بالفرنسيين والجدير بالملاحظة ان فاغنر لم يتحدث عن هذا المرابط.

وتقاليدهم وحاولوا معرفتها بصورة جيدة فعندما تكون للمرء قضية مع أناس، متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم على حد التعصب لها،مثلما هو الحال عند هذه القبائل، فإن على المرء أن يتذكر أن أي مساس بهذه التقاليد المقدسة قد يجعل من الصديق عدوا لدودا بالنسبة إليها إلا أنه من العسير على الفرنسيين أن يهتموا بخصائص الشعب الذي يضطهدونه! فالأهالي كلهم في نظرهم «بدو مساكين» سواء كانوا حضرا أو عربا أو قبائل، ويعاملونهم بنفس المعاملة رضوا بذلك أو كرهوا، لأن الأمر لا يعينهم إطلاقا!

ولم يتم إخضاع بلاد القبائل بصورة حقيقة إلا في سنة 1857، وكانت الحملات التي قام بها الفرنسيون حتى ذلك الحين مناسبة على الورق، لكنها لم تأت بنتيجة. وتحررت بجاية منذ هذا التاريخ، وقد كانت قبل ذلك محاصرة برا، فضعفت فيها الحركة التجارية تبعا لظروف الحصار. أما الآن فقد بدأت بجاية باعتبارها عاصمة طبيعية لأراضي خصبة تتغلب على الضعف الذي لحقها سابقا. ولم يتجاوز سكانها حتى الآن 1200 من الأروبيين و900 من الحضر.

وليس لمدينة بجاية ميناء خاص، أو ليس لها على الأقل ما يستحق أن نطلق عليها هذا الاسم، ولكن المرسى مأمون، ويوجد قرب بجاية بين رأس البرواق وحصن عبد القادر، ميناء سيدي يحي الصغير الذي تكون فيها السفن في مأمن في كل فصل من فصول السنة.

ولم تقدم لي بجاية إلا القليل من وسائل الراحة، ذلك أني لم أستطع الحصول على غرفة بمفردي في «فندق الأمم الأربع» الذي نزلت فيه، فقد حتم علي أن أقسم غرفتي مع سائح آخر، كنت أعرفه طبعا، ولكني لم أكن أستريح له. وهو انجليزي كنت قد التقيت به أثناء رحلة قمت بها إلى المغرب، وكان الأهالي قد جردوه من ممتلكات قرب سبتة حيث كان

يريد دراسة الجبل المعروف باسم الإخوة السبعة. وكنت لا أطلق عليه اسما آخر غير اسم باحث الإخوة السبعة. وكانت رحلتي في المغرب قد تمت قبل رحلتي في بلاد القبائل وبعد رحلتي في ولايتي الجزائر ووهران. ولم أستطع في هذا الكتاب أن أفضل قسما من الجزائر عن القسم الآخر.

وبالمناسبة لا ينبغي للقارئ أن يبحث فيه عن تسلسل زمني، فهو نتيجة خمس رحلات قمت بها في أوقات متفرقة، ولم يكن الأكل أيضا جيدا في فندق بجاية. وكان المقهى مزدحما بالجنود المزمجرين النتنين، ففضلت أن أقضي وقتي في الهواء الطلق.

وهناك استطعت أن أعوض ما افتقدته في الفندق. فقد صعدت الجبل الذي يطل على تلين مخروطي الشكل، تقع فوقهما بجاية، وتمتد بينهما وهدة سيدي تواتي بأشجارها الجميلة، وكان الجبل الذي وقفت فوقه هو جبل غوراية، ومنه تراءت لي مناظر بديعية على الساحل، الذي تصل خضرة بساتينه وحدائقه حتى الشاطئ، فيبللها زبد أمواجه. كانت الأمواج عاجزة طبعا عن أن تروي هذه المروج الخضراء، فكثافة مياهها الجدباء لا تسقى هذه الحقول العطرة، وإنما كان يسقيها واد صغير، يكاد يكون جدولا، فيمد مجراه الفضي عبرها، وتتفرع عنه السواقي الكثيرة لتوزع المياه الثمينة على البساتين كلها بالتساوي. ورفعت بصري فجأة عن سطح البحر وعن بساتين الشاطئ ونظرت إلى أعلى متخطيا التلال والجبال، فوقعت عيني على ابن الألب، جبل جرجرة العظيم، وامتدت أمامي سلسلة جبال الأطلس بأشكالها الغريبة، التي كانت ملجأ أجيال عديدة، ومسكنا للعديد من القبائل الأبية، ولكن النسر الفرنسي أصبح يلحق فوقها أيضا. وهكذا خضع له الأهالي، ولكن الجبال بقيت حرة، وخيل إلي أني الآخر أسمع صوت الحرية، فانتعشت روحي كما لو أن ثلوج جرجرة قد بللت شفتي!

وتكلل قمة جبل غوراية الآن قلعة فرنسية، يؤذي منظرها المسلمين، لأنها كانت في السابق قبة مرابط شهير، يأتي الناس لزيارته من جميع بلدان الإسلام، وكانت زيارة هذا الضريح خلال قرون عديدة تساوي بالنسبة للمساكين والمرضى جميعا الذهاب إلى الحجاز والحج إلى مكة. وبفضل هذا الضريح أصبحت بجاية منذ فترة طويلة تدعى «مكة الصغيرة» ولكن الفرنسيين لم يعرفوا شيئا لا عن الولي ولا عن مكة الصغيرة. فقد هدموا قبة المرابط بوحشية، ومنذ ذلك الحين صارت مكة الصغيرة مدينة عادية مبتذلة.

وعندما جاء الليل كان علي، رغم ما في ذلك من ضيق لي، أن أذهب إلى غرفتي التي أقتسمها مع الانجليزي. وكان ابن انجلترا قد اكتسب دعامة جديدة، وغرورا جديدا، وذلك في الفترة التي لم أره فيها. فقد طاف ببلاد الجزائر مدة من الزمن، ودرس بها العربية دراسة سطحية، وتصور أن في إمكانه أن يتكلم العربية حقيقية. وكانت هذه الجرادة الجديدة، التي اتفقت معها على أن نقوم سوية برحلة داخل بلاد القبائل، باعثا على المرح الكبير وسوءالتفاهم الغريب.

ولعل القارئ الكريم سيستغرب في النهاية أن أقوم برحلة مع شخص لا تريحني صحبته، إلا أن ابن انجلترا كانت له رغم عيوبه وتوافهه قيمة بالنسبة لي. فقد كان عالما أثريا أحمق غريبا لأطوار بطبيعة الحال. ولكنه كان عالما أثريا، وهذا الاسم وحده حملني على أن أتغاضى عن جميع العيوب الأخرى. يضاف إلى ذلك أني كنت قد تعودت خلال رحلاتي الكثيرة على المضايقات التي يسببها رفقاء الرحلة، ولذلك فإن عيوب الانجليزي قد أراحتني أكثر مما أزعجتني.

الفصـــل الرابـــع

سهل وادي الساحل

الطرق الرومانية في بلاد القبائل - الرحيل عن بجاية - رفيقي في الرحلة - طريقته في الحديث بالعربية - المحادثة المحفوظة - آثار طوبوسوبتوس - آيت أورلي - المبيت عند آيت أورسغن - شيخ قبائلي يرقع برنسه - آيت علولة - قرية شلاله - كتابها ومرابطوها.

لم تنفتح الطرق إلى داخل بلاد القبائل إلا حديثا، أي منذ يونية 1857، وهو التاريخ الذي تم فيه إخضاع ميع قبائل هذه المنطقة بالقوة، والغريب أن هذه المقاطعة التي تقع قريبا جدا من مدينة الجزائر ويمكن مشاهدتها كلها تقريبا من الساحل، كانت آخر من اعترف بالسلطة الفرنسية في الجزائر. فقد امتدت سلطة فرنسا في شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، بل وصلت إلى المناطق الصحراويةالبعيدة قبل أن تعترف بها هذه المنطقة الساحلية. والسبب في ذلك لا يعود إلى وعورة جبالها فقط، وإنما يعود أباض إلى حب سكانها للحرية. وقد اعترفوا اليوم بسلطة فرنسا، ولكنهم ينتظرون الوقت المناسب للثورة عليها.

ولم يتوغل في بلاد القبل من بين الغزاة الذين تعاقبوا على الجزائر غير الرومان، فهناك عدد كبير من الآثار الرومانية، لها أهميتها في بعض الأحيان. فهل يمكن أن نستنتج من ذلك أن الرومان كانوا يقيمون فيها بصورة مستمرة. هذا أمر ممكن، إلا انه من الممكن أيضا أن يكون قسم كبير من الآثار، التي تبدو رومانية، قد بناه شيوخ القبائل، الذين تأثروا بالحضارة الرومانية وقلدوا فنها المعماري.

وتدلنا الطرق العسكرية الرومانية، التي تؤدي إلى بلاد القبائل، على أسماء بعض الأماكن. غير أن هذه الطرق العسكرية لا تخص في الحقيقة

غير المناطق المحيطة بالجبال. فليس هناك طريق واحد يفضي إلى داخلها بالفعل او يمتد إلى نقطة متوسطة، اعني مكانا يقع فوق جبل جرجرة نفسه. وكانت هناك، بالإضافة إلى الطريقين الهامين اللذين يربطان دلس ببجاية، احدهما ساحلي، والآخر داخلي عبر توارغة وبديل Bidil (جامع الصهاريج) والرها Ruha (قصر النبوش)، طرق أخرى يعرفها الرومان في عصر بطليموس، وكانت تربط بين المدن الداخلية.

ومن هذا الطريق طريق يؤدي من أوزيا Auzia (سور الغزلان) إلى وادي يسر، ويمر بقلعة أوزيانسه Castrum auziense (عين بسام) واوكسيميس Auximis (عين السلطان) وكان هناك طريق آخر يمتد من بسانا Basana (برج منايل) عبر فلوريا Phlorija (عين فاس) وابيديوم Oppidium (تيزي وزو) إلى بيدا Bida (جامع الصهاريج). كما كان ثمة طريق ثالث يربط بيدا بيمومنيوم Jomnium (رأس تادلس) في الساحل. ومن هذا نرى انه لم يكن هناك أي طريق يخترق الأراضي الجبلية. ويبدو أن جامع الصهاريج، وهي بيدا عند بطليموس وبيديل Bidil في خريطة الطرق، وسيدا Syda في لوحةالطرق، كان تلك المدينة الرومانية، التي كانت قريبة من قبل بلاد القبائل، ومع ذلك لم تكن قريبة من الساحل.

وقد ألقى اكتشاف قلعة صغيرة Bugus centenarius (مائوية) حديثا في المنطقة الجبلية، ومن المرجح أنها من تلك المستعمرات العسكرية القليلة المخصصة لمعاقبة الجنود المجرمين والمستعملة بمثابة منفى في الوقت نفسه ألقى من الضوء على الموقع الحقيقي للرومان داخل بلاد القبائل. ذلك أن القلعة المائوية لم يتم إنشاؤها إلا في البلدان التي لم يتم إخضاعها تماما. وتدل ضرورة إنشاء قلعة من هذا النوع على عدم استقرار السلطة الرومانية فيها حتى في أيام مجدها. ويرينا تاسيتوس Tacitus كم من مرة كان الثائر طاقفريناس سببا في الثورات التي حدثت في عصره. وإذا كانت رومة

قد عجزت عن أسر هذا الثائر النوميدي دفعة واحدة، فإن ذلك يؤكد ضعف سلطتها في هذه البلاد، رغم أنها كانت في عصر طاقفريناس في أوج عظمتها. وعندما بدأت رومة تضعف استعاد النوميديون حريتهم في الجبال، ولم يستطع إخضاعهم من جاء بعدهم.

وتقسم بلاد القبائل حسب طبيعتها الجغرافية إلى قسمين كبيرين قسم يقع في جنوب سلسلة جبال جرجرة والقسم الأخر يقع في شمالها. وكان القسم الأول، الذي يم به الطريق الرئيسي الرابط بين الجزائر وقسنطينة، قد اخضع في وقت مبكر، أما القسم الأخير، الذي تسكنها زواوة، فلم يتم إخضاعه إلا في حملة ماى ويونية سنة 1857، والنهر الرئيسي في القسم الأول هو وادي الساحل الذي يصب في البحر ببجاية، وفي القسم الثاني يوجد وادي سباو الذي يصب في البحر قرب دلس.

ولأتمكن من زيارة مدينتين داخليتين، تقعان جنوب بلاد القبائل، إحداهما سطيف عاصمة موريتانيا السطيفية Mauritania Sitifensis القديمة، والأخرى سور الغزلان، التي تتخذ موقع أوزيا الرومانية، اكتريت بمساعدة المكتب العربي في بجاية حصانا وبغلا لعفشي، وقدم لي الصبائحي المفروض علي لمرافقتي. وانظم الإنجليزي، باحث الإخوة السبعة، مع مرافقة العربي إلى قافلتي. وكان هذا العربي، الذي استخدمه الإنجليزي بمثابة ترجمان في الجزائر، إنسانا خبيثا ماكرا، عرف كيف يستغل سيده على أكمل وجه. ومن بين عيوب مرافقي الجديدة، كما سبق أن ذكرت تصوره بأنه قد تعلم العربية وأصبح يتكلمها بصورة جيدة. وبعد أن سرت برفقته على ظهر جوادي عدة ساعات، أتاحت له الصدف خلالها أن يتحدث مع الأهالي مرارا عديدة، اتضح لي فيها أنه وأهم تماما. فقد كان عاجزا عن فهم العربية كما كانت أجوبته غير مفهومة.

ولكم كانت دهشتي كبيرة عندما سمعت فجأة حديثا جرى بين الإنجليزي مرافقه. كان السؤال يتبع الجواب، والجملة تتبع الجملة، فلم

تبق كلمة واحدة غير مفهومة، ولم تبق كلمة بدون جواب. فصعب على أن أتغلب على تعجبي من هذه الموهبة اللغوية المفاجئة. وعندما أصغيت جيدا خيل إلي أنى سبق لي أن سمعت كل هذه الجمل، وكل هذه الأسئلة والأجوبة. وحين استعنت بذاكرتي عرفت أن محادثة الإنجليزي كلها كنت قد رددتها عدة مرات في دروس العربية التي أخذتها في الجزائر. فلم تكن سوى محادثة من كتاب ديلابورت Delaporte «محادثة فرنسية عربية»، حفظها الإنجليزي عن ظهر قلب، فعرف العربي المكار كيف يجيب على أسئلة سيده المحفوظة كما وردت في الكتاب أو على شاكلتها. وتصور الإنجليزي أن محادثته مع العربي المأجور كانت موفقة بحيث إنها تصلح للتفاهم مع المثقفين من الأهالي، ولذلك فإن عربيته جيدة. وكان من الصعب إقناعه بتفاهة تصوره. وحين عجز العرب، الذين التقينا بهم، عن فهمة وصفهم بأنهم يجهلون لغتهم القومية. وكنا طبعا نادرا ما نلتقي بالعرب، لأننا كنا في بلاد القبائل. غير أن القبائل كانوا كلهم تقريبا يحسنون العربية إلى جانب القبائلية.. وبما أن القبائل لم يفهموا الإنجليزي، فقد نسب ذلك لقلة معرفتهم بالعربية، بينما كانوا في الحقيقة يتكلمونها بصورة جيدة أحسن من بعض العرب. كان صحبة الإنجليزي لي في رحلتي ممتعة، بل مسيلة، وكثيرا ما أتيح لي خلال هذه الرحلة أن أضحك لحماقاته من كل قلبي.

وقادنا طريقنا بجانب وادي الساحل، ويسميه العرب أيضا واد بومسعود، ويسميه بطليموس نسافا Nasava، عبر أراض خصبة تحيط بها جبال شامخة، تحتل سفوحها بيوت القبائل، التي كانت تطل برؤوسها من بين أشجار الزيتون. وبما أن القبائل يسكنون في بيوت حجرية لا في أكواخ أو في خيام سوداء، كما يفعل البدو، فإن ذلك يخلع على هذه المنطقة بالنسبة للمناطق الجزائرية الأخرى مظهرا متحضرا. فالمرء يكاد يتصور نفسه في أروبا.

وبلغنا عند الظهيرة منطقة قبيلة فتاية، التي كانت عداوتها للفرنسيين سابقا مضرب المثل وكانت قبيلة فتاية هي التي حرضت الشيخ سعدعام 1836 أكثر من غيرها على قتل القائد العسكري دي موسي. وقد أصبح الآن محاربوها القدماء مزارعين هادئين، يزودون سوق بجاية بأحمال عديدة من الزيتون.

وقد كان الزيتون منذ القديم بلاد القبائل فعندما دخل العرب الأوائل هذه البلاد وجدوا في بيوت الأهالي في الغالب أكياسا من القطع الرنانة. فقد كان القبائل منذ القديم وإلى اليوم مولعين بخزن الأموال وادخارها. واندهش العرب عندما وجدوا مثل هذه الثروة عند أناس يبدو عليهم الفقر، فسألوا أحد أسراهم من أين جاءه هذا المال. فبحث في الأرض على أن عثر على حبة زيتون، وأرى العرب إياها قائلا: «إن اليونانيين يقدمون لنا ذهبهم في مقابل هذه الثمرة». ويمكننا أن نتصور أن العرب لم يستطيعوا نسيان طريق يؤدي إلى بلاد فيها مثل هذه الثروة الطبيعية.

ومررنا في منطقة فتاية بآثار مدينة رومانية قرب قرية برج تيقلات، يعتقد العلماء أنها توبوسوبتوس Tubusubtus التي ذكرت عند أنطونيني واميانوس مارسيلينوس Amasiamus Marcellinus [1] وبطليموس. فنزل الإنجليزي عن ظهر حصانه لمشاهدة آثار هذه المدينة، وأرغم مرافقه على أن يفعل مثله. فد كان مصدر الصراع بينهما، ورغم ما كان بينهما من انسجام، يتمثل في أن مرافق العالم الأثري لم يكن يودمشاهدة ما يريد سيده مشاهدته. غير أن بن انجلترا أصر على أن يشاهد عبد الله، وهذا اسم الترجمان، في كل مرة الآثار التي يريد هو مشاهدتها. ولم يبق من آثار توبوسوبتوس القديمة سوى جدران مهدمة، لعلها بقايا كنيسة قديمة، وآثار مقبرة غير واضحة.

(1) مؤرخ يوناني، عاش في القرن الربع الميلادي، ووضع كتابا باللاتينية، ضاعت بعض فصوله.

وكانت توبوسوبتوس، فيما يرى غيزينيوس مدينة فينيقية، واسمها مشتق في نظره من الكلمة العبرية «توب سيبتو» التي تعني «المسكن الجميل».

ولعل توبوسوبتوس كانت أهم مدينة ببلاد القبائل في العصور القديمة، لا تقل أهميتها كثيرا عن صالداي (بجاية). فبطليموس يذكرها باعتبارها من المدن الكبيرة في موريطانيا. ويطلعنا الاسكندري على أن أطول يوم في توبوسوبتوس يدوم أربع عشرة ساعة وربع ساعة وأن توقيتها يختلف عن توقيت الإسكندرية بساعتين وربع.

وتذكر اللوحة البوتينغية في الموضع الذي تذكر فيه المصادر الأخرى مدينة توبوسوبتوس، مكانا مجهولا تماما، يدعى روهاي أو روهي.

وذكر في خريطة الطرق أن توبوسوبتوس تبعد عن بجاية بـ 18، وعن سطيف بـ 60، وعن روسوكورم بـ 80 معلما. وهذه المسافات تطابق مسافات برج تيقلات وبجاية وسطيف.

وورد ذكر توبوسوبتوس في سجلات الإمبراطورية Notitia Imparii باعتبارها مكانا رئيسيا لحصن يسمى باسمه Limes Tubusuptitanus وهذا يدل دلالة واضحة على الاضطهاد الذي كانت تعيشه المنطقة الجبلية القريبة. والحصن منطقة على الحدود، ومركز أمامي للحضارة الرومانية في مواجهة الهمجية النوميدية. والظاهر أن بلاد القبائل الحالية كانت كلها محاطة بمثل هذه الحصون. فلدينا في الجنوب الغربي حصن أوديانسيس Limes Audiensis وفي الجنوب حصن رابنسيس Limes zabensis ، وفي الشمال الغربي حصن بيدانسيس Limes Bidensis .

وتركنا منطقة فتاية، وصعدنا وهدة النهر، التي كانت ترتفع باستمرار، وسرنا بمحاذاة وادي الساحل، واجتزنا في ضفته اليمنى منطقة قبيلتي آيت يمل، وآيت مسيسنة، التي يرى فيها بعض العلماء المسينيسيين القدامى.

أما التيندنسيون، الذين ذكر أميارنوس مارسيليونس أنهم كانوا يسكنون قرب المسينيسيين، فيمكن البحث عنهم في قبيلة آيت وتلان، التي توجد في منطقتها آثار رومانية، لعلها آثار بيترا القديمة أو فوندوس بيترانسيس Fundus Petrensis فقد حرض البطل النوميدي ماصيصل Massicel ، وهو أخ لفيرومس Firmus، القبائل الأخيرة على الثورة ضد رومة، وحارب كومسي تيدوزيوس Comes Theodosius، الذي كلفة القيصر فالنتينيانوس Valentinianus بمحاربة القبائل النوميدية الثائرة. ولكن ماصيصل تنصر فيما بعد وأصبح من دعاةالسياسة الرومانية، وحارب مواطنيه الثوار بحماس كبير، كما حارب أخاه غيلدون Gildon.

وسرنا عبر منطقة آيت ورلي، فوصلنا في المساء إلى قرية قبيلة آيت أوسلاغن، فقضينا ليتنا في «خيمة الضيافة» الشاغرة. فهناك أيضا، كما هو الأمر في الخيام العربية، منزل شاغر في القرى الرئيسيةببلاد القبائل مخصص للضيوف. كانت هذه القرية متكونة من بيوت جديدة كل الجدة. ويعود السبب في ذلك إلى أن جميع قرى القبيلتين آيت ورلي وآيت أورسلاغن كانت قد تم حرقها سنة 1851 من طرف الفرنسيين أثناء الحملة التي قام بها الجنرالان الفرنسيان كامو Camon وبوسكي Bosquel.

وقضيت ليلتي لأول مرة منذ مجيء إلى الجزائر في بيت قبائلي. ومنزل الضيافة هذا مبني بالحجر، ومغطي بسقف حقيقي، على النقيض من الخيمة العربية المعرضة للرياح والأمطار التي حتم علي أن أبيت فيها أكثر من مرة. ولكنني اكتشفت في القبائل عيبا آخر، يجعل الرحلة في هذه المنطقة صعبة بالنسبة لسائح تعود على احتياجات الحضارة الأروبية وضرورياتها. ذلك أن المرء لا يرى المواد الغذائية عند هؤلاء الناس البسطاء. إن هذه القبائل ذات قناعة، تبدو إلى جانبها الشربة السبرطية السوداء الشهيرة إسرافا في الأكل.

فالقبائلي لا يأكل غير خبز الشعير المطبوخ بالزيت، الذي لا يمكن جرعه. أما اللحم فلا يأكله إلا إذا مات حيوان ميتة طبيعية، أو في مادبة كبيرة، يرى شيخ ما أن من صالحه أن يكرم أبناء قبيلته. وفي هذه المناسبات يأكل بنهم بقدر ما له من قناعة في الظروف العادية. وحين يتناول طعامه البسيط، فإنه لا يشرب معه الخمر، فهي محرمة، ولا يشرب الماء كذلك، وإنما يشرب شيئا مريعا بالنسبة لنا الزيت. وقد قضى الليلة معنا في «بيت الضيافة» عدد من المسافرين القبائل المهلهلي الثياب. وتناول هؤلاء الرجال المزودون بآلات الهضم الجيدة خبز الشعير بزيت اسود غير مصفى. ولم أستطع لدى مشاهدة الزيت يأخذ طريقه في أفواههم إلى معداتهم إلا ان أتذكر زيت الحوت وزيت الخروع وغيرهما من الحلويات، فأفقدني القرف شهيتي أكثر ما أفقدني إياها حضور تلك المواد الغذائية في غيابهم. وكان من حسن حظي أني أخذت معي مطرحا، لأشعر بقليل من الراحة في ليلتي تلك، ذلك أن الأرض العارية هي الفراش الذي يقدم للضيف.

وقبل أن نذهب إلى الفراش لفت رفيقي في الرحلة انتباهي إلى عمل غريب كان يقوم به احد النازلين معنا في بيت الضيافة. فقد خلع برنسه وظهر في قميص لا حد لوساخته. كنت أعلم أن القبائلي لا يغسل قميصه أبدا. أما أن يحتمل كائن بشري شيئا فوق جلده مثل هذا القميص، فقد كان ذلك بالنسبة لي لغزا نفسياكانت الألوان كلها ممثلة في هذا القميص، وليست ألوان قوس قزح. كلا! كانت ألوانا من خليط آخر بمثابة الماء وأشعة الشمس كان القسم الأسفل أصفر، والأوسط بنيا، والأعلى أسود. ولكن اخشي أن أكون غير مهذب إن أنا وصفت القميص القبائلي على حقيقته. فلماذا يا ترى خلع هذا الرجل برنسه ؟ المجرد أن يرينا الوان قميصه ؟ كلا! لقد خلعه ليرقعه. وقد ناقشت الإنجليزي في هذه العملية الأخيرة. فلم يسبق لي أن رأيت قطعة ثياب على قماش قليل مثل هذا البرنس.

حقا لقد كان ذات مرة من الصوف، ولكنه الآن عبارة عن خيوط شفافة متشابكة، تتخللها ثقب كثيرة، هي كل ما كان يرى من البرنس. وقد منحته الوساخة كثافة معينة طبعا. وكان الرجل الشيخ يرقع ويرقع، وعندما انتهى من ذلك أصبح مظهر البرنس أكثر تمزقا من ذي قبل.

وهجر النوم عيني لمدة طويلة، وذلك بسبب الحرارة وكآبة الجو في بيت الضيافة من جهة، وكثرة الحشرات به من جهة ثانية.

ولم يدخل على قلبي نوعا من السرور إلا ما كان يصدر عن الإنجليزي، التي أشبعته الحشرات لسعا وعضا، من شتائم بلغة عربية مكسورة.

وفي صباح اليوم التالي جاء جمع من قبائل يلولة لأخذ مرقع البرنس، وعندئذ عرفت أن الرجل شيخ قبيلة وأن له ثروة كبيرة. ورغم ذلك كان يرتدي ثيابا مهترئة. وكلما ازداد ثياب إنسان رثاثة، كان ذلك، فيما يفترضه المرء، دليلا على كثرة ما أدخره من مال.

وتركنا في الصباح القرية الحقيرة، وخرجنا بعد حين من منطقة آيت أورسلاغن، ودخلنا منطقة يلولة، وهي قبيلة كبيرة، وتنقسم إلى قسمين رئيسيين، هي يلولة أمالوه في الشمال، و يلولة أزمور في جنوب سلسلة جبال جرجرة. وتقع قرية شلاتة في منطقة هذه الأخيرة. وقد بلغناها أثناء الصباح. وتطل على شلاته من الناحية الشرقية صخور منحدرة، بينما تجدها غربا تلال ترتفع باستمرار، وتحمل القرية اسم أعلى قمة فيها. وتتوسط القرية جوزتان كبيرتان، تظلان الزاوية وقبور بناتها الأنقياء. وكانت شلاته بصفتها قرية قبائلية ذات مظهر متحضر غير عادي. فهناك إلى جانب الزاوية، التي يكون معلموها وتلامذتها معظم سكان القرية، بيت الآغا الذي يختلف عن بيوت شيوخ القبائل، فقد بني على الطريقة الحضرية بالجزائر. وكان الآغا، الذي كانت معنا رسائل إليه، غائبا في تلك

الفترة، لأنه كان يقيم في أغلب الأوقات بسهل وادي الساحل، ويسكن بناية تبعد عن شلاتة بحوالي سبعة كيلو مترات، كانت الحكومة الفرنسية قد أمرت ببنائها له سنة 1855.

واستطعنا أن نستغل وقت إقامتنا القصير بشلاته في زيارة المسجد والزاوية. واستقبلنا عند الباب مرابط عجوز يرتدي ثيابا مهلهلة وأرانا الزاوية والقبائل البسطاء يخلعون لقب المرابط على جميع معلمي القرآن. ولكن هذه التسمية لا تقبلها التقاليد اللغوية العربية الحقيقية، ذلك أن المرابط يعني الولي الذي يقضي حياته في التأمل والنظر وله بركاته. ولم يعد هذا الاسم يطلق اليوم في مدينة الجزائر على أي كائن حي، رغم أنها قد وجد بها قديما مرابطون، أطلق عليهم اسم مرابط وهم أحياء. ولكن القبائل لا يتشددون في الشروط التي يجب توفرها حتى يستحق المرء لقب مرابط. وسألت قبائليا عن معنى المرابط في نظره، فأجابني :

ـ هو الرجل الذي يستطيع القراءة.

كنت اعلم أن «معرفة القراءة» تعني عند المسلمين «حفظ القرآن». ولكن، إذا نحن وسعنا مدلول «معرفة القراءة» فسوف يكون هناك عدد رهيب من المرابطين، وسيكون نصف سكان مدينة الجزائر من المرابطين، فما من مسلم ذهب إلى الكتاب مدة عشر سنوات إلا ويحفظ القرآن. إلا أن عدد من يعرفون القراءة من القبائل محدود جدا. فقد نجد في المتوسط عشرة في قرية عادية، وعشرين في زاوية ممن يعرفون القراءة. ومع ذلك فإن عدد المدعوين بالمرابطين مبالغ فيه بصورة مضحكة والحضر يسخرون من القبائل الذين يخلعون على كل «طالب» اسم المرابط

كانت أصوات التلاميذ تمزق الآذان عندما بدأوا يقرؤون الفاتحة في زاوية شلاتةوبعد ذلك بدأ المعلم، وهو مرابط طبعا، درسه في النحو بتصريف الأفعال، وراح يتغنى بذلك، والتلاميذ يرددون ما يقوله بصورة خاطئة

تقريبا، وهم يحركون رؤوسهم بإيقاع ويعلم النحو عند القبائل، مثلما هو الأمر عند العرب، بطريقة ببغائية كالقرآن، ولا يتم ذلك إلا بعد أن ينتهي التلميذ من حفظ القرآن. فالذي لم يحفظ القرآن بعد ليس جديرا بتعلم النحو ولو كان ذكيا جدا. والقواعد النحوية لا تشرح، كما قلت، وإنما تحفظ. فعلى التلميذ أن يتوصل إلى تفسيرها، إن كان له طموح فكري على الإطلاق، حتى يستطيع أن يشعر بما في ذلك من نقص. وإذا استطاع تلميذ أن يفهم في النهاية رغم هذا الدرس الآلي، فالفضل في ذلك يعود إلى موهبته وحدها، التي ساعدته نوعا ما على استيعاب ما سرد عليه.

الفصل الخامس

شيخ قبائلي عصري

آثار أوزم - بيت ابن علي الشريف بآقبو - استقبال منافق - رئيس قبائلي مفرنس - الفطور - سكرة شيخ قبائلي - رثاثة ثياب أغنياء القبائل - ابن الآغا - الرقيب الفرنسي - نصف المتوحش.

لاحظنا على يمين طريقنا عند نزولنا من شلالة إلى سهل وادي الساحل، الذي تغطي أراضيه نباتات كثيرة، آثارا رومانية يعتقد بربروجير أنها آثار أوزم Ausum التي ذكرها بطليموس. فنزل الإنجليزي عن ظهر جواده أكثر من مرة، وكان على عبد الله، ترجمانه، أن يقوم بنزهة أثرية رغم تذمره الظاهر، وكنت أنا أتبعهما في كل مرة. إلا أنه كان علي أن أعترف عندئذ بأنه لا ينبغي لي، إذا لم يكن في آثار أوزم ما يستحق المشاهدة،أن أتجنب، رغم حبي للآثار القديمة، القيام بزيارات من هذا النوع مرة أخرى. أعني آثار أماكن من هذا القبيل مثل أوزم، التي لا بد أنها كانت مدينة غير مهمة، فاسمها لم يذكر عند القدامى سوى مرة أو مرتين. كنا قد وصلنا إلى كومة من الأنقاض، لا تزال تبدو فيها آثار جدران، وبقايا سور تنتشر هنا وهناك في الحقول. يضاف إلى ذلك بعض القبور، لعلها آثار معبد تحت الأرض،كان هذا كل ما شاهدناه من أوزم.

ولا نعرف عن أوزم إلا ما ذكره لنا بطليموس، فهي لم تكن أسقفية في العصر المسيحي. وبما أن كل مدينة في نوميديا (كل مدينة رومانية) كانت مقرا لأسقف، ونظرا إلى أن أوزم لم تذكر بصفتها أسقفية، في إمكان المرء أن يستنتج أنها لم يعد لها وجود في العصر المسيحي والظاهر أنها كانت قريبة من بلاد النوميديين المستقلين بحيث كان يخشى عليها أن تحطم في ثورة من ثوراتهم.

وحمل زميلي في الرحلة عددا من حجارة آثار أوزم، فاندهش لذلك القبائل، الذين كانوا ينظرون إلى عمل هذه الجرادة الأثرية على أنه ضرب من الحماقة والجنون.

وسألت الانجليزي ونحن نواصل رحلتنا :

- ما هو رأيك في أوزم ؟

فأجاب :

- أعتقد أنني سأكتب عنها مقالة جميلة.

- أتنوي الكتابة عنها ؟

- أجل. فأنا عضو في جمعية أثرية بانجلترا، تصدر مجلة شهرية.

- وهل يمكنني أن اعرف ماذا تريد أن تقوله عن أوزم ؟

- الحقيقة أني لا أعرف ذلك الآن، ولكنني سوف أخترع شيئا ما. فسوف لن يهتم أحد بالحقيقة طبعا. فنحن لم نر في الواقع إلا القليل. غير أن أوزم غير معروفة إلى حد كبير، بحيث إن مقالا عنها سوف يكون له أثره دون شك، في أوساط الأثريين طبعا، وإذا استطاع المرء أن يتحدث عنها شكل غريب، فإنه سرعان ما يعتبر في انجلترا أسدا، أي طرفة!

إن هذا الاعتراف الساذج الذي صدر عن زميلي في الرحلة جعلني أراه في ضوء جديد. كان حتى تلك اللحظة يخدع نفسه، أما الآن فقد أصبح يخدع الآخرين. وكان ذلك تقدما!

ووصلنا بعد حين إلى أقبو. برج الآغا، وكان مسكن هذه الشخصية الأهلية يطل من بين بيوت القبائل وأكواخهم، التي يسكنها المخزن أو الخيالة النظامية. ودعينا إلى المسكن حيث قدمنا للآغا رسائل التوصية التي حملناها معنا. وكانت القاعة التي استقبلنا فيها خليط غير متناسق من الحضارة الأروبية والوساخة الأهلية، إذ كان قسم منها مجردا من كل

أثاث، لا تغطي أرضه سوى حصيرة قديمة مهترئة، جلس فوقها حوالي عشرين من أعيان القبائل ببرانيسهم الرثة. أما القسم الآخر فكانت تغطي أرضه زربية فرنسية قديمة، فوقها أريكة وبضعة كراس، قصد بها توفير قسط من الراحة الأروبية، إلا أنها كانت ذات تناقض غريب بالنسبة للقسم الآخر من القاعة المؤثث على الطريقة القبائلية. وكان الآغا قد جلس جلسة غير مريحة، يبدو أنه لم يتحملها إلا احتراما لضيوفه الأروبيين.

كان سيدي محمد السعيد، ويدعي عادة ابن علي الشريف، رجلا يتراوح عمره بين الأربعين والخمسين سنة، ذا لحية سوداء يشوبها بياض، وعينين سوداوين، وانف جميل، ووجه اسمر، وفم صغير مغلق في أغلب الأوقات. وكان تعبير ملامح وجهه في تلك اللحظة غير طبيعي .لقد أرغم عليه كما أرغم على جلسته فوق الأريكة. ولكن هذا التعبير كان واضحا عليه، كتلك الجلسة، التكلف والتصنع. فقد كان يكمن خلف هذا المظهر المصطنع التعبير الحقيقي لهذه الملامح، الذي لا يخفى على إنسان دقيق الملاحظة، والذي جعله يجمع بين الوعي الغبي المبالغ فيه وبين التملق في آن واحد. كانت ملامحه تقول لي على التقريب :

« أنتم أربيون. وبهذا تمتازون عني !ولكنكم لستم فرنسيين! وهذا يقلل من قيمتكم! ثم إنكم لستم عسكريين، وإنما أنتم مدنيون، ولذلك فأنا لا أقل قيمة عنكم. ومع ذلك فإني قد استقبلتكم لأنكم تحملون وصية من المكتب العربي، ولأنني عبد مطيع للمكتب، أقبل يد كل ضابط من ضباط الصف فيه رغم وسام الضباط الذي حصلت عليه ».

حقا إن استقباله لنا لم تكن له مهابة العربي الحقيق أو القبائلي. كلا! لقد كان يظهر عليه التكلف مثل الآغا نفسه، كان شيئا وسطا بين الهمجيةوالحضارة التي أسيء فهمها. فقد كان بن علي الشريف نموذج خنثي، نموذج مواطن مفرنس أو نصف مفرنس، وكان الآغا يرتدي لباس

البدوي، أي برانس، بعضها فوق بعض. وقد ألصق بواحد منها وسام الشرف الخاص بالضباط، ولم يكن يحمل الصليب كما يحمله العرب المبهرجون دائما، وإنما أراد أن يرينا أنه يعرف التقاليد الأروبية، التي لا تسمح في الحياة العادية إلا برباط الشرف. ذلك أن ابن علي الشريف قد أحسن صنعا بتعلمه التقاليد الأروبية والرقة الاجتماعية في باريس.

كان الآغا من أتباع فرنسا منذ سنة 1847، ولم يكن له منذ ذلك الحين ما يفخر به إلا بحماية فرنسا له. وقد دفعه حرصه على مصلحته إلى أن يظهر الميل لكل ما هو أروبي، وحاول أن يقلد الحضارة الفرنسية في كثير من الأشياء، وهو ما نجح فيه ظاهريا طبعا، لأنه لم يعرف أي نوع من التعليم المدرسي.

وبدأت المحادثة بعد تناول القهوة التقليدية. وتركت للإنجليزي في أول الأمر إجراء المحادثة، لأنه كان يأمل أن يستغل معارفه في العربية بهذه المناسبة. ولكن، يا للمصيبة! لقد كان الرئيس القبائلي أبعد ما يكون عن فهم الأجوبة المقررة في الكتاب على الأسئلة المحفوظة حفظا ببغائيا من طرف الإنجليزي، مما جعل المحادثة تتوقف في كل لحظة. وأخيرا بدا أن الآغا قد تعب من ذلك، فبدأ يتكلم الفرنسية معنا بطلاقة، ولو أن فرنسيته كانت مكسرة. وكان موضوع المحادثة مقصورا على الرحلة التي قام بها الآغا قبل سنوات إلى فرنسا وعاصمتها باريس.

وقد أعجبته في باريس، مثل جميع الناس الذين تنقصهم الثقافة، تلك الروائع والمسرات، التي تنال إعجاب الشعب البسيط أو الإنسان الشهواني عادة. ومن المسرات الماجنة، التي أعجبته بصورة خاصة في العاصمة الداعرةوفي إمكان المرء أن يحزر ذلك الملاهي العمومية مثل «مابي» و «صرح الزهور» وما أشبه ذلك.

ولم يسبق لي أبدا أن شاهدت جزائريا من داخل البلاد، ذهب إلى فرنسا ولم يعتبر تلك الملاهي من روائع المدينة العالمية. فالعرب والقبائل، مثل أنصاف الهمج، لا يرون من الحضارة إلاتلك الجوانب التي تثير الغرائز. فهم يرون فضائل أروبا في الأشياء التي نخجل منها نحن الأروبيين. أما الفنون الجميلة فليس لديهم إحساس بها على الإطلاق، والعلم أبكم بالنسبة إليهم. وليست لهم أية فكرة عن الأدب. أما المسرح الذي يقادون إليه من طرف المرافقين الرسميين عندما يزورون باريس فلا يعجبهم فيه غير مشاهد الرقص. إن هؤلاء الناس يجهلون التسلية الثقافية المهذبة الراقية. ومع ذلك فقد نشر هذا الآغا، الذي لا تختلف أفكاره عن أفكار الرجل البسيط إلا قليلا أو لا تختلف عنها إطلاقا،وصفا لرحلته في الجريدة العربية «المبشر» إني لم أقرأ هذا الإنتاج الأدبي، ولكن هذا الوصف لم يتحدث، حسب ما يستنتج من كلام الآغا، إلا عن سيدات بريدا Bredat وCasini cadet بصورة خاصة.

وبعد أن جلسنا في القاعة حوالي ساعة من الزمن، أمر الأغا بإحضار الفطور. وكان قد أراد قبل ذلك أن يفرض علينا على عادة قدماء المحاربين الفرنسيين تناول مشروب الأبسنث. وقدم لنا الفطور على الطريقة الأروبية، وقدمت الخمر في أثناء تناول الطعام، وهو أمر يشمئز منه أي مسلم، وشرب الأغا الجرئ نفسه عدة زجاجات من الخمر البروفنسالية الرديئة القوية المفعول. ومما يدعو إلى الدهشة أن هؤلاء الناس، الذين يظن المرء أن تأثير الخمرفيهم سيكون بالغا لعدم تعودهم عليها، يتحملون كثيرا من المشروبات الكحولية القوية!

والجزائري يشرب الأبسنث دائما صافيا، ولا يشعر بالنشوة عادة إلا بعد أن يشرب زجاجة كاملة، في حين أن الأروبي يسكر بعد تناول كأسين منه. وبعد أن عب الرجل من كأسه مرات كثيرة، وأثر فيه مفعول الخمر إلى

حد ما، شرع يظهر لنا معارفه في اللغة الفرنسية بصورة أكمل وكان يبدو عليه أنه فخور بقدرته على ترديد عبارات الجنود الماجنين إلى جانب عدد من التعبيرات القذرة، التي قد يكون تعلمها في حديقة ما بي Mabille. ولم يكن هذا المتوحش يعرف أنه يثير بذلك اشمئزاز أي مثقف أروبي. وكانت دهشتي كبيرة عندما لاحظت باشمئزاز أن رفيقي في الرحلة الذي اعتبرته، بصفته أثريا، إنسانا واعيا، قد أعجب ببذاءة ذلك المسلم السيئ، وشجعه بمرحه وثنائه عليه على التلفظ بتعابير أخرى فاسقة.

وكان من بين تناول الفطور، فيما قيل لي، عجوز جد ثري، كان يرتدي رداء طويلا ونظيفا إلى حد ما. غير أن هذا الرداء، الذي يصلح لملك، على الصورة التي تظهر بها الملائكة عادة فوق المسرح، لم يكن سوى قبر مجير. فقد لاحظت تحته رداء آخر، لم أشك في أن عمر وساخته سنة على الأقل. فالقبائلي لا يرتدي البرنس دائما بعكس العربي. فبخله لا يسمح له عادة إلا بامتلاك رداء واحد مصنوع من الصوف الخشنة، وإذا امتلك برنسا فإنه غالبا ما يستغنى عن الرداء.

ولا يغير أي لباس من هذه الألبسة ولا يغسل أبدا ولا يخلع كذلك في الليل. وإذا تمزقت فإنها ترقع. وبالإضافة إلى ذلك فإن الألبسة من هذا النوع تغطيها بقع من الزيت، بحيث تبدو وكأنها مشربة به، فالزيت هنا ليس غذاء ووسيلة للإنارة فقط، وإنما يستعمل أيضا دواء داخليا وخارجيا، ولا دواء غيره، وكثيرا ما يستعمل أيضا في المسد. إذا فقد كان رداء هذا العجور الأهلي الثري شيئا كما ليا، إذ في استطاعته أن يكتفي بالرداء الأسفل. وما كنت لأعرف عندئذ مآل شهيتي.

وكان هناك أروبي أيضا تناول الطعام على مائدة الآغا، وهو رقيب فرنسي، كان يهتم بمراسلات الرئيس القبائلي مع المكتب العربي. وكان ابن الآغا، الذي تناول الطعام معنا أيضا، شابا في السادسة عشرة من

عمره، مكتنز الملامح، جاحظ العينين، يرتسم على وجهه تعبير بليد. وكان يرتدي لباس تلميذ فرنسي، إلا أنه وضع على رأسه بدل قلنسوة الشرطة الفرنسية طربوشا أحمر. إن الجزائري يشمئز من القبعة أو القلنسوة الأروبية أكثر من اشمئزازه من شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير. وقد تربى ابن الآغا في مدرسة بالجزائر، ولكنه لم يكن يبدو عليه أنه تعلم شيئا مفيدا، فقد كان يلعن ويشرب مراهنة مع النقيب الفرنسي. ومن الغريب أن الآغا وابنه كانا يحاولان تقليد الرقيب الفرنسي في كل شيء، كما لو أن تصرفاته من أرقى أنواع اللطافة الفرنسية والأناقة الباريسية. وتعلما من المحارب الهمجي كلمات الجنود بكثرة رغم قذارتها، وأراد بذلك أن يظهر لنا أنهما يحسنان الفرنسية وأن علينا أن نعجب بمعرفتهما لها.

ويعتبر ابن علي الشريف من أغنى الشيوخ في الجزائر. إلا أن مدخوله الكبير لم يكن فيما بدا لي، يصرف بطريقة مثلى. فهو يسافر، فيما قيل لي، في أغلب الأحيان إلى الجزائر العاصمة لينفق أموالا كثيرة من أجل أن يحظى بعطف سيدات معينات. ولكن مثله لا يستطيع أن يكون مقتصدا إلا بالبخل، أما أن يتصرف في ماله بحكمة فذلك ما لا يعرفه.

وهكذا سقط ابن علي الشريف، بعد أن تخلى عن بخله القومي، في نقيض ذلك،فأتلف نصف ثروته، رغم أمواله الطائلة. كان ابن علي الشريف يمثل نموذجا من الرؤساء الجزائريين العصريين، من صنائع فرنسا، الذين يفعلون ما يريده السادة من خير وشر، وخاصة ما يأمرونهم به من أعمال شريرة، ويتمرغون في التراب أمام الشخصية الرسمية الفرنسية، ولا يدخرون وسعا في التبخير له.

كان نموذجا إنسان نصف همجي، يتصور أنه يتقرب إلى سيده المتمدن بتقليده في عاداته، ولكنه لا يعرف أن يقلده إلا في الأشياء الرديئة، ولا يستطيع أن يجعل من نفسه غير صورة هزلية لإنسان متمدن.

الفصل السادس

الصفوف

حركة الصفوف - سبب ضئيل لنشأة بعض الصفوف - التحتانية والفوقانية - المرابط والمرابطة - مراسيم المعارك الزوجية - تكوين الصفوف - الأيام المحرمة - استمرار التحتانية والفوقانية.

تعيش قبيلة آيت يلولة، التي يترأسها ابن علي الشريف، على جانبي جرجرة ويدعى القسم الذي يقيم في منحدرات وادي الساحل يلولة أو زمور، بينما يدعى القسم الآخر يلولة أو مالوه. وتعاني هذه القبيلة، بالإضافة إلى هذا التقسيم الذي فرضته طبيعة المنطقة، من تقسيم آخر إلى تحتانية وفوقانية. ولعل استعمال كلمة التحزب في هذا المقام انسب من استعمال كلمة التقسيم. فالتحتانية والفوقانية صفوف، أي أحزاب سياسية ودينية ، بينها عداوة كبيرة. وتعتبر الصفوف ظاهرة خاصة في بلاد القبائل،وقد نشأت خلال قرون عديدة بسبب الاضطرابات والتحزبات التي تميل إليها هذه القبائل كل الميل. ويمكن مقارنتها بتحزبات الجمهوريات الإيطالية في العصور الوسطى، بالغلفيين والغبلينيين، باليانكيين والنيريين، بالنوبليين والبوبولانيين. فسكان القرية القبائلية ينقسمون، مثلما هو الأمر في تلك المدن، إلى معسكرين متعاديين، وكانت عداوتهما صارمة ومتوارثة خلفا عن سلف. فالصفوف تفرق بين قبيلة وقبيلة قريبة منها، وتفرق بين نصف قبيلة ونصفها الآخر، وبين البيت والبيت المجاور له. وبين أسرة بينهما قرابة أو كانت بينهما صداقة قديمة بل إنها لتفرق في اغلب الأحيان بين الأب وابنه والأخ وأخيه.

وكانت الأسباب المباشرة لنشأة الصفوف في مختلف بلاد القبائل متباينة. وتتخذ الفرق المفردة عادة اسما غريبا وأصيلا تقريبا حسب طبيعة

النزاع الخاص. فهناك صفوف كبيرة أو صغيرة، أي الصفوف التي تقل فيها حدة الصراع والصفوف التي تكثر فيها التفرقة والنزاع. وكثيرا ما كانت أسباب النشأة واهية. ويمثل الصف بين القط والكلب صراعا من هذا النوع الذي يعود إلى سبب صبياني. فقد تعاض كلب وقط في قرية قبائلية. فتكون في الحين حزبان، أحدهما يدعى أن الكلب يجب أن يقتل القط عضا، ويرى الآخر أن القط يجب أن يخنق الكلب. واحتدم النقاش، ووقعت معركة، فسالت الدماء. وما دامت الدماء قد سالت فإن الميل على الأخذ بالثأر يجعل النزاع متوارثا. وهكذا يتكون صفان. وما أكثر ما كانت أسباب نشأة الصفوف واهية.

وتقتصر الصفوف في بعض الأحيان على المنطقة التي نشأت فيها ولكنها كثيرا ما تنتشر انتشار الطاعون في كامل الإقليم وتجعل من سكانها شطرين متعاديين. ومن هذه الصفوف المنتشرة كثيرا صف التحتانية والفوقانية. وقد انتشر هذا الصف بعد نشأته بسرعة كبيرة في سهل وادي الساحل، الذي لا يزال سكانه إلى يومنا هذا منشطرين إلى شطرين. وتعود أسباب نشأة صف التحتانية والفوقانية إلى الظروف التالية الشيقة.

كان يعيش في قرية من قرى جرجرة مرابط محترم يدعى سيدي صالح، وكان متزوجا بقبائلية تنحدر من أسرة عريقة، وكانت هي الأخرى ولية، تتمتع بلقب مرابطة. غير أن الزوجين الوليين لم يكونا، فيما يبدو، يعدان الألفة وحسن المعاشرة من الفضائل الضرورية بالنسبة لمرابط ومرابطة. فقد كانت حياتهما الزوجية عبارة عن مشاهد للخصام والنزاع، وكثيرا ما أدرت المعركة الكلامية إلى الضرب، فكانت المرابطة تعاني من ضربات قبضتي الولي.

وذات مساء اشتد النزاع بينهما فتركت المرابطة بيت الولي القوي الساعدين، وقد أزرق لحمها والدماء تسيل من أنفها، وذهبت لتحتمي

بوالديها، ودعت أقاربها الكثيرين للانتقام لها من زوجها. وانقسمت القرية التي يسكنها الزوجان على نفسها في الحين وتكون معسكران، أحدهما في مقابل الآخر. فانحاز معسكر إلى الزوج وادعى أن من حق الولي بصفته مسلما صحيح الدين أن يضرب زوجته، فالضرب هو امتياز صاحب القوة. أما المعسكر الآخر فكان يرى أن الضرب في الواقع ضروري لا سيما وأن الشرع قد أباحه، إلا أن الخير نفسه لابد أن تكون له حدود في هذه الدنيا، فالمرابطة تحمل فوق جسمها آثار ضرب مبرح، كانت تتحمله يوميا، وذلك لا يمكن أن يكون من واجباتها الزوجية.

وحدث نزاع، تطور إلى مشادة، ثم إلى تكوين صفين. وأطلق على أولئك الذين دافعوا عن الزوج اسم الفوقانية، بينما أطلق على المناصرين للزوجة اسم التحتانية. إلى هذه الدرجة وصلت سمعة المرابط والمرابطة، وإلى هذه الدرجة وصل حب الشقاق بين القبائل، بحيث أن القبائل المجاورة سرعان ما بدأت تهتم بالموضوع وتنشق حسب ما تراه على فوقانية وتحتانية. ولماذا سمي حزب الزوج فوقانية وحزب الزوجة تحتانية؟ يدعى علماء القبائل أن السبب في ذلك يعود إلى أن الرجل يلعب أثناء المعارك الزوجية الدور الأعلى والزوجة تلعب الدور الأسفل! وهذا يعني أن المرابطة كانت تقع أرضا بمجرد أن تتلقى الضربات الأولى، بينما يظل الولي واقفا أثناء عملية الضرب. وهذا التفسير عميق وطريف، ولكنه لم يكن كافيا بالنسبة للجميع. ولهذا اخترع العلماء الفرنسيون تفسيرا آخر. فهم يدعون أن الولي ولد فوق، أي فوق جبل، والمرابطة ولدت تحت، أي في السهل. وهذا التفسير يعبر عن منطقة جميلة أيضا!

وكان التحتانية والفوقانية يتحاربون بضراوة شديدة، بحي اضطر المرء إلى إدخال نوع من السلام الإلهي على غرار ما كان في العصور الوسطى. ولولا ذلك لقضى بعض سكان القرية الواحدة على بعضهم الآخر. فقد

حرم القتال في أيام معينة، وحرم حتى استعمال السلاح في القرية. اما فيما عداها فكان في إمكان أبناء القبيلة الواحدة إذا كانوا ينتمون إلى صفوف مختلفة أن يتحاربوا ويقتل بعضهم بعضا ما طاب لهم ذلك. ولا تزال قرية شلالة إلى يومنا هذا تنقسم إلى فوقانية وتحتانية، وكذلك سهل وادي الساحل كله، الذي خفت فيه العداوة مؤقتا. وقد أبطلت الحكومة الفرنسية هذه العادة المتأصلة في الوقت الحاضر، فنام التحتانية والفوقانية، ولكنهم يكشرون عن أسنانهم أثناء النوم وجها لوجه في انتظار الفرصة المناسبة للعودة إلى ما كانوا عليه.

الفصل السابع

قبيلة آيت مليكش

الجرجرة - الرجل الأول في قبيلة آيت مليكش - القبائليات - تقتير القبائل - المبيت في منطقة آيت مليكش - بوبغلة، بطل القبائل - معاركه وموته - حفلة ختان قبائلية - راقصة قبائلية - الآغاوان - تنافسهما في إعطاء النقود.

بعد أن ودعنا آغا يلولة، واصلنا رحلتنا بضفاف وادي الساحل الجميلة. وقد بدأت المنطقة تتخذ طابعا أكثر شاعرية، بل أكثر رهبة. فإلى يميننا كانت رؤوس جبال جرجرة العظيمة تنتصب في شموخ، وقممها الصخرية القائمة تشكل مجموعة غير متناسقة. جبال سوداء تحدق في السماء وقد لفتها ظلال غاباتها، تتبعها صخور تبدو بجدرانهاالمسننة شبيهة ببقايا قصور مهدمة. وكان جبل جرجرة يقبع هناك كسور جبار لا يمكن تسلقه أو عبوره. وكان المفروض أن يفرق هذا السور بين القبائل، التي تكره بعضها بعضا حتى الموت، غير أن القبائل التي كانت تسكن على جانبيه لم تكن متحالفة فحسب، وإنما كانت متآخية ومتصاهرة. ما أغرب طبيعة سكان الجبال! فعمالقة الأرض لا ترهبها بقممها الجبارة. وكثيرا ما نعثر في السهل على نهر صغير، يفرق بين القبائل، ولكنك هنا لا تستطيع، يا ابن الأطلس العظيم، أن تقسم القبائل إلى معسكرين متعادين، لا تستطع ذلك يا جرجرة المحاط بالصخور!

وبعد أن عبرنا نهرا صغيرا، صافيا قليل المياه، هو وادي تاسدنت، واجتزنا مصبه في وادي الساحل، دخلنا منطقة قبيلة آيت مليكش وكان الرجل الأول، الذي التقينا به في هذه المنطقة، نموذجا لهذه القبيلة المحاربة، التي لم يكن إخضاعها في السابق سهلا. كان عبوس الوجه، تكاد تغطي وجهه لحية سوداء، وكانت عيناه سوداوين ملتمعتين،تطل منهما الكراهية

والسخرية، وله أنف منحن، يدل على الطموح إلى التحكم، وبشرة سمراء. وكانت ملامح وجهه تحمل تعبيرا متحديا، وقامته تشبه قامة بطل قديم، ومشيته تضارع مشية طاغية سقط، ولكنه لم يفقد كبرياءه.

هكذا بدا لنا الابن الأول لقبيلة آيت مليكش، وكان مظهره البطولي مناقضا بشكل غريب للباسه المهترئ. إن هرقل الأفريقي هذا قد فضل أن يرتدي أسمالا بالية عوض أن يسير عاريا، بصفته بطلا، بصورة مقبولة، فعمر ردائه الممزق لم يكن يقل عن عشر سنوات.

وكانت لقبيلة آيت مليكش حوالي ثلاثين قرية، يوجد أغلبها في منحدرات وادي الساحل، وقد وزعت هنا وهناك، وكان قسم منها قد أقيم على سلسلة جبال جرجرة المنحدرة. ومررنا بعدد من القرى الواقعة في أماكن منخفضة، فتوقفنا بإحداها لنستريح قليلا، ودخلنا بهذه المناسبة إلى بعض البيوت القبائلية. ولم تفر القبائليات عند رؤيتنا،وذلك ما توعدت البدويات العربيات فعله دائما. وكن كلهن سافرات على غرار جميع الجزائريات اللواتي يسكن الأرياف. ولم أكتشف بينهن امرأة ذات جمال كبير. والسبب في ذلك أنهن يقمن وحدهن تقريبا بالعمل في الحق والبيت. ويقال أنهن جميلات في ريعان شبابهن، غير أن برودة الطقس في الشتاء وحرارة الشمس في الصيف، التي يتعرضن لها دائما، يجعل من ابنة العشرين، بالإضافة إلى الأعمال الشاقة التي تقوم بها، تظهر بمظهر امرأة في الخمسين بالنظر إلى غضون وجهها. وإن المرء ليتحدث في أروبا عن الكبر المبكر عند نساء الجنوب، وكان الأولى ان يتحدث المرء عن مظهر الكبر المبكر. ذلك أنهن في الحقيقة يحتفظن بجميع مظاهر الشباب الجوهرية، وتتمثل في القدرة على العمل وعلى الولادة مثل الأروبيات تماما وبنفس المدة. فسوء التغذية وكثرة العمل تخلع على أجسامهن النحافة، التي تكون بعد البلوغ، وخاصة في المناخ الحار، سببا في انكماش البشرة

وظهور الغضون. فنساء أغنياء الحضر يحتفظن، لأنهن لا يعلمن، بشبابهن وجمالهن في أغلب الأحيان حتى سن الأربعين.

وأبناء قبيلة آيت مليكش بخلاء، مثل جميع أهالي المنطقة تقريبا، وبخلهم يفوق جميع تصوراتنا عنه في أروبا. فالقبائلي لا يجب غير المال، ثم المال، ولا شيء غير المال، يحب المال من اجل المال، ذلك انه يعتبر أي نوع من المتعة والتسلية إثما كبيرا. ترى ماذا يفعلون بأموالهم في النهاية ؟ اعتقد أن هذا الأمر لا يزال لغزا محيرا. والناس يتحدثون عن أكياس من القطع الذهبية مخزونة تحت الأرض. وإذا كانت هذه الكنوز مدفونة حقا، فلا بد أن يكون أصحابها قد أخفوها بصورة محكمة بحيث إن أحد لم يتمكن من العثور عليها حتى الآن. ما أكثر ما يأخذ المكتب العربي الأبوي على عاتقه تخفيف حمل القبائل من الأموال المدخرة. وغالبا ما تتمكن هذه العناية الأرضية عند قيامها بغزوة من الاستيلاء على مدخرات القرون الماضيةتاركة المصابين من غير مأوى ودون ماشية وبلا مواد غذائية. ولكن الرجل منهم يعود إلى حياته التي كان يحياهافي السابق. وإذا كان قبل بخيلا، فإنه سيغدو الآن أشد بخلا، فيجمع قطعه النقدية الصغيرة على أن تتكوم الفرنكات والقطع الذهبية. وحين يصبح لديه الكثير منها، فلربما تتم بعد ذلك حملة من حملات المكتب العربي، فيفقد خلالها كل ما جمعه.

ولم يتم إخضاع قبيلة آيت مليكش إلا في سنة 1857 . وكانت تكون قبل مدة طويلة نواة تحالف قبلي، فقبل سنوات قليلة فقط كانت محور الكفاح التحرري، الذي قاده بوبلغه ضد الفرنسيين. وكانت قرية سيدي عبد الله، التي قضينا فيها ليلتنا، هي القرية التي اتخذها عبد القادر الجديد مقرا له. فجلسنا في بيت الضيافة الخالي،وتناولنا من الزاد الذي حملناه معنا. فلم يكن في وسعنا الحصول على الطعام عند قبيلة أيت مليكش ولا رؤيته.

وفي المساء اجتمع حول النار، التي أشعلنها أمام بيت الضيافة، عدد من أعيان القرية. وكان أولئك الزوار رجالا أقوياء البنية، ولو أنهم كانوا قريبين من الشيخوخة. وكانت لحيهم بيضاء أو في طريقها إلى البياض، ولكنهم كانوا محتفظين بكامل قوتهم، ولهم قامات تشبه قامات الأبطال القدامى. وكانوا للأسف يغطون عضلاتهم القوية بقمصان وسخة إلى حد كبير. فلماذا يا ترى يحتفظ الرجال كلهم تقريبا بحيويتهم وعافيتهم مع تقدم السن وذلك عكس ما هو عليه الأمر بالنسبة للنساء في نفس السن ؟ ليس من العسير معرفة السبب في ذلك. إن الرجال باعتبارهم سادة المخلوقات لا يهتمون إلا بجني الثمار. أما النساء فيشاركن الحمير والبغال والأحصنة في ممارسة الأعمال الشاقة، ولا يستطيع الإنسان أن يرى حيوانا من هذه الحيوانات لم ينل منه الهزال بسبب سوء التغذية ولم يحمل جسمه آثارا دامية نتيجة الضرب، ولا يشبههم من الأروبيين في هذا إلا البروفانساليون والأسبان القساة. فبماذا يختلف وضع النساء عن وضع البغال ؟ وكثيرا ما تكون البغال أكثر قيمة من المرأة، فالرجل يشتري البغل الجيد بسعر يتراوح فيما بين 200 و 300 فرنك، في حين أنه يستطيع أن يشتري امرأة بـ 150 فرنكا وبأقل من ذلك. ولذلك فإن الرجل يحترم زوجته أقل مما يحترم بغله. ومع هذا فإن المرأة، فيما يقال، قد تخضع الرجل لإرادتها!

وكان من بين المسافرين عجوز، أخبرنا بأنه شيخ القرية، يتميز ببرنس، من المرجح أنه ورثة عن جد جده، فكان كل جيل من الأجيال التالية يحدث فيه مزقا ويرقعه بالخرق. وقد شكا هذا الشيخ من فقر قبيلته، التي بدأت الآن تتخلص شيئا فشيئا من الوضع السيئ الذي تردت فيه بسبب محاربتها للفرنسيين ما يقرب من عشرين سنة. وحدثنا الشيخ عن الظروف السيئة التي عرفتها قبيلة آيت مليكش أثناء فترة الحرب، وقال :

«لقد مرت بنا أوقات كنا خلالها في حاجة إلى جميع المواد الغذائية، بحيث إننا كثيرا ما كنا نشتري قطعة الخبز، التي لا يزيد ثمنها اليوم عن سنتيمين، بخمسة فرنكات. وأصبح الدقيق، نتيجة للحملات الفرنسية التي كانت تدمر محاصلنا، شديد الغلاء، إلى درجة أن عددا كبيرا من الناس التجأوا إلى وسيلة يائسة، وهي أنهم صاروا يضعون التبن المدقوق في عجين الخبز للإكثار من كميته، لا ليشبعوا وإنما ليخادعوا الجوع على الأقل».

وسألت الشيخ صاحب البرنس المهترئ عما إذا كان قد عرف بوبغلة. وهو سؤال لم يستطيع أن يؤكده فحسب، وإنما استطاع أيضا، وذلك ما أثار دهشتي، أن يظهر رغبة في الحديث غير عادية، بالنسبة لقبائلي، فحدثني عن حياة ذلك الشريف ومغامراته حديثا صحيحا كما تأكد لي ذلك فيما بعد.

كان بوبغلة عبد القادر القبائل، وقد وصفه الفرنسيون طبعا بأنه رجل متعصب مخادع ثائر، ولكن القبائل يرون فيه منقذا وبطلا. وكان دوره طبعا أقل بكثير من دور سلطان معسكر، فكان شبيها بالدور المحدود الذي قام به بطل الظهرة بومعزة، فقد اختار بوبغلة مثله اسم حيوان مؤنث. ووجد فيما بعد أيضا رجل تسمى باسم بو حمارة.

وكان بوبغلة قد ظهر لأول مرة سنة 1850، واقتصر في بداية الأمر على التحلي بصفة المرابط. وقد روى عنه الفرنسيون، الذين حاولوا دائما أن يشوهوا سمعته، في ذلك الحين الأكاذيب التالية، إن عمله الرئيسي يتمثل، فيما ذكرته التقارير الرسمية الفرنسية، في بركته التي تمنح القبائليات العاقرات أطفالا. وكانت زيادة النسل دائما من اختصاص الأولياء المسلمين. وتحدث المعجزة عادة في خيمة صغيرةقرب سور الغزلان، كان يسكنها بوبغلة. إلا أن عمله هذا ما فتئ أن توقف. فقد ثارت غيرة زوج، كانت زوجته تتردد على الولي بكثرة. وعندما كانت زوجته ذات

يوم مختلية بصاحب البركات، تسلل الزوج إلى الخيمة، ورفع جانبا منها فلماذا رأى يا ترى ؟ إنه لم يتحدث عن ذلك أبدا. غير أن الناس افترضوا أن الولي الصالح استعمل لإحداث المعجزة وسيلة عادية مبتذلة!

وشكا به زوج آخر غيران إلى المكتب العربي، فحكموا على مكثر النسل هذا بالسجن لمدة طويلة. وعندما أطلق سراح بوبغلة تخلى عن مهنته الدينية السابقة، وبدأ حياته السياسية الجديدة، فأخذ ينتقل بين القبائل المختلفة، ويلقي فيها خطب حماسية، ويبشرها بقدوم شريف جديد بعد حين لطرد الفرنسيين من الجزائر. ولكنه لم ينجح في البداية في الدور الذي قام به بصفته محرضا. فحين خدعته القبائل، التي لم يكسب ثقتها في أول الأمر، وأخذ الفرنسيون يطاردونه، انسحب إلى فجاج جرجرة وبدأ يحيا حياة النساك. ولم تلبث سمعة الزاهد المتعبد أن جذبت بعض القبائل إليه. وعندئذ شجعه إيمانها المتزايد به على القيام بدور جديد.

وأعلن ذات يوم أمام جمع من أتباعه ومريديه أنه هو ذلك المنقذ الذي تنبأ به الولي المغربي مولاى الطيب قبل مائة سنة وقال بأن فرنسا سوف تحتل الجزائر، ولكن رئيسا من الأهالي سوف يطردها منها بعد عدد من السنوات. وبما أن كثيرا شكوا في صحة كلماته هذه، فأعلن أنه مستعد لإثبات ما يدعيه بواسطة معجزة. وكان الرجل المخادع يعرف القبائل حق المعرفة ويعرف أي نوع من المعجزة يؤثر في هؤلاء البخلاء. فقال :

«انتم تقولون إنكم فقراء جدا، ولذلك لا تستطيعون القيام بالحرب. ولكن يجب عليكم أن تعرفوا أن كنوز الأرض كلها ملك يدي، وأنني استطيع، إذا شئت، أن أخرج المال من الأرض بكل سهولة».

وضرب الأرض بقوة وهو ينطق بهذه الكلمات، ويا لعجب! عندما رفع رجله عن الأرض لاحظ المجتمعون بدهشة ثقبة في الأرض مملوءة

بالقطع الذهبية والفضية. وقد ادعى بعض الأشرار طبعا ان تلك الأموال كانت كلها مزيفة. ذلك أن الولي كان قد كرس أوقاته أيام تنسكه لتعلم مهنة تزييف النقود، وهي مهنة محبوبة، وغير محتقرة عند القبائل، ونجح في ذلك. وكيفما كان الأمر فإن هذه المعجزة قد جلبت للولي كثيرا من المديرين. وبعد أيام أصبحت له فرقة راجلة منظمة تتكون من مائة رجل، بالإضافة إلى عدد كبير من المتطوعين الذين كانوا يتبعون مواكبه فوق ظهور خيولهم.

وهاجم أول ما هاجم منطقة يلولة، ففر أمامه الأغا بن على الشريف، الذي تحدثت عنه سابقا، وترك له ثلاثة آلاف رأس غنم وثلاثمائة بقرة غنيمة. وزادت هذه الغنائم من نفوذ أبى بغلة، وكثر مريدوه يوما بعد آخر. وكان كل رجل من رجاله يسهم قدر طاقته في معركة التحرير. وبعد حين رأى أبو بغلة نفسه يترأس قوة معتبرة ويملك وسائل هامة. وفي 10 ماي سنة 1851 تجرأ أبو بغلة على اختراق سهل وادي الساحل ومعه حوالي ألف من رجاله، وبعد أن اجتذب إليه جميع قبائل المنطقة ودعا إلى محاربة فرنسا، تقدم بجيشه الكبير نحو بجاية، ولكن هذه المدينة كانت جريئة. فقد قهره بيليسيير Pellessier كما قهر جيشه كله بالقرب منها. وكانت هذه الهزيمة سببا في تخلي كثير من القبائل عن أبي بغلة، لأنها كانت تعتقد أن القضية العادلة تحظى بتأييد الله.

ومنذ ذلك الحين اكتفى المرابط بالإقامة في منطقة جرجرة عند قبيلة آيت مليكش، وكانت له سلطة معينة على كثير من قبائل المنطقة، ولكنها كانت سلطة دينية أكثر منها سلطة سياسة. وتمكن في سنة 1854 من إثارة قبيلة آيت جناد ضد فرنسا. وكان الفضل في انضمام هذه القبيلة القوية إليه يعود إلى الفترة التي اشتد فيها ساعده، ولكنها كانت فترته الأخيرة. ورأى أبو بغلة نفسه مرة أخرى على رأس القبائل كلها تقريبا. فوثق من

أمره، وألهبه حماسه الديني وأعماه عن ضعف قوته، فهاجم الفرنسيين مرة أخرى. ولكن الجنرال راندوا Randon هزمه في هذه المرة هزيمة لم تقم له بعدها قائمة أبدا. فقد منذ ذلك الحين سمعته وأهميته. ووجد نفسه في النهاية مضطرا إلى القيام بحملات على القبائل التي تخلت عنه، وذلك من أجل الحصول على قوت القليلين ممن بقوا معه من اتباعه، فقتل في حملة من هذه الحملات التي لم تكن تليق بمكانته. وفي سنة 1857 تم أيضا للفرنسيين إخضاع قبيلة آيت مليكش التي كانت تناصبهم العداء الشديد.

وعندما انتهى الشيخ من رواية حياة بطله أبي بغلة، سمعنا فجأة ضجة مهولة. فقد تعالت أصوات الطبل والناي يصاحبها غناء حاد، وأخذت هذه الضجة تقترب شيئا فشيئا، وأخيرا رأينا موكبا طويلا يتقدم في أحد شوارع القرية. وكان أصحاب الموكب يرتدون أسمالا بالية، إلا أن مظهرهم كان يوحي بأنهم في فرح، واهم فرح في حياة المسلم يتمثل في الزواج أو في الختان. وكان الختان سببا في هذه الضجة. وظهر الطفل، الذي سيختن، راكبا حمارا وسط المحتفلين، وقد زين بعصابات حمراء ملتمعة كالذهب حسب ما تقتضيه الحفلة.

وعندما اقترب المغنون والطبالون من بيت الضيافة، انفصل أحدهم عن المجموعة واقترب منا، وكانت ثيابه رثة بصورة خاصة، مع أنه، كما سمعت فيما بعد، عين من الأعيان. ودعانا نحن الغرباء كما دعا الشيخ وجميع الحاضرين لحضور حفلة ختان ابنه، التي سيحضرها أيضا شيخان كبيران من شيوخ القبائل. وكنت قد سمعت سابقا أن مثل هذه الحفلات كثيرا ما تكون شيقة عندما يحضرها كبار الشيوخ، ويتنافسون في تقديم الهدايا للطفل المختون. ولذلك قبلنا الدعوة بفرح. ولكن الشيخ ومن معه لم يكن يظهر عليهم أنهم فرحون بذلك مثلنا. لقد كان البخلاء المساكين يعرفون جيدا أن الأمر يتعلق بمحافظ نقودهم بالدرجة الأولى. فلا ينبغي

للقبائلي في مثل هذه المناسبات أن يكون مقترا، بل يجب عليه أن يمثل دور الكريم، حتى ولو كانت القطعة الواحدة المعطاة أشد إيلاما له من انتزاع قطعة من لحمه.

ودخلنا مكان الحفلة، وكان عبارة عن بيت عادي ليس به أثاث إطلاقا، ولكنه كان مليئا بالناس. وكان الأعوان قد أخذا مجلسيهما،وكان أحدهما بن علي الشريف الذي نعرفه، وهو آغا يلولة، والأخر آغا آيت عباس أو بني عباس، وهي قبيلة تقيم في وادي الساحل بالقسم الأعلى منه. وقد جلس احدهما قبالة الآخر، في زاويتين مختلفتين فوق الحصيرة، متربعين، وكأنهما ديكا شجار أو ابنا آوى غاضبان يتحديان بعضهما بنظراتهما.

وبدأت الحفلة بالرقص كما يحدث دائما تقريبا. والرقص القبائلي يعتمد القدمين والرجلين أكثر بقليل من الرقص الحضري. ولا تتمثل قمة الحركات فيه أيضا في اليدين والرجلين. وقد استبدت إحدى الراقصات، وهي فتاة لا تتجاوز الثانية عشرة، ذات سوداوين كبيرتين، وبشرة سمراء وفم دائري جميل،وأنف سامي شامخ،بنظرات الحاضرين كلهم بمشيتها الجميلة المتسقة قبل الرقص وحركاتها الناعمة الحيية أثناءه. ونال رقصها إعجابهم، فنسي هؤلاء البخلاء أنفسهم إلى الحد الذي جعلهم يثبون من أماكنهم ويلصقون قطعهم الفضية بلعابهم فوق جبينها. وهذه هي الطريقة المتبعة في مكافأة الراقصات. لقد ذكرتني هذه الراقصة الشرقية براقصة أخرى شهيرة، أبهجت قلب ملك عظيم قبل ثلاثة آلاف سنة. ويمكن للمرء أن يفترض أن الرقص العربي والقبائلي لا يختلف كثيرا عن رقص بنات إسرائيل في بلاط الملك سليمان. فقد جاء في نشيد الأناشيد وصف للراقصة سولاميث، يشبه ما شهدناه في هذه الحفلة تماما.

وبعد الرقص راحت الأنظار والأسماع تترقب الحدث الرئيسي، ويتمثل في إهداء المال للصبي المختون بصورة علنية. وبدأ أبو الفوطة، وهو الرجل

المكلف بجمع النقد ووضعها تحت فوطة تتوسط البيت، يدعو الناس إلى الكرم. وكانت الهدايا صغيرة في البداية. وكان أبو الفوطة يصيح بعد كل هدية يتسلمها. »لقد تبرع فلان بثلاثة بوجوات. جازاه الله خيرا« وعندئذ تعلو زغردة النساء تحية للرجل الكريم. ولم يقدم أي واحد من حوالي خمسين رجلا أكثر من ثلاثة بوجوات، وهي فما يبدو الحد الأدنى للهدية.

وفي النهاية جاء دور آغا يلولة، فخيب ظني فيه في بداية الأمر، فلم يقدم أكثر من عشرة بوجوات، ومع ذلك رفع أبو الفوطة صوته بالثناء عليه.

ـ تبرع بن علي الشريف بعشرة بوجوات.

وارتفعت الزغاريد بعد ذلك. حين وصل الدور إلى الآغا الآخر تبرع بالضعف، بعشرين بوجو، فكبر الثناء عليه وكبرت معه الزغردة.

فاستنكف بن علي الشريف من التقتير، ووقعت فجأة لفة في حضن أبي الفوطة، وبعد فتحها صاح بصوت عال :

ـ تبرع آغا يلولة بخمسين بوجو. جازاه الله خيرا.

وتبعت ذلك زغردة تصم الآذان. وفي تلك اللحظة بدا على آغا آيت عباس أنه يهتم بدخول المنافسة. وأجاب على تحدي خصمه بكيس رماه نحو أبي الفوطة. وصاح أبو الفوطة قائلا :

ـ بارك الله في آغا آيت عباس. فقد تبرع بثلاثمائة فرنك.

وتعالت الزغاريد بالثناء عليه وعندئذ بدأ عليه الغضب على وجه آغا آيت يلولة. وسقط كيس آخر في وسط البيت، وتمزق فسال بحر من القطع النقدية فوق الأرض. وعدها المحاسب بسرعة، وسمعناه بعدئذ يقول :

ـ تبرع شيخ يلولة الكبير بخمسمائة فرنك جازاه الله خيرا!

وما أن انتهت زغردة النساء الرهيبة التي عقبت ذلك حتى نهض آغا آيت عباس، ورمى بكيس جديد إلى وسط الغرفة. وقبل أن يأخذه أبو

الفوطة، سقط كيس آخر رمى به شيخ يلولة إلى نفس المكان. وانتهت في هذه المرة المنافسة الباهضة التكاليف فقد تبرع كل منهما بألف فرنك. وعندئذ لم يعد هناك سبب يدعو أحدهما إلى الغيرة من الآخر. فقد رضى كل منهما بإنهاء المنافسة التي كلفت كلا منهما ألفي فرنك والتي قد تتكرر بعد أسبوع في حفلة ختان جديدة. وقد أكد لي بعض الحاضرين أن البخيلين قد قدرا حسابهما بحيث لا يخسران شيئا، إذ لا يجوز لأي شخص أن يتبرع لآخر في مناسبة أخرى، يكون فيها هو المعطي والأخر المعطى له بأقل مما تبرع به هو أو لأبنه. لقد جعل رجال المال الجزائريين لهذا النوع من الهدايا نظاما، وإذا خسر أحد في ذلك مرة، فإنما يخسر الفقراء. فقد قيل لي أن الغني تعاد إليه الأموال التي تبرع بها دائما مع الزيادة فيها.

وعقب ذلك بدأت عملية الختان الرسمية، ولكنني لم أشعر برغبة في حضورها، لأني سبق لي أن حضرت مثلها في تلمسان، واشمأزت نفسي منها، فالأطفال الكبار يتألمون لها أكثر من الصغار بصورة خاصة والمعروف أن المسلمين يختنون الأطفال بين العاشرة والرابعة عشرة، بينما يفعل ذلك اليهود بعد الولادة مباشرة.

الفصل الثامن

أبواب الأطلس الحديدة

البيبان أو أبواب الحديد - الوهدة - هوة ضيقة - الأبواب الأربعة - سهل برج بوعريريج - حركة نشيطة - آثار سيوليا - بيشيلغا، مستعمرة تركية - الأسد الصغير - إضافات شرقية للأزياء الأروبية.

بعد أن تركنا في اليوم التالي قرية سيدي عبد الله الصغيرة، ثم منطقة قبيلة آيت مليكش المحارية بعد حين، حدنا بجيادنا عن منخفضات وادي الساحل الضاحكة لنتبع مجرى أحد فروعه الجانبية،وهو وادي مغرير الصغير ونسير قربه صعدا. وكانت تمتد عن يسارنا منطقة قبيلة آيت عباس أو بني عباس، التي تضم ثماني قبائل متحالفة، تسكن في أربعين قرية، بينما كانت تنتصب إلى يسارنا قرى آيت منصور البيضاء، مطلة برؤوسها من بين أشجار الزيتون. ولعل آيت عباس أبرع القبائل في الصناعات المحلية. فهي تملك أكثر من مائتي رحى للزيتون. وكثرة الرحي تعد مقياس ثروة قبيلة من القبائل. وبالإضافة إلى ذلك فإن آيت عباس هم الذين يخيطون البرانس لجميع القبائل تقريبا، أي للجزائر كلها إلى حد ما. فيصنعون البرانس ويرقعونها بمهارة فائقة، ولهم دكاكينهم في الجزائر العاصمة نفسها.

عندما وصلنا سهل وادي مغرير قلت لزميلي في الرحلة :

- سنعبر اليوم أبواب الحديد.

فقال :

- إني أتصورها رهيبة.

فاعترض عبد الله قائلا :

- ليست رهيبة بالدرجة التي تتصورها. فإن المرعب فيها قد اخترعه الفرنسيون.

وكان عبد الله على صواب وعلى خطأ في آن واحد. هو على حق لأن العلماء الفرنسيين أساءوا استعمال أبواب الحديد حقا بطريقة غيرمشروعة. وهو على خطأ لأن الطبيعة منحت هذه الرقعة الأرضية شيئا يمكن أن نصفه في الواقع بأنه رهيب.

ووصلنا عند الظهيرة إلى أبواب الحديد الشهيرة، تلك الأشكال الأرضية الغريبة، التي كانت قبل فترة قصيرة مصدرا للعديد من المبالغات الوهمية. وفي الوقت الذي قام فيه الدوق دورليان بحملته على البيبان، التي أطلق عليها الفرنسيون اسما فخما هو أبواب الحديد، كانت أوروبا تغض بالحكايات عن الموقع، الذي لا يمكن أخذه وعن دفاع القبائل الغاضبة عنه. وقد ارتأى شاعر ألماني مشهور أن يتحدث عن «باب الأطلس الحديدي» الذي اعتصمت القبائل خلفه مستميتة في الدفاع عن وطنها. ولم يعرف العديد من الكتاب الفرنسيين، الذين كتبوا عن الجزائر في ذلك الحين، شيئا آخر غير أن يضعوا هذا الاسم الرهيب «أبواب الحديد» في الصفحة الأولى عند نشر انطباعاتهم.

أما الآن فإن معرفتنا الكبيرة بالمحل والنقد الموضوعي قد قضى على الادعاءات الكاذبة لأولئك الذين شاركوا في تلك العملية الحربية، ونقص كثيرا من أهمية تلك الحملة. وإذا كانت «أبواب الحديد» لا تثير اهتمامنا كثيرا باعتبارها موقعا لمعركة بطولية متوهمة، فإنها تستحوذ في الواقع على نظرات السائح بمناظرها الطبيعية الجميلة.

كانت الوهدة متسعة، ولكنها بدأت هنا تضيق فجأة، بحيث أنها لم تترك لمجرى الوادي الذي كنا نتبعه إلا مكانا ضيقا، يمر منه ببطء بين

الصخور المنحدرة. وكان بعضها يبدو وكأنه يريد أن يقطع عليه الطريق. وكان هذه الجدران الصخرية متراكمة بجانب بعضها بعض، وكان لها نفس العلو تقريبا، وقد بدتم عالمها في الأفق الأزرق.

وقادنا طريق صاعد على امتداد الوادي، وبعد الصعود والهبوط وجدنا أنفسنا وسط برج صخري وكأننا قد سجنا بين جدارين كلسيين يبلغ ارتفاعهما ألفي قدم أو ثلاثة آلاف قدم. وكانت تفصل بين هذين الجدارين حفرةتقدر بحوالي أربعين قدما عرضا، امتلأت بكوم الأحجار الكلسية. وكانت هذه الحفرة، التي كانت تبدو في نهايتها عميقة، أعلىمن الهوة الصخرية التي كنا سنصل إليها. وانحدارنا من بهو هذا القصر الطبيعي البديع عبر طريق صغير منحدر، انفتح بين الصخور والحجارة وكأن ذلك قد تم بمعجزة، فبلغنا هوة واد عميقة. فواصلت جيادنا طريقها عبرها بعناء كبير مارة بجدران الصخور، التي ترتفع قممها بصورة مستمرة وتكاد تحجب عن الطريق الشمس والضياء.

وعن نهاية هذا الطريق قطعنا واديا جبليا فوجدنا أنفسنا مرة أخرى في حفرة، لم تكن تبدو بلا مخرج من جميع جهاتها فحسب،وإنما كانت كذلك فعلا ي السابق وكانت ستظل بلا مخرج أيضا لو لم تجعل البيبان من نفسها مخرجا للرحالة التائه.

وكان ارتفاع الباب الأول حوالي ثمانية أقدام، وقد حفر في الجدران الصخرية بشكل عمودي. وفي نهايته ممر طويل أيضا في الصخور، ولكن حجارته الرملية أقل صعوبة، وفي نهايته جابهنا جدار صخري، ولولا وجود البلب الثاني لصعب أيضا المرور منه. وكان الأب ضيقا جدا إلى درجة أن أحد دوابنا المحمل بالأثقال لم يكد يمر منه. وكان الباب الثالث يبعد عن الثاني بثلاثين خطوة، بينما يبعد عنه الرابع بخمسين خطوة، غير أن الرابع كان أوسع من سابقيه بكثير. وبه تركنا البيبان خلف ظهورنا.

وبدأت هوة الوادي بعدئذ تتسع بسرعة، فبعد ثلاثمائة خطوة من الباب الأخير انفتح أمامنا منخفض واسع وأرانا هضبة برج بوعريريج الجميلة الضاحكة. وهناك سألت زميلي في الرحلة :

- لماذا أطلق الفرنسيون على الأبواب اسم «أبواب الحديد»؟ فأجاب عبد الله المتشكك، الذي كثيرا ما كان يتولى الجواب عن سيده :

- هراء إن الفرنسيين لا يعرفون غير الهراء والتباهي والادعاء!

وقال الانجليزي مستعيرا لهجة الحكيم :

- لقد كان لديهم سبب لاختيار هذا الاسم. فهو يوحي بالرهبة الخيالية، ويخلع على حملتهم التي قاموا بها هنا بقيادة الدوق دورليان طابعا متميزا، ويساهم في إعلاء «مجدهم» الذي هو في الحقيقة عبارة عن خليط من الحقيقة المحدودة والخيال الجامح.

فمن أين جاء اسم «أبواب الحديد» يا ترى ؟إن العرب لا يطلقون على هذه الأبواب اسم بيبان الحديد، وإنما يسمونها ببساطة : البيبان. غير أن الرومان كانوا قد أطلقوا على الجبل الرئيسي في هذه المنطقة اسم جبل الحديد Monsferratus. ولعل الفرنسيين أطلقوا عليها اسم أبواب الحديد، لأنها تؤدي إلى جبل الحديد. ذلك أن الغاليين (الفرنسيين) يحبون كثيرا أن يرتبطوا بذكرى سادة العالم القدماء!

وامتد أمامنا سهل، تظلله الأشجار وتخترقه الجداول، يختلف كل الاختلاف عن مهاوي البيبان العارية الجرداء القاتمة. ووصلنا برج بوعريريج في فترة ما بعد الظهر، وهي قرية صغيرة، أصبحت مسكنا لمائتين من الأروبيين ومثلهم من العرب منذ سنة 1850. وكان منظر هذه القرية، التي تقع فوق تلين، وترى في وسطها بساتين. كثيرة وأشجار عديدة، في منتهى الجمال. فنلك أشجار المغث الغروي، الذي قلما يتمتع به

نظر السائح في الجنوب، والمروج الخضراء، التي تذهب حواشيها الشمس الغاربة، وقتامة الغابات القريبة،والجداول الفضية الرقراقة، والبساتين المليئة بالورود والأزهار، و كل ذلك جعل للهضبة التي تقع فيها القرية، منظرا طبيعيا كاد أن يكون شماليا، ومع ذلك فشمس الجنوب تضيئه.

وكانت لبرج بوعريريج باعتبارها خط مواصلات وسوق تبيع فيه القبائل المجاورة مصنوعاتها أهمية أكبر مما قد يتصوره المرء بناءً على قلة عدد سكانها. فإليها كانت قبيلة آيت مليكش تسوق أبقارها السمينة الحلوب، وآيت عباس تبيع فيها منتوجاتها من الزيت والصناعات اليدوية الأخرى، وقبيلة أولاد أبي بكر تزود سوقها بالعسل الذكي الرائحة الذي تنتجه في منطقتها الجبلية، وتبيع فيها قبائل مجانة صوف أغنامها الكثيرة. وكان الوناغوة يحملون إليها صناعاتهم اليدوية الجميلة باختصار، كانت قبيلة مجاورة تؤدي هنا ضريبتها للنشاط التجاري والصناعي، وهو ما يميز هذه العشائر عن القبائل البدوية.

عندما عثرنا على غرف في فندق صغير حقيريديره أروبي، سألت زميلي في الرحلة :

- ماذا ستفعل فيما تبقى من فترة ما بعد الظهر ؟

فأجاب عبد الله نيابة عن سيده مرة أخرى :

- سأجلس في قهوة عربية وأدخن « كيفى ».

فاعترض الأنجليزي قائلا :

- لن تفعل ذلك. ستزور معي بدل ذلك آثار سيوليا Siulia البالغة الأهمية.

قال عبد الله الذي لم يعجبه طبعا ما أخبره به سيده.

- أهناك آثار هنا أيضا!

- أجل. على بعد ثلاثة أميال من هنا. ستذهب أنت إلى المكتب العربي وتطلب منه أن يزودنا بالأحصنة لأن أحصنتنا متعبة.

وحين ذهب عبد الله على كره، ناداه الأنجليزي قائلا :

- إذا لم تأت بالأحصنة بعد نصف ساعة فسوف استغني عن خدماتك.

قال هذه الجملة بالعربية لأنها موجودة في كتابا دبلابورت « .

- إيه. يا سيدي!

كان هذا جواب عبد الله، وهو موجود أيضا في الكتاب المذكور.

عاد بعد حين ومعه الأحصنة، فامتطيناها وذهبنا إلى آثار سيوليا، التي تقع في قرية بيشيلغا القريبة من برج بوعريريج. ونحن لا نعلم عن هذه المدينة الرومانية الصغيرة سوى ما ذكره عنها بلينيوس Plinius من أنها مدينة. وقد تحدث البكري عن الآثار الرومانية المهمة قرب بيشيلغا، ويطلق عليها آنئذ (حوالي 1050) اسحم بيشيلغا. ويرىغيسيونيوس Gesenius أن اسمها مشتق من الكلمة الفينيقية سيول، التي تغني الذئب، أي مدينة الذئاب، وباسبانيا مدينة تحمل مثلها نفس الإسم. ويعتقد بعض المؤرخين أن سيوليا، التي لم يرد ذكرها عند غير بلينيوس هي سوبتو Suptu المذكورة عند بطليموس، وهي تطابق موقعها تقريبا. إلا أنه من المرجح أن سيوليا هي Ad olivam التي وردت في خريطة الطرق وفي اللوحة البونتيغية. فقد كانت الأوليفام نقع في الوسط بين سطيف وأوزيا تماما كما تقع بيشيلغا في الوسط بين سطيف وسور الغزلان. فمن الجائز أن يكون اسم سيوليا مختصرا من كلمة Ad olivam، فكثيرا ما تحول السين إلى دال في موريطانيا. وقد ورد ذكر « اد أوليفام ». في القرن الخامس باعتبارها أسقفية.

لقد قوت النزهة، التي قمت بها في بيشيلغا، إيماني بوحشية الأتراك، سادة هذه البلاد الذين طردوا منها في وقت قريب، وكثيرا ما قلدهم الفرنسيون في وحشيتهم. ذلك أن الانكشاريين بنوا بحجارة سيوليا قرية، سكنها عدد قليل من الأتراك وعدد كبير من الكراغلة. ولم أر في بيشيلغا حجرا واحد لم يؤخذ من المدينة القديمة. ولهذا لم نجد في سيوليا من الآثار الرومانية القديمة إلا القليل. واستنكر الإنجليزي الخيبة التي مني بها هنا، ولكن عبد الله ابتهج لفشل النزهة الأثرية. وكان أحفاد الكراغلة لا يزالون يسكنون بيشيلغا، وهم عبارة عن طائفة كسولة، تطابق أصلها التركي تماما، إذا أن أفرادها يقضون القسم الأكبر من يومهم في المقاهي، لا يشغلهم غير الإحساس بالراحة. وكانوا هم أصحاب الحقول الخصبة والبساتين الغنية، ولكنهم تركوا لنسائهم، على الطريقة العربية، القيام بجميع الأعمال فيها.

وفي برج بوعريريج نما عدد قافلتنا الصغيرة نموا غريبا، لم أكن أتوقعه وتمثل ذلك النمو في انضمام ملك الحيوانات إليها، فقد اشترى الأثري الإنجليزي أسدا، كان قد عرض علينا في برج بوعريريج. وكان طبعا شبلا هزيلا، لم يكن له غير اسم ملك الحيوانات، ومع ذلك فقد كان أسدا!

ورغب ابن انجلترا أيضا في شراء حيوان آخر، ذكر المؤرخون القدامى أنه يوجد في هذه المنطقة، وهو الدب، إلا أن الديبة النوميدية كانت لحسن الحظ قد انقرضت نهائيا. وقد حاولنا أن نسمع عنه شيئا على الأقل، فسألنا الناس ولكننا لم نعثر على رجل واحد يحدثنا عن رؤيته للحيوان المذكور. وليس هناك من يشك في أن الدببة قد وجدت قديما في نوميديا. فقد ذكر صولينوس [1] Solinus أن ايديليس أو روليس دوميتيوس اينوباربوس Aedilis curilis domitius Aenobarbus قد أمر في

(1) جغرافي روماني عاش في النصف الثاني من القرن لثالث الميلادي (م)

عيد واحد باختصار مائة دب نوميدي. فهل يمكن أن يكون هذا كذبة من أكاذيب المؤرخ الكثيرة! وعلى أية حال فقد كانت الدببة النوميدية حسب ما يرويه المؤرخون الرومان غريبة، وغرابتها تكاد تكون كغرابة الفيلة النوميدية، التي كانت تصلي للشمس صباحا وتهدي المتجولين الضالين. يقول صولينوس عن الدببة النوميدية : إنها لا تجتمع كما تجتمع ذوات الأربع الأخرى، وإنما تتعانق كما يتعانق البشر في صمت..

واستخدم الإنجليزي رجلين لمرافقة جلالته الحيوانية، إذ لم يكن في الإمكان ترك الأسد طليقا، فقاداه بسلسلة طويلة مع ما يبدو عليه من الضعف والهزال. وكان من شأن هذه الرفقة الغريبة أن تخلع على قافلتنا الصغيرة مظهر الفرسان البهلوانيين. يضاف إلى ذلك أن الإنجليزي، كان يرتدي لباسا مضحكا، نصفه شرقي، والنصف الآخر انجليزي، وجد أنه يليق به. فلم يكن يرتدي عمامة بيضاء ونعلا أصفر فقط، وإنما كان يرتدي أيضا حزاما مزركشا ولفة مذهبة حول ساقيه، ويحمل سيفا تركيا. ويمكن للمرء أن يتصور مظهر هذه الألبسة الشرقية مع بدلة إنجليزية سوداء يخالطها بياض. لقد أضيفت الألبسة الشرقية إلى بدلته بسهولة تامة. حقا لقد كان لكل قطعة هدفها الأصلي وسببها. فاختيرت العمامة للحماية من أشعة الشمس المحرقة، والنعل لحماية الأقدام من المسامير. أما الحزام فقد استعمل بناء على نصيحة الأطباء في الجزائر، الذين كثيرا ما ينصحون الناس بلباسه عوض الحزام الجلدي. ويمكن استعمال السيف التركي كسلاح. ومع ذلك فإن المضحك لم يكن يكمن في الألبسة نفسها، وإنما كان يكمن في الطريقة التي يرتديها زميلي في الرحلة وفي اختيار الألوان من طرفه. فعلى السائح أن يكون حذرا في البلدان التي تسودها أزياء غريبة،حيث يجد قطعة من لباس الأهالي جميلة وعملية، فيرغب في اقتنائها. إنه سيجعل

من نفسه في أغلب الحالات صورة ساخرة ويلفت الانتباه إليه أينما حل بل إن الأوروبيين ليعتبرونه مجنونا.

لقد عرفت في الجزائر ألمانيا، كان الناس يشكون في سلامة عقله بصورة عامة لمجرد أنه اتخذ الشاشية غطاء لرأسه. ومن الغريب أن أقل قطعة من الألبسة الشرقية يرتديها أروبي تلفت الأنظار إليه بشكل كبير بما في ذلك أنظار الأهالي. ويبدو أن العرب يرون أن الأروبي يذل نفسه حين يرتدي اللباس الشرقي ويتخلى عن بدلته التقليدية. وقد لاحظت هذا في الشرق أيضا. فالأروبي الذي يرتدي دائما القبعة العالية السوداء يعتبر هناك أرقى الناس وأية قبعة أخرى تدل في اعتقادهم على رتبة أدنى. وفرنسيو الجزائر يعرفون جيدا أن اللباس الشرقي هنا لا يناسب الأروبي، ولذلك يتجنبون بشدة اقل انحراف عن الزي الأروبي.

الفصـــل التاسـع

سطيـــف

الهضبة العارية الجرداء - الشركة الجونيفية - سطيف - أسماء الطرق التاريخية - سوق الأحد - أحفاد الفندال المزعومون - القلعة الرومانية - الفن المعماري البزنطي - موريطانيا السطيفية - ثورة فيرموس وغيلدون - مجموعة أحجار أثرية.

بعد أن بدأنا رحلتنا في اليوم التالي تخلت عنا في الحين المنطقة الخضراء المزهرة المشجرة، التي جعلت هضبة بوعريريج فاتنة إلى حد كبير. وسلكنا طريقا يؤدي مباشرة إلى غرب المدينة الرومانية سيطيفيس،وهي سطيف الحالية. وسرنا في الصباح فوق هضبة عالية، لم يكن بها غير الأدغال المنخفضة، ونادرا ما كانت تظهر شجرة بمساحتها المستديرة. واسترحنا عند الظهيرة عند وادي أبي سلام، الذي تقع قربه قرية حقيرة فقيرة للمعمرين الأروبيين. وكلما اقتربنا من مدينة سطيف كثر عدد القرى الأروبية والمستعمرات الصغيرة التي كان عدد سكانها لا يزال ضئيلا. فقد كانت هذه المنطقة ميدان نشاط «الشركة الجونيفية للمستعمرات السويسرية بسطيف». وهي شركة قدمت لها الحكومة عشرة آلاف هكتار على شريط أن تبني فوق أراضيها عشر قرى خلال عشر سنوات. وكان هذا الشرط مناسبا تماما لنظام الاستعمار «بأمر المفتي» الذي اتبعته فرنسا في الجزائر.

حاولت الشركة أن تفي بهذا الشرط، فبنت القسم الأكبر من القرى المشروطة، ولكنها لم تستطع حتى الآن أن تجد السكان لهذه القرى التي أنشأتها بناء على تعاقدها مع الحكومة. فليس بالقرى الثماني التي بنتها الشركة الجونيفية سوى عدد من السكان متواضع جدا. وقد استصلحت حتى الآن، وسنوات العقد العشر على وشك الانتهاء، ثمن أراضيها،

وهي نتيجة، مهما كانت قليلة الأهمية، تبدو في هذه البلاد مناسبة بجانب عجز الفرنسيين عن عمل شيء كهذا.

ووصلنا سطيف في السماء، وهي مدينة فرنسية تماما، يسكنها حوالي ألفين، كلهم من الأروبيين، وعدد أفراد حاميتها أكثر بكثير من سكانها. ولذلك لم يكن من الغريب أن يكون السروال الأحمر في الشوارع أكثر مما هو مقبول. وكانت منازل مدينة سطيف كلها جديدة، وكان منظرها جامدا ومملا، وتشبه الثكنات في ضخامتها، تلك الضخامة التي يحبها الفرنسيون، وكانت الشوارع تمتد في استقامة، ولكنها رتيبة وغير متناسقة مع هذه المنطقة. وقد استحسن الفرنسيون أن يطلقوا على بعضها أسماء تاريخية مثل «شارع ترجان، شارع جوستنيان وشارع القديس أغوستين». وهذه الشوارع التي سميت بأسماء تاريخية يسكنها طبعا أناس، رأوا تلك الأسماء في زوايا شوارعهم لأول مرة، فهم يجهلونها جهلا مطبقا. فالمعروف أن أبناء «الأمة العظمى» يجهلون التاريخ والجغرافيا جهلا تاما.

ومن الطبيعي أن تكون للمدينة ثكناتها، فهي أهم شيء في الجزائر كما هو الأمر في أي مكان آخر، وأن تكون لها كذلك جميع المؤسسات العسكرية المختلفة، فهي ضرورية في مكان تقيم به حامية كبيرة، فكان هناك مستودع للمواد الغذائية والذخيرة والبارود. وقد أصبح المستشفى العسكري في الوقت الحاضر ضيقا، فلم تعد أسرته الثلاثمائة كافية. ولذلك فالأعمال جارية لتوسيعه. واعتقد أن هذا الوضع يكفي لكشف أكاذيب السلطات الفرنسية التي كانت تحدث ضحايا قرى الشركة السويسرية عن الموقع الصحي لمدينة سطيف.

وغني عن القول أن مدينة سطيف الصغيرة كان لها مسرح، فالفرنسيون لا يستطيعون الاستغناء عن مسرحياتهم المليئة بأعمال العنف والقتل والدمار. والانعدام الممثلين الحقيقيين فإن جنود الحامية، كما هو الأمر في

كل مكان تنعدم فيه فرقة قارة، هم الذين يقومون بالأدوار، وهم يقومون بها، كما تأكدت من ذلك بنفسي بمهارة إلى حد ما.إلا أن تصرفات العاشقة الأولى، وقد قام بدورها زواوي، بدت لي صبيانية. ولكن ما ذا يمكن أن تطلب من عاشقة، رجلاها في حجم رجلي جندي من المشاة، ويداها الكبيرتان لا تحتملان قفازا مقاسه دون العشرة ؟

وقد أحسن الفرنسيون صنعا حين نصبوا أغلب التماثيل التي عثروا عليها هنا في ميدان دورليان. إن هذا الميدان بتوابيته وبقايا أعمدته وأوعيته ونقوشه يشكل متحفا، ولا ضرر من وجوده في الهواء الطلق، فالمطر لا يؤثر على الآثار المنصوبة فيه.

ويقام أمام أبواب سطيف كل يوم أحد سوق، يأتي إليه عدد كبير من سكان المنطقة. ولعل سوق الأحد هذا من أكثر الأسواق الجزائرية، بل ربما يكون أكثرها ازدحاما. ويقدر عدد من يتسوقون إليه من الأهالي بحوالي ثمانية أو عشرة آلاف. وقد ذهبت إليه في اليوم الثاني من وصولي، وكنت قد وصلت لحسن حظي في يوم أحد، وذلك لأدرس ملامح وجوه زواره من قبائل داخل البلاد. وأنا أعتبر السوق في أروبا متبذلة، لأن اغلب ما يوجد بها من النسوان الشبيهات بالسائلات. أما السوق العربية فإنها تمتع الإنسان دائما.فقد كان هناك حوالي ألف من الأشخاص، يمتازون بطول القامة في أغلب الأحيان، يتبخترون في ثيابهم القديمة، ويعتبرون التجارة مسألة ثانوية، وكان منظرهم يذكر بالسوق الرومانية. ذلك أن الروماني كان يرتدي لباسه الرث بهذه الصورة أو بشكل قريب منها مثل الجزائري.

وقد أتيح لي هنا أن أشبع فضولي. فقد كانت هناك برانيس كثيرة نستعصى على الحصر. فرأيت الرجل من قبيلة أيت غبانة، وأيت ورتلان، وبني طالة تحت قلنسوته العالية المصنوعة من سعف النخيل، وهو ينظر حوله بعينيه اللامعتين كالغاضب، وكأنه يود أن يعبر بنظراته عن مدى

احتقاره له. وكان قد وقف إلى جانبه العربي القح بنبل تركيبه الجسمي الجميل، الذي أتى من الخيام البدوية القريبة، وميزته أنفه الطويل الأقنى، ابن حقيقي لإسماعيل، ولم يكن النبل يفارقه رغم رثاثة ثيابه، وهو يحسن بنبله هذا ويعيه ويعرف أن له شجرة نسب أطوال من شجرة النسب لبعض الملوك. وجلس قربه القبائلي المعرب، ساكن «القرابة» المثقوبة، وهو يعتقد أنه عربي، بينما هو لا يعدو في الحقيقة أن يكون قبائليا عربي اللسان، فليس له نبل أبناء إسماعيل ولا حب أبناء الجبال للحرية. وهناك يسير بين خيله المعروضة للبيع المسيلي، الذي بنيت قريته فوق آثار زابيا القديمة. وهناك الغرغوري الحزين بملامح وجهه الطويلة، وعينيه الكبيرتين الدامعتين، ولحيته المدببة. ويسير هناك الريفي القبلي في ثيابه الدالة على الذوق رغم رثاثتها. وقد أنطرح قربه على الأرض الريفي الظهري الكسول الذي جاء إلى هنا من مروجة المزدهرة، لمجرد أن يعيش يوما جميلا في سوق الأحد دونما رغبة في أي نشاط. وكثيرا ما يأتي إلى هنا ما شيا على قدميه من غير أن يخسر شيئا ويقطع مسافة يوم كامل حتى حين لا يكون له هدف آخر غير إشباع فضوله.

ولكن أكثر من استولى على انتباهي ممن حضر إلى السوق من القبائل المتعددة يتمثل في عموشه أو بالأحرى ذلك القسم من هذه القبيلة الذي يسمى باسم بني حوامر، وينحدر من صلب أولئك الذين احتلوا الجزائر لمدة مائة سنة، أعني الفندال. فقد كنت أتأمل باهتمام كبير، بل بعواطف حارة هؤلاء الذين يمكن أن يكونوا من أبناء قبيلتنا، أحفاد شعب، برهن بأعماله، رغم وحشيته، على حيويته وقوته القاهرة مع قلة عدد أفراده نسبيا. فهل كان بنو حوامر، الذين تمكنت من رؤية دستة منهم في سوق الأحد بسطيف، هل كانوا حقا من أحفاد قبيلتنا، من أصل فندالي؟ لقد

جعلني انعدام الوثائق عنهم اكتفى بتأمل ملامح ممثلي هذا الجنس الشهير لأصدر حكمي عليهم.

والواقع أنه كان علي أن اعترف أمام نفسي بأني لم أجد، بعد أن تأملت ملامحهم وخصائصهم الظاهرة، فرقا بينهم وبين بقية القبائل، فهم لا يختلفون عنهم إلا قليلا أو هم لا يختلفون عنهم بالمرة. لقد قيل طبعا إن هناك من أفراد بني حوامر من لهم شعر أشقر، وبشرة بيضاء وملامح شمالية. غير أن هؤلاء الذين كانت لهم علامات خادعة، لا بد أن يكون قد بقوا في منازلهم جميعا، لأن الذين حضروا إلى سوق الأحد لم يكونوا يمثلون أي نموذج شمال إطلاقا. فاستنتجت من ذلك أن انحدار بني حوامر قد يشبه تماما ما يدعيه عدد كبير من العرب والبدو والقبائل من أنهم ينحدرون من النبي محمد (عليه الصلاة والسلام).

وأفضل ما تقدمه مدينة سطيف للسائح المحب للآثار التاريخية هو قلعتها، وهي حصن روماني قديم، يقدم اليوم للفرنسيين نفس الخدمات التي قدمها لسادة العالم القديم ألفي سنة تقريبا. وقد وجدت الأسوار الرومانية سليمة إلى حد ما وتم إصلاحها بمهارة. وكانت هناك عشرة بروج تعلوا الأسوار. وكان لكل جانب من جوانب القلعة الثلاثةبرجان، أما الجانب الرابع فكانت تعلوه أربعة بروج، تخلع على هذاالقسم من السور منظر حصن عظيم. وكان عرضها حوالي تسعة أقدام. وقد أدركت من مواد بنائها في الحال أن آخر شعب، أقام هذه القلعة لآخر مرة هو الشعب البيزنطي، فخصائص الفن المعماري البيزنطي معروفة في إفريقيا الشمالية، وتتمثل في مزج بقايا الآثارالقديمة التي استطاعوا الحصول عليها من قطع الأعمدة الكورنثية، والأحرف المكسورة، والألواح المرمرية وصفائح الحجارة الرملية المنقوشة، يضاف إلى ذلك خليط من الحجارة الصغيرة، يتكون من قطع الآجر الروماني والطوب الأهلي، ثم قطعة من تابوت هنا، وقطعة من

تمثال مكسور، رمي كل ذلك مع بعضه بعض، فنشأ كل عظيم رغم انعدام التناسق فيه.

وهذا الخليط المتعدد الألوان، الذي لا فن فيه، من مواد البناء يتيح لنا معرفة الفترة التي أعيد فيها بناء هذه القلعة الرومانية على التأكيد، ذلك أن الآثار البيزنطية تشبه، حيثما وجدت في الجزائر، قلعة سطيف. ولا شك أن هذه القلعة كانت ذات أهمية أيام عظمة رومة، ولكن الفندال هدموها مثلما هدموا جميع القلاع في شمال إفريقيا باستثناء قرطاجنة. فمن هو الحاكم البيزنطي الذي أعاد بناء هذه القلعة ؟ لعله بتريسيوس Patricius Salomon خليفة بيليسارس Belisaris الذي يعود إليه الفضل في نشأة جميع الآثار البيزنطية هنا تقريبا، والذي يمكن أن يطلق عليه اسم باني الحصون الإفريقية.

كانت سيطيفيس Sitifis تقع على بعد 78 معلما حسب ما ورد في خريطة الطرق،وعلى بعد 67 معلما من بجاية حسب ما جاء في اللوحة البويتنغية، التي تسميها Steifis والمسافة بين بجاية وسطيف تقدر بـ 82 كلم، أي حوالي60 معلما، وبناء على ذلك فالرقمان المذكوران سابقا مبالغ فيهما. إلا أنه من الممكن أن الطرق الرومانية كانت تمر بالجبال، فبطليموس يضع سطيف في درجة 9 شرقي شرشال. وهذه مبالغة مضحكة، فهي في الحقيقة تقع عند درجة 3 فقط. ويعتقد غيسينيوس أن كلمة Steifis من أصل فينيقي مثل بقية أسماء المدن في إفريقيا الشمالية كلها تقريبا، فهي مستمدة من كلمة Seteftالتي تعني الفيضان، فاسمها إذن «مدينة الفيضان»، وهو اسم لا تزال جديرة به إلى يومنا هذا. وأسماء المدن الفينيقية على العموم لا تزال كلها تقريبا صالحة للاستعمال في عصرنا هذا.

وكانت سطيف، سيطيفيس الرومانية، عاصمة إقليم غني مزدهر خلال قرون عديدة، وكان قد استمد اسمها منه فأطلق عليه اسم Mauritania

Sitifensis وكانت تسكنه القبائل البربرية. ويعود الفضل في تحويل سطيف إلى عاصمة (297 ق م) إلى القيصر ماكسيميليان غاليريوس Maximilian Galerius الذي كان قد حاري آنئذ ثورات النوميديين وكان يأمل أن يكسر شوكة الأهالي بتقسيم موريطانيا الشرقية إلى موريطانيا سيزاريانسيس Mauritania Caesariensis وبدأت سطيف تزدهر منذ تلك السنة، وأخذت تنافس يوليا القيصرية،عاصمة موريطانيا، لمدة طويلة.

وكانت تحيط بسطيف من جميع جوانبها القبائل النوميدية التي لم يتم إخضاعها. وقد تكلم أوغوستينوس عن ابنة أخ لأسقف سطيف، خطفها الثوار النوميديون. ونحن نعرف أربعة من أساقفة سطيف. فقد حضر ابلاتوس Ablatus عام 525 مؤتمر زعماء الكنيسة في قرطاجنة،دعاه إليه الملك الفندالي هيلدريك المحب للكاثوليكين. وكان هذا المؤتمر من أسباب سقوط هيلدريك الرئيسية، لأن الفندال الأريانيين كرهوه بسبب ميله إلى الكاثوليكيين في المؤتمر.

ورغم كثرة الحاميات الرومانية في مدن إقليم سطيف منذ سنة 279، فقد تجرأ على القيام بالثورة كل من فيرموس 372) Firmus) وأخيه غيلدون Grildon 386) . وقد نجح كل منهما في بداية الأمر نجاحا كبيرا،حيث تمكنا من إثارة جميع قبائل الإقليم تقريبا ضد الرومانإلا أن الغدر والخيانة سرعان ما هيأ لهما اليمة. ويبدو أن النوميديين كانوا يجهلون فنون الحرب بصورة مطلقة. فقد كانوا يتفرقون أمام كل عدو قوي إلى حد ما، آملين أن يلحقوا به الضرر وهم جماعات جماعات أكثر من لو خاضوا معه معركة حاسمة. وكانت نتيجة ذلك أن زعماءهم كانوا يقعون في أيدي أعدائهم، لأن أتباعهم يتخلون عنهم دائما. وأعلن النوميديون الخضوع ظاهريا، ولكن ثائرا آخر قام بعد حين لكسب عدد أكبر من المؤيدين والزحف بهم على معسكرات الجيش الروماني القوي، إلا أنهم كانوا أيضا يتفرقون بمجرد

أن يقترب منهم العدو، تاركين قائدهم بين يدي العدو. ولا تزال القبائل إلى هذا اليوم تتبع طريقة مشابهة في الحرب، ومع ذلك فهي ليست دليلا على الجبن. وكان كومس ثيودوزيوس Comes Theodosius قد تغلب على فيرموس وأمر بقطع رأسه. وطيف بجثته في شوارع سطيف لإدخال الرعب في قلوب النوميديين. أما رأسه فقد وضع فوق حربة وحمل إلى كل قرية من قرى الأهالي بالمنطقة.

وقد قدر لكومس ثيودوزيوس أن يلقى نفس المصير الذي لقيه فيرموس على يده ذلك أن القيصر غراتيانوس Gratianus اتهمه بتأييد أحد معارضيه وأمر بقطع رأسه في قرطاجنة سنة 376. أما غليدون فقد تغلب عليه أخوه ماسيسل Mascesel، الذي كان يتعاون مع الرومان ويعتبر نفسه مثلا للوزير القوي ستيليشو Silichi والقيصر هونوريوس Honorius في إفريقيا الشمالية، غير أن غيلدون فر منه وشنق نفسه حتى لا يقع في يد أخيه المكروه. وقد صف الشاعر الروماني كلاوديوس كلاوديانوس[1] Claudius Claudianus تلك المعركة وصفا رائعا، إلا أن الغريب هو أنه ينسبها إلى بطله ستيليشو، مع أن هذا كان عند وقوع المعركة يتمتع بالراحة والطمأنينة في مدينة رافنا Ravenna. ويمدح القيصر هونوريوس العاجز الضعيف في قصيدته بأنه ذهب بنفسه إلى إفريقيا ليحارب ذلك الثائر، وهو ما لا يمكن تصديقه. فكلاوديانوس يضع على لسانه الأبيات التالية :

لقد سممنا صفاقص،

وأسرنا يوغرطه

فكيف نرضى بأن تكون

نوميديا ملكا لغيدون ؟

(1) شارع يوناني في الأصل، عاش في القرن الخامس الميلادي، وكتب باللغة اللاتينية عددا من الأشعار والملامح (م).







ولكن الوزير الداهية ستيليشو يلين من غضب القيصر الحربي حين يصور له ان غليدون قد وجد في أسرته من ينتقم منه :

له أخ لا يماثله، اسمه
ماسيسل، فر إليك من
قسوة غليدون ليطلب
منك الحماية.

والواقع أن ماسيسل كان له ما يدعوه إلى الانتقام من أخيه، لأنه كان قد قتل ولديه. ويصف كتاب ذلك العصر ماسيسل بأنه كان مسيحيا صالحا بقدر ما كان غيلدون وثنيا طالحا.

ولم تعش عاصمة موريطانيا السطيفية بعد الفتح العربي. فقد بقيت خالية من السكان ما يزيد عن ألف سنة. ولم يتمكن غير الفرنسيين من إعادة شيء من الحياة إلى هذه العاصمة الميتة. فقد استولى الفرنسيون على آثارها لأول مرة سنة 1838، وفي سنة 1847 أمرت الحكومة بإنشاء مدينة فيها، فازدهرت منذ ذلك الحين ازدهارا ملحوظا نسبيا.

وجمع زميلي في الرحلة على عادته عددا كبيرا من الحجارة المتناثرة قرب القلعة قدمها إلى عبد الله المسكين لحملها، وقد ظهر عليه التذمر بوضوح، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل ؟ لقد كان الإنجليزي فيما عدا هذا زبونا مهما بالنسبة له. وعندما تخلف عنا الإنجليزي سألت عبد الله ونحن في طريقنا إلى البيت :

ـ ماذا يفعل سيدك بهذه الحجارة التي يجمعها من كل مكان ؟

ـ ماذا يفعل بها ؟

ـ أجل، ماذا يفعل بها ؟

-إننا نحملها في رحلاتنا، ويريها للفرنسيين، الذين لا يعرفون قيمتها لجهلهم. وحين نحملها معنا لمدة طويلة، ننساها عادة في مكان ما فتضيع، وأحيانا ترمى. ولا يحتفظ إلا بالحجارة التي تحتوي على نقوش، ولم يجمع منها حتى الآن عشرة أحجار.

كان هذا هو مصير الحجارة الأثرية تم جمعها واختارها بمشقة.

الفصـــل العاشر

ســور الغزلان

الرجوع إلى وادي الساحل - جبل تمغوت - المرابط سيدي تمقوت - لالا خديجة - المرابطة الكبيرة - بازا غادا - سرقة قبائلي - الشيخ والمطرح المسروق - الدخول المضحك إلى سور الغزلان - سور الغزلان مدينة مملة - القائد الذي نقل إليها - أوزيا - السدود الأوزيانسية.

كان في نيتنا أن نزور سور الغزلان، أوزيا القديمة، كما زرنا القسم الشمالي من بلاد القبائل قبل عودتنا إلى بجاية، ولذلك كان علينا أن نعود من سطيف من نفس الطريق، ونتجه إلى وادي الساحل عن طريق برج بوعريريج وعبر أبواب الح ديد. وبعد يومين من مغادرتنا لعاصمة الإقليم السطيفي القديم بلغنا ملتقى وادي مغرير بوادي الساحل، الذي كنا قد مررنا به قبل أسبوع.

وهذه المنطقة تسكنها قبيلة مشدالة. هنا تركنا إلى يسارنا القلعة العربية القديمة الواقعة فوق جبل على بعد مسافة، والتي كانت في زمن الإدريسي (القرن الثاني عشر) مزدهرة، فهو يتحدث عن مناخها الصحي وعن خصوبة منطقتها وعن ربيع القلعة الدائم. وتبدو عنها المسيلة، في نظره، باثنى عشر ميلا، وهي زابا الموريطانية القديمة، الواقعة جنوب برج بوعريريج. وكانت قرى مشادالة الأربع عشرة متناثرة فوق التلال وفي سفح جبل تمغوت، الذي يمثل أعلى قمة في سلسلة جبال الجرجرة. وقد ظلت هذه القمة الجبارة إلى يميننا طوال رحلة النهار بأكملها، وتعد مؤخرة لناظر طبيعة كئيبة. وكان جبل تمغوت القوي الجبار يمد رأسه العاري، وهو ابن أصيل للأطلس الشامخ، في فضاء السماء الجزائرية الزرقاء. ومع أننا كنا في شهر أكتوبر فإن الثلج لم يكن بعد قد توج رأسه في هذه السنة. وكانت قمته الجرداء تحدق في السماء في جراة وشموخ. وكانت النسور، التي

لا تراها عين ساكن السهل، ولكنها تعرفها إذ كثيرا ما خطفت شياها من قطعانه تحوم حول قمته. وكانت أشجار الأرز تنتصب فوق منحدراته، وتظلل الهضاب المخضرة أبدا، وأشجار الصنوبر تنشر تحتها روائحها الزكية، وبعض السكان من أهالي المنطقة يجمعون صمغها في قلنسوات برانسهم الرثة ويحملونه إلى منازلهم. فالأوهام تجعل منه دواء ناجعا.

وكانت قبة سيدي تمغوت، الذي سمي الجبل باسمه، تقوم فوق أعلى قمة فيه، وكان هذا المرابط الشهير قد اعتزل فوقها فرارا من آثام الناس، وعاش حياة ناسكة زاهدة. ولكن هل كان في إمكان أي ولي من الأولياء أن ينجو من نظرات مريديه ولو كان يقيم في مكان مقفر ؟ لم يلبث الولي أن أصبح مغنطيسا يجذب المريدين إلى عرشه الصخري. كان قد منعهم من المجيء إليه، ثم سمح لهم بزيارته مرة في الأسبوع للتبرك به، فصاروا يتسلقون الصخور إليه ويعمرون المنطقة الموحشة لبضع ساعات. وكانوا يحملون إليه ثمار بساتينهم ليمنحهم البركة. ذلك أن هذه المنطقة لم يكن ينبث بها شيء، يستطيع الإنسان أن يتخذه غذاء. فكان الولي سيدي تمغوت يقبل هداياهم ويشكرهم عليها. وليس ذلك لأنه في حاجة إليها، فقد كان في غنى عن الثمار الأرضية فحياته العجيبة تسمح له بأن يعيش دون تناول الطعام. ومع ذلك أخذ هدايا الناس ليعودهم على فعل الخير. فالكرم صفة من صفات النفس الجميلة لا بد من التعود عليها. ولهذا سمح لمريديه بزيارة مرة في الأسبوع وتقديم الهدايا له. غير أن الولي كان ينقصه شيء في وحدته، فزيارته، الجموع الغفيرة له لم تعد قادرة على نزع الفراغ الذي يحس به قبله. فماذا كان ينقص هذا الزاهد؟ إن إلهامه لم يعد كما كان سابقا. فعندما كان يقضي سحابة يومه كله في الصلاة، كان يحس بتعب دنيوي تماما. فهل من الضروري أن يحس ولي يمثل هذا التعب ؟

ومن أجل أن يتخلص سيدي تمغوت من هذا التعب والوهن، قرر أن يحج إلى مكة. أتراه فعل ذلك ليستعيد إلهامه عند أحجار الكعبة، التي حلم فوقها يعقوب حلمه السماوي ؟ لقد كان الولي ينفذ ما يعزم عليه. غير أنه فكر في مريديه قبل أن يسافر. ماذا سيحدث إذا قلل مريدوه أثناء غيابه من ممارسة أعمال الخير ومحاولة التعود عليها ؟ ألا يمكن عندئذ أن ينسوا الطريق إلى قمة جبل تمغوت ؟ وأية مصيبة ستحل بسيدي تمغوت حين يعود ولا يرى مريديه أسبوعيا ليمتع نفسه بحبهم للبذل والعطاء ؟ لقد فكر الولي في كل هذا. ولذلك أمر مريديه بالصعود إلى جبل تمغوت مرة في الأسبوع لأداء الصلاة عند قبته وتقديم الهدايا، باختصار أمرهم أن يقوموا بما كانوا يقومون به في حضوره، فامتثلوا لأوامره، وحافظوا على تنفيذها على الدوام، وأمروا أطفالهم وأحفادهم بإتباعها أيضا، وحافظت عليها الأجيال التالية كلها إلى يومنا هذا. ولا يزال الناس ينتظرون إلى اليوم عودته من الحج. وكم يعد حتى هذه اللحظة. وقد مرت قرون وقرون على سفره، ولكن مريديه لا يشكون في عودته في يوم من الأيام.

وكان جبل تمغوت زيادة على هذه الأسطورة مسرحا لأسطورة أخرى، هي أسطورة لالا خديجة، المرابطة الشهيرة التي اتخذت صمعتها في سفحه. وعاشت فيها بعيدة عن عالم أثيم، تجرأ فيه كثير من الخطاب على طلب يدها، ولكن لالا خديجة كانت تريد أن تتزوج مرابطا مثلها. وبعد انتظار عثرت على ولي في شخص درويش متسول. وكان هذا المختار شخصا قبيحا إلى درجة فظيعة، وكان إلى ذلك عجوزا محطما، لا يمكن أن ترضى به امرأة أخرى. غير أن لالا خديجة لم تكن تهتم بغير القداسة، لذلك اتخذته زوجا لها، وإذا بالعجوز القبيح يتحول إلى شاب وسيم! وقبيلة مشدالة لا تسمى جبل تموغوت إلا باسم هذه الولية، لالا خديجة،التي دفنت هنا بعد عمر طويل مع الدرويش المتسول المتحول!

وبلغنا في اليوم الثالث من مغادرتنا لسطيف منطقة آيت عيسى،التي توجد بها آثار المدينة الرومانية المجهولة بازاغادا Bazagada واسمها عند بطليموس أنازاغادا،الواقعة على الضفة اليسرى لوادي الساحل.

واسم بازاغادا،فيما يدعيه غيسينيوس، فينيقي الأصل، ومشتق من كلمة «باس غاد»، التي تعني «الناس السعداء». ومن الصعب ان نتصور أن الفينيقيين أو القرطاجنيين هم الذين انشاوا هذه المدينة، غير ان اللغة الفينيقية كانت منتشرة بين اهالي إفريقيا الشمالية إلى درجة أنهم كانوا يطلقون على المدن التي ينشئونها بانفسهم اسماء فينيقية.

وقضينا ليلتنا في قرية صغيرة من قرى آيت يحالة، تقع في سفح سلسلة جبال جرجرة، وتحيط بها أشجار الزيتون. وأتيح لي هنا أيضا ان أتعرف على جانب آخر من عادات السكان، وهو امر لم أسترح له. قد يكون سكان هذه المنطقة أتقياء، وقد تكون لهم أساطير جميلة جدا. إلا أن تقواهم هذه لا تحول بينهم وبين السرقة. وما هي الأشياء التي يسرقرنها ؟ أنهم يسرقون الأشياء التي لا تنفعهم إطلاقا. لقد سرق لي قبائلي في الطريق بين آيت عيسى وآيت يحالة مطرحي من فوق البغل، ولم يره احد طبعا. ولكن البغل كان قد دخل غابة صغيرة وعاد بدون مطرح، وكان من المستحيل أن يفقده بنفسه، فقد كان المطرح مربوطا بالحبال والسيور أكثر مما يجب. قال عبد الله عندما رأى البغل يعود فارغا :

ـ لا بد أن يكون قبائلي قد فعل ذلك.

فارتاب الإنجليزي في ذلك وسأله :

ـ ماذا يفعل القبائلي بمطرح ؟

فأجاب عبد الله سيده :

ـ طبعا! وماذا يفعل بذلك ؟ إن هؤلاء كثيرا ما تكون لهم هوايات غريبة. ألم يسرق أحدهم قبل مدة قصيرة الكيس الذي كانت به حجارتك ؟

قال الإنجليزي :

ـ حقا. ولكنه أعاده، لأني وضعت مكافأة لمن يعثر عليه.

قال الترجمان وهو يلتفت إلي :

ـ ثق أن عليك أن تفعل ما فعله سيدي، فتعد من يعيد إليك ملكك بإعطائه مكافأة،وسوف ترى.

فعملت بنصيحته. وعندما وصلنا آيت يحالة طلبت رؤية شيخ البلد وقلت له :

ـ لقد سرق قبائلي مطرحي.

ـ أتعتقد ذلك ؟

بهذا اعترض الشيخ في نفاق. لقد كان المسكين يتصور أني أحمله مسؤولية سرقة المطرح.

وقلت له :

ـ لا تسئ فهمي! إني لا أطلب منك أن تعيد إلي المطرح، مع أن لي الحق في ذلك لأنه سرق في منطقتك.

فانفرجت ملامح الشيخ العابسة وقال مبتسما :

ـ وما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك ؟

ـ أعلن في القرية أني سأكافئ من يعيد إلى مطرحي بفرنكين.

أتعتقد أن في ذلك كفاية ؟

أجاب شيخ البلد :

ـ كفاية ؟ اعتقد أنها مكافأة كبيرة. فالمطرح شيء تافه. لقد كنت دائما أتساءل ترى ماذا يفعل به المسيحيون ؟

قلت له :

-إنهم يصلون فوقه!

وما كان ليفهمني لو أني قلت له بأنهم ينامون فوقه. وبعد ساعتين أعاد إلي شيخ البلد المطرح.

وفي اليوم الثاني عبرنا مجرى وادي الساحل الأعلى، الذي كانت مياهه قليلة جدا. واتجهنا بعدئذ نحو الجنوب عبر منطقة بني عمور في طريقنا إلى سور الغزلان. وكانت المنطقة التي تحملنا فيها أحصنتنا بعيدة عن أن تقدم لنا منظرا يشبه مناظر سهل وادي الساحل المزدهر. كانت المنطقة صخرية حجرية لا رحمة فيها. فلم يكن هناك غير حشائش الدينار، التي يعلوها الصبار القصير، وبجانبه تقوم بعض الأشواك بأغصانها الخضراء التي يشوبها بياض، وأشجار الحيون بأوراقها اللزجة الملتمعة، ثم بعض الأشجار الأخرى التي تشبه النخيل والتي يعثر عليها المرء هنا وهناك.

وفي المساء بلغنا سور الغزلان، وتقع فوق هضبة رتيبة، تحيط بها رؤوس سلسلة الجبال المنحدرة عن جبل الذراع. وكان معظم سكانها في تلك الفترة من الجنود. وكان دخول قافلتنا الصغيرة إلى مدينة الكتيبة مثار اهتمام كبير. والواقع أنها كانت جديرة بأن تشد إليها أنظار الجنود الفضوليين الضجرين. وكان يتصدر مقدمتنا زنجي، وهو صديق لعبد الله، يرتدي لباسا مزركشا، وكان قد جاء من سور الغزلان ليستقبلنا، ويقود موكبنا المضحك.

واعتقد أن الزنجي الخبيث قد أعجب بالموكب البهلواني الذي كنا نمثله. وخلفه القبائليان المرتعدان اللذان كانا يقودان الأسد المريض، الذي كان زميلي في الرحلة قد اشتراه في برج بوعريريج. فقد كان المسكينان خائفين من ملك الحيوانات، وكانت التفاتة واحدة نحو أحد منهما تكفي لحمله على ترك السلسلة والنجاة بنفسه. غير أن مرض جلالته ووضعه البائس جعلاه يطأطئ رأسه في اغلب الأحيان.

وكان الإنجليزي نفسه يتبع الموكب، ولم يكن أقل إثارة للاهتمام من الزنجي ومن الأسد. فقد كان يرتدي الثياب التي تحدثت عنها سابقا، فظن بعض الجنود الفرنسيين لجهلهم وقلة معرفتهم أنها زي من أزياء انكلترا القديمة. وكان ترجمانه العربي يسير خلفه، وقد ارتدى هو الآخر لباسا مزركشا، ليتملق به سيدة ويطمح إلى رضاه، ولا شك أنه كان ينتظر أن يعتبره الناس باشا معزولا.

وفي وسع الإنسان أن يتصور الجمع الغفير من ذوي السراويل الحمراء، وأصحاب الثياب الرثة الوسخة الذين ساروا خلف موكبنا التنكري.

وكانت سور الغزلان قد أنشئت عام 1840 فوق آثار أوزيا Auzia الرومانية في موضع قلعة بناها الأتراك وسموها سور الغزلان، أي عين الغزلان! وكان عد سكانها عند مرورنا بها حوالي ألف نسمة من الأروبيين يضاف إلى ذلك عدد أكبر من جنود الحامية بحيث إن لكل ساكن أكثر من جندي لحمايته. وكان هناك سور مسنن يحيط بالمدينة، ولمدن الجزائر كلها تقريبا سور من هذا النوع، لأن طريقة الأهالي في خوض غمار الحرب، طوال المدة التي حاربوا فيها، أي حتى قبل سنوات قليلة، كانت ساذجة، إلى درجة أن سورا يعتبر بالنسبة لهؤلاء المحاصرين السيئين لا يمكن تسلقه تقريبا.

ولم يكن للمدينة في الواقع سوى شارع واحد يبلغ طوله حوالي ثلاثة آلاف قدم، توجد به الثكنة وعدد كبير من المنشآت العسكرية. ويشكل هذا الشارع الوحيد الطويل نوعا من الرتابة والسآمة لا حد لهما. ويصف الجيش الفرنسي مدينة سور الغزلان بأنها أكثر المقرات إملالا، وأعتقد أنها تحاول قدر الإمكان أن تفعل ما يجعلها جديرة بهذه السمعة. وأذكر بهذه المناسبة حديثا سمعته في مقهى فالنتان بالجزائر، ورد فيه اسم سور الغزلان بكثرة. قال العقيد لجاره الذي لم يكن أقل ضخامة منه :

- أتراك قد نقلت الآن ؟

فأجاب المخاطب :

- نقلت ؟ كان يجب أن أعرف شيئا عن ذلك.

- أجل. لقد نقلت. فقد أخبرني بذلك مساعد الحاكم. ولعلك ستتسلم اليوم الأمر بالالتحاق بكتيبتك الجديدة.

فصاح العقيد في غضب :

- هكذا إذن! بودي أن أعرف مأوى الكلاب الذي سأنقل إليه مرة أخرى.

- احذر! إنه مكان ممل.

- إذا كان الأصنام، فإني لن أذهب. وإني لأفضل أن أقدم استقالتي. فالأصنام تعتبر سور الغزلان أكثر المقرات إملالا.

- وماذا لو كانت سور الغزلان نفسها ؟

قال العقيد :

- سور الغزلان! سور الغزلان! هذا ممكن.

- إنه ليس ممكنا فحسب، وإنما هو حقيقي.

ففزع العقيد، واصفر وجهه للحظات. فسأله الآخر في سخرية :

- ماذا تقول الآن ؟.

فقال العقيد الذي سينقل إلى سور الغزلان :

- لا أقول شيئا، ولكني أعرف ماذا سأفعل!

وفي اليوم الثاني نشرت استقالته في «المبشر الجزائري».

وكان زميلي في الرحلة يحمل رسالة توصيه إلى ضابط سام في سور الغزلان، فذهبنا لزيارته. ولعل الضابط كان يعتقد أن سور الغزلان نفسها

ليست مملة بما فيه الكفاية، ولذلك أراد أن يضاعف كمية الملل، فأخذنا إلى الثكنة وطاف بنا فيها، وحدثنا عنها بصورة شيقة. وفررت من هذه المشاهدة المملة، وأسرعت إلى أوزيا لأمتع فكري بمشاهدة آثارها القديمة.

وتقع أوزيا حسب خريطة الطرق على مسافة 123 معلما من شرشال، وهذه المسافة تطابق 172 كم تفصل سور الغزلان عن شرشال. وأعتقد أن أوزيا هي كاسترا غالازيا Castra Galasia التي وردت في الخريطة البويتنغية، فالمسافة بين سطيف وبين كاسترا غالازيا تقدر بمقتضاها بـ 132 معلما. وهذا يوافق 180كم تقريبا، تفصل سطيف عن سور الغزلان. أما الطريق الذي ورد في خريطة الطرق، وهو الرابط بين سطيف وأوزيا، فيحمل رقم 174 معلما، إلا آن الخريطة تصف طريقا منحرفا يتجه نحو الجنوب ويتصل بزابا موريطانيا، التي تدعى اليوم المسيلة.

إذا نحن صدقنا يوريفوس (Yosephus Archeal 8,13) فإن الملك طيروس ايثوبال Tyrus Ithobal هو الذي أنشأ أوزيا. ويعتقد غيسيونيوس أن أوزيا يوزيفوس هي أوزين بطليموس، وهي ليست سوى أوزيا الرومانية، أومال الحالية، وسور الغزلان العربية. واسم أوزيا مشتق في نظر هذا العالم الأثري الكبير من كلمة «أوز» وتعني القوة، أي الحصن.

وتتمثل بقايا آثار أوزيا القديمة، التي شاهدتها في فسيفساء رومانية سليمة تعود أشكالها ورسومها إلى أفضل فترات الذوق الفني. وقد أراد زميلي في الرحلة أن يقتطع منها شيئا ليضيفها إلى مجموعة أحجاره، إلا أني، عندما شاهدت ذلك، لم أستطع أن أتمالك نفسي، فصحت به:

ـ أنت تدعي انك من عشاق الآثار القديمة، ومع ذلك تريد أن تحطم قطعة من أجمل بقاياها في هذه البلاد. أنت فندالي ولست عالما أثريا! تستطيع أن تفعل ذلك، ولكن كن على يقين بأني سأمضي في الحين إلى شيخ البلدية لأحدثه عن فنداليتك.

وفي النهاية تراجع الإنجليزي عن نيته الشريرة.

وكانت بقايا أوزيا القديمة ترجع مثل تلك الفسيفساء إلى أحسن فترات الذوق الفني،في حين أن آثار بقية المدن الجزائرية كلها تقريبا ترجع إلى فترة انهيار الدولة الرومانية. ومن السهل أن نفهم ذلك إذا كان صحيحا ما يدعيه بيربروجير، وهو محتمل إلى حد كبير، من أن أوزيا لم توجد إلا في الفترة التي بلغت فيها رومة أوج عظمتها، وأنه من المحتمل أن تكون قد حطمتها في القرن الثاني أو الثالث في أحسن الأحوال القبائل النوميدية الثائرة، ولم يعد بناؤها أبدا، لأن موقعها بدا لرومة المتدهورة معرضا لهجمات الأهالي وهي عاجزة عن حمايته. ومما يؤكد ما ذهب إليه بيربروجير أن أوزيا لم تذكر أبدا عندما قام كومس تيدوزيوس بحملته، وإنما ذكرت القلعة الأوزيانسية التي تقع على بعد ثلاثين كيلومترا في الشمال قرب عين بسام. ولم تذكر أوزيا كذلك في قائمة الأسقفيات، وهو أمر لا يمكن فهمه بالنسبة لمدينة كانت لها في القديم أهمية كبيرة، ولهذا لا بد من القول بأنها كانت قد هدمت.

ولا تحمل النقوش الثمانية عشر، التي عثر عليها في سور الغزلان، تاريخا يتجاوز سنة 240 بعد الميلاد، ولكن اغلب الألواح التي عثر عليها ها هنا تعود إلى عصر القيصر سيبتموس سيفروس Septimus Severus، الذي سميت هذه المدينة باسمه أيضا فكانت تدعى كولونيا سبتيميا أوغوستا Augsta,Colonia, Septimia ونرى من نقش محفوظ في متحف Verona أن أوزيا كان لها مع روسغونيا فرقة من الخيالة. والنقود التي عثر عليها هنا تعود كلها أيضا إلى عصر القياصرة السابقين. ولا بد أن أوزيا القديمة كانت لها أهمية كبيرة نسبيا، لأن اسمها خلع على إقليم الحدود كله، فسمي Limes Auzieusis وإذا كنا لا نعرف بالضبط متى هدمت هذه المدينة الرومانية، فإننا نعرف، من نقش اكتشف في «غرفة» عند أولاد سلامة، أن

أوزيا لم تكن في عصر قنسطنطين عاصمة إقليم الحدود، ولكن اسم الإقليم بقي بعد تهديم العاصمة. ولعل القلعة الأوزيانسية كانت منذ ذلك الحين تمثل عوضا عن أوزيا المكان الرئيسي في إقليم الحدود، الذي كان في عصر القياصرة المتأخرين يمثل دون شك نسبة ضئيلة.

الفصل الحادي عاشر

القبائل الرئيسية

طريق روماني عبر بلاد القبائل - لعب القبائليات - القلعة الأوزيانسية - المبيت عند الشرفاء - يقظة مزعجة - المناظر الجبلية - ذراع الميزان - أسطورة الغابة - تحالف قبائل زواوة - أصل كلمة «زواف» تقاليد زواوة المتنوعة.

كان قد بقي علينا في ذلك الحين أن ننفذ إلى جوف بلاد القبائل. فقد كانت الجبال الرئيسية حتى تلك اللحظة تفصلنا عن القبائل الرئيسية التي تقيم شمال جرجرة وجنوب دلس محصورة بين الجبال والبحر. غير أن الطريق من سور الغزلان إلى قلعة نابوليون في منطقة قبيلة بني راثن المحاربة قادنا عبر منازل القبائل التي كانت حتى فترة قصيرة تعادي الأروبيين.

سأل زميلي في الرحلة ضابط المكتب العربي، الذي اكترى لنا الأحصنة والبغال:

- هل هناك خطر يترصدنا في هذا الطريق ؟

فأجابه :

- ليس هناك خطر إطلاقا. أشكر خالقك على أنك لم تقم بهذه الرحلة قبل سنة.

فعاد الإنجليزي يسأل :

- هل كنا سنتعرض في ذلك الحين لخطر كبير ؟

- خطر ؟ ليست هذه هي الكلمة المناسبة، فالخطر يعبر عن شيء غير معروف. كان عليك عندئذ أن تكون على يقين من أنك ستسلم للقبائليات ليتمكن من « اللعب » بك.

- وهل كان هذا اللعب قاسيا ؟

-هل كان قاسيا ؟ اجل. يمكننا أن نصفه بالقسوة. لقد كان من عادتهن أن ينزعن أعضاء الأسير عضوا فعضوا حتى لا يبقى فيه ما ينزع.

وبهذه الأفكار عن «لعب القبائليات» بدأنا رحلتنا، وقادنا الطريق بجانب منحدرات سلسلة جبال جرجرة الغريبة، التي ينبع منها وادي يسر والوديان المجاورة له. وكان الطريق، الذي كنا نسير فيه، يأخذ نفس الاتجاه كذلك الطريق الرابط بين أوزيا ووادي يسر الأسفل الذي وصفه بطليموس. وبعد رحلة استغرقت نصف النهار بلغنا عين بسام، التي بني فيها الفرنسيون حصنا صغيرا، استمدوا اسمه من شكله فسموه «الحصن المسدس». وقد حملتنا بقايا الأبنية الرومانية، التي وجدناها هنا، وكذلك صحة المسافات التي ذكرها بطليموس، على الاعتقاد بأن هذا هو موضع القلعة الأوزيانسية. وهذا الرأي يذهب إليه أيضا العالم الأثري المعروف ماك آرثي.

كانت القلعة الأوزيانسية عاصمة لأقليم الحدود بعد سقوط مدينة أوزيا. ولم يرد لها ذكر في خريطة الطرق، مما يدل على أنها لم يكن لها شأن إلا بعد تهديم المدينة ويبدو لي أن القلعة الأوزيانسية هي أسقفية موريطانيا السطيفية التي تذكرها Notitio باسم كاستيلانوس ابيسكوباتوس Castellanus Episcopatus ويمكننا أن نفترض أن القلعة الأوزيانسية، التي كانت ذات أهمية باعتبارها عاصمة إقليم الحدود، تدعى ببساطة القلعة، ويدعى أسقفها القلعي Castellanus.

وفي المساء وصلنا إلى منطقة الشرفاء، وهم قبيلة تدعى، كما يفهم من اسمها، أن نسبها يعود إلى النبي (عليه السلام)، ولعلها القبيلة العاشرة من قبائل الشرفاء التي التقيت بها أثناء رحلاتي في الجزائر. ويدعى أعضاء هذه القبائل جميعا أنهم أحفاد الرسول.

وقضينا الليل عند الشرفاء في بيت الضيافة الخالي، من حسن حظنا أنه كان خاليا بالفعل. وقلت لزميلي في الرحلة :

ـ نستطيع أن نهنئ بعضنا بعضا على فراغ بيت الضيافة. فهذا يحدث لنا لأول مرة. ومن حقنا أن نأمل في قضاء ليلة هادئة.

وتدخل عبد الله قائلا :

ـ لا ينبغي أن نهنئ بعضنا بعضا قبل أن يحين وقت ذلك. فللقبائل تقاليد عجيبة. فكثيرا ما يحلو لهم أن يصلوا في وقت متأخر من الليل إلى مكان ما، لا ينتظر أحد وصول مسافر إليه في مثل ذلك الوقت المتأخر.

وقد برهن الواقع على صحة ما قاله الترجمان. كنت قد نمت بهدوء فوق المطرح الذي سرق مني وأعيد إلي في منطقة آيت يلولة. وكان الثوار النوميديون. ونحن نعرف أربعة من أساقفة سطيف. فقد حضر منا مجال يستطيع أن يتحرك فيه ويتقلب وينهض، باختصار يستطيع أن يفعل كل ما لا يستطيع فعله عادة في بيت الضيافة بسبب الازدحام. وبعد ساعة أيقظني من نومي صوت، خيل إلى أنه هرير كلب كبير، ولكنه كان شخير رجل نائم عن يميني، فمددت يدي وإذا بها تمسك برنس قبائلي آخر نائم. وأردت أن أتمدد وإذا برأسي يرتطم برجل ثالث. وعندما نهضت في تلك اللحظة لاحظت عند رجلي ثلاثة أو أربعة رجال. كانت أرض بين الضيافة كأنها مبلطة بالرجال! فحيثما اتجه المرء اصطدم بواحد منهم. ومنذ ذلك الوقت أصبح النوم مستحيلا. فقد خرج من برانس رفاقنا في الغرفة جيش من الحشرات، وراح يجرب مذاق دم «الرومي»! وانتظرت الصباح دون أن يغمض لي جفن.

ورغم أنى لم انم ساعتين، فإنني لم أشعر برغبة في النوم لحظة واحدة لا في الصباح ولا خلال اليوم كله، وتلك ظاهرة نسبتها طبيا إلى قوة لسعات الحشرات المنبهة.

وعندما جاء الصباح بدأنا رحلتنا اليومية بعبور وادي يسر، الذي كانت لي به معرفة سابقة، إذ قطعت قسمه الأسفل عندما كنت في طريقي من الجزائر إلى دلس. وكان طريقنا يمر في البداية عبر أراض مقفرة، لم تلبث أن بدأت تتحول إلى منطقة جبلية، وأخيرا وجدنا أنفسنا وسط سلسلة جبال الأطلس المنحدرة. وأخذنا عندئذ نتوغل ونتوغل في شعاب جبال الجرجرة التي انفتحت أمامنا. وكانت هذه السلسلة ذات مناظر متنوعة. فهناك تتراءى قمم تكاد تكون مستديرة، تتوج هاماتها أشجار الصنوبر، لأن منحدراتها كانت جرداء. وهنا تل طويل منفرد، ليس به نبتة واحدة عالية. وفي مقابل ذلك كانت أرضه مغطاة بحشائش الدينار، وفوقها بحر من الأحراش والزهرات الخيمية والقصب الرومي وأشجار رقيب الشمس وغير ذلك من النباتات الجميلة الذكية الرائحة.

ولم نلبث أن وصلنا إلى صف من الصخور الوعرة، تتخللها عروق حديدية، وتخلع على الشعاب ظلالا ليلية بأطرافها القاتمة المصطفة. وبعد حين قابلنا جدول رقراق ببرودة غير عادية في الجزائر، ترتفع على ضفتيه نباتات كف الصباغ والقصب الرومي.

وصلنا في المساء إلى ذراع الميزان، وهي قرية صغيرة أنشأها المعمرون قبل فترة قصيرة، ولكنها مهمة بصفتها مركزا عسكريا من جهة ومقرا رئيسيا للمكتب العربي. ولذلك لم يكن من السهل عليها دائما القيام بمهمتها، التي تتمثل في المحافظة على النظام بين القبائلي التي تم إخضاعها حديثا. وقد استقر في البيوت الخشبية التي أقامتها الحكومة حوالي خمسين من الأروبيين، وكان أغلبهم من التجار الصغار، يعيشون من بيع بضائعهم لجنود الفرقة المقيمين فيها.

وتقع ذراع الميزان في منطقة جميلة وسط الجبال المنحدرة عن جبل جرجرة. وفي شمال سلسلة الجبال الرئيسية قلعة نابوليون، التي تعتبرأقرب

مكان أوروبي إلى جرجرة Mons ferratus القديم. وتمتد في شمال ذراع الميزان غابة بومدين،التي تملأ وحدتها أشجار البلوط والصنوبر البحري بفروعها الكبيرة.

وغابة بومدين هي محور الأسطورة التالية : كانت توجد في مكان هذه الغابة الخالية من السكان أرض مزدهرة، تتوسطها قرية غنية، غير أن عمدة هذه القرية كان رقيق الدين شريرا، جعله ثراؤه متكبرا متجبرا، إلى درجة أن غروره دفعه إلى أن يعتبر نفسه كائنا من نوع أرقى، وإلى أن يمتنع عن إجلال الله الذي يجله كل مسلم. وحين طلب منه درويش المنطقة المتسول المرابط سيدي علي بوناب أن يردد دعواته، راح يسب الله عوض أن يسبح بحمده، وزاد على ذلك بأن طلب من الله أن يدمره إن كانت له قدرة عليه. فدعا عليه المرابط التقى ولعنه ولعن أسرته والمكان الذي يسكن فيه، فكانت نتيجة دعوته أن انقرض نسله وتحولت المنطقة إلى مكان مقفر. ومنذ ذلك الحين تحولت الأرض المزدهرة إلى غابة رهيبة موحشة، يسكنها البوم والجن.

وتتمثل أهمية ذراع الميزان، كما ذكرت، في كونها مركزا رئيسيا للمكتب العربي. وتقع تحت أمرته القبيلتان المشهورتان بني سكدة وزواوة، ولعل هذه الأخيرة من أهم القبائل المتحالفة، وتتمثل أهميتها في ضخامة عدد أفرادها، الذي يقدر بمائة ألف نسمة. وبما أن المناطق التي تسكنها هذه القبائل الكثيرة التي يتكون منها الحلف، جبلية إلى حد كبير، وبما أن توزيعها على مساحة كبيرة يجعل من الصعب الاتصال بين أجزائها المفردة، فقد تقسمت زواوة إلى ثلاثة مجموعات، زواوة الشرقية، وآيت ايرائن. وكل مجموعة من هذه المجموعات تكون نظاما داخل نظام زواوة الأكبر.

ونظام زواوة نظام جمهوري. فليس هناك قبيلة تعترف بقبيلة أخرى غير القبيلة التي اختارتها بنفسها. وكانت القبائل المفردة ترسل في بعض المناسبات النادرة ممثليها للمشاركة في اجتماع سياسي لتنظيم الشؤون العامة إن كان ثمة ما يدعو إلى ذلك، وقلما كان يحدث شيء كهذا، لأن لكل قبيلة مجالا سياسيا واسعا، ولم يكن من المفروض على أية قبيلة أن تخضع لأغلبية القبائل الأخرى. فإذا هي لم ترض عن قضية سياسية ما، فإنها تمتنع عن المشاركة فيها بكل بساطة دون أن تفقد حقها في البقاء ضمن مجموعتها. وهكذا نرى أن هذا النظام لم يكن الأخذ بمبدء الأغلبية، الذي تلتزم نفسها به النظم الحديثة. وكانت زواوة حتى سنة 1857 تكون واحدة من أقوى المجموعات السياسية التي لعبت دورها في جميع الأحداث السياسية. ولم يكن «ملك كوكو» الذي تحدثت عن تحالفه مع اسبانيا سابقا، سوى شيخ قبيلة من هذه القبائل.

وكان الفرنسيون قد تعرفوا على شجاعة زواوة وصمود أفرادها، الذين شاركوا في معركة أسطى والي، في وقت مبكر، ولذلك يجدوا، عندما ظهر لهم أن ينشئوا فرقة على غرار الفرق الأهلية، إسما يطلقونه عليها غير إسم قبيلة زواوة المحاربة، غير أن هذا الإسم بدل وحرف فنتجت عنه كلمة «زواف» المعروفة.

ولا تتكون قبيلة زواوة من عناصر متجانسة مثل أغلب المجموعات القبلية الأخرى، وإنما تتكون من خليط من المغامرين على غرار ما كان عليه الأمر في رومة القديمة. ومن الصعب طبعا التأكد من ذلك، إلا أن هناك دلائل كثيرة تؤيد هذه النظرية. من ذلك أن قبائل زواوة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا من حيث تركيب الجسم والملامح مما يدل على اختلاف أصلها. فمن الغريب أن هناك فروقا كبيرة بين نماذج الوجوه والملامح لدى أفرادها، فتجد انف العربي الطويل الأقنى بملامحه الجميلة المتسقة، وتجد

بجانبه وجه البربري الواسع المستدير، كما تجد انف الزنجي الأفطس، وتجد بالتالي العيون الزرق والشعور الشقر الخاصة بشعوب الشمال، ولعل هذه العلامات دليل على أصلها الفندالي. وبالإضافة إلى ذلك فهناك اختلاف كبير بين هذه القبائل في اللهجات والعادات والتقاليد. ويتمثل اختلاف العادات بصورة خاصة في طريقة السلام، التي تكون عادة واحدة عند القبائل التي تعود إلى أصل واحد. فأفراد آيت ايترار يحيون بعضهم بعضا بتقبيل الوجه، بينما تكتفي آيت ايراثن بتقبيل الأكتاف، وزواوة الغربية بتقبيل الجبين.

وهناك خاصية أخرى، قد تدل أيضا على اختلاف الأصل، هي الطريقة المختلفة في إطلاق اللحية. فأبناء آيت أوغلي يكتفون بخط رقيق يؤطر وجوههم، أما آيت شبلة فلا يحلقون غير ما فوق الشفة العليا، بينما يترك آيت ايراثن اللحية تنمو بكاملها. ومما يجلب الانتباه أيضا الاختلاف في طريقة حلق شعر الرأس. فثمة من يحلقه كله على الطريقة العربية، وثمة من يترك خصلة فوق قمة الرأس، يحافظ على أن تضل قصيرة دائما، بينما يتركها غيره تطول ويضفرها.

وقد أتيح لنا أن نتأمل عددا من رجال زواوة في ذراع الميزان. فقد كانوا يتجولون بيت أصحاب السراويل الحمراء كما لو أنهم كانوا أصدقاءهم أبدا، ومع ذلك لم يكن قد مضى بعد عام على معركتهم الأخيرة. لقد غلبوا، ولم تغلبهم غير القوة المتفوقة، إذا كان الفرنسيون يفوقونهم عددا. ولم تضف حملة 1857 شيئا إلى «مجد الأمة العظمى»، لأن الانتصارات، التي حققوها هناك، كانت انتصارات وقف فيها عشرة ضد واحد. ومما يثير الدهشة أن هذه القبائل تجرأت على مجابهة قوة من هذا النوع.

الفصل الثاني عاشر

قلعة نابوليون وجرجرة

من ذراع الميزان إلى قلعة نابوليون – منطقة جبلية – مدينة حديثة محصنة – إنشاء قلعة نابوليون – المعتقل – منظر جرجرة – وقفة عقيمة – موت الأسد الصغير – إقامة تمثال قديم له – أعمال أثرية مهملة – العودة إلى بجاية.

قادتنا من ذراع الميزان رحلة يومية أخرى عبر طرق صخرية وعرة، تقع في منطقة جبلية، نحو قلعة نابوليون التي بنيت وسط قبيلة آيت ايراثن أو بني راثن المحاربة. وتحتوي هذه المنطقة على مناظر طبيعية رائعة، يعتقد المرء لدى مشاهدتها أنها نقل فجأة إلى سويسرا. ومنها ينبع وادي سباو والوديان العديدة المجاورة له، وكانت مياهها الفضية تنحدر من جبل تمغوت وقمم جبال جرجرة الأخرى، وتكون مهاوى كثيرة، غالبا ما تتخذ خطوطا متوازية، ثم تتقاطع فجأة عند نهاياتها. وكان علينا أن نهبط هذه المهاوي لنتسلقها من جديد في الضفاف الأخرى من وديانها الفضية، وفي أعلاها نلتقي ثانية بواد آخر. وهكذا قطعنا مهاوي منطقة سباو المتقاطعة كلها، وهي مهاو خضراء مزدهرة. فما من مكان في الجزائر، لا تعوزه المياه، إلا تنتشر فيه الخضرة في الجبال والشعاب. وكانت في أعماق واد من هذه الوديان بحيرة، تختفي تحت أوراق أشجار البلوط والدردار التي تحيط بها، وقد انتصب فوقهاجيش من النباتات المائية المزهرة، كالنيلوفر الأبيض، والخبق، الذي مد أوراقه الخضراء إلى أعماق البحيرة، والخنشار، وسندان العفص وغير ذلك من النباتات الجميلة.

وتقع قلعة نابوليون بين شعبتين من هذا النوع، وقد نشأت هذه القلعة، التي لم يمر على وضع حجرها الأساسي أكثر من ستة أشهر، بسرعة وتم بناء القسم الأكبر منها، فحققت الأعمال السريعة شيئا جبارا بالفعل. وكان

هناك ما يزيد عن ألفي جندي يهتمون بإقامة السور الذي ستكون مساحة محيطة فيما يقال ستة آلاف قدم. وكانت الأعمال في الأبواب الأربعة لهذه المدينة الحصينة قد انتهت تقريبا. ودخلنا إليها من باب الجزائر، فرأينا على يميننا أربع بنايات كبيرة مخصصة للشؤون العسكرية، أقيمت بطريقة جميلة. وقامت فوق أنقاض قرية آيت إتمايرن ثكنة كبيرة. وكان المارشال راندو قد استولى على هذه القرية، وهي قرى آيت ايراثن في شهر ماي 1857 بعد مقاومة شديدة من طرف سكانها. وما أن استولى عليها حتى استدعى المهندسين ليسألهم عما إذا كان هذا الموقع صالحا لإقامة قلعة فوقه. واتفق المهندسون على صلاحيته ووصفوا مشروعا لهذا الحصن، أرسل إلى الملك، ورجع بعد حين مع مرافقة الملك عليه. وبإقامة هذا الحصن قدم الفرنسيون شهادة ممتازة على شجاعة قبائل هذه المنطقة، ذلك أنهم لم يجدوا في أية بقعة من بقاع الجزائر ما يدعو إلى إقامة حصن من هذا النوع، يتسع لأكثر من عشرة آلاف رجل، ولا يمكن أن يكون غير مدينة للجنود.

إن سكان الجبال يبرهنون على شدة صمودهم في الدفاع عن وطنهم، فهم دائما أكبر عائق يقف في طريق الفاتحين. فقد عجز الهابسبورغيون عن إخضاع السويسريين الذين تحرروا من قبضتهم. وكان على روسيا أن تحارب الشراكسة في القوفاز لفترة طويلة. أما شراكسة فرنسا فهم القبائل. فكما أنشأت النمسا في جبال السويسريين معتقلا، وأنشأت روسيا سجنا في القوقاز، كذلك أنشأت فرنسا معتقلها في قلعة نابوليون. وهذا المعتقل الجديد يحدق في وجه جرجرة ويقول له : «لقد تغلبت عليك، يا بلاد القبائل». ولكن الجواب يأتي من جدران القمة الصخرية المرمدة، ويصبح صوت جن الجبل في الطغاة :«أبهذه الأسوار تريدون قهرنا ؟».

وقضينا الليل في بيت خاو، لعله الأخير الذي نجا من التهديم. وقمت بجولة حول أسوار القلعة الجديدة الفاخرة، فأتيح لي أن أتمتع بأمسية جميلة، فقد كنت أرسل البصر إلى جرجرة وإلى وديانه الكثيرة، التي تسير لمدة طويلة في خط متواز، ثم تتقابل، وكأنها تمتد نحوى. فهناك جرجرة، الذي أخاف الرومان قديما، وأرعب العرب فيما بعد، وهناك تحدق في السماء قممه العديدة، التي يطلق عليها القبائل كلمة تيزي. وكانت قمة جابوت تشمخ بين غابات وادي آيت إسماعيل. أما تيزي آيت حدو فكان قمة من الصخور، يضيق وسطها، ثم يأخذ في الاتساع. وكان تيزي أغرن يحدق برأسه الصخري العاري الأجرد في الفضاء، وهو يشبه خنجر مارد يتحدى العلى. وتيزي عزولة أو جبل الخيبة له ما يبرر اسمه، فهو يبدو سهلا، ولكنه سرعان ما يخيب الأمان فيه، فلا يكاد المرء يقترب منه حتى يكتشف أنه يستحيل تسلقه. وتيزي تيغرمورين يتحدى غابات الأرز. وتيزي كويست يلتمع وسط مروجه العالية التي يتغذى منها الماعز ويرعى حشائشه الذكية الرائحة. وفوقها كلها يتربع جبل تمغوت، وهو أعلى جبل في بلاد القبائل، ويطلق عليه اسم جرجرة. وقد حيت فيه صديقا قديما، فقد سرت في سفوحه في وادي آيت مشدالة يوما كاملا. وكان منظر جبل ثنية أو تيزي تكرات جميلا، إذا كان جانباه أجردين، بينما كانت قمته خصيبة خضراء.

وهناك يقيم الأهلي بيته في الصيف، ويعيش من حليب الماعز وعسل نحل الجبال. ويقدم جبل تيزي سحرية للرحالة طريقا صخريا وسط نباتات الديس التي تحيط به من كل جانب، وهو الطريق الوحيد الرابط بين وادي سباو ووادي الساحل، بين الشمال والجنوب.

وكان جبل تيزي أكفادو يرفع رأسه فوق الجبال الصخرية المجاورة، وتغطيه نباتات كثيرة، وملامحه ترتسم فوق الوديان وكأنها تربط بين

الأرض والسماءوقد بدا لي ظهره صالحا لأن يكون طريقا يربط بين جانبي جبل جرجرة

كانت هذه الجبال كلها جاثمة أمام بصري، وهي ملوك الجبال الإفريقية الجبارة، بعضها عار، وبعضها الآخر مظلل، بعضها مستدير القمة، وبعضها الآخر مسنن، وكلها تلتمع في ضياء المساءكانت تتوج كالأعمدة الذهبية في منطقة لا تقل جمالا عن أجمل مناطق الألب الأروبية، والشمس الغاربة تلقى أشعتها المعوجة فوق الشعاب الممتدة عند سفوح جرجرة، وكانت سحب الدخان تتصاعد من منازل الأهالي، وبحر من أشجار الزيتون يهتز بين أصابع رياح المساء فوق تلال المناطق المجاورة. وكان الرعاة يهبطون، وهم متدثرون ببرانسهم، من المزوج التي تشبه مراعي الألب، وخلفهم قطعانهم التي يحرسها الكلب العربي الشبيه بابن آوى. وبين الحين والآخر يرتفع من أدغال الغابات السوداء، التي تعلو رؤوس الجبال المجاورة، صوت رهيب لحيوان مفترس، صوت أين آوى الرهيب، أو صوت الضبع المتقطع، بل لعله زئير ملك الحيوانات ينطلق من مكان بعيد. وبعد أن تمتعت عيناي بمناظر هذه المنطقة الجميلة لفترة طويلة، وكنت أعود بها دائما إلى كتل الصخور التي تبدو وكأن شيطانا شريرا يدفعها نحو الفضاء، فاتضح لي عندئذ أن هذه القطعة من المدينة، التي أنشأت هنا، تعد نشازا في هذه المنطقة الجميلة البسيطة.

قال لي زميلي في الرحلة، الذي لم أكن قد لاحظت انه قريب مني قال بصوت مبتذل :

- ما الذي يشد بصرك إلى هذه الجبال المملة ؟

وصاح عبد الله، وكان قد جرى خلف سيدة فجأة :

- لقد حدثت كارثة كبرى.

فسأله من غير اكتراث :

- ماذا حدث ؟

فجاء الجواب

- لقد مات الشبل!

وقد حدث ذلك فعلا. وعندما رجعنا إلى قلعة نابوليون وجدناه ميتا في البيت الذي اتخذناه سكنالنا. كان قد انتهى بهدوء. وكان من السهل معرفة سبب موته، إذ أن حارسيه كان قد خرجا لمدة قصيرة، فانتهز الشبل هذه الفرصة وتناول طعاما، لعله كان لذيذا، ولكنه لم يكن مما يهضم على أية حال. ولم يكن هذا الطعام سوى علبة من الكبريت. وهو طعام لا يمكن أن يتحمله أبدا مهما كبر حجمه. وبعد أن دفناه أخذ الأنجليزي أكبر صفيحة من الحجارة التي جمعها وكتب فوقها حروفا لاتينية، كانت تشبه الحروف اللاتينية الحقيقة القديمة، واتخذت الصورة التالي : D.M.S

H.M.L.E

O.N.U.M

P

ولعل أثريا ما اكتشف هذا النقش فيما بعد، واعتبره لبراءة قلبه نقشا حقيقيا. فلم يكن هذا أول خطأ من نوعه، ارتكبه الأثريون الفرنسيون في الجزائر. ولكي أوفر على هذا العالم مشقة البحث عن معناه، أريد أن أشرحه له هنا : أنه يقرأ كما يلي :

Dominus Marcus Smith Hoc Monumentum Leoni Numidico Posvit

ويعني : أقام السيد ماركوس سميث هذا التمثال للأسد النوميدي.

وإن المرء لا يعجب من ذكاء هذا المزور، الذي قلد D.M.S وهي Diis Manibus sacrum (معبد آلهة الأرواح)التي كتبت فوق جميع شواهد القبور الرومانية السابقة للعصر المسيحي. أليس في إمكان المرء أن يتصور أنها تعني السيد (دومنوس) ماركوس سميث ؟!

وفي قلعة نابوليون انفصلت عن الإنجليزي، الذي عاد إلى الجزائر، بينما رجعت أنا في اليوم التالي إلى بجاية.

وخلال هذه الرحلة، التي استغرقت يومين، شاءت الصدف أن يرافقني فيها زميل غريب، وهو بارون فرنسي، جاء إلى الجزائر لإنشاء مستعمرة فيها، ولكنه لم يكن يعرف الكثير عن الفلاحة، بل أعتقد أنه لم يكن يعرف الفرق بين القمح والشعير! كان يتصور أن المعمرين يستطيعون أن يعيشوا في الجزائر بطريقة مماثلة للطريقة التي يعيش بها ستيلرز Settlers وستلواثر Squatters في صحري أمريكا الشمالية البعيدة، أي من الصيد على الأكثر.

كان بصدد الذهاب إلى مكان ما في بلاد القائل ليستقر فيه، ويرسل في طلب ما يراه من المتشردين، كان قد جمعهم من الجزائر ومن فرنسا لتحقيق مشاريعه الاستعمارية. وكان على هذه الحثالة كلها أن تعيش من الصيد! هذا ما كان يفكر فيه المعمر الكبير! وكان هذا ممكنا لو أنه لم يكن يفهم من «الحياة» غير «الأكل». ولكن المعمرين الفرنسيين كانت لهم احتياجات أخرى، إذ كانوا يحبون أن يشربوا الخمر والمشروبات الكحولية، وان يدخنوا أو يناموا في الأسرة، وأن يكون لهم أثاث في بيوتهم، وهذا كله ما لا يمكن الحصول عليه إلا بالمال، والصيد في الجزائر يدر مالا. وكان لا بد لكل معمر من هؤلاء من قبائلية يتزوجها عند وصوله. وهذا المشروع يدل على تسامح كبير من جانب الفرنسيين الذين يحتقرون المواطنين عادة إلى حد كبير. ولكن م يعيش هؤلاء النسوة المسكينات يا ترى؟ امن الصيد؟!

وقبل أن نصل إلى بجاية بساعات انفصل عني هذا المسعد للبشر. ورأيته فيما بعد مرة أخرى في الجزائر. كان قد أصيب بخيبة أمل، وخسر ثروته، وصار يلعن الأوهام، وبصورة خاصة المشاريع الاستعمارية كلها.

الفصل الأول

رحلة بحرية من بجاية إلى سكيكدة

نوميديا القديمة انعدام الراحة في السفن الحكومية قسوة الطاقم الرسمي- أودون بطليموس-جيجل-ايتجيلجيليس كولونيا-احتلالها من طرف البارون بوفور سنة 1664-زلزال سنة 1856 -القل-كلوبس ماغنوس-الرسو في أسطورة-البحارة الفرنسيون يلقون بكيس في البحر.

لا شك أن ولاية قسنطينة هي ذلك القسم من الجزائر، الذي يهم عاشق الآثار القديمة إلى حد كبير. ذلك أن الرومان لم يتركوا في أية ولاية من ولايات الجزائر الفرنسية الراهنة أثرا أعمق من الأثر الذي تركوه في نوميديا القديمة. وفي استطاعتنا أن نفترض أن مقاطعات موريطانيا الثلاث كانت عبارة عن خط ساحلي ضيق نسبيا أصبح رومانيا، وهذا في الوقت التي ظلت فيه القبائل البربرية التي تسكن داخل البلاد بعيدة عن الحضارة الرومانية. فنحن لا نجد في مناطق هذه المقاطعات الثلاث البعيدة عن الساحل إلا آثار قليلة جدا، بينما نجد على العكس من ذلك آثار المحطات الرومانية في نوميديا القديمة تمتد إلى أعماق البلاد.

فنحن نجد هنا العاصمة قسنطينة التي تعتبر بعيدة عن الساحل نسبيا، ونرى هنا حصنا عظيما، هو حصن تبسة، الذي يبعد عن ساحل البحر الأبيض المتوسط بمراحل. ونلتقي هنا كذلك بآثار مدينة الفرقة الواسعة، وهي مدينة لامبيزا الواقعة فوق هضبة على توم الصحراء الشاسعة. إن نوميديا، التي أخضعها الرومان قبل إخضاع الموريطانيات الثلاث، لم تضع عراقيل كثيرة في طريق الحضارة. فهل يعود ذلك يا ترى إلى احتلالها المبكر ؟ من الصعب أن يكون هذا صحيحا. فالشعب النوميدي (وهو يعني

بمعناه الضيق الميسيليين فقط، لأن الميسيليين، وإن كانوا في القديم يسمون النوميديين، إلا أنهم نسبوا فيما بعد إلى موريطانيا القيصرية) كان يمتاز عن الشعب الموريطاني بالذكاء والفطنة. ولا يزال أهالي ولاية قسنطينة يعتبرون إلى اليوم أكثر تقلا للمدينة من أهالي الولايات الأخرى.

لقد انتهزت فرصة توقف الباخرة الحكومية في بجاية، فركبتها لأسافر بها إلى مدينة سكيكدة في رحلة بحرية. وكان الجو مناسبا فسرنا على امتداد الساحل، فأتيح لي أن أتأمل من الباخرة ساحل نوميديا القديمة بوضوح إلى حد ما.

والبواخر الحكومية ليست مريحة، فالمسافر يدفع إلى الدرجة الثانية، لأن الدرجة الأولى مخصصة للضباط. ولو كانت هناك سفينة تجارية، تقوم بهذه الرحلة، لما سافر أحد على متن البواخر الحكومية، وهذا شيء أكيد، لأن المسافر في البواخر الرسمية يعامل معامل سيئة إلى حد كبير. فالضباط يتبخترون هنا وهناك، وهم فخورون بامتلاكهم للدرجة الأولى، وينظرون إلى المدنيين نظرة احتقار. ثم إن البحارة الفرنسيين أكثر تكبرا وصلفا من بقية الضباط. ولكن السائح يتغاضى عن هذا الاحتقار الصامت. أما الذي يؤلمه حقا فهو أنه لا يستطيع حتى الصعود إلى الدرجة الأولى ليستريح قليلا من روائح الفحم والبحارين الكريهة التي تسيطر على الدرجة الثانية.

كان ضابط الباخرة يتربع فوق الدرجة الأولى، وقد جلس حوله جنوده الوقحاء. وكان هؤلاء على الخصوص يظهرون احتقارهم الصامت للسائح، ولكنه كما قلت كان يتغاضى عن ذلك، ويستحمله طلما شعر بالراحة. ولكن، الويل له إذا داهمه «الشر المضحك» «دوار البحر»! إن عليه عندئذ أن يظهر ألمه فوق ظهر الباخرة أمام أنظار الضباط والبحارين الساخرة، حتى يضحكوا من تشنجات عضلات وجهه من أثر «الشر المضحك». ولكم كان يود أن يبتعد عن النظارة، لأن المشهد الذي كان يمثله كان





انسب لسرير من أسرة السفينة. ولكن هل كان ذلك ممكنا في سرير من الأسرة ؟ كلا، فالحكومة تمنع منعا باتا أن يقدم لمسافري الدرجة الثانية، أي لجميع المدينين، أي شيء من الأشياء الضرورية. فالضباط وحدهم هم الذين يتمتعون بحق امتلاك إناء في مقصوراتهم، يصبح ضروريا عندما يحل بهم دوار البحر، الذي يستغربه الشاهد السليم! يجب أن يفخر المرء، إن كان فرنسيا، بأن له حكومة أبوية، فكرت في تعويد مواطنيها على الخشونة حتى في بواخرها!

وفي خلال الساعتين الأوليين عبرنا خليج بجاية الرائع، الذي تصب فيه غرب المدينة ثلاثة وديان صافية. وكانت حجارة ضفافها الصغيرة تشكل خطا رمليا ملتمعا في المنطقة الخضراء. وكان الوادي الأوسط منها هو وادي المنصورة، المسمى سيزاريس Sisaris عند بطليموس. وعليه كانت تقع في العصور الوسطى المدينة الشهيرة المنصورة، ولا شك أنها سميت باسم يعقوب المنصور، بأني المدن في أفريقا. ومن المحتمل أن تكون هذه المدينة العربية المحطمة الآن قد أخذت مكان موسلوبيوم Muslubium القديمة، التي ذكرت في الخريطة البويتنغية باسم Horreta (مخزن القمح). وتقدر خريطة الطرق المسافة بين صالداي (بجاية) وبين موسلوبيوم بـ 17 معلما، بينما تقدرها الخريطة البويتنغية بـ 18 معلما. وتقديرات الجغرافيين هذين تناسب تماما المسافة بين عنابة وبجاية.

والمحطة التالية في اتجاه موسلوبيوم تتمثل في خوبا Ghoba حسب اللوحة وكوبا حسب خريطة الطرق، وكلاهما تقدر بعدها عن موسلوبيوم بـ 28 معلما. ويذكر بطليموس مكانا يدعى خوباى Ghobae وتقع في رأيه شرقي بجاية على بعد 40 درجة.

أما ثالث الوديان المذكورة فهو وادي جم الذي يقع في الغرب ويصب في خليج صغير، من المؤكد أن سفن الجنوبيين والبسافيين كانت تتردد عليه كثيرا في العصور الوسطى.

وكانت المحطة الفينيقية يارسث قع في الخليج ، واسمها مشتق من كلمة يارساث، التي تعني ضفة الأرض.

ومما لا شك فيه أن ذلك القسم من الساحل، الذي يحد خليج وادي جم، هو زياما Ziama القديمة، التي كانت تقع فيها مدينة بالنيا Balnea Municipium ولعل وادي جم هو أودون audon المذكور عند بطليموس. ويشير الجغرافي الاسكندري على أن المسافة بين بجاية وأودون هي 10,50 درجة من خط الطوال، في حين أنها تقدر في الواقع بـ 40 درجة، ويقتضى الأمر هنا أن نختزل تقديرات بطليموس الجغرافية إلى النصف فيما يخص الجزائر، وبذلك نصل إلى الحقيقة، إلا أن الحقيقة هنا تكمن دون هذا النصف بـ 15 درجة.

وودعنا أجمل الخلجان ومناظره البديعة، وأتيح لنا بعد ذلك أن نحي رأس كافلو، الذي يسميه الإدريسي رأس مارتين، وهو سلسلة الجبال المنخفضة، أودون عند بطليموس، وكان يبدو بصخوره القائمة شبيها بسفينة شيطانية على وشك أن ينغمس في أمواج البحر التي يلفها الضباب البنفسجي. وتنتصب قربه سبع أو ثماني جزر صغارا منطلقة من المياه المالحة، ولم تكن بينها سوى جزيرة واحدة خضراء ذات اتساع جدير بالاهتمام. أما الجزر الصغيرة الأخرى فكانت جزرا صخرية جرداء، تحيط بالجزيرة الكبرى، وتشبه كتاكيت عارية من الشعر، تجمعت حول الدجاجة الأم.

وهذه الجزر يطلق عليها الأروبيون اسم جزر كافلو، بينما يسميها الأهالي جزر العافية. وهذا الاسم يخص الجزيرة الرئيسية بالدرجة الأولى، وكانت تعرف عند الجنوبيين والبيانيين باسم بالافيا Balaffia .

وكان منظر الساحل فيما بين جزر العافية وجيجل رائعا. كان هناك صف من الصخور الواطئة، كأنه حجارة رصيف جبار، يبين خط الشاطئ

الذي كاد يكون مستقيما، ولم يكن به سوى خليجين صغيرين يمتدان بعمق على حد ما.

وبعد رحلة استغرقت خمس أو ست ساعات وصلنا إلى مدينة جيجل، هي مدينة صغيرة مهدمة إلى حد كبير، ذلك أن الزلزال الذي حدث في 22 أوت سنة 1856 كاد أن يدمرها تدميرا كاملا. وتقع هذه المدينة الصغيرة فوق شبه جزيرة صغيرة، لا يربطها بالبر سوى خط رفيع من الرمل. وكانت الحكومة قد أمرت بإقامة خيام وأكواخ، فانتقل إليها سكانها، الذين بقوا بلا مأوى، وكان عددهم يبلغ حوالي خمسمائة من الأروبيين وألف من الحضر، يقيمون فيها بصورة مؤقتة. وتوقفت السفينة البخارية مدة ساعة جنوب المدينة الصغيرة، التي لها ميناء جيد، إلا أنه، فيما يقال، ليست له حماية كافية. كانت هناك في الواقع صخور كثيرة، بعضها يبلغ علوا عظيما، تحمي الميناء من الرياح الشمالية، غير أنها للأسف لم تكن متواصله فقد كانت بها شقة عرضها 300 قدم، تسمح للأمواج بالعبور، فتهدد الميناء عند اشتداد العواصف، لأن ذلك السد الطبيعي لم يمنع تسربها.

وإذا كانت مدينة جيجل قليلة الأهمية، فإن لها مع ذلك تاريخا،انتهى بالزلزال المريع الذي حل بها قبل فترة قصيرة. فمما لا شك فيه أن ايجلجيلي القديمة كانت تقع في هذا المكان.

ويبدو أن اسمها فينيقي الأصل مثل أسماء المدن القديمة التي تبدأ بالياء، فالحرب «ي» يعني «الشاطئ». ويترجم غيسينيوس كلمة أيـ جلجيل بعبارة «شاطئ الدوامة»، ولا ريب أن معناها «المرسى الرديء»، لا تزال جيجل إلى يومنا هذا كذالك حقا.

وهناك اختلاف في تقدير المسافة بينها وبين خوبا في كل من خريطة الطرق واللوحة البويتينغية، فالأولى تقدرها بـ 18 والأخيرة بـ 28 معلما، أما بطليموس فيقدرها وأهما بـ 20 درجة.

ولا نعرف عن جيجل سوى أن أغوسطوس قد رفعها إلى مركز مستعمرة وان كوميس ثيودوسيوس، الذي جاء إلى أفريقيا لإخمادنيران الثورة التي أشعلها فيرموس قد انزل قواته في هذا الميناء. وكانت جيجل قديما مركز ذلك الطريق العسكري الكبير الرابط بين بجاية وسطيف وقسنطينة وعنابة. ومن الواضح أن جيجل كان لها في العصر المسيحي أساقفتها، الذين قيل عن واحد منهم انه اعتبر في اجتماع زعماء الكنيسة بقسنطينة ملحدا، وأي عش في شمال أفريقيا لم يكن له أسقفه؟!

وكانت جيجل في العصور الوسطى، فيما ذكره ليوافريكانوس، مدينة تجارية مزدهرة، وكانت فيها للجمهوريات الإيطالية كلها تقريبا مخازنها ودكاكينها، وكان بابا عروج، أكبر البربروسيين، قد جعل من جيجل في القرن السادس عشر مركزا لأعمال القرصنة لمدة طويلة. وكانت تشكل في ذلك الحين أفضل سوق في أفريقيا لبيع العبيد المسيحيين، وكان بعض الأمراء الأثرياء يزودون حريمهم بالجميلات اللواتي يعرضن فيه البيع. وعندما اتخذ بابا عروج، فيما بعد، الجزائر عاصمة له، بدأت جيجل تتحول إلى مركز للقرصنة، غير أن التجارة فيها استمرت في الازدهار حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر، ثم حلت بها كارثة غير متوقعة فقضت على نشاطهاوازدهارها بصورة نهائية. فلم يكن سكانها الهادئون المسالمون يتصورون أن فتح مدينتهم التجارية سيصبح ضروريا «لمجد» دولة بعيدة. ذلك أن لويس الرابع عشر اختارها لموقعها المناسب ليجعل منها حصنا تستقر فيه جالية فرنسية.

ولذلك أرسل عام 1664 حملة بقيادة دي بوفور Beaufort إلى سواحلها. وكانت حملة رهيبة، إلا أن الغرض منها كان تافها جدا، إذ كانت تحتوي على خمس عشرة سفينة خطية،وتسع عشرة سفينة حربية، وتسعة وعشرين زورقا صغيرا، وتحتوي السفن على ثمانمائة بحار، ويتكون

الجيش البري من حوالي اثني عشر ألف جندي بقيادة البارون دي غداني De Gadagne واتجه هذا الأسطول في أول الأمر إلى خليج بجاية، وكان في إمكانه أن يستولي على المدينة بسهولة، لأنها لم تكن محصنة،إلا أن النزاع والغيرة اللذين وقعا بين بوفور وغداني حالا بينه وبين الهجوم عليها. وواصل الأسطول عندئذ طريقه نحو جيجل، فبلغها يوم 22 جويلية، واستولى عليها بعد مقاومة قصيرة قام بها سكانها القليلو العدد، ولم يجد الفرنسيون في المدينة المحتلة سوى عشرة مدافع حديدية و «بيوت قبيحة، لا يتصور العقل أن في إمكان الناس أن يقيموا فيها» على حد قولهم. وبمجرد أن استولوا على هذه المدينة التي لا يحسدون عليها، بدأ سادة جيجل الجدد يجرون مفاوضات سياسة مع القبائل المجاورة من اجل الاعتراف بممتلكاتهم الجديدة وعدم الثورة عليهم. وتظاهرت القبائل بأنها قابلة لمقترحاتهم، إلى أن وصل جيش تركي من الجزائر وانظم إليها، وعندئذ ثار حقدهم القديم على النصارى. ولم يعرف الفرنسيون الراحة منذئذ، وفي النهاية اضطر الفرنسيون إلى التراجع أمام تفوق الأتراك، وركبوا سفنهم بعد هزيمة نكراء. فقد فقدوا أثناء هذه الحملة الصيفية أكثر من ثلاثة آلاف رجل، وفوق ذلك شاء سوء طالعهم أن يغرق 1100 رجل خلال عودتهم إلى بلادهم.

وبقيت جيجل من 1664 إلى 1839 بأيدي الأتراك، دون أن تستعيد حركتها التجارية النشيطة التي كانت لها سابقا، ولكنها بدأت تستعد شيئا من مركزها منذ أن عادت إلى أيدي فاتحيها القدماء بصورة مؤقتة، إلى الفرنسيين، ثم جاء الزلزال الذي قضى على ثروات أهاليها، بل قضى على المدينة نفسها لعدة سنوات على الأقل.

وفي ليلة 22 أوت سنة 1856 سمع أهالي مدينة جيجل فجأة ضوضاء تحت الأرض شبيهة بهزيم رعد رهيب مقترب، وبعد لحظات تلقوا هزة

أرضية عنيفة، فتهدم المسجد وعدد كبير من البيوت، وتراجع البحر في نفس الوقت مسافة كبيرة نسبيا، ولم تمض دقائق حتى عاد بهدير رهيب. وكان السكان لحسن الحظ قد اتجهوا كلهم تقريبا إلى الخلاء، فلم يمت منهم سوى ثلاث نساء وعدد من الأطفال. وفي اليوم التالي ظل كل شيء هادئا، فتأهب الناس للعودة إلى منازلهم وعاد أصحاب الدكاكين إلى ممارسة أعمالهم اليومية، وفجأة سمع هزيم جديد كالرعد، تبعته هزة أرضية مريعة، استمرت حوالي عشر دقائق. وتشققت الأرض في أماكن كثيرة، وأخذ البحر يئن كأن بركان دفعه إلى درجة من الغليان حادة، وتهاوت منازل جيجل كلها محدثة أصواتا رهيبة، غير أن منزلين استطاعا أن يتحديا هذه الهزة الأرضية، رغم أنهما غير صالحين للاستعمال.

وبدأت مدينة جيجل الآن ترتفع عن أنقاضها شيئا فشيئا، ولكن أغلب سكانها لا يزالون يقيمون في الخيام والأكواخ فوق المكان الرملي المجاور للمضيق الصغير يصل شبه جزيرة جيجل بالبر.

ومن مدينة جيجل اتجهنا نحو الشمال، لأنه كان علينا أن نمر «خلف رأس سبع روس». وحوالي منتصف الطريق بين جيجل ورأس سبع روس بلغنا مصب الوادي الكبير. وكان هذا النهر مشهورا في القديم تحت اسم أمبساغا Ampsaga واسمه عند بطليموس امفاغا Amfaga وبه تبدىء عنده مقاطعة أفريقيا، بحيث إن نوميديا تقتصر بالنسبة له على بلاد القبائل الحالية. وهي كذلك أيضا عند بومبونيوس ميلا Pomponius Mela في حين أن بلينيوس Plinius يجعل موقعها في نهاية الجانب المعاكس، ويعتبر أمبساغا حدا غربيا لنوميديا، وعلى العموم فإنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن نعرف بالضبط ماذا كان القدماء يفهمون من كلمة Numidia وكلمة Mauritania والظاهر أن معانيهما بقيت غامضة حتى القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد. ويبدو أن تقسيم البلاد على ثلاثة

أقاليم موريطانيا، نوميديا، وإفريقيا لم يستقر بصورة نهائية إلا في أيام قنسطنطين. ويكاد بومبونيوس ميلا يقصر نوميديا على منطقة موريطانيا القيصرية، ويقصر بطليموس نوميديا على موريطانيا السطيفية. أما بلينيوس وسترابو وسولينوس Solinus فيجعلونها في مقاطعة قسنطينة الحالية .وهم على صواب على أية حال.

وكان أمبساغا في القرن الخامس مسرحا لمأساة رهيبة، ففيه أمر غيزريك، فيما رواه لنا فيكتور بيتنسيس Victor Pitensis عن الإرهاب الفندالي، C.D.E. Persecutione Randolica L.II p.597 .بإغراق أرملة أخيه الشرعي (كان غيزريك نفسه نغلا) الملك السابق غوندريك، وأغرق معها أولادها العشرة. وبهذه القسوة ثبت غيزريك ملكه المغتصب لمدة طويلة. إلا أن فيكتور بيتنسيس ليس مؤرخا محايدًا، فهو يجرح الفندال في جميع المناسبات ولا يترك لهم فضيلة واحدة. وعلى العكس من تاريخه تاريخ سالفيانوس Saluvianus (عن حكومة الله DeLibri (De gubernatione VII) فسالفيانوس لا يكف عن الثناء على أبناء عمومتنا الجرمانيين، فيشيد بفضائلهم، وخاصة فضيلة العفة الجرمانية القديمة المقدسة التي كان الفندال يضعونها في منزلة عالية. وكانت الخيانة الزوجية مما يعاقب عليه أشد العقاب، والحرص على صيانة العفة جعلهم يكثرون قدرالإمكان من إبرام عقود الزواج. يقول سالفيانوس : «إن الفندال لا يحيون حياة عفيفة فقط، وإنما يرغمون الرومان الفاسقين على العفة» وهذا ينقذ شرف أبناء عمومتنا المهان!

ويعرف «رأس سبع روس» عند الشعوب الرومانية باسم رأس بوجيارون Cap bougiarone وقمم هذه الجبال السبع متصورة مثل جبال الأخوة السبعة. ذلك أن قمم هذه الجبال تزيد في الواقع بكثير عن هذا العدد، ولكن العرب، وهو كثيرا ما يحملون أعدادا معينة معاني صوفية،

اختاروا منها سبعة فقط. وتشكل هذه الجبال أقصى نقطة شمالية في الجزائر كلها، أما في القديم فكان رأس بوجياورن يدعى باسم له دلالته، هو تريتون Triton(ويسميه بطليموس تريتون أخرون Triton Achron) ثم أصبح يدعى فيما بعد ميتاغونيوم Metagonium، وسميت المنطقة الساحلية المجاورة باسمه فدعيت الأرض الميتاغونتيسيه Metagonitis Terra وقد ورد اسم ميتاغونيوم في الجغرافية الموريطانية مرة أخرى، أي في المغرب الراهن، حتى أن بلينيوس أراد أن يطلق اسم ميتاغونيا Metagonia على نوميديا كلها. أما اللوحة البوتينيغية فتطلق على هذه المنطقة اسم باكونوس ماتيه Paccianus Matihe بينما ذكرت في خريطة الطرق باسم باكيانوس ماتيديه Paccianus Matidiae وكلتاهما تقدر بعده عن جيجل بـ 24 معلما.

وبعد هذه القمم الصخرية المسننة شاهدنا مدينة القل الساحلية، وهي كوللوبس Collops أو خولو Chulu القديمة (ويسميها بطليموس كوللوبس ميغاس Collops Megas في زاوية خليج صغير بسفح جبل الكدية الشبيه بالهرم.

ويعتقد غيسينيوس أن اسم القل Collo برجع إلى نفس الأصل مثل المدن الكثيرة الأخرى التي لها صيغة متشابهة كاخولا Achulla في أقليم بيساسيون Pysacion واسيلا Acilla (ولعلها زيليس) فاسم كوللو في رأيه مستمد من الكلمة الفينيقية أكولاه Akulah ، التي تعني : «أعوج»، أو «منحن» ومن المرجح إذن أنها كانت تدعى «الواقعة في خليج منحن».

وتذكر اللوحة البويتينغية كوللوبس ماغنوس Collops Magnus باسم خولك، وتسميتها خريطة الطرق لأنطونين باسم مدينة خولى Chuli municipium وتذكر كلاهما أنها تبعد عن باكيانون بأربعين معلما، أما المسافة بين جيجل والقل فقد قدرتاها بثلاثة وستين معلما، وذلك كثيرا جدا، لأنها في التقديرات الحديثة لا تتجاوز ستين كيلومترا، والكيلومترا أقل من المعلم بكثير.

وتذكر القل بصفتها أسقفية من أقدم الأسقفيات الإفريقية. فقد حضر أسقفها أورليوس Aurelius عام 255 اجتماع زعماء الكنيسة بقرطاجنة، الذي دعا إليه سيبريان Cyprian ونوقشت فيه عقيدة التعميد .وفي سنة 411 حضر فيكتور Vivtor وفيدانتيوس Fidentus من القل، وكان الأول يمثل الكاثوليكيين والثاني الدوناتيين، للمشاركة في اجتماع قرطاجنة الذي تحدث عنه أغوستينوس كثيرا.

وكانت مدينة القل في العصور الوسطى من أهم الموانئ. فقد ذكر ليوافريكانوس أن جميع المعاملات التجارية الرابحة في أفريقيا كانت تتم هنا، ولكنه لم يذكر لنا لماذا ؟ إلا أنه من السهل معرفة السبب. كانت قبائل هذه المنطقة من أشد القبائل جهلا، ولذلك كانت تبيع بضائعها بأثمان زهيدة، ولا يزال سكانها إلى اليوم يوصفون بالجهل والبلاهة.

وكانت القل في القديم مشهورة بصباغتها الأرجوانية، ولعل الفينيقيين هم الذين أدخلوا هذه الصناعة التي بقيت حتى العصر الروماني. وكانت القل آخر مدينة من مدن الجزائر الساحلية تعترف بالعلم المثلث الألوان. ولا تزال إلى اليوم تتمتع بنوع من الاستقلال، فليس بها موظفون فرنسيون، إذ أن رجال الإدارة كلهم من المواطنين. وليس بمدينة القل سكان أروبيون، وإنما بها حوالي ألفين من العرب والقبائل.

وبعد أن تركنا القل واصلت السفينة طريقها مارة برأس سريجينا (وكان في العصور الوسطى يدعى كاب تالسن Cab talisen) الممتد إلى داخل البحر واتجهنا نحو خليج أستوره أو سكيكدة المستدير الجميل. وتشكل استورة (وهي روسيكادا Rusicada القديمة وازيورا Osiura العصر الوسيط) ميناء المدينةالفرنسية الجديدة، التي سميت باسم Roi bourgeois وتبعد استورة عن سكيكدة بحوالي سبعة كيلومترات.

وعندما رست بنا السفينة في أستورة كان لي باعث جديد على الشكوى من المعاملة التي يعامل بها المسافرين غير الرسميين من طرف

طاقم السفينة الحكومية. فإذا كانت الإقامة بهذه السفينة البخارية غير مريحة فإن مغادرتها غير مريحة أيضا. فقد كان البحارة، الذين كانوا يظهرون بمظهر المتعلم، يعاملون السواح معاملتهم لأراذل الناس، وينظرون باحتقار إلى أمتعتهم. فإذا اعتبرت أنا «متاعا» فإن حقيبتي تعد «متاع المتاع»! ، ومن ثم لم يكن لها حظ في المعاملة الحسنة. وعندما أردت النزول إلى الميناء، فإني لم أتمكن من ذلك إلا بقارب خاص بميناء أستورة، لأن القوارب المخصصة للمنزل أستأثر بها الضباط أيضا. ولكن بحارة القوارب المؤجرة لم يسمح لهم بالصعود إلى السفينة لحمل الأمتعة.فكان على بحارة السفينة الحكومية أن يحملوا حقيبتي إلى القارب. وقد فعلوا ذلك مكرهين، لأن الحكومة منعت عليهم أخذ أية هبة. وهكذا عومل «متاع المتاع» معاملة سيئة جدا. فقد جروا الحقيبة إلى حرف السفينة، وعوض أن يحملوها وينزلوا بها الدرج ألقوا بها من عل. ولو كنت أعرف أن شيئا من هذا النوع يمكن أن يحدث لحملت حقيبتي بنفسجي فوق كتفي. وهكذا علي أن أشهد في النهاية هذه المهزلة المؤلمة لي دون رد فعل! كان بحار قد سحب أو دفع حقيبتي إلى حافة السفينة، ثم سددها نحو القارب الواقف في الأسفل، ولكنه لم يحسن التسديد، فبدل أن تقع حقيبتي في القارب ويا للكارثة! وقعت في البحر! وعلى هذه الصورة وقعت حقيبتي، التي رافقتني خلال رحلتي كلها بإخلاص، ولم تسبب لي أية متاعب وقعت في البحر!

قال لي ضابط السفينة السمين :

ـ سوف نصطادها لك!

قال ذلك وهو يوشك أن يضحك من هذه المهزلة. اجل. لقد اصطيدت حقيبتي من جديد، غير أن الماء المالح كان قد جعل محتوياتها غير صالحة للاستعمال.

الفصـــل الثانـــي

سفرة بحرية من سكيكدة إلـــى عنـابــة

مدينة أفريقية – روسيكادا مغادرة أستورة – سفرة بحرية – سموم لينة – سفينة مريحة – رأس فيرو – صخرة العرب – أسطورة – الخاتم الأسود – رأس الحرس – خليج عنابة – فراء الأسد.

كانت مدينة سكيكدة مدينة مثالية، يتمنى مثلها مئات من الفرنسيين الرسميين في الجزائر، فهي مدينة فرنسية حديثة، فليس فيها بيت حضري ببواكيه الهوائية، ولا فناء عربي بأعمدته الجميلة، ولا أسواق ولا أروقة ذات طابع شرقي، ولا مسجد، ولا منارة، فالفاتحون لم يأخذوا أي شيء يدل على عبقرية الأهالي الخلاقة، لأنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار. وفي إمكان ابن ضفةالسين أن يتصور مدينة ريفية صغيرة من مدن ولايته. وما كان السعيد المحظوظ ليخيب ظنه إن هو دخل مقهى من المقاهي الكثيرة في سكيكدة ليشرب فيها أبسنته المحبوب، ومن المؤكد انه سيجد فوق المائدة أكثر الجرائد أخلاقية، وهي جريدة المبشر، التي تحدثه عن تلك الشخصية الغامضة، التي تقلدت منصب نائب وإلى المدينة المذكورة. إني لم أعجب بهذه المدينة الجزائرية الحديثة لرتابتها وتشابه منازلها.

و كان الفندق، الذي نزلت فيه عبارة عن بناية شبيهة بالثكنة مثل جميع منازل هذه المدينة السعيدة، وكان صاحبه جديرا بان يكون عقيدا متذمرا. فإن هذا الرجل الطيب لم يدخر وسعا في الثناء على الراحة التي يشعر بها في سكيكدة، خاصة وأنها مدينة فرنسية محضة. وكان يقول من وقت لآخر: «ليس فيها بدو على الإطلاق» وأثنى كذلك على المسرح الذي تقدم فيه فرقة من الزواوة عروضا، يقوم فيها الرجال بأدوار النساء، لتسلية الجمهور، وقال إن الوقت لا يمكن أن يكون طويلا بالنسبة لي،فعدد المقاهي في المدينة لا يقل عن عشرين. وبالإضافة إلى ذلك فهناك شحنة

من الفرنسيات اللطيفات وصلت من مرسيليا ولأي غرض، أظن أني لست في حاجة إلى أن أحدث القارئ النابه عن ذلك!

ولعل صاحب الفندق كان ملما بعلم الآثار، ولذلك أراد أن يلمح بهذه التوصية على أن سكيكدة تطمح إلى أن تكون مثل سابقتها مستعمرة روسيكادا Colonia Rusicada التي أقيمت للآلهة فينوس، وهناك من الأثريين من يشتق اسم استورة، ميناءسكيكدة، من اسم الآلهة الفينيقية عشتروت Astorath وهي آلهة الجمال الآسيوية. ولم أشاهد من أنقاض هذه المدينة القديمة المسماة باسم آلهة الجمال عشتروت سوى بقايا رصيف عديمة الأهمية ومدرج ليس غير، أما النقوش العديدة، التي عثر عليها هنا، فقد حملها الفرنسيون، أولئك الفندال المحدثون، إلى باريس ولم يتركوا منها شيئا.

وتقع سكيكدة على وادي الصفصاف، وهو كما ذكر مانير Mannert بحق، ما عرف عند الرومان باسم تربسوس Trepsus ولم يذكره من القدماء غير فيبيوس سيكستردي فلومينبوس Vibius sequester de Fluminibus.

ولا شك أن روسيكادا كانت مستعمرة فينيقية، ونستطيع أن نستنتج من اسمها الفينيقي أنها كانت مدينة تجارية، لأنها كانت لها منارة. فذلك واضح من الاسم الفينيقي «روس أكاوه»، الذي يعني «رأس النار» في ترجمة غيسينيوس، والنار تعني هنا طبعا المنارة.

وقد قدرت المسافة بين القل وروسيكادا في كل من خريطة الطرق واللوحة البويتينغية بخمسين معلما، وهكذا كثير جدا، فالمسافة لا تزيد في الحقيقة عن ثلاثين كيلومترا. أما بطليموس فيقدرها بعشر درجات من خط الطول، وهو أقرب إلى الصواب.

وكانت روسيكادا أسقفية قديمة جدا، فقد جاء أسقفها فيرولوس عام 255 إلى قرطاجنة. واتهم أسقفها فيكتور victor في مؤتمر قرطة عام 305 بأنه سلم الإيفانجيليين.

ولم أكن قد وصت إلى الجزائر لأرى نسخة طبق الأصل من مدينة بضواحي باريس، ولذلك لم تطل إقامتي بسكيكدة، فركبت السفينة البخارية التالية، وواصلت سفرتي من أستورة نحو عنابة..

ويشكل رصيف أستورة، وهو دون شك كولبوس الكليكتس Kolpus Alkalektes الذي ذكره بطليموس، جزءا من الخليج النميدي المذكور عند الجغرافي نفسه. ويشير بطليموس إلى أن هناك مدينتين بهذا الخليج، إحداهما تدعى روسيكادا والأخرى تدعى ثوسيكادا Thusicada ربما أنه من المحتمل أن تكون قد وجدت في القديم محطتان روميتان في موضع أستورة وموضع سكيكدة، ففي إمكاننا أن ننظر إلى أستورة على أنه روسيكادا، وإلى سكيكدة على أنها ثوسيكادا، وهما المدينتان اللتان ذكرهما بطليموس. ولعل التسمية العربية لهذه المدينة الأخيرة تؤكد هذا الرأي. فالأهالي يطلقون عليها اسم سكيكدة، ومن الجائز أن يكون هذا الاسم تعريفا لكلمة ثوسيكادا أو أوسيكادا (فكلاهما مدكور عند بطليموس بصفته اسما للمدينة القريبة من روسيكادا). أما اسم روسيكاداف مأخوذ في رأي غيسينيوس من الكلمة الفينيقية «بيث أوسكاث» Beth usikath ويعني «بيت استصلاح الأرض» وهذا يدل على أن روسيكادا كانت مستعمرة زراعية كما كانت مدينة تجارية. وموقع أستورة أصلح للزراعة من موقع سكيكدة .ونظرا إلى أن روسيكادا، كما رأينا سابقا، كانت لها منارة وكان لها تباعاً لذلك ميناء، فمن المرجح أن هذه المدينة كانت تقع في مكان أستورة لا في مكان سكيكدة، لأن سكيكدة لم يكن لها ميناء أبدا.

كان الفرنسيون يعتبرون ميناء أستورة ممتازا، وينظرون إلى تحذير العرب لهم على أنه من ثرثرة «البدو». فكانت الحكومة الاستعمارية تخدع نفسها وتدعى أنه ليس هناك من عاصفة تستطيع أن تثير مياهه الهادئة، وليس هناك من هبة ريح يمكنها أن تكون خطرا على السفن، إلا أن الأيام

كذبت هذا الحلم مرتين. فقد هبت الرياح الشمالية مرتين، منذ الاحتلال الفرنسي، على هاته المياه التي تبدو هادئة، وعصفت بها وحطمت جميع السفن التي احتمت بالميناء. وفي المرة الأولى ذهبت فرقا أيضا ضحية هذا الوهم الرسمي.

بقد كانت سفرتي البحرية من أستورة إلى عنابة ممتعة، إذ كانت الرياح مواتية وكان الطقس مناسبا لسفرة بحرية بالسفينة البخارية. فقد هبت سموم من البر، كانت دافئة بالنسبة لهذا الفصل من السنة، وراحت تطارد السحب، ولكنها كانت عاجزة عن إثارة مياه السواحل الجزائرية، في حين أنها قد تثير عاصفة في السواحل البروفنسالية. هذا هو الفرق بين مفعول هذه الرياح هنا وفي أروبا. إن ريح السموم هنا جافة حارقة في الصيف، ولكن البحر يظل قرب البر هادئا على الدوام تقريبا. أما في أروبا فإنه يأتي دائما محملا بندى البحر الأبيض المتوسط ويكون سببا في الأمطار وعواصف البحر. وللرياح الشمالية في القارتين طبيعة مختلفة تبعا لاختلاف الأسباب، بمعنى أنها تتسبب بمرسيليا في جفاف الجو وهدوء البحر نسبيا، في حين أنها تتسبب في نزول الأمطار وحدوث العواصف في الجزائر.

وبالإضافة إلى هذه الأحوال الجوية المواتية أثناء سفرتي البحرية القصيرة فإن السفينة نفسها كانت مريحة وأهلا لأن تجعل رحلتي متعة. ذلك أنها لم تكن سفينة حكومية بقيادتها الرسمية الجافة، التي أرسلت بالعديد من المسافرين إلى الدرجة الثانية وحرمتهم من الوسائل الضرورية، بل من متطلبات النظافة، وإنما كانت مجرد باخرة تجارية متواضعة. والتواضع لا ينطبق هنا إلا على طبيعتها غير الرسمية أما فيما يخص أناقة بنائها، وفخامة أثاثها وما تهيئه مقصوراتها من راحة، فإنها تبدو قصرا فخما بجانب السفينة الحكومية المتداعية. ولم تكن هذه السفينة تقوم برحلة بحرية



ساحة عنابـــة



على امتداد الساحل الجزائري، وإنما كانت قد جاءت مباشرة من مرسيليا، ولم تتوقف إلا في أستورة لتأخذ المسافرين إلى عنابة وتونس. وكان أغلب المسافرين من مرسيليا نفسها. إن من حق الإنسان فوق هذه السفينة أن يكون إنسانا على الأقل نظير ما دفعه من مال. فلم يكن من واجبه، وذلك عكس ما كان عليه الأمر السفينة الحكومية أن يخضع في هوان لشارة قائدها الذي يحتقر كل المدنيين. كان قائد هذه السفينة التجارية مارسيليا طيب القلب، يتكلم بلهجة مدينتة الجميلة الغناء. لقد تناول طعامه معنا نحن المسافرين وتحدث معنا كما لو كنا أناسا لا نختلف عنه في شيء. وهذه وجهة نظر، لو كان الأمر بيد قائد السفينة الحكومية لاعتبرها دون شك من باب الشعوذة.

ولم نلبث أن مخرت بنا السفينة حول كاب فيرو Cap ferro كما تسميه الأمم الرومانية، ويطلق عليه العرب اسم رأس الحديد. وقد أعاد هذا الجبل حديثا إلى الناس ذلك المرمر الأصفر الشهير، الذي كان يحتل مكانة ممتازة في رومة القديمة، ويتمثل في مقاطع أحجاره المرمرية. وكثيرا ما يرى الإنسان في عصرنا الحاضر هذا المرمر برومة ويسميه الطليان الأصفر القديم Giallo antico ويحتوي هذا الجبل، بالإضافة إلى المرمر، على أجمل أنواع الحديد، الذي لا يقل جودة، فيما يقال، عن حديد جرجرة إلبا Elba الشهير.

ومن المحتمل أن تكون برايتانه Paratiana، التي ورد ذكرها في خريطة الطرق وفي اللوحة البويتنغية، قد وجدت في هذا الجبل، فكلتاهما تقدر وقوعها شرق روسيكادا بعد خمسة وعشرين معلما. ومن الممكن أن يكون اسم براتيانه فينيقي الأصل ومشتقا من كلمة براد Parad التي تعني «بذر الرمان» والواقع أن شمال إفريقيا كله ملئ بأشجار الرمان. ويدل الاسم النباتي Punica Granatum على أن إفريقيا الفينيقية كانت في القديم تحتوي على عدد من هذا الأشجار يزيد عن الحد المطلوب.

وكانت المحطة الرومانية القديمة التالية، التي مرت بها السفينة، هي كولوسيتانة Culucitanae المذكورة في خريطة الطرق، وورد اسمها في اللوحة البويتنغية Culucita، ولا شك أنها كولوبس ميكروس Kollopsi mikros التي ذكرها بطليموس، فالخرائط كلها تتفق على ذكر مسافة واحدة.

وتركنا على يسارنا جزيرة الحديد الصغيرة، التي كانت تعرف في العصور باسم صخرة العرب Petra de larabo وهل هناك صخرة في هذا الساحل المليء بالأساطير ليست لها علاقة بالتاريخ أو بعصر الخرافة ؟ وهكذا يروى عن صخرة العرب هذه أن قرصانا عربيا كان قد سكن أيام عز الحضر وازدهار القرصنة مغارة صخرية. وكان مظهر هذه المغارة الصخرية مخيفا، إذا كانت جرداء عارية، ولم يكن أحد يتصور أنها يمكن أن تكون جديرة بإيواء غير الحيوانات المتوحشة. غير أن داخلها كان مزينا بالسجاجيد الذهبية، وكانت أرضيتها مغطاة بالزرابي الكشميرية، وقد علقت بسقفها مصابيح ذهبية، تلقى أضوائها الخافتة فوق الأرائك الفاخرة، التي تضطجع فوقها فتيات جميلات، تلتمع فوقهن الجواهر الكريمة. وكان القرصان ملك هذا القصر، وسيد هذا الحرم المليء بالجواري الحسان. فإذا جلبت له مهنته فتيات صغيرات، وكثيرا ما حدث ذلك، فإنه لم يكن يبيع غير اللواتي لا ينلن إعجابه. وكان يحتفظ لنفسه بأولئك اللواتي يحظين برضاه، فيخذهن جواري له، ويغلق عليهن الباب في المغارة، حيث يقمن على خدمته في خضوع تام. وكن حتى ذلك الحين كلهن مسيحيات، ونظرا إلى أن القرصان كان مسلما فإن ضميره لم يكن يؤنبه طبعا على الظلم الذي ألحقه بآبائهن أو بالفتيات أنفسهن.

وذات يوم ركب القرصان البحر مرة أخرى، ورست سفينته بشاطئ يسكنه المسلمون، وهناك رآى ابنه السلطان الجميلة تتنزه مع خطيبها في حقيقة بديعة قرب البحر. وكانت الأميرة فاتنة إلى درجة أن أي قلب، ولو

كان أقل تعطفا من قلب القرصان، كان يهيم بها لأول وهلة. وكان عمل القرصان يتمثل في أن يراها ويحبها ويسلبها في لحظة واحدة. وحملت الأميرة إلى المغارة وصارت محظية القرصان منذ تلك اللحظة، لأنه زهد فجأة في جميع جواريه الأخريات، اللواتي استهلكن وأصبحن جواهر مزيفة، وكانت الأميرة هي الماسة الحقيقية المتلألئة في الماء الصافي. ولكن الأميرة كانت تحب خطيبها الذي انتزعت منه انتزاعا، وتنفر من القرصان كل النفور. ولعجزها لم تستطع أن تفعل شيئا آخر غير أن تطلب من الجن، تلك الأرواح الهوائية البديعة، مساعدتها في محنتها. وجاءت الجن، تلك الأرواح الوفية، التي لم تتخل في ألف ليلة وليلة أبدا عن مساعدة فتاة مهددة، لتنقذ هذه الفتاة المهددة أيضا، فهدمت قصر القرصان الفاخر، الذي ادخر فيه ملايين الأموال المسروقة، وأعادت الأميرة، التي كان حبه لها خطر على حياتها، إلى أبيها وحبيبها الشرعي، وهو ابن ملك، وحررت جميع الجواري، ورمت بالقرصان الشنيع إلى أعماق الهاوية. ونحن نرى أن هذه الأسطورة تصلح لأن تكون موضوعا لقصة تسودها عدالة شعرية رهيبة.

وتذكر اللوحة البويتنغية مكانين بين كوليسيتا Culicita وتكاتوا Tacatua لا يذكرهما أحد، وهما زاكا Zaca وماهرور Maharur.

ويقع في البر، مقابل جزيرة الحديد إلى حد ما، الميناء الرملي الصغير لمدينة تاكوش، وهي تكاتوا الرومانية، ويسميها بطليموس تكاتوى، وكانت في العصور الوسطى تدعى انتراكوري Entracori، حيث كانت ترسو في القرن السابع عشر السفن التجارية الفرنسية التابعة للشركة الملكية الإفريقية Compagnie Royale dAfrique لشحن القموح.

ويرى غيسينيوس أن تكاتوافي الأصل اسم فينيقي هو بيت أكوتاها، ويعني «المكان المنحدر» وهذا الاسم مطابق للواقع تماما. وتختلف تقديرات المسافة بين كولسيتانة وتكاتوا في خريطة واللوحة بمقدار أربعة معالم.

وكان الساحل فيما بين تيكوش وراس الحرس Cap de Garde عبارة عن سور غير متسق، يتكون من صخور مسننة، أشكالها الغريبة جديرة بأن تكون جدران قصر الكيكلوبس. ومن هذا السور تمتد نواتىء مسننة شبيهة بالسواعد المتحجرة إلى البحر المزبد الذي تتخلله صخور ناتئة في هذه المنطقة.

وتحمل صخرة من هذه الصخور الناتئة، بسبب شكلها الغريب، اسم «الشراع الأسود». وكانت هي الأخرى موضوعا لأسطورة. ذلك أن الشراع الأسود ليس شيئا آخر غير سفينة متحجرة، كان يعتلي قمتها في القديم مغامرون جريئون. وكان هؤلاء المغامرون قد خرجوا إلى البحر، بصفتهم بحارين جدا، لحمل كنز تحميه قوة غامضة. وما من عربي إلا ويعرف أن صخور الساحل قرب تيكوش تحتوي مغاراتها على كنوز هائلة يعجز الوهم عن تصورها. فقد شاهدها بحار مسكين عندما جنحت به السفينة ذات مرة. ولكن الأرواح منعته من أخذ أي شيء من تلك الكنوز، لأنه لا يستطع أن ينقذ حياته إلا إذا خرج من المغارة فارغ اليد. غير أن هذا السائل لم يعد منذ تلك اللحظة يفكر في غير الأموال الطائلة التي رآها للحظة واحدة. فباح بسرها لمجموعة جريئة، فركبت باخرة وأبحرت إلى ذلك الشاطي لترسو به وتحارب الأرواح، التي تحرس الكنوز، وتستولي عليها. ووصل البحارون الجسورون إلى الصخور الناتئة أمام تيكوش، غير أن السفينة توقفت هناك فجأة، وجمدت شيئا فشيئا، وجمد البحارون، وجمد المغامرون، وتوقفت المجاديف. وتحجرت السفينة، وتحجر ركابها، وتحجر الشراع والمجاديف. فانتصب «الشراع الأسود» منذ ذلك الحين في القصر المسطح المزبد تحذيرا لكل المغامرين الجرآء!

وعلى أية حال فإن هذه الحادثة الأسطورية لا بد أن تكون قد وقعت في زمن قديم جدا، ذلك أن الرومان كانوا قد عرفوا الشراع الأسود، وبنوا محطة

فوق الأرض الممتدة داخل البحر قبالته، وقد ذكرت في اللوحة البويتنغية باسم سوبلوكو Sublucu وفي خريطة الطرق باسم سولوكوس Sullucus وسولوخا Sulucha تعني بالفينيقية، حسب ما ورد عند غيسينيوس «القناة» ولعل موقع الخليج الصوري، الذي ذكره بطليموس، كان قرب سولوكوس.

وصلنا بعدئذ قبالة رأس الحرس، واسمه هيبون أكرا Heppon akra عند بطليموس، فاستطعنا أن نتعجب من أشكال هذا الجبل الجبارة، الذي يتكون من حجارة كلسية مشربة بالحمرة، بينما تكون قمته الخارجية جبلا مرمريا. وقد نحتت قاعدة تمثال الدوق دورليان بساحة الحكومة في الجزائر العاصمة من هذا المرمر، الذي زود في العصر الروماني جميع المنشآت الفاخرة في هيبوريغوس Hippo regius (عنابة) الشامخة بمواد البناء. ويسمي العرب رأس الحرس بسبب مظهره المشرب بالحمرة رأس الحمراء.

وعند رأس الحمراء انفتح أمام أنظارنا خليج عنابة، وهو من أكبر خلجان الجزائر، وربما يكون أكبرها بعد خليج بجاية. واستطعنا أن نتبين في أعماق هذا الخليج، الذي تحيط الجبال ببعض جوانبه، شريطا فضيا، هو وادي السيبوس، الذي يصب هنا قرب آثار هيبوس ريغيوس القديمة. وكانت هناك سهول جميلة خصبة، تمتد إلى داخل البلاد على جانبي الوادي، وتغطيها أروع خيرات الأرض. وكانت كثبان الرأس الوردي العالية تمتد صفوفا طويلة، شبيهة بغلالات الضباب المرمدة، شمال السهل الممتد إلى الخليج، بينما كان جبل ايدوغ يرفع رأسه الجبار في الغرب.

ولا شك أن جبل إيدوغ هذا هو ما سيميه بروكوبيوس بابوا Pappua. وكانت تقع فوقه في القرن السادس مدينة صغيرة نصف مهدمة، صارت الملجأ الأخير للملك الفندالي غيلمر Gelimer، الذي هزمه فيلسار Velisar. وفيها استسلم غيلمر للرومان، وكان الجوع السبب الرئيسي في استسلامه.

وقد دفعه إلى ذلك بصورة خاصة منظر أليم لطفلين جائعين يتشاجران من أجل قطعة خبز، وكان أحدهما ابن غيلمر، ابن الملك نفسه، وكان الآخر ابن متسولة. كانت السائلة قد طبخت الخبز، ولكن ابن الملك خطفه قبل أن ينضج وأتى على نصفه، فانتزع منه ابن السائلة النصف الآخر، بعد أن وجه إلى الأمير ضربات محكمة. وهكذا وصل بغيلمر الأمر إلى أن ينظر إلى ابنه وهو يعامل معاملة سيئة دون أن يحرك ساكنا! فبكى الملك الفندالي لهذا المشهد الذي مثل سقوط حكومته، وأرسل إلى الرومان خبر استسلامه. والغريب أن آخر ملوك الفندال طلب قيثارة وهو بين جدران السجن.

وكانت عنابة تقع في سفح جبل إيدوغ بمثابة جوهرة بيضاء خرجت من البحر، كانت قديما عربية وأصبحت الآن فرنسية، وهي تطل على البحر العميق الزرقة بشرفاتها الهوائية. ومن المحتمل أن يكون ذلك الجبل، الذي يشكل القسم الشرقي من رأس الحمراء ويحمي خليج عنابة، هو ستروبوغون أكرون Stroppogon Akron الذي ذكره بطليموس وأول ما ينال إعجاب القادم إلى هذا الخليج قبل كل شيء هو أشكال تلك الصخور الغريبة، التي تحمي ميناء عنابة من الشمال ويطلق عليها اسم نقطة الأسد. ذلك أن الطبيعة قد جعلت هنا من مادة غير عضوية كائنا عضويا. فهذه الصخرة تقدم لنا صورة الأسد، فهو جالس هناك ورأسه مرفوع إلى العلاء، وقد مد رأسه نحو مدخل الخليج في تحد، وكأنه يقول: «أنا الأسد النوميدي الخالد، أنا الحارس الخالد لهذا الخليج النوميدي!» إني لم أبدا صورة طبيعية من الحجر، تمثل كائنا حيا بكل دقة، مثل هذا الأسد الصخري في خليج عنابة.

الفصل الثالث

عنابة وهيبوريغيوس

موانئ عنابة الثلاثة - طريق روماني - المصيليون والمصيصيليون - الصناعة في هيبو - الموائد الليمونية - أوغسطينوس - الدوناتيون والكاثوليكيون - آثار هيبو - زميلان جديدان في الرحلة.

وجدت عنابة مدينة لطيفة، يغلب عليها الطابع الأوروبي إلى حد كبير، ويسكنها حوالي اثني عشر ألفا، يشكل الفرنسيون أكثر من نصف سكانها. وكان لها ثلاثة موانئ إلا أن أيا منها لم يكن يتوفر فيه الأمان الذي يبرر تسميته بالميناء. وكان الأول منها، هو ميناء كاسران Pont des cassarins الواقع بين نقطة الأسد ونقطة طائر اللقلق، يبدو مأمونا، غير أنه لم يصلح لغير السفن الصغيرة. والميناء الثاني. ميناء الخروب،ويقع شمال عنابة على بعد حوالي أربعة كلومترات، عميق إلى حد كبير، ولكنه كان معرضا للعواصف. أما الميناء الثالث، هو أفضلها جميعا، ويدعى فور جنوا fort genois، فيبعد عن المدينة بسبعة كيلومترت تقريبا. ومن الصعب جدا نقل البضائع منه إلى عنابة برا.

لم يكن في عنابة الحديثة ما يحظى باهتمامي، ويثير فضولي، ولذلك شعرت برغبة كبيرة في مشاهدة ضفاف السيبوس على بعد حوالي نصف ميل ألماني، أي حوالي أربعة كيلومترات، فهناك تقع آثار هيبو الملكية Hippo regius أو هيبونا Hippona.واسم بونة محرف عن هيبونا،إلا انه لا ينبغي للمرء أن يغتر بذلك ويتصور أن مدينة أغوسطينوس القديمة كانت تقع في مكان المدينة الفرنسية الحالية. ويعتقد شو Shaw أن بونة هي أفروديسيوم كولونيا Aphrodiasium colonia التي ذكرها بطليموس، بينما نقل ماينرت Mannert هيبو إلى مكان بونة نفسها. ومع ذلك فقد يستطيع

المرء أن يعرف لماذا سميت بونة المدينة باسم قريب من اسم هيبو. فسترابون يتحدث عن مدينتين ملكيتين Hippones Regii تقعان على الساحل، أليس من الممكن أن تكون إحدى المدينتين الملكيتين وأغروديوسيوم المذكورة عند بطليموس نفس المكان ؟ وعندئذ يكون موقع هيبو الأخرى في السهل.

وينقل ما نيرنت موقع هيبو الأخرى إلى تونس الحالية، وذلك اعتمادا على خريطة الطرق لأنطونين، التي ذكرت فيها مدينة باسم هيبو، تقع شرقي طبرقة، وتسمى هيبو زارتوس Hippo zaritus. إلا أن رأي ستربون يعتبر حاسما فيما يتعلق بهذه القضية، فهو يقول عن مدينتي هيبو ملكيتان، بمعنى أن كلا منهما كانت مقرا لملوك نوميديا. ولهذا فليس من المحتمل أن تكون هناك في الموضع، الذي نقل إليه مانيرت هيبو زارتوس، مدينة مستقلة عن القرطاجنيين، كانت مقر للملوك. ثم إن هيبو، التي ذكرها مانيرنت، قريبة جدا من قرطاجنة، بحيث لا يمكن أن تكون خارجة عن سلطتها المباشرة. وعلى هذا فهي ليست إحدى مدينتي هيبو الملكيتين. وإذا كان من المحتمل رغم ذلك أن تكون قد وجدت هيبو غير ملكية، فهذا لا يمنعنا من الافتراض بأنه كانت هناك ثلاث مدن تسمى باسم هيبو : اثنتان فيها في نوميديا وواحدة في زوينغينا Zent gitina. لقد وجدت في هذه الإقليم ثلاث مدن أيضا سميت باسم مكومادیس Mocomades.

لقد أتيح لي في طريقي إلى هيبونا أن أتعرف على آثار الطريق الروماني المبلط بصفائح الحجارة، الذي يمتد على خط الساحل من قرطاجنة إلى يوليا القيصرية.

ولعل سهل السيبوس أخصب السهول في الجزائر كلها. فقد كان بايات قسنطينة السابقون يكسبون من محاصيله وحدها مبالغ تكفي لتسديد الإتاوة السنوية التي تدفعها الولاية كلها لباشا الجزائر.

عثرت على آثار هيبو بين وادي بوجمعة الصغير ووادي السيبوس الكبير.

كان الفينيقيون قد أطلقوا عليها اسم أوبو (Ubusubo)، فأنشأ أبناء قبيلتهم، القرطاجنيون، مستعمرة هنا. ويشتق غيسينيوس اسمها من كلمة أيبو Ipu، التي تعني «الجمال» أو «الفخامة». إذن معنى هيبو هو المدينة الفاخرة. وكان هناك عدد كبير من المدن في أفريقيا وأسبانيا وفلسطين تسمى بنفس الاسم، فاسم جوبا Joppa (وهي يافا الآن) من نفس الأصل. وعلى هذا فإن معنى اسم هيبو كان شائعا جدا ومن ثم فإنه ليس من المستغرب أن تكون قد وجدت في هذا الساحل، كما ذكرت سابقا، ثلاث مدن تدعى كل منها هيبو، أي مدينتا هيبو الملكيتان اللتان ذكرها ستربون وهيبو زارتوس المذكورة في خريطة أنطونيني. ومن المرجح أن إحدى مدينتي هيبو الملكيتين كانت تسمى في الوقت نفسه باسم أفردوسيون Aphrodision. ومن الواضح أن يكون مكان مخصص لفينوس قد سمي باسم «المدينة الفاخرة»، وهو ما تعنيه كلمة هيبو.

كان هالا، ملك ماس سول أو الماسوليين، وهم قبيلة بربرية، قد فتح المستعمرة القرطاجنية خلال الحرب الفينيقية الأولى. ومن هذا الملك النوميدي استمد اسم المدينة الملكية، فأصبحت منذ ذلك الحين تدعى هيبو ريغيوس، وبقيت عاصمة من العواصم النوميدية إلى أن ضمت إلى الإمبراطورية الرومانية. ويقول الشاعر الروماني سيليوس إتالكوس في الحرب الفينيقية[1].

كان الملوك القدماء يحبون فاغا وهيبو.

لقد كانت إذن محبوبة لدى الملوك القدامى. فكانت في البداية مقرا لملوك الماصيليين فقط، ثم أصبحت عاصمة للولاية كلها بالتناوب مع

(1) C. Silius italicus , Bellorum punicum libri xx

قرطة، وذلك عندما انتصر مصينيصا بمساعدة رومة على صفاقس، ملك الماصيصيليين، ووحدة مملكة الماصيليين ومملكة الماصيصيليين في حكومة واحدة. وآلت في أيام القيصر إلى الرومان كما آل إليهم شمال إفريقيا كله. ورقيت إلى مستعمرة في أيام أغوسطوس، ولكنها لم نزدهر إلا فيما بين القرنين الثاني والرابع.

كانت التجارة في هيبو الملكية مزدهرة إلىأبعد حد، ويدل على ذلك العدد الضخم من اليهود الذين استقروا بها في العصور المسيحيةالأولى. وكان الرق أحب الأعمال التجارية إليهم لما له من فائدة، وكانت تجارة الرقيق في أروبا آنئذ كلها تقريبا في أيدي اليهود. وكانت هيبو تزود رومة بالكثير من وسائل الراحة والرفاهية،حيث إن العاج، الذي كان الإقبال عليه في القديم شديدا، ورومان نيغريتيا الذهبية، وفلين غابات نوميديا، وتوابل السودان، كل ذلك كان يرسل من هنا إلى المدينة الخالدة. وكانت هيبو تمتاز بصناعة الموائد من خشب الحمضيات (ولعلها نوع من أنواع شجرة الحياة) الذي كانت له شهرة كبيرة في رومة، وقد اشترى شيشرون مائدة بمائة ألف قطعة ذهبية، وانفق القيصر هيليوغبال Heliogabal إتاوة ولاية كاملة من أجل شراء عشرين منها.

ولعبت هيبو، كما هو معروف، دورا هاما في تاريخ المسيحية، ولعلها أهم أسقفية في إفريقيا بعد أسقفية قرطاجنة. فقد كانت مقر القديس أغوسطينوس، الذي يعتبر الكاثوليكيون في كتابة مدينة الله Civitas dei من أقوى أعمدة السلطة البابوية، في حين أن البروتيطانيين ينظرون إليه، بسبب طريقة التدليل عنده، على انه أب للمصلحين. ورغم وعيه الكبير بالنسبة لأب من آباء الكنيسة، فإنه لم يكن بمنأى عن التعصب. فقد هاجم في مؤتمر زعماء الكنيسة بقرطاجنة عام 411 الدوناتيين دونما رحمة، وكانوا قد استشاروه طبعا. وكانت الغلبة في هيبو لهؤلاء الدوناتيين،

أعداء القديس، لمدة طويلة، بل غنهم ظلوا أقوياء حتى عندما أصبح أغوسطينوس أسقفا، وقد سمحت لهم قوتهم بأن يمنعوا خبازي المدينة مع بيع الخبز الضروري لإتباع الكنيسة الكاثوليكية. وبعد مؤتمر قرطاجنة الكبير، الذي لعنهم فيه أغوسطينوس صارت رومة تضطهدهم لهذا السبب اضطهادا كبيرا. واصدر القيصر الحقير الضعيف هنوريوس Honorius مرسومين دمويين ضدهم. وبالمناسبة، لا بد أن نذكر أن كاثوليكي هيبو كانوا طغاة إلى حد ما ودنيويين إلى حد كبير. ذلك أن أغوسطينوس نفسه يحدثنا عن نبيل روماني، يدعى بنيانوس Pinianus، جاء إلى إفريقيا، فأرغمه سكان هيبو على تولي منصب القس حتى يستطيعوا الاحتفاظ به وبأمواله في بلديتهم!

ومن المعروف أن أغوسطينوس توفي عام 429 أثناء محاصرة الفندال للمدينة، وكان القديس قد ألزم نفسه بالصوم أحد عشر يوما قبل موته، وحافظ على ذلك حتى ساعته الأخيرة.

وللمدينة الملكية، بالإضافة إلى القديس أغوسطينوس، عدد كبير من القديسين والشهداء. وقد عقد بها مؤتمران لزعماء الكنيسة، أحدهما عام 393 والآخر عام 426. وكان لهيبو في أيام أغوسطينوس الكنائس والتماثيل التالية: 1- كنيسة السلام - 2 - تمثال الشهداء العشرين من الهيبونيين - 3 - كنيسة الشهداء الثمانية - 4 - تمثال القديس ستيفان - 5 - تمثال القديس غرفايس وبروتايس. وكانت التماثيل كما هو معروف عبارة عن أضرحة القديسين والشهداء. ولا شك أن هذه البنايات التي وصلتنا اخبرها كانت بنايات دينية أقامها الكاثوليكيون. ولا شك كذلك أن بنايات الدوناتيين كانت كثيرة مثل البنايات الكاثوليكية، بل ربما كانت أكثر.

وهدم الفندال هيبو تهديما كاملا، باستثناء الكنيسة الأسقفية ومنزل القديس أغوسطينوس هذه علامة تسامح من طرف هؤلاء المشعوذين الآريين المحترقين.

ولم أكتشف من آثار هيبو شيئا ذا قيمة : قناة نقل مياه عيون جبل إيدوغ إلى المدينة الرومانية، أنقاض آبار كبيرة، حجارة رصيف كبير على شاطئ البحر، بقايا كنيسة،سميت باسم القديس الشهير، وهذا كل ما بقي من عظمة المدينة الملكية القديمة.

ويشكل مصب السيبوس الخليج الذي كان به الميناء الروماني. وكان هذا الخليج قد أصبح مع توالي العصور مغطى بالرمال وبقي كذلك لمدة طويلة إلى أن جردته منه الأحداث قبل فترة قصيرة. كانت كومة من الرمال قد تعلقت بعصب السيبوس بسبب الأهمال الذي حل بالميناء الروماني، فمنعت السفن من الدخول إلى الوادي. وقبل سنوات قليلة سقطت أمطار غزيرة، ففاضت مياه الوادي، وكسرت كومة الرمال، فصارت تصل إلى البحر دون أن يعوقها عائق. وفي استطاعة السفن، التي تصل حمولتها إلى مائة طن، أن تدخل الآن إلى وادي السيبوس كما كانت في العصر الروماني.

وشاءت الصدف أن ألتقي في الفندق بعنابة بنبيل فرنسي شاب، كان ينوي مثلي القيام برحلة داخل ولاية قسنطينة، فاتفقنا على أن نقوم بهذه الرحلة معا.ورفقنا فيها شخص ثالث، وهو شاب عربي، يدعى أحمد، كنت قد أخذته معي بصفته مترجما من مدينة سكيكدة.

وكان زميلي الجديد، الفرنسي، يمتاز عن الزميل الإنجليزي الذي تركني في قلعة نابوليون، امتيازا كبيرا، فلم تكن له أية صفة من تلك الصفات الغريبة التي كانت للانجليزي. كان مغرما بالجمال الطبيعي ومهتما بالآثار القديمة، ويتوفر على ثقافة عالية بالنسبةلفرنسي. وأعجبني فيه بصورة خاصة خلوه من الغرور، الذي لا يتخلىعنه في أغلب الأحيان المثقف الفرنسي نفسه. ولم يكن كذلك يرى ان من واجبه أن يكون لبقا في معاملة أية امرأة يلتقي بها، واللباقة سخافة يمارسها تقريبا جميع

الشبان الفرنسيين فتسيء إلى سمعتهم. وكان ملكي المذهب، ويتحمس للكاثوليكية، وقد ثار مرة عندما تلوت بيتا لاتينيا من أغنية من أغاني الطلاب، وقال إن اللغة اللاتينية لغة الكنيسة، ولا ينبغي أن يتغنى فيها بغير الأناشيد الدينية.

وكان الزميل الثاني في الرحلة نسخة ثانية من عبد الله، أقل خبثا منه، ولكنه كان أكثر كسلا. فلم يكن يفكر إلا في شيء واحد : في تعاطي الكيف، ثم تعاطي الكيف. وإذا كان أحد قرائي لا يعرف معنى تعاطي الكيف، فعليه ان يجلس في اظلم زاوية بغرفة مظلمة، ويدخن بضع ساعات، ويتثاءب كثيرا دون أن يفكر في شيء، فهو بذلك يتعاطي أجمل نوع من أنواع الكيف!

الفصل الرابع

سهل السيبوس

الركوب من عنابة إلى غالمة - قرى المعمرين - النجمية - الخمار- البطل مجهول القدر - الفاتح الحقيقي لسيباستبول - اسكورروس - منظر من جبل فجوج - منطقةغريبة - الوصول إلى غالمة.

كان صباح نوفمبر، الذي ركبنا فيه إلى غالمة، فأل يمن بالنسبةلرحلتنا النوميدية، فقد كانت السماء صافية، خالية من السحب. وقادنا الطريق عبر سهل السيبوس الخصب بصورة مستمرة. ولا شك أن هذا الوادي هو وادي روبريكاتوس Rubicatus، الذي ذكره جميع مؤرخي الرومان تقريبا. يرى مانيرنت أن السيبوس هو وادي موتول Muthul الذي ورد ذكره عند بروكوبيوس وموتول نهر واحد، كما يرى أن جبل هذه المنطقة هو تاميس Thambes بطليموس وبابوا Pappua بروكوبيوس.

وصلنا في الصباح إلى قريتين عربيتين، هما سيدي عواشر وسيدي رماح، بعد أن مررنا بالقرية الجديدة مندوني Mondoni، التي أنشئت عام 1848، ويعيش فيها عدد من الفرنسيين، ولكنهم عاجزون عن أن يستخرجوا من هذه المنطقة الخصبة محصولا كبيرا إلى حد ما.

لقد كانت ضفاف روبريكاتوس القديمة مشهورة عند الرومان، فهنا كانت توجد الضياع الشاسعة لأسرة رومانية نبيلة، هي جنس سرفيليا Gens Servilia ويقال أن آثار فيلا سيرفيليانا Villa Serviliana لا تزال تشاهد فوق نقطة على الطريق بين مندوني وقسنطينة.

وبلغنا في المساء قرية أخرى، أنشئت في الوقت الذي أنشئت فيه مندوني، تدعى النجمية، وتقع في منطقة خصبة مزدهرة، غير أن المعمرين لم ينجحوا أيضا في استغلالها. وقد بدا لي أن هناك لعنة لحقت باستعمار

الفرنسيين لهذه البلاد. فالعربي، الذي لا يعرف الكثير عن الفلاحة، ينجح في استغلال الأرض الجدباء، بينما يفشل الفرنسي،الذي قدمت له الأرض الحكومية الخصبة، وذلك رغم المساعدات الرسمية التي يتلقاها.

وتقع النجمية على واد صغير، له نفس الاسم، ويصب علة مقربة منها في وادي السيبوس. وفرض علينا في هذه القرية أن نقضي ليلتنا بيت خمار، بدا عليه أنه من أعيان القرية، كانت لديه غرف يؤجرها للمسافرين، ويملك إلى جانبها طبعا حانة، إذ لا يمكن أن يوجد معمر دون حانة. ويجتمع المعمرون في هذه الحانة الجذابة إلى وقت متأخر من الليل ليشربوا أبسنتهم المحبوب هنا كما يشربونه في أي مكان آخر في الجزائر. ونظرا إلى انه لم يكن هناك بيت آخر في منزل الخمار، نقضي فيه أمسيتنا، فقد كان علينا أيضا أن نختار الجلوس في الحانة.

وهناك أخذت ادرس ملامح المعمرين، غير أن النتيجة كانت غير مسرة مع أغلبهم إلى درجة أني عزمت على التخلي عن مراقبتي لهم، وإذا بشخص يدخل فجأة ويستحوذ على اهتمامنا جميعا. قال له المار :

ـ مساء الخير، أيها الفهد. ماذا تشرب ؟

وكان الفهد رجلا طويلا القامة، ضخم الجثة، يتراوح عمره بين الثلاثين والأربعين، احمر الأنف، اخضر العينين، أسود الأسنان ذا صلعة في بدايتها، ويدين كبيرتين، وكان يرتدي لباسا يدل على إهمال كبير، إذ كان يتكون من قميص وسروال الجنود الأحمر، وينتعل نعلا خشبيا واسعا، مبطنة بقش يحل محل الجوارب. وأجاب على السؤال السابق بصوت حاد :

ـ أشرب الأبسنت طبعا!

وبدأ يصب الابسنث، وعندما وقع نظره علينا، شرفنا بتوجيه الحديث إلينا، فصاح الفهد :

- مساء الخير، أيها السادة. لعنه الله! Goddam

لقد ظن طبعا أننا انجليز، فمن الشائع أن جميع السواح في الجزائر يعتبرون بريطانيين بغض النظر عن الأمة التي ينتمون إليها بصورة خاصة. وبما أن الفرنسي العادي يعتقد أن اللغة الإنجليزية مركبة من مجموعة من لعنات الله، فإنه يطلق هذا الاسم على أبناء انجلترا.

قال زميلي في الرحلة وقد ملأ الفخار بانتمائه إلى الأمة العظمى :

- أني لست انجليزيا! (Goddam)

فأجاب الفهد :

- إذا لم تكن انجليزيا، فإن عليك مع ذلك أن ترد على تحيتي.

- تحيتك ؟ أتسمى لعنتك لنا تحية ؟

- أواه! إني لم أقصد إليكم. كنت أظن أنكم انجليز، وبما أن الانجليز لا يقولون شيئا غير التلفظ بلعنة الله، فقد تصورت أنكم لن تفهموني بغير هذا. أيتناول هؤلاء السادة كأسا من الابسنث ؟

وما كان لنا أن نرفض الأبسنث، الذي عرضه علينا، ولو فعلنا ذلك لأصبح الفهد عدوا لدودا لنا. وهكذا عاد الهدوء مع تناول الأبسنث. و خلال تناول هذه المنحة الجزائرية الفرنسية قال زميلي في الرحلة للفهد :

- لابد أن قصتك قصة شيقة، هذا أمر مؤكد. فمظهرك يدل على أنك لست معمرا عاديا.

- أأكون أنا معمرا عاديا ؟ فليحفظني الله من أن أكون واحدا من هذا القطيع. أنظر إليهم!

قال ذلك و أشار إلى المعمرين الآخرين، الذين كانوا جالسين في الحانة، وأمامهم كؤوس الأبسنث. واستمر يقول :

- أنظر إليهم! إن البلادة ترتسم على وجوههم، والنعاس والملل ينطقان من عيونهم، وقد تربعت الحماقة فوق جباههم. كلا! إني لأحمد الله على أنني لست عاديا. لقد كنت رجلا عسكريا. آنت ترى ذلك ظاهرا علي. إني لم اعد كذلك الآن. ولماذا ؟ لأن وطني ناكر للجميل. إنه لم يعرف كيف يقدر خدماتي له. ولو كانت هناك عدالة فوق الأرض لكنت الآن الدوق دي مالكوف وليس الجنرال بيليسي.

سألته مندهشا :

- إذن فقد شاركت في حرب الكريم ؟

- شاركت في حرب الكريم ؟ ألم تقرأ الجرائد ؟ إنها لم تتكلم عن غيري. ألم تقرأ فيها اسم الفهد ؟

كان علي أن أعترف أني لم أقرأ شيئا في ذلك.

- إن هذا ليدهشني، وإنه لمن حسن حظك أن تكون الصدف قد قادتك إلى النجمية وأتاحت لك أن تتعرف على الفهد العجوز، الفاتح الحقيقي لسيباستبول.

لقد أثار فضولنا طبعا، و كنا نود من كل قلوبنا أن نعرف ماذا فعل حتى استطاع أن يفتح بمفرده المدينة المذكورة و كيف أن اسمه الكبير لم يشتهر ؟

- و أجاب الرجل المجهول القدر :

- و ما العمل ؟ إن الفهد لاحظ له. لقد عثر الفهد على الجنرال الروسي، الذي كان يحمل في جيبه خطة مالكوف، ميتا. كنت قد حملت هذا المشروع إلى القائد العام، فما ذا قال لي أتراك تصدق ذلك ؟ لقد ادعى أن الكاغد كان ورقا قديما،لفت فيه شرائح السجق، وأنه لم يكن يحتوي إلا على إعلان جزار خنازير روسي!

وسألناه :

- ولكن من أين عرفت أن الورق هو مشروع مالكوف ؟

- من أين عرفت ذلك ؟ إني لم أكن اعرف القراءة، غير ان زواويا، يعرف القراءة،أخبرني بذلك. وقد استفاد القائد العام الخبيث من المشروع الذي اكتشفته. فبعد أيام أخذ مالكوف وأصبح الجنرال دوقا ومارشالا، أما الفهد، الفاتح الحقيقي لمالكوف، فقد بقي جندي إمدادات.

قال زميلي :

- لقد كنت سيء الحظ حق، ولكن كيف حدث أنك لم تصبح عريفا مع أنك خدمت مدة طويلة ؟

صاح الفهد القديم لم يصبح مشيرا :

- نكران الجميل ثم نكران الجميل! إنهم يدعون أني أحب الأبسنث كثيرا كما لو أن ذلك كان عيبا!

وتمنينا لفاتح مالكوف المجهول القدر ليلة سعيدة، ثم مضينا إلى الغرفة الوحيدة، التي استطاع الخمار تقديمها لنا، وقضينا للأسف ليلة مزعجة بسبب حضور الحشرات النشيطة.

وفي اليوم الثاني ذهبنا لمشاهدة آثار اسكوروس Ascurus القريبة النجمية، وقد اشتهر هذا الاسم بالمعركة التي حدثت فيه بين أنصار قيصر وأنصار بومبيوس، وكان الملك النوميدي قد وقف إلى جانب بومبيوس، وذلك ليسقط معه ومع الحزب الأرسطقراطي في مجلس الشيوخ الروماني. ولقد أدهشني أن أرى هنا بناية قديمة،تكاد تكون سليمة تماما، هي نوع من البيوت الواطئة، وكان يبدو أنها تعود إلى العهد البيزنطي. وهناك من يرى أنها بناية فندالية، ولكني أشك في صحة هذا الرأي.

وفي اليوم الثاني من مغادرتنا لعنابة، صعدنا جبل الريح، الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف قدم، فتراءت لنا من فوقه هضبة واسعة.وفي وسط

هذه الهضبة الواسعة العليا يرتفع جبل فيجوج، الذي ارتقيناه بعدئذ. ومن فوق قمته استطعنا أن نمتع أنظارنا بمشاهدة سلسلة الجبال الساحلية، فرأينا في الشمال رأس الحمراء في جانب والرأس الوردي في جانب آخر، وكلاهما كان يبدو خارجا من البحر. وكان هذان الجبلان بمثابة إطار لأجمل الجواهر الكريمة، لسهل السيبوس الخصيب. وبحيرة فزارة تلتمع في الشمال الغربي، وكأنها مرآة مستديرة، وحولها المروج الممرعة. أما في الغرب فكان جبل إيدوغ القاتم قابعا كالشيطان المترصد. وكان سهل سرد ساح المقفر يمتد في الشرق، ويشقه جبل غارة، الذي يرتفع وحيدا في هذا السهل دون أن تكون له علاقة بالجبال الأخرى. وفي الجنوب يلتمع تحت أقدامنا مباشرة وادي السيبوس الفضي، وخلفه في الأفق يبدو جبل العقبة المسنن رافعا رأسه نحو الفضاء.

وبعد أن نزلنا من هذا المنظر الرائع، وصلنا إلى مستعمرة أروبية، أطلق عليها اسم شاعري، هو هيليوبوليس. لماذا ؟ أن هذا التسمية كانت مجرد مزاج من الأمزجة الرسمية. ومن هنا إلى غالمة كانت المناظر الطبيعية في منتهى الروعة، يمكن مقارنتها بحديقة طبيعية غريبة، لا تنقصها صخور، ولا شلالات، ولا تلال خضراء، ولا جبل أجرد، ولا مروج مزهرة، ولا براري قاحلة،وكل ذلك لتقدم صورة متنوعة، ينشأ جمالها الطبيعي الحقيقي عن مجموعة من المتناقضات. وكان الشفق الحاني يحوم في الفضاء ويذهب جدران مدرج المسرح الروماني في غالمة، عندما خلت قافلتنا الصغيرة إلى المدينة القديمة.

الفصـــل الخـــامس

قـالمـــة

كلاما القديمة - عربي كسول - مسرح كلاما - سوموم لوغيوم - نقش روماني ذكر فيه اسم مؤسسة المسرح - القلعة البيزنطية - نقش بكرم النبيل سالمون - رأس العقبة - آثار عنونة - تيبليس - المياه المعدنية - أسطورة حول حمام المسخوطين.

بدأنا أنا وزميلي في الرحلة نزهتنا في ساعة مبكرة، فقد كان الفضول يدفعنا إلى مشاهدة آثار غالمة Galama الرومانية، ولكن احمد، الترجمان العربي، رفض أن يرافقنا في هذه النزهة. فهؤلاء الناس لا يفهمون ابدا ما يراه المثقف الأروبي جديرا بالمشاهدة. والحياة المثالية تتمثل بالنسبة لهذا الشاب الجزائري في شرب القهوة وتدخين عدد كبير من السكائر وقضاء اليوم كله في الراحة. وقد كلفني تمتع مترجمي بالقهوة في ولاية قسنطينة ثمنا غاليا إلى حد ما، إذ أنه كان يتناول دستة فناجين من القهوة يوميا، وسعر القهوة في الفنادق الفرنسية هو نصف فرنك. ولا احد يدري سبب هذا الغلاء. ولعل القارئ سيعترض علي بأنه كان علي أن أمنع هذا التبذير وأقلل من كمية القهوة التي يشربها أحمد، إلا أن أحمد، ابن الجزائر، كان للأسف، مثل العديد من الحضر، قد استهلك في الحقيقة رغم الشباب الذي كان يبدو عليه، بحيث أن القهوة وحدها كانت قادرة على إزالة تعبه ودفعه إلى أداء عمله المتمثل في الترجمة.

كان المسرح الروماني بغالمة وهو معلم من معالم المستعمرة القديمة، يشبه إلى حد كبير المسرح اليوناني في سيغسته Segeste قبر ألكامو Alcamo بصقلية، وكنت قد زرته قبل سنوات أثناء تطوافي بتلك الجزيرة. فقد كان يقع مثله فوق تل في منخفض بمثابة حفرة طبيعية وبشكل نصف دائري، بحيث إن البناء لم يكن له هنا من عمل سوى تسوية الجوانب الداخلية

لهذا القمع الطبيعي الجبار وتغطيتها بالمرمر ليجعل منها درجات ومقاعد. أما الشاشة فقد وجدناها ممتلئة بأشجار الغار الذكية الرائحة، وأشجار الدفلى ذات الأزهار الحمراء، وقد تفتحت تحتها براعم النعنع الفضية. وكان المسرح يمتاز عن البنايات العادية المشابهة بمقصوراته، التي بنيت في أعلى طابق، ومثل هذه المقصورات لا توجد في المسارح الرومانية. ويقول ديون Dion إن الأعيان، بل القياصرة أيضا، كانوا يجلسون في المقصورات. وكان المكان الذي لا توجد به مقصورة (ولا ينبغي الخلط بينها وبين مقصرة مقدمة المسرح) في أعلى طابق بالمسرح، والأمر كذلك في أغلب المسارح، مخصص بجلوس الطبقات الراقية. وكان الجدران الخارجيان لمسرح غالمة يحتويان على كوى، لا تزال بها حتى الآن تلك التماثيل التي وصفت بها قديما.

وكان بيربروجير قد اكتشف نقشا قرب غالمة، ذكر فيه تأسيس هذا المسرح، وهو يذكر اسم سيدة نبيلة تدعى آنيا ايليا ريستيتوتا Annia Aelia Restituta، راهبة النذور، وذلك بصفتها منشئة مسرح غالمة، ويضيف أنها أتفقت عليه ثلاثين ألف قطعة ذهبية. ويخبرنا النقش أيضا أن مجلس المدينة قرر أن يقيم للمؤسسة خمسة تماثيل، ولكن إيليا رستيتوتا رفضت ذلك تواضعا واكتفت بأن يوضع لها هذا النقش الذي يتحدق عن كرمها وتواضعها في آن واحد. وكان المبلغ الذي صرفته على إنشاء مسرح كلاما ما يوافق مليونا حسب القيمة النقدية الراهنة. وهكذا نرى أن كلاما كانت مدينة مهمة دون شك وإلا لما كان لها مواطنة غنية إلى هذا الحد.

وتركنا المسرح وسرنا بازاء مجرى وادي غالمة الصغير، فوصلنا إلى آثار بناية أخرى قديمة، يعود الفضل في إقامتها إلى الفترة التي تدهور فيها الفن المعماري، ولم يكن قد بقي منها سوى سور عال يحيط بها وثلاثة عشر برجا في حالة جيدة إلى حد ما، وكانت تحمل طابع الفن المعماري

الذي تميزت به الفترة البيزنطية في إفريقيا. ويتمثل في جمع حجارة غير متناسقة وضم بعضها إلى بعض، والظاهر أن هذه البناية قد أقيمت من أنقاض بقايا البنايات القديمة في غالمة. وكانت تتكون من خليط من القطع المرمرية وصفائح الحجارة المنقوشة، وقواعد الأعمدة، والبواكي، باختصار من بقايا متنوعة، جمعت دون اختيار وصففت استجابة للحاجة العابرة، فنشأت عنها هذه البناية، التي يبدو أنها قلعة غالمة البيزنطية. وهناك نقش رديء الوزن كتب بلغة لاتينية رديئة أيضا، يذكر اسم باترتيوس سالمون على أنه منشئ هذه البناية، الذي تثنى عليه هذه الأبيات الرديئة المذكورة في النقش. والمعروف أن سالمون كان خليفة بيسار Belisarفي إدارة الولايات الإفريقية. وهو يذكر دائما لأن جميع القلاع البيزنطية التي بنيت في إفريقيا من أنقاض متعددة يعود إليه الفضل في إنشائها. وكان يفخر بأنه أنشأ عددا كبيرا من البنايات الممسوخة.

والغريب أن هذه اللوحة الحجرية المنقوشة ليست في محلها، وإنما يبدو إنها لم تستخدم إلا بصفتها مادة من مواد البناء، وهذا يدل على أن قلعة سالمون قد هدمت وأنشئت قلعة أخرى في محلها. ولا بد أن تكون قد هدمت خلال القرن السادس أو السابع، لأن القلعة الأخرى تحمل أيضا الطابع البيزنطي. ولعل الزلزال، الذي ظهرت آثاره على جميع آثار غالمة، كان سببا في تهديم قلعة سالمون.

ومن الجدير بالذكر أن مدينة مثل غالمة، كانت لها، كما تدل على ذلك آثارها، أهميتها، لم يرد لها ذكر لا في خريطة الطرق ولا في كتاب بطليموس. وعندما وضعت خريطة الطرق لأنطونين واللوحة البوتينغية كان الطريق الذي يربط قرطة بهيبو يمر قرب غالمة دون أن يخترقها. أما في عصر أغوسطينوس كما نعرف من كتابات هذا القديس، فإن الطريق كان يمر عبر غالمة ونستنتج من ذلك أن غالمة لم تصبح ذات أهمية إلا في

العصور المسيحية المتأخرة ويصف أغوسطينوس كلاما بأنها مستعمرة. وكيفما كان الأمر فقد كانت في الفترة المسيحية أسقفية شهيرة. ونحن نعرف أربعة من أساقفتها، أولهم دوناتوس، الذي شارك في مؤتمر زعماء الكنيسة المشكوك فيه الذي عقد بقرطة، حيث اتهم بالزندقة، فاعتذر بأنه لم يسلم غير الكتب الطبية، ولكن هذه الكتب حسب ما ذكره القديس أوبتاتوس Optatus كانت كتبا طبية للنفوس، أي كانت كتب الإنجيل.

إن منطقة غالمة كلها غنية بالآثار القديمة ومليئة ببقايا الفن المعماري الذي تركه سادة العالم القديم. ولذلك انتهزنا فرصة إقامتنا بغالمة للقيام بجولات عديدة شيقة لمشاهدة الآثار الرومانية في الجبال القريبة. وقد رفض أحمد طبعا أن يتخلى عن متعة الكيف.

وكانت الجولة الأولى خاصة بآثار عنونة، وهي مدينة رومانية، تبعد نصف ميل عن غالمة، وأعتقد هي كاستيلوم فبتيانوم Castellum Fabatianum التي ورد ذكرها في اللوحة البويتينغية. وكانت هناك هوة طويلة واسعة تمتد من غالمة إلى جبل رأس العقبة، الذي يبلغ ارتفاعه أربعة آلاف قدم وهو أجمل نقطة في هذا القسم من نوميديا، فصعدنا إلى قمته. وكان المنظر من رأس العقبة جميلا جدا، ومرمى النظر أوسع بكثير من المنظر الذي تمتعنا بمشاهدته من قمة جبل فجوج بشمال غالمة، إلا أنه كان ينقصه التنوع الذي تميزت به المناظر التي نعمنا بها هناك. كانت المناظر الطبيعية ملفعة بلون رمادي، تحوم فوقه سحب سود، تطاردها الرياح الغربية، فتبدو وكأنها طيور الليل. وكانت جميع الجبال حولنا تظهر صغيرة. لقد صعب على العين أن تجد هنا مكانا ترتاح إليه لتشابه المناظر الطبيعية. لقد كنت دائما أجد المنظر من جبل، هو أعلى جبال منطقته، تافها نسبيا. وأغلب الجبال تبدو في منتهى الجمال في أسفلها أو في وسطها.

وقادنا الطرق من هذا الجبل الجزائري إلى شبعة واسعة، تنتهي فيها وهاد عالية. وعندما مررنا بهذه الوهاد قال لنا الصبائحي، الذي رافقنا في هذه المرة أيضا، فهو دليل لا بد منه بالنسبة للسائح في الجزائر:

ـ أدخلوا إليها من هنا. ففي هذه الوهدة ستجدون كثيرا من الحجارة التي تحبونها. وفي خلال ذلك سأتعاطى كيفي هنا.

فعملنا بنصيحته، وبعد حين وجدنا أنفسنا لحسن حظنا وسط مدينة رومانية، تناثر بعض آثارها فوق الأرض، وبقي بعضها الآخر قائما، ويطلق عليها العرب الآن اسم عنونة. وكانت آثارها تقوم فوق تلين يحدان الوهدة، فشاهدنا فوق التل الأيسر قوس النصر الروماني بأعمدته المضلعة، وبجانبه بقايا احد الأبواب، ومعبد وثني، حول فيما بعد إلى كنيسة، ثم عدد من الآبار السليمة، وقسم من قصر روماني وآثار بيوت كثيرة. وكان كل ذلك محاطا بالبطم الشرقي، الذي ينشر رائحته الذكية في هذا الخلاء المهيب. وكانت هناك نخلة وحيدة تطل من فوق الباب الذي بقي سليما إلى حد ما، وتظلل الأنقاض الجاثمة. أما التل الأيمن فقد شاهدنا فوقه آثار قليلة الأهمية. ولكن ما أن صعدنا فوقه حتى شاهدنا مقبرة واسعة، وبقايا جسر وعددا من الأنقاض القديمة متناثرة فوق الأرض. فيا له من موقع لمدينة معزولة! إنها لتدل على مدى انتشار الحضارة الرومانية في نوميديا، حيث وصلت حتى الوهاد المخفية وأقامت بها مدنا رائعة، فبقيت آثارها تتحدث عن عظمة الشعب المبكي!

ويعتقد كثير من المؤرخين أن آثار عنونة هي آثار مدينة تيبليس Tibilis الرومانية،وذلك لا لسبب آخر سوى قربها من الحمامات المعدنية. غير أن تيبليس لم تكن حسب اللوحة البويتنغنية قريبة من الحمامات المذكورة. وقد ذهب البعض حديثا إلى أن تيبليس هي عين البابوش الواقعة في الجنوب.

ولا تذكر لنا اللوحة البويتنغنية فيما بين تيبليس وقرطة مكان آخر غير قلعة فاباتيانوم Castellum Fabatianum التي تقدر المسافة بينها وبين تيبليس بخمسة وعشرين معلما، ولكنها لم تذكر المسافة بينها وبين قرطة. ونحن لا نعرف عن هذه القلعة شيئا. ومن الممكن أن يكون أسقف القلعة النوميدية Castellum Numidiae الذي ذكر اسمه في مؤتمر زعماء الكنيسة عام 484 بمدينة قرطاجنة. هو أسقف كاستيلوم فقط.

وهيأت لنا النزهة الثانية، التي قمنا بها انطلاقا من غالمة، متعة أخرى، زيادة على إرضاء فضولنا العلمي، تمثلت في ذهابنا إلى الحمامات المعدنية واستحمامنا بها. وكانت هذه الحمامات قد أفادت الرومان قبل ألفي سنة، وسميت باسم مدينة تيبليس (عين بابوش) القريبة منها فدعيت Aquae Tibilitanee.

وتقدر خريطة الطرق وكذلك اللوحة البويتنغية المسافة بين الحمامات المعدنية ومدينة قرطبة بأربعة وخمسين معلما،ويبدو هذا التقدير قليلا، فالقياسات الحديثة تقدرها بأربعة وتسعين كيلومترا.

ومن المرج أن الحمامات المعدنية كانت أسقفية، إن لم تكن تيبليس نفسها أسقفية، إلا أن الحمامات نفسها كانت في وقت متأخر مدينة أهم بكثير من تيبليس المدينة الأم.

ويطلق الأهالي الآن على هذه الحمامات اسما له دلالته، هو حمام المسخوطين، وهو اسم غريب بالنسبة لهدية طبيعية مفيدة.وكان من العسير فهمه لو انه لم يستمد، مثل الكثير من الأسماء في الجزائر، من أسطورية عربية. تقول الأسطورة إن سيدي أرزاق كان أميرا غنيا، يسكن هذه المنطقة. وكان له قصر رائع قرب مدينة غالمة، يحتفظ فيه بأجمل النساء، وكان يحصل على أشدهن فتنة مما يقدمه سوق الرق. وهكذا كان

في استطاعته أن يكون سعيدا حسب المفاهيم الإسلامية، كان في وسعه أن يأخذ مثل سليمان ما شاء من النساء ويعيش مثل سليمان كما يشاء، ولكن قلبه لم يمل لواحدة من آلاف النساء. فقد كان سيدي أرزاق يحب واحدة فقط، كانت بالنسبة له تفاحة الجنة المحرمة. ذلك أن تلك التي أحبها سيدي أرزاق كانت أخته الشقيقة. ولم يصرفه عن هذا الحب الآثم شيء وظل هيامه بها ينمو ويكبر ويشتد إلى أن تملكه الجنون وأرغمها على أن تكون خطيبته، وتم الزواج الرهيب وانتصر سيدي أرزاق، غير أن انتصاره لم يدم طويلا. فقد حلت به لعنة الله، فتحول إلى كتلة من الكبريت وتحول قصره وبساتينه إلى مستنقع من المياه الساخنة.

ولسوء حظ هذه الأسطورة أن مستنقع سيدي أرزاق ليس الحمام المعدني الذي كان معروفا عند الرومان، وكان موجودا منذ فترة طويلة قبل أن يكون للأمير المذكور قصر به. وكانت الحمامات التي أقامها الرومان حول هذه المياه المعدنية ذات أهمية كبيرة. ذلك ما استنتجته من بقايا أسس الأحواض العظيمة، إذ كانت ترتفع هنا وهناك آثار الأقواس التي كانت تغطي غرف الحمام، بالإضافة إلى برج يتعالى من وسط بناية الحمام. وكانت الأحواض المتناثرة تدل على وجود القاعات الخاصة بجانب القاعات العامة. وقد جعلت الطبيعة لهذه الحمامات أهمية أخرى، حيث إن الماء يحتوي، بالإضافة إلى الكبريت، ومنه يستمد قوته على العلاج، على عناصر كلسية،تسقط على حافة منبعه. وقد كونت هذه الرواسب الكلسية مع مرور الأيام كرات كبيرة مستديرة حول منابع المياه، يندفع منها الماء بمثابة نافورة. وقد تصل هذه الكرات إلى علو كبير، وقد شاهدت واحدة منها بلغ علوها خمسة وثلاثين قدما. وهذه الأشكال الطبيعية تخلع على وهدة حمام المسخوطين، مثل العديد من الأهرام الطبيعية، منظر متميزا.

الفصـــل السـادس

ســـوق أهــــراس

قرية صغيرة للمعمرين - مبيت عند قبيلة الناظور - منطقة صحراوية - الوصول إلى سوق أهراس - المنطقة المجاورة - تغاستة - أغوسطينوس واليبيوس - صاحب الحانة اليهودي - سرقة التونسيين المزعومة لأمواله.

بعد إقامة في غالمة، دامت عدة أيام، واصلنا رحلتنا نحو الشرق لزيارة مدينة تبسة الواقعة على الحدود التونسية، وهي أحسن مدينة قديمة بعد لامبيسا، بقيت في حالة سليمة. وبلغنا على بعد سبعة كيلومترات من غالمة قرية أروبية، أطلق عليها اسم Betit وهو اسم تستحقه جميع القرى الأروبية في الجزائر. ولم يكن أولئك الذين اختاروا لها هذا الاسم يقصدون ما يفهم من هذه الكلمة، فقد أطلقوا عليها اسم جنرال فرنسي مجهول، غير أن الصدف شاءت أن تكون هذه القرية صغيرة بالفعل.

وقضينا ليلتنا في خيمة من خيام قيادة قبيلة الناظور في سفح جبل يطلق عليه نفس الاسم، حيث أكرمنا قائدها فقدم لنا الطعام (الكسكسي) وهي أكلة زرية،تكاد تعتبر إهانة عند العرب. إلا أنه كان قد فاتنا أن نأخذ توصيات إلى هؤلاء القادة من الأهالي،فهؤلاء الشيوخ لا يكرمون من الأروبيين إلا من كانت معه توصية رسمية. أما الضيافة الأخرى، أي تلك التي تقتصر على ما يقدمه المضيف لضيفه لإسكات جوعه، فيمارسه كل عربي. فالكرم العربي الحقيقي كما يتصوره الكثير في أروبا : يتصوره الكثير نوعا من كرم الأمراء الفاخر.

وكان قد جلس معنا في غرفة الضيافة عربي، كان لباسه الجيد مناقضا لألبسة مواطنيه التقليدية الرثة. وتعرفنا عليه بعد حين، فوجدنا فيه محدثا بارعا،لم يبخل علينا بحديثه عن العادات والتقاليد العربية بصورة

مسهبة. وقلما يعثر المرء على أمثاله ممن يتحدثون كثيرا في الجزائر. ولم أجد خلال رحلاتي في المغرب التي دامت ثلاث سنوات، نصف دستة من العرب والقبائل ممن تعرفت عليه، أظهروا الرغبة في الحديث معي، هذا مع أن العرب يتحدثون مع مواطنيهم في جميع المناسبات تقريبا. ولذلك كان كل الذين انحرفوا عن تقاليد الصمت القومية كانوا من الشواذ، حيث إنهم كانوا قد قاموا برحلات لطفت من تعصبهم قضت عليه جزئيا.

كان معرفتنا الجديدة هذه عربيا من هذا النوع. فكما أغرم صديقي الحاج أحمد في الجزائر بالرحلات أغرم بها كذلك هذا العربي الذي كان يدعى سيدي بن هندة. كان قد طاف بالشرق كله وزار أروبا أيضا، إلا أنه كان يختلف عن الحاج أحمد في أنه بوصفه من سكان الخيام كان يفضل الرحلات مع القوافل على طريق الر، في حين أن الحاج احمد كان يكره السفر برا، ويفضل السفر بالباخرة على أي شيء آخر، وهذا واضح بالنسبة له إذا عرفنا أنه كان في أيام شبابه واحد من قراصنة البحر. ومن أجل هذا كانت رحلات سيدي بن هندة شيقة، لأنه كان يعاشر البدو والعرب من سكان الخيام في أغلب الأحيان، وحياة هؤلاء وأساليب معيشتهم لا تزال مجهولة نسيا لدى الأروبيين. فلم يتح أبدا لأي أروبي أن يقضي فترة طويلة يتعرف خلالها على الحياة في الخيام. حتى بوركهارت وغيره من الرحالين الشهيرين الذين حاولوا أكثر من غيرهم أن يحيوا حياة العرب، كانوا يعيشون اغلب أوقاتهم في المدن. فما أكثر الجوانب التي لا تزال مجهولة في حياة البدو! إن بعض الحكايات التي رواها لنا بن هندة تلقي بعض الضوء على تقاليد البدو. ولابد لي من أن أورد هنا إحدى هذه الحكايات.

إن الخيانة الزوجية تعتبر عند البدو عارا لا يمحى تقريبا. والعار يلحق بالرجل في هذه الحالة أكثر مما يلحق بالمرأة، لأن البدو ليس لديهم معنى محدد عن شرف المرأة.

ويزول هذا العار إلى حد ما عندما ينتقم الرجل من زوجته ويقتلها. ولا يستطيع في أغلب الأحيان معاقبة الجاني لأنه يفر من العقاب. إلا أنه غالبا ما يكون قتله لزوجته، ولو كانت مذنبة، خطرا على حياته، لأن أهلها كثيرا ما يرفضون الاعتراف بأنها مذنبة. أما إذا ثبتت الخيانة فإنهم يوافقون على قتل المرأة، فما من مسلم إلا ويعتبر الخائنة جديرة بالموت. غير أن الزوج لا يعثر على الشهود إلا في النادر، ومن ثم فإن الخيانة لا تثبت إلا بشهادتهم. وإذا قتلها دون أن يكون له شهود فإنه سيعرض حياته عندئذ لانتقام ذويها منه، وغالبا ما يكلفه الانتقام لشرفه حياته

ويعتقد ابدو أن الرجل الذكي هو الذي يعرف كيف يجمع بين هذين لشيئين اللذين يظهران متناقضين، أي قتل زوجته الخائنة والإبقاء على علاقته الودية مع أسرتها، وأن ينتقم لشرفه دون أن يعرض حياته لخطر الانتقام منه. وقد روى لنا بن هنده حكاية زوج من هذا النوع.

فقد كان الرجل يدعى الشيخ الوليد، وهو بدوي من أصل بربري، مثل الكثير من البدو، ثبتت لديه خيانة زوجته له، وكان يرى انه لا بد من قتلها، ولكنه لم يرد قتلها بنفسه حتى لا يعرض نفسه لانتقام أهلهامنه، وحتى لا يفقد الجهاز «وهذه فكرة جديرة بالبخلاء!»، ففي استطاعته في بعض الحالات أن يسترد المال الذي دفعه لأبويها. وغالبا ما يحدث أن تطلب المرأة الطلاق بصورة تلقائية دون أن يكون الرجل قد أساء إليها. وقد استطاع الشيخ الوليد بذكائه أن يبلغ هذا الغرض أيضا في خطته المحكمة، بمعنى أنه انتقم لشرفه بقتل زوجته ونجا من انتقام أهلها منه واحتفظ بالجهاز. ولبلوغ هذا كله استعمل الخطة التالية. لقد انتظر اللحظة التي اختلت فيها زوجته بغاويها، ثم فاجأهما وأفزعهما بظهوره المفاجئ. واعتقد الآثمان أنهما ميتان لا محالة، ولكن الشيخ الوليد دعاهما إلى العشاء وكأن شيئا لم يحدث وراح يحدثهما بلطف كبير. وعندما ذهب العشيق، قال الشيخ الوليد لزوجته :

- أرى انك تميلين إلى جارنا، وما أنا بغاضب عليك لذلك. فانا على يقين بأنها كانت نزوة عابرة وأنك في أعماق قلبك لا تحبين سواي. وأريد أن أتيح لك الفرصة لتستطيعي إرضاء نزوتك هذه. أطلبي الطلاق، وحين تصبحين مطلقة فإن عشيقتك سوف يطلب يدك دون شك، فتتزوجينه، إلا أني أطلب منك أن تعديني بشيء واحد. وهو أن تعانقيني، عندما امر بخيمتكم بعد سنة، كما كنت تعانقيني أيام كنت زوجك. هذا الوعد هو كل ما أريده منك.

وعدته المرأة بذلك، وقبلت بمشروع زوجها، وطلبت الطلاق. وعندئذ استعاد الشيخ الوليد الجهاز. وبعد الطلاق تقدم العشيق لطلب يدها وتزوج بها. وبعد مرور السنة مر الشيخ الوليد راكبا قرب خيمة منافسه. وحين رأته زوجته تذكرت وعدها له، واقتربت منه واستقبلته بحرارة، ولكن زوجها الجديد لم يكن بعيدا عنهما، فشاهد استقبال زوجته لزوجها السابق، فاستبدت به الغيرة. وأعماه الغضب فجرى إلى زوجته وضربها بخنجر، وذلك ما كان الشيخ الوليد يريده. وهكذا بلغ أهدافه. فقد استعاد الجهاز، وانتقم من زوجته الخائنة ونجا من المطالبة بالثأر. وكان زوج امرأته المطلقة آخر ضحية. ذلك أن أهلها لم يروا في استقبالها للشيخ الوليد خيانة. وهكذا انتقم الشيخ الوليد من منافسه أيضا بواسطة الآخرين. وهذه الحكاية ذات دلالة متميزة على عادات البدو.

وفي اليوم الثاني من رحيلنا عن غالمة تركنا عن يميننا سلسلة جبل بودريس بصخورها العظيمة المسننة وعن يسارنا سهل المغانة الذي يمتد حتى جبل محالبة، وهي منطقة صحراوية لا تخلوا من مناظر بديعة رغم أقفارها. وفي المساء وصلنا إلى قرية سوق أهراس الأروبية التي تقع في سفح جبل رسغون، وهي الآن قرية حقيرة، في حين أنها كانت في العصر الروماني، عندما كان أسمها ثغاسته Thagaste، ذات أهمية، وخاصة في

تاريخ الكنيسة المسيحية بوصفها مسقط رأس أسقف هيبو أوريليوس أغوسطينوس، الذي ولد هنا في 15 نوفمبر عام 354. وكان في أيام رجولته يقيم خلال فترات مختلفة في مسقط رأسه. فعند عودته من قرطاجنة، حيث عاش حياة غير مقدسة، أخذ يعلم بها البلاغة، وهو آنئذعلى دين المنوية، وكان من بين مستمعيه أليبيوس. ولما تم تنصيره بميلانو سنة 387 عاد أيضا إلى ثغاستة، فتميز في هذه المرة بزهده ونسكه. وأقام الثري الروماني بينيانوس، صديق القديس، بدوره مدة في ثغاستة، حيث أنشأ عشرة أديرة لمائتي شخص. وبعد ذلك أرغم أهالي هيبو بينيانوس على تقلد منصب القس عندهم، فوجب عليه أن يسكن هيبو.

ولم يذكر ثغاستة من الجغرافيين القدماء غير أنطونين في خريطة الطرق. وحسب هذا المصدر فإن ثغاستة تقع على بعد 58 معلما من هيبو. ويرى مانيرت أن هذه المسافة كبيرة. وهذا صحيح إذا نحن بحثنا عن ثغاستةفي المكان الذي ينقلها إليه مانيرت، فلا بد من البحث عنها في الموضع الذي يضع فيه مانيرت ثغورا Thagura. وتقدر المسافة بين عنابة وسوق أهراس بما يزيد قليلا عن سبعين كيلومترا، وهو ما يتفق مع الأربعة والعشرين معلما التي وردت عند أنطونيني.

ويعتقد غيسينيوس أن اسم ثغاستة مستمد من الكلمتين الفينيقيتين بيث أغاست، ومعناهما بيت الكنز.

وكانت المنطقة المحيطة بسوق أهراس تختلف عن المنطقة الجرداء التي كنا قد مررنا بها قبل ذلك. فالقرية الصغيرة تقع على ضفة وادي مجردة (وهو بغرادة Bagrada الروماني) المترقرق المياه. وتنمو أشجار الشمال من الدردار والحور على حواشي المياه الصافية، وكانت هناك أيضا جداول كثيرة تمتد فوق المروج الخضرتجعل المرء يتصور أنه نقل إلى منظر طبيعي أروبي تحت سماء إفريقية.

ويبدو أن القدماء كان لهم تصور مبالغ فيه عن حجم مجردة الذي تقع على ضفته ثغاستة، وهو على أية حال واد تترقرق مياهه، فتسعد سكان الجزائر، ولكن كمية المياه التي يحملها لا تزيد عن مياه جدول ألماني قوي. وهذا ما يجعلنا نستغرب حين نقرأ في كتاب الحرب الفينيقية Bellum Punicum لسيليوس ايتالكوس[1] Silius Italicus (الكتاب السادس ص 140) الأبيات التالية :

مجردة نهر موحل يتلوى ببطء

بين الرمال القاحلة، وليس هناك نهر

في مزارع ليبيا يشبهه في مد أمواجه الموحلة.

فهو إذن اكبر نهر في ليبيا أي في شمال غربي إفريقيا! إن الرومان كانوا يتوسعون جدا في مبالغاتهم الشعرية.

ويتكون سكان سوق أهراس من أجناس مختلطة. فقد استقر فيها التونسيون، الذين جليهم إليها الاطمئنان على أملاكهم في ظل الحكم الفرنسي. متخلين عن وطنهم القريب، كما استقر بها اليهود والميزابيون الصحراويون. وكانت نواة السكان الأروبيين الصغيرة بها سببا في نشأة حوالي مائة من البيوت الفرنسية، وقد سميت شوارع هذه المدينة بأسماء مستمدة من تاريخ نوميديا مثل شارع مصنيصا وشارع يوغرطة وشارع سيبيون. أما فيما يخص الآثار القديمة فإني لم أستطع اكتشاف شيء يستحق الذكر. ويقال غنه قد عثر هنا على نفش يخلد ذكر القديس اليبيوس، صديق أغوسطينوس وأسقف ثغاستة لعدة سنوات. وقد امتاز ليبيوس بفصاحته في مؤتمرات زعماء الكنيسة بقرطاجنة عام 403 و411 و 419. وكان كاثوليكيا بصفته صديقا لأغوسطينوس، إلا أن الدوناتية كانت تتمتع أيضا بعدد من الأتباع في ثغاستة.

(1) شاعر ملحمي روماني، عاش في القرن الأول الميلادي وكتب ملحمة عن الحرب البونية الثانية (م)

ووقع اختيارنا في سوق أهراس على المبيت في فندق يهودي من الأهالي يدعى ابراهيم، ولم يكن له في الحقيقة فندق منتظم، ولكنه كان يكلف نفسه عناء إيواء السواح النادرين الذين تقودهم أقدامهم إلى هذه الزاوية المهجورة في الجزائر، والاحتيال عليهم وكان يبدو عليه أن الاحتيال أصبح ضرورة بالنسبة له. فقد أدعى أنه سلب قبل فترة قصيرة من طرف عصابة من التونسيين، وكان من الطبيعي ألا يلحق به السواح أي ضرر بسبب ما وقع له. ولم يعرف أحد كيف بدأ التونسيون يقومون بأعمال السلب هذه في سوق أهراس، إذا لم يرهم أحد، ولم يعرف أحد عنهم شيئا، ولم يصدق أحد أنهم فعلو ذلك، ولكن اليهودي زعم أنه كان ضحية مشاريعهم الإجرامية. وتبعا لذلك امتنع عن دفع ديونه ورح يمعن في الاحتيال على السواح. وهناك من الأشرار من أدعى أن التونسيين المذكورين لم يكونوا غيره هو نفسه وزوجته وابنه وأن الأموال المسروقة قد أرسلت إلى قسنطينة لتعود عليه بفائدة تقدر بحوالي خمسة وسبعين في المائة، وذلك شيء عادي في الجزائر.

وكيفما كان الأمر فقذ لعب ابراهيم دوره على أحسن وجه وأكمله، وكان ابنه وزوجته يزودانه بأثمن النصائح. فكانت تبدو عليه المسكنة، وكانت صفيرتاه اليهوديتان تحملان طابع الحداد، وقد اعوج فمه فصار يشكل زاوية حادة، والدموع الحقيقية، لا دموع البصل، تسيل فوق خديه الشاحبين. فإذا كان ذلك كله مجرد نفاق، فقد ضاع في ابراهيم فنان ممتاز، والظاهر انه اخطأ طريقه إلى المسرح.

الفصـــل الســابــع

تيفــــاش

السفر من سوق أهراس إلى تيفاش - مداوري مونيسيبيوم - تيفاش - تبازا نوميدية - التعرف على المتشردين العرب - دلائل النهب الواضحة - زميلي يستدعي صبائحين للحراسة - مغادرة تيفاش - وادي مسكيانة - الالتقاء بقطاع الطرق - هروب الصبائحيين - الاستيلاء على أمتعتنا - كرم الأوغاد - قصر البوع - الشيخ الغريب - تبسة - الفشل في العثور على اللصوص.

واصلنا رحلتنا على كره كبير من أحمد في صبيحة اليوم التالي من وصولنا إلى سوق أهراس. فلكم كان يود أن يتعاطى كيفه لعدة أيام دون أن يزعجه أحد! إن هذا الشاب العربي الكسول لم يستطع أن يفهم لماذا نطوف بهذه المنطقة البعيدة عن المدينة. كان يأمل أن يصل بعد حين إلى قسنطينة، لان الولاية كلها، باستثناء عاصمتها، لم تكن تعني شيئا بالنسبة له. أما قسنطينة فكانت ستقدم له كثيرا من المقاهي العربية الملاهي، التي يقضي فيها أيامه يدخن السكائر ويشرب القهوة السوداء المحبوبة عشرين مرة في اليوم. وكم كان فزعه كبيرا عندما أخبرته بأننا سنقضي حوالي ستة أيام في هذه الرحلة قبل أن نصل إلى قسنطينة، أي ثلاثة أيام من سوق أهراس إلى تبسة ومثلها تقريبا من تبسة إلى قسنطينة مباشرة. فقد كان يرى أنه من العبث القيام برحلة من اجل مشاهدة «أحجار قديمة» وهذا هو الاسم الذي كان يطلقه على الآثار الرومانية. وهكذا جلس ابن الجزائر الكسول بوجه حانق فوق ظهرالبغل،وهو الذي تعود على حياة المدن الماجنة، وسار معنا في اتجاه تيفاش.

وتبعنا من أول الأمر مجرى مجردةوكانت على ضفته أدغال عالية، اصطفت صفين طويلين، تغطيها أزهار حمراء رائعة، نباتات البقيل،

وكان الكثير منها قد ذبل طبعا، غير أن البراعم الطويلة الحمراء كانت ترتفع هنا وهناك وتحيط بالوادي كأنها كرات حمراء. وكان وادي مجردة يجر شريطه الفضي في سفح جبل مداوروش، الذي كان يعرف في القديم باسم مداوروس، بل كان مشهورا، فعلى ظهره كانت تقع مدينة Madouri Municipium (وهي مداوروس بطليموس)، التي ولد فيها أبو ليبيوس[1] Apulejus وعاش فيها القديس أغوسطينوس أيام دراسته. والمعروف أن كبير آباء الكنيسة كان في أيام شبابه فتى ماجنا، لا شك أن مداوروس كانت مسرحا لكثير من آثامه الصغيرة. ذلك أن شجرة الكمثري على الأقل، التي نهبها أيام دراسته واعتبرها هو نفسه في اعترافاته ذنبا أخلاقيا، كانت تقع في هذه المنطقة. وكان بعض سكان مداوروس من الرومان الأصلاء على وثنيتهم حتى القرن الخامس.

ويذهب مانيرنت إلى أن مداوروس أبو ليبيوس ليست هي مداوروس أغوسطينوس. فهذا الجغرافي الكبير يبحث عن مسقط رأس ألو ليبيوس في مدينة ادميترام Ad meteram الواقع قرب ثيفسته Theveste، معتمدا في ذلك على شو الذي يصف آثار مداوروش قرب ثيفسته، غير أن شو يعتقد أن تيفاش هي ثيفسته لا تبسة. ولذلك يمكن أن تكون مداوروس هي آثار تلك المدينة الرومانية التي يصفها شو واعترف أني لم أرها، غير أن العرب أكدوا لي أنها محاطة بآثار الأسوار وهذا يتفق مع معنى المستعمرة العسكرية، وقد كانت مداوروس مستعمرة عسكرية. فابوليبيوس يقول عن مسقط رأسه مداوروس[2]:

على غرار أسرفنا الجنود أنشأنا مستعمرة جديدة مزدهرة.

---

(1) شاعر واديب روماني، ولد في مداوروش بالجزائر، ودرس بها، ثم اكمل دراسته في اثينا، عاش في القرن الثاني بعد الميلاد ومن اشهر مؤلفاته رواية الحمار الذهبي التي نشرت ترجمتها الثانية عام 2001

(2) Deimceps veteranorum militum mova condictu splendissima colonia sumus

واسترحنا عند الظهرة في تيفاش، وهي قرية صغيرة، اعتبرت نفسته لمدة طويلة بسبب مشابهتها في الاسم للمدينة الرومانية. أما اليوم فلم يعد هناك شك في أن تيفاش تقع في موضع تيبازا النوميدية Tipaza Numidia في حين أن نفسته يجب البحث عنها في تبسة الواقعة بحوالي درجة تقريبا في الجنوب. وما كان ليقع في هذا الخطأ ذلك الذي يعرف التحريفات التي لحقت الأسماء الرومانية في أفواه العرب، لأنه يعرف أن العرب يقلبون الباء الفرنجية فاء، كما يقلبون الفاء الفرنجية باء. وتحويل تيبازا إلى تيفاش وثفستة إلى تبسة مطابق لهذا القاعدة. ويوجد بين الاسم الروماني تيبازا وبين تيفاش اليوم الاسم العربي الذي ذكره البكري وهو تيفاش. ومن ثم فإننا نستغرب كيف وقع أبو الرحالين الإفريقيين في الخطأ المذكور آنفا، الذي تبعه فيه الكثيرون، ومنهم أسقف الجزائر المعزول Dupuch في كتابه «السجل المقدس للكنيسة لافريقية».

ولم يتحدث بطليموس عن تيبازا، فهو لا يعرف غير تيبازا الموريطانية. أما خريطةالطرق واللوحة البويتينغية فقد ذكرت كلاهما تيبازا النوميدية. فتذكر خريطة الطرق بأنها تبعد عن قرطة بثلاثة وتسعين معلما، وهذا صحيح إلى حد ما، فالمسافة بينهما تبلغ مائة وثلاثين أو مائة وأربعين كيلومترا. ولا تتحدث اللوحة البوتينغية عن المسافة بينها وبين قرطة، مع أنها تصف طريقا يمر بعنونة وعين البابوش وكبريريا Capreria ويصل قرطة بتيبازا، ولكن اللوحة، كما ذكرت، نسيت أن تحدد لنا المسافة بين كاستيلوم فابتيانوم وبين قرطة، بحيث إن ذلك جعل من الصعب تقدير مسافة هذا الطريق.

واسم تيبازا مشتق في رأس غيسينيوس من الفينيقية، ومستمد من بيث إيفاس، التي تعني «بيت الذهب». وعلى هذا فإن اسم تيبازا قريب من اسم تفاست »بيت الكنز.«

وكان كل ما بقي من تيبازا النوميدية لا يتجاوز آثار كومة من مقطع الحجر، الذي استمد منه الرومان مواد البناء، وكانت الصدف قد جمعتها.

وتذكر تيبازا النوميدية على أنها أسقفية، وقد ذكر أسقفها فيرموس Firmus في اجتماع زعماء الكنيسة الذي عقد بالقسطنطينية عام 553، ولم يحضره إلا القليل من الأساقفة النوميديين. وهذا يدل على ما كان لتيبازا النوميدية من أهمية.

وتقع تيفاش في أخصب وهاد ولاية قسنطينة، ولكن حقولها كانت تبدو مهملة، والظاهر أن القبائل التي تعيش حولها قد فضلت تربية المواشي.

وكان بعض البدو المهلهلو الثياب قد جلسوا فوق أنقاض المدينة القديمة. وعندما رأونا ندخل القرية، انفصل عنهم أحدهم وأقبل نحونا مسرعا. وبعد أن تبادلنا كلمات باللغة الفرنجية مثل ابونو فرنسيس، بونو بزافب[1]، بدأ يسألنا إن كنا نفهم العربيةأجبنا على سؤاله بالإيجاب وليس ذلك لأننا كان معنا عربي فقط وإنما لأني كان في وسعي أيضا أن أتكلم العربية بطلاقة إلى حد ما. غير أن زميلي اللطيف في الرحلة رفض أن يدع الكلمة لا لأحمد ولا لي أنا. فقد دفعه غرور يمكن التجاوز عنه ولاشك أنه أراد أن يطلعنا على معارفه اللغوية التي لم تكن معروفة لدينا حتى تلك اللحظةإلى أن يبدأ الكلام هو نفسه وباللغة العربية. وقد أكد لي فيما بعد على الأقل أنه تكلم بالعربية وأنه كان قد تعلم ذلك الخليط في باريس دون عناء كبير. ولكن العرب لم يفهموا كلمة واحدة مما قاله. وبعد أن نظروا إليه مندهشين، لتفتوا إلى أحمد وطلبوا منه أن يترجم لهم ما قاله، فقد تصور أولئك البسطاء أنه كلمهم بالفرنسية. وعرفنا فيما بعد أنه تكلم بالعربية الفصحى. وقد فهم بعض العرب الذين انضموا إلينا بعض الكلمات، وقالوا أنها عربية حقا، ولكنها ليست من العربية التي

(1) Bono Froncis , Bono Besaff

يفهمها الناس. ولم يفهمها احمد نفسه، ومن ثم لم يستطع تبعا لذلك ترجمتها. وانطلق هو نفسه يحدثهم، فعرف منهم أنهم لم يحدثونا إلا ليحذرونا من سلوك هذا الطريق، ذلك أن منطقة ما بين تيفاش وتبسة غير مأمونة العواقب. غير أن أحمد لم يفهم الغمزة التي صدرت عن محدثه واستنتجت أنا من ذلك أن هؤلاء اللصوص الذين يحذروننا منهم هم نفس معارفنا الجد. وسوف يرى القارئ فيما بعد أنني لم أكن مخطئا. كان الرجال الطيبون يريدون أن يأخذوا منا ضريبة المرور هناك حتى لا يكلفوا أنفسهم مشقة الترصد لنا في الطريق.

كانوا يريدون من خلال تلك الغمزة، التي لم يفهمها أحمد، أن يعقدوا صفقة معنا. وأخبرت الفرنسي بظنوني، وكنت أعرف، من التجارب المماثلة التي وقعت لي في الشرق، أنه من الحكمة أن نستجيب لرغبتهم وندفع لهم الجزية في عين المكان، ولكن زميلي في الرحلة، وهو ابن أصيل لفرنسا، أثارته جرأة اللصوص ووقاحتهم. وكان يفضل أن يتم الهجوم عليه ويدافع عن نفسه ببسالة على أن يدفع مثل هذه الجزية المهينة، ثم اعترف بأننا، وعددنا لا يتجاوز الثلاثة، لا نستطيع الوقوف أمام هؤلاء البدو اللصوص. ولذلك أعلن انه على استعداد للذهاب إلى سوق أهراس ليطلب من قائد المكتب العربي أن يرسل معه صبائحيين لحراستنا.

فلم نكن نتوقع أننا سنكون خلال هذه الرحلة في حاجة إلى الصبائحي المحتم، لأن أحمد كان قد قام بمثل هذه الرحلة، وتبعا لذلك كان في إمكانه أن يكون دليلنا، والصبائحي لا يفيد في أي شيء غير أن يكون دليلا.

كنا إذن دون حراسة عسكرية، وكان من صالحنا أن نبقى كذلك، لأنه كان من الصعب أن يتلقى المرء حماية من الصبائحي وكان علي أن أعد زميلي في الرحلة بأني سوف أنتظره في تيفاش إلى أن يعود ومعه الصبائحي. وهكذا عزمت على قضاء فترة ما بعد الظهر والليل في بيت عربي صغير،

لأنه كان من المستحيل مواصلة الرحلة في ذلك اليوم، فالسفر إلى سوق أهراس ذهابا وإيابا كان يتطلب يوما كاملا تقريبا. ولكي نبعد عنا السأم والملل، ذهبنا أنا وأحمد إلى «قربى»، كان عبارة عن مقهى عربي، وإذا بي أجد نفسي وسط اللصوص. وهنا لم يكتفوا بالإشارة والغمز للتعبير عن نواياهم الحقيقية. فعندما وصلنا، كانوا خائفين من وصول صبائحيين آخرين، لا لأنهم كانوا خائفين منهم خوفا كبيرا، وإنما لأنهم كانوا يريدون أن يتجنبوا أي شخص يكون شاهدا على ما ينوون فعله. ولم يكن هؤلاء الشبان مجردين من العاطفة، فقد كسبتهم إلى جانبي عندما ذكرت لهم بأني كنت موافقا على إعطائهم مبلغا من المال بدل إحضار صبائحيين، سوف لن يكون وجودهم، كما اتضح لي، ذا فائدة بالنسبة لنا.

وعاد الفرنسي في ساعة متأخرة من الليل مع صبائحين. فسألته :

ـ هل تعتقد أن هذين الشابين سيفيداننا كثيرا.

فأجاب :

ـ أعتقد أن العرب جميعا يخافون من كل رجل يرتدي البزة الرسمية الفرنسية.

فاعترضت قائلا :

ـ قد يكون هذا صحيحا بالنسبة لأقسام أخرى من بلاد الجزائر. أما هنا فإننا قريبون جدا من الحدود التونسية. فاللصوص لا يحتاجون إلى أكثر من نصف ساعة لعبور الحدود على ظهور البهائم، فكيف يستطيع الصبائحيون مطاردتهم ؟

ـ ولكنهم سيدافعون عنا على الأقل ؟

ـ أتعتقد ذلك؟ على أية حال ستتاح لنا الفرصة قريبا للتأكد من شجاعتهم.

وفي الصباح غادرنا تيفاش برفقة الصبائحيين اللذين احضرا لحراستنا. وتبعنا مجرى واد، سمي باسم القرية، وسرنا عبر سهل خصب، تقطنه قبيلة سيئة السمعة،هي قبيلة أولاد سي موسى، ووصلنا عند الظهيرة إلى عين غرمات، فشاهدنا قربها بعض الآثار الرومانية منتصبة وسط أدغال من النخل الصغير ، ولم تكن لها أية أهمية. ولا يعرف لأية محطة تنتمي. وبعد ذلك أنحنى طريقنا نصف انحناءة حول سفح جبل ترغويلت، وأفضى لا بنا إلى سهل العرقوبية القفر. وكانت هناك ثلاثة وديان تشق هذه المنطقة الجرداء : وادي جدي الصغير، ووادي الشراقة، ثم وادي الملح، الذي أخذنا مجراه حتى مصبه في وادي مسكيانة. ويمتد وادي مسكيانة في عظمة وببطء نحو قصر البوع، وهو قرية صغيرة، قضينا فيها ليلتنا. إلا انه كان علينا أن نعيش مغامرة خطيرة جدا قبل أن نصل إليها.

لم نكن قد وجدنا أثرا للصوص حتى ذلك المكان. أتراهم خافوا حقا من الصبائحيين؟ كان زميلي في الرحلة يعتقد انه كان على صواب حين ذهب لإحضارهما، وكان فخورا بذلك، إلا انه لم ينعم بذلك لمدة طويلة. فبعد أن عبرنا وادي الملح عند مصبه في وادي مسكيانة بفترة قصيرة، هاجمتنا فجأة مجموعة من الفرسان المتدثرين بالبرانيس، فعرفت اللصوص في الحين. وكانت نيتهم واضحة. وتأهب الفرنسي لإطلاق النار، ولكني انتزعت المسدس من يده تصرف مني أنقذ حياتنا، فلو سالت قطرة دم عربي لكانت حياتنا ثمنا لها. فأية مقاومة لا جدوى منها في مثل هذه الحالة! فقد كان عدد البدو أكثر من عددنا بكثير، ولم يكن في وسعنا أن نتكل على أنفسنا، وألا نتكل على الصبائحيين واقل من ذلك على احمد. كان الصبائحيان قد فرا بجواديهما، وهما المدافعان الرسميان عنا، بمجرد أن اقترب اللصوص منا. واختفى احمد في دغل، فأخرجه البدو منه وهم يضربوه بمكابس البنادق، واخذوا منه ساعته وجردوه من

ماله، ولاقينا نفس المصير، ولكن دون أن نتلقى مكابس البنادق. ولم أقاوم وتركتهم يسلبونني، وتعقل زميلي في الرحلة فتركتهم يفعلون به ما فعلوه بي. كان فرار الصبائحيين، اللذين اعتمد كثيرا على شجاعتهما وجرأتهما في الدفاع عنه، ذلك الفرار، الذي حدث فجأة، قد أدهشه فلم يبد حراكا وكأنه قد تحجر. ومن المؤكد أنه كان قد اعتمد على شجاعة هذين الجريئين!

وجردنا اللصوص من المال والساعات والخواتم، باختصار من كل ما يحتوي على الذهب والفضة وتكرموا علينا فتركوا لنا بغالنا وأمتعتنا. وسأل اللص، الذي تحدث باسم عصابته في اليوم الماضي، سأل الفرنسي ساخرا عما إذا كان الصبائحيان قد أفاداه في شيء، ولكن بما أن السؤال لم يطرح باللغة العربية، التي تعلمها زميلي في باريس، فإنه لم يستطع فهم هذه السخرية! وكنا نظن أن اللصوص قد ابتعدوا عنا، وإذا بأحد البدو يعود إلينا بسرعة ويقدم لناوهو ما اندهشنا له كثيرا ثلاثة دورو، خمسة عشر فرنكا تقريبا، من المال المسروق، وأخبرنا أن ذلك لم يحدث إلا لأني سبق لي أن أعلنت استعدادي لدفع الجزية إلى سادة الطرق وهذا هو الاسم الذي يطلقه اللصوص على أنفسهم في تيفاش. ولو عمل زملائي بنصيحتي في ذلك الحين لبقيت لنا الآن ساعاتنا وقسم من أموالنا، وما كان ذلك ليكلفنا أكثر من قسم مما معنا من مال. كان هذا ما قاله لنا اللص.

ولم تكن الخمسة عشر فرنكا هذا، التي تفضل اللصوص بها علينا، في غير محلها، إذ لم يكن في وسعنا الحصول على قليل من المال إلا في تبسة، وقد كنا بعيدين عنها بمرحلة. وهكذا بقينا في الخلاء ونحن في حالة من الضيق شديدة. ولم نجد من نشكو إليه، ذلك أن الصبائحيين كانا قد اختفيا بصفة نهائية. وكان زميلي في الرحلة خجلا من نفسه ولم ينطق بكلمة واحدة. أما احمد فكان قد أحنى رأسه وراح يحك ظهره بين وقت

وآخر في المكان الذي ضربه فيه إخوانه في الدين بمكابس بنادقهم وتركوا فيه بقعا كبيرة زرقاء. وواصلنا رحلتنا بوجوه مكسوفة في اتجاه قصر البوع الذي وصلناه في المساء.

وكان قصر البوع قرية صغيرة حقيرة، يسكنها الأهالي، ولم نعثر على مبيت فيها إلا بشق الأنفس. والغريب أن أحدا لم يصدق المغامرة التي عشناها في الطريق. وقد غضب شيخ القرية عندما روينا له الحادثة. وأدعى أننا نبالغ في الأمر. وعرفت فيما بعد أنه أخبر السلطات في قسنطينة بتفاصيل الحادثة، ولكنه رواها كما لو أنها حدثت في منطقة أخرى غير منطقة نفوذه.

وكان احمد قد أصيب برعب، جعله يمضي إلى فراشه والحمى تهز أوصاله.

وفي اليوم الثالث من مغادرتنا لسوق أهراس بلغنا تبسة، حيث شاء حسن طالعي أن أتمكن بواسطة خطاب اعتماد موجه إلى بقال فالباقون هم الصرافون الوحيدون في الأماكن النائيةمن أن أملأ من جديد جيوبنا الفارغة. وسكنا عند البقال المذكور أيضا، لأن تبسة لم يكن بها فندق، وتناولنا طعامنا معه ومع أسرته في قاعة الأكل، أي في البقالة.

وكان من الصعب علينا أيضا أن نقنع أهل تبسة بحقيقة ما وقع لنا، ولم يعتبر أحد شهادة أحمد، وقيل إنه يكذب لكي يقدم له المكتب العربي تعويضا عن ماله المسروق. وكنت أعرف عدالة المكتب العربي بما فيه الكفاية، وأعرف أن التعويض مجرد هم، وأن الأموال المسروقة قد ضاعت بصفة نهائية، ولذلك لم أقم بأي شيء من أجل مطاردة اللصوص. فقد كان أولئك الطيبون قد أصبحوا دون شك في أمان، ومن المرجح أنهم كانوا ينتظرون خلف الحدود التونسية الفرصة المناسبة للقيام بالعملية نفسها



الفصل الثامن

تبسة

تفستة القديمة - أصل سكانها الروماني - الإقامة في دكان بقال - رومي محنط - بناية رومانية - قلعة ياتريسيوس سالمون - الكنيسة - تاريخ الكنيسة - البقال الأثري وإلهة الجمال فينوس.

قد تكون تبسة الأثر الذي تركه ملوك الأرض القدماء في إفريقيا دليلا على حكمهم. وفي استطاعة المرء أن يمنح هذا الحق للامبيسا أيضا، ولكن لامبيسا عبارة عن كوم من الحجارة، في حين أن تبسة تذكرنا بسادة العالم لا ببناياتها فحسب، وإنما بسكانها أيضا. فهناك شعب غريب يعيش في هذه المدينة الأثرية، فليس له قرابة مؤكدة بالقبائل البربرية والقبائل العربية المجاورة، ويبدو إلى ذلك مقطوع لعلاقة بسكان الولاية المسلمين، ويقال انه يفخر بانتمائه إلى رومة الماجدة، مدينة التلال السبعة. والواقع أن عاداته وتقاليده وأسلوب معيشته، بل حتى ملامحه تختلف عن ملامح جيرانه عاداتهم وتقاليدهم. ومن يستطيع أن يبرهن على أنهم مخطئون حين يعتقدون بأنهم من أصل روماني؟ وكيفما كان الأمر فهناك حقيقة تظل قائمة، وهي أن هؤلاء الناس، رغم أنهم مسلمون مثل جيرانهم، يفخرون بأنهم ينتمون إلى ذلك الشعب الوثني العظيم، الذي يحتقره المسلمون بصورة عامة.

وعندما استولى الفرنسيون على هذه المدينة القديمة سنة 1842، وجدوا القطع النقدية الرومانية لا تزال متداولة بين السكان. من الطبيعي أن تكون لغة أحفاد أبناء لاتيوم Latium قد تراجعت أمام لغة العرب وديانة العرب، ولكن هؤلاء الناس يتمزون عن بقية المسلمين على الأقل بأنهم يعرفون عمن يتصورونهم أجدادهم وأن كلمة الرومي (الروماني) لا تعني عندهم

الأروبي، وهذا هو مفهوم هذه الكلمة عند العرب.

لم أر في حياتي ما يداني تبسة في أصالتها، فهي مدينة قديمة، ولها دور قديمة لا تزال مسكونة كماكانت في أيام الشعب الملكي! لقد كانت بيوت تبسة كلها رومية الأصل، إما لأنها بنيت فوق الأسس القديمة بمواد الآثار الرومانية، وإما لأنها جزئيا بيوت رومانية حقيقية.

وكانت البقالة، التي سكنت فيها، بيتا رومانيا قديما، وقد أصبح الآن طبعا من الصعب معرفة أن الفضل في وجودها يعود إلى قاهري يوغرطة، إذ كان الفناء قد غطى وحوّل إلى بقالة، أما الفناء الداخلي فقد اتخذ بصورة مبتذلة حظيرة للخنازير. وكانت الأعمدة، إن كانت له أعمدة فلم نر أيا منها قد غطيت بالأجر الحديث، ومع ذلك كانت منزلا رومانيا ولو انه كان مفرنسا.

وكان البقال نفسه يعرف من هم الرومان! وقد دل على اثر الإشعاعات الأثرية التي صدرت حتما عن هذه المدينة القديمة. فأي بقال في مدينة أخرى غير تبسة كان يمكن أن تكون له فكرة، ولو كانت باهتة، عن تاريخ العصور القديمة ؟ لكن هذا البقال كان من تبسة، المدينة الرومانية!

حين خرجنا لأول مرة كان في نيتنا أن نكون لأنفسنا فكرة عامة، انطباعا أوليا عن هذه القطعة الرومانية. وسرنا بين صفين من البيوت المنخفضة، التي كانت تنم عن أصلها رغم ما لحقها من فرنسة، ثم جلسنا في مقهى عربي لنفحص السكان هنا أيضا بصورة دقيقة ونعرف ما إذا كانوا يمثلون الرومان.

قال لي زميلي في الرحلة :

_ أنظر إلى ذلك الشيخ! ألا يمكن أن نقول إنه مايوس فوق أنقاض قرطاجنة؟

وكان الرجل العجوز جديرا بالرؤية حقا، فقد كان جالسا فوق كومة من الأنقاض القديمة إذا كانت هناك بيوت كثيرة تقوم في تبسة فإن هناك بيوتا أكثر منها لا تزال تحت الردم بملامحه الرفيعة. وكان رأسه عاريا، وله جبين مفكر نبيل، تلتمع تحته عينان جريئتان عن الرغبة في السيطرة وكان فمه نبيلا صامتا، وشفتاه متناسقتين، وأنفه شديدا الانحناء. وكان جسمه نصف تمثال لهيركوليس، يرتفع فوقه رأس برياموس. وكانت ثيابه عبارة عن مزق مزركشة لم فيها جسمه، حقا لقد كان مجرد شحاذ، غير أن العزة الرومانية كانت تنطق من ملامحه الجائعة. وقام زميلي في الرحلة وقدم له قهوة، فأخذ العجوز القهوة بنظرة تليق برجل يريد أن يقول :

-إني لأنعم عيك، أيها الغريب حين آخذها منك.

لقد كان الشيخ رومانيا محنطا، بقي على قيد الحياة بشكل عجيب، ولكنه - للأسف كان الممثل الوحيد للجنس الروماني، الذي استطعنا اكتشافه في تبسة. أما السكان الآخرون الذين استطعنا تأملهم فكانوا يشبهون العرب والبدو المقيمين في المنطقة من حيث ملامحهم تماما. ولم يكن هذا أمرا عجيبا حتى ولو كانوا حقيقة من أحفاد الرومان، فمما لا شك فيه أن الأهالي كانوا يختلطون بسكان المستعمرة. وقد تحدث سترابون عن النوميديين الأصلاء وقال عنهم أن أشكال وجوههم تشبه أشكال وجوه العرب إلى حد كبير.

والحديث عن الآثار الرومانية المفردة، التي لم ينضم إليها حجر واحد على الطريقة الحديثة، يتطلب وضع سفر كامل. وكانت البنايات الرئيسية تتمثل في باب روماني لا يزال سليما، ومعبد، يشبه معبد نيمسيس، أطلق عليه اسم الدار المربعة،وعدد من الحمامات الرومانية، تشبه حمامات كركالا Caracalla في رومة، ثم كنيسة، وقبل كل شيء قلعة هي عبارة عن كتلة جبارة من الحجارة، تشكل بأشكالها العظيمة وأسوارها ما يشبه

المدينة، ويمكن قراءة تاريخ تبسة من حجارة هذه القلعة، لا من نقوشها فقط وإنما من تركيب موادها، التي جمعت من بقايا البنايات المهدمة في فترات مختلفة.

وكانت مدينة تفستة، التي أمر القيصر هادريان وإليه سوكوندوس ميتلوس secundus Metellus ببنائها،في أيام الحكومة الرومانية، قد هدمتها القبائل النوميدية الثائرة أكثر من مرة، ولكن الرومان كانوا يعيدون بناءها دائما. أما الفندال فقد هدموا القلعة وكذلك التحصينات وأسوار المدينة، ثم تركوا المستعمرة الرومانية التعسة تحت رحمة القبائل الأهلية. وللتغلب على هذا الوضع بنى باترسيوس سالمون، باني القلاع في إفريقيا، بعد سقوط الحكم الفندالي القلعة البيزنطية التي لا تزال قائمة إلى اليوم. ونظرا إلى أنها بنيت بسرعة لشدة الحاجة إليها، فقد أهمل الفن فيها إهمالا تاما كما هو الحال قي باقي البنايات التي أقامها بارتريسيوس النبيل، هذا مع أن الفن المعماري كان قد تدهور حينئذ إلى حد كبير. ومع ذلك فإن قلعة تفستة جميلة بفخامتها ولو أنها تبدو بالنسبة لشكلها وأسلوبها مسخا معماريا. وهي مثل جميع بنايات خليفة بيليسار،عبارة عن خليط من مواد البناء المأخوذة من بنايات العصور السابقة كالأعمدة الرومانية التي تعود إلى فترة ازدهار الفن، والنقوش التي ترجع إلى عهود إقامة المستعمرات الهامة. والحجارة المربعة المستمدة من أسوار الثكنات وأعمدة المعابد النوميدية، ثم الأعمدة الرديئة التي تعود إلى الفترة المسيحية الفقيرة إلى الفن المعماري، فخلط كل ذلك دون نظام، وأصبح يكون كلا، كان الغرض منه المحافظة على سلطة رومة الشرقية المنهارة في منطقة يحيط بها الأعداء. والغريب أن العرب لم يهدموا هذه القلعة فيما بعد. إنها لم تزل إلى اليوم قائمة، لم يكد يلحقها أي ضرر تمثال ناطق على تدهور الفن المعماري في العصر الذي بنيت فيه وعلى تاريخ الحكم البيزنطي، وهو تاريخ قليل الأمجاد طبعا.

وتتكون القلعة من قسمين رئيسيين، احدهما منفصل عن الآخر، ولا يصل بينهما غير الجدار الدائري الذي يجعل منهما كلا واحدا. وقد تعرف العلماء في أحدهما، لشبهه بالبنايات الرومانية الأخرى المقامة لنفس الغرض، على الثكنة البيزنطية، أما القسم الآخر فكان، كما يتضح من النقوش التي عثر عليها هنا، ديرا محصنا. إنه لعلامة مميزة لهذا الشعب من رجال الدين المهملين، للبيزنطيين، هذا الشعب الذي نسي خليطه المحبوب كلما كان الأمر يتعلق بالحديث عن الكلمة أو عن طبيعة المسيح المزدوجة، هذا الشعب من الرهبان والقساوسة أن يقام دير في قلعة مدينة كبيرة حصينة وأن يكون من أهم أقسام مساكن جنودها، من أهم أقسام القلعة! كان الرهبان والجنود يعيشون في حصن واحد! وربما كان الرهبان أشد إقبالا على الحرب من الجنود، وهؤلاء أكثر رهبة من الرهبان، بمقتضى ما نتج عن انحراف الأمة البيزنطية عن أصلها. ولم يبق من البروج الكثيرة، التي تنتصب فوق السور الدائري، سوى اثني عشر برجا.

ويرى البعض أن هذه البروج قد قصد بها السيطرة على الساحل التي يحيط بها السور وتهديدها أكثر مما قصد بها الدفاع عن الناحية الخارجية. ويفترض الأثريون القائلون بهذا الرأي أن البيزنطيين كانوا غالبا ما يخشون أن تحدث اضطرابات في فناء الدير عند تجمع سكان المنطقة فيه أيام الآحاد. والظاهر أن هؤلاء الأهالي، مثل جميع النوميديين، كانوا سطحيي العقيدة، وفيهم من لم ينتصر أصلا. لقد كانوا يتوجهون إلى القلعة بدعوى أنهم يريدون زيارة الكنسية ويستمعون إلى الخطب الدينية التي يلقيها الرهبان، ولكنهم في الحقيقة كانوا يحاولون الاستيلاء على الدير ومعه القلعة من الداخل. ولذلك أقيمت تلك البروج الموجهة إلى الداخل . وهذا الرأي صحيح إلى حد ما، ولكني لا أستطيع أن أقتنع بان إقامة البروج على هذه الصورة الإستراتيجية له ما يبرره. فقد عرفت تلك

الفترة أديرة كثيرة. منها الدير المشابه له، ولكنه أكثر شهرة منه، والواقع قرب قرطاجنة، الذي كان قد التجأ إليه عام 545 حاكم أفريقيا أريوبندوس Areobindus فرارا من الثوار النوميديين.

ووجدت كنيسة تبسة المسيحية سليمة أيضا إلى حد ما. وكان لها صفان من الأعمدة، وصحنان ينتهيان بحنايا، وهي ذات شكل يشبه قاعة محكمة رومانية.

ولم يعد هناك شك في أن موقع تفستة هو موقع تبسة وقد ورد في خريطة الطرق أن المسافة بين قرطة وتفستة تقدر بمائة وسبعة وثلاثين معلما، وهذا يطابق تماما القياس الفرنسي الجديد الذي يحدد المسافة بين قسنطينة وتبسة بمائة وثمانية وثمانين كيلومترا. أما بطليموس فيفترض وجود فرق بين قرطة وتبسة ويقدر بـ 30,40 درجة من خط الطول.

ولكن تبسة تقع على بعد درجة ونصف فقط شمال قسنطينة. ولذلك لا بد من اختصار ما أورده هذا الجغرافي إلى النصف، كما سبق لي أن أشرت إلى ذلك فيما تقدم.

ويشتق غيسينيوس اسم تبسة من الكلمتين الفينيقيتين «بيت أبيست» ومعناهما: «بيت الجفاف»! بوهو حقا لا يزال مناسبا لمدينة تبسة حتى يومنا هذا.

وقد لعبت تبسة دورا مهما في تاريخ الكنيسة، وليس ذلك لأن مؤتمر الدوناتيستيين كان حسب ما ذكره القديس أبتاتوس Aptatus قد عقد فيها. وإنما لان عددا من قديسي الكنيسة الكاثوليكية كان قد استشهد فيها. ويعتبر كريسينا، الذي قتل عام 304 ولا يزال مقدسا في ايطاليا، والقديس مكسيمليانوس، الذي قتل أيام ولاية ديون عام 295، من أشهر شهداء مستعمرة تبسة. كانت تبسة أسقفية منذ عام 255.

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء اربعة من اساقفتها.

وقادتنا نزهة، قمنا بها في نواحي تبسة، إلى مقطع للحجر واسع جدا. وهناك وجدنا أعمدة، لم يتم منها غير نصفها ولا شك انها كانت مخصصة للأبنية الرومانية الفاخرة، وقد بقيت قائمة كما تركها أزميل الشعب الذي كانت له السيادة على العالم. وكانت الحجارة المفردةالملقاة على الأرض مغطاة بالدبال، الذي يعلوه جيش من النباتات الصغيرةفزنبقة يوكا المجيدة الشبيهة بنخلة صغيرة ترفع راسها، والبروق المداد، المقسم إلى ثلاثة فرع أو أربعة، ينشر أوراقه الشبيهة بالقصب، ويفتح براعمه الحمراء التي تشبه الجوشن من حيث شكلها، وقد تناثر بينها الزعتر الذكي الرائحة ورقيب الشمس.

ويتحدث ليوافريكانوس عن شعب من الجبابرة، كان يعيش قرب تبسة. ولعل خيال العرب المحب للأساطير قد استنتج من غرف مقطع الحجر الكبيرة أن شعبا جبارا كان يعيش فيهما.

كنا جالسين في البقالة، وهي المطعم الوحيد في تبسة، حين سألنا البقال :

- والآن؟ هل رأيتم آثار مدينتي الرومانية.

لقد وصف البقال الخبيث تبسة بأنها مديته الرومانية. قال صديقي في الرحلة :

- إنها في غاية الأهمية.

فقال البقال في زهو :

- حقا. ولكنكم لم تشاهدوا بعد أجمل ما في تبسة ؟

سألناه في فضول

- وما هو أجمل ما تبسة ؟

فقال البقال :

ـ انه تمثال لإلهة الجمال فينوس، اكتسفته بين الآثار واحتفظ به في إناء شراب السكر الفارغ.

وأخرجه من إناء شراب السكر. فماذا رأينا ؟ رأينا تمثالا مصفرا معوجا مصنوع من الورق المقوى، وقد استطعت أن أرى فوقه علامة، تدل على المكان الذي صنع فيه كان قد صنع في مدينة نورنبيوغ!..

محتويات الكتاب

مكتبة د. أبو العيد دودو

5

* ثلاث سنوات في غربي شمال أفريقيا ج1

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - 1981

* ثلاث سنوات في غربي شمال أفريقيا ج2

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - 1979


ISBN 978-9961-67246-4

طبع هذا الكتاب بمساهمة وزارة الثقافة

الجزائر - 2008